تاريخ الدولة الفاطمية

تأليف

الدكتور محمد جمال الدين سرور

أستاذ التاريخ الإسلامي

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الإدارة: ٩٤ شارع عباس العقاد ـ مدينة نصر

ت : ٢٦٣٨٦٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدير ووفاء

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وبعد؛ فهذا كتاب يتناول تاريخ الدولة الفاطمية وسياستها الخارجية يتجلى لنا فيه مدى نجاح الفاطميين فى نشر دعوتهم وإقامة خلافتهم فى المغرب والأحوال الداخلية فى مصر قبل أن يمتد إليها سلطان الدولة الفاطمية والجهود التى بذلها الفاطميون فى سبيل بسط سيادتهم على مصر واتخاذها مقرًا لخلافتهم، والحركات السياسية والدينية التى ظهرت فى العصر الفاطمى الأول بمصر، وازدياد نفوذ الوزراء وما ترتب عليه من نتائج فى العصر الفاطمى الثانى وتطور نظم الحكم والحضارة فى مصر على عهد الدولة الفاطمية.

وأوضح المؤلف فى هذا الكتاب أن الفاطميين تطلعوا إلى زعامة العالم الإسلامى، ووجهوا جهودهم إلى توسيع رقعة دولتهم، ومد نفوذهم إلى أراضى الدولة العباسية، فلما أصبحت القاهرة مقرًا لخلافتهم تطلعوا إلى بسط سلطانهم على بلاد الحجاز، ليكسبوا خلافتهم قوة أمام العالم الإسلامى؛ ذلك أن السيادة على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة، صار ينظر إليها على أنها من مستلزمات الخلافة، وأن من يظفر بها يعد الخليفة الحقيقى للمسلمين.

وعلى الرغم أنهم واجهوا منافسة العباسيين لهم فى بسط سيادتهم على البلاد المقدسة فى الحجاز، فإنهم استطاعوا فى خلال الفترات التى اقتصر فيها نفوذهم أن ينشروا فيها الأمن، كما أظهروا قدرتهم على درء الأخطار عنها، وتأمين الوافدين إليها من المسلمين على أرواحهم وأموالهم.

وكانت بلاد البحرين من بين أقطار جزيرة العرب التى خضعت لسيادة الفاطميين فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، وقد حرص أمراؤها من القرامطة على استمرار العلاقات الودية بينهم وبين الخلفاء الفاطميين بالمغرب، لكن صلة المودة بين الفاطميين والقرامطة ما لبثت أن تبددت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى بسبب طموح أمير القرامطة الحسن بن أحمد إلى استعادة سلطتهم على بلاد الشام، وأدى هذا إلى قيام العداء بين هذا الأمير وبين الفاطميين، ثم ضعف أمر القرامطة ببلاد البحرين بسبب الخلافات الداخلية بينهم

حتى لم يبق لهم فى أواخر القرن الرابع إلا ولاية صغيرة على الساحل الشرقى للجزيرة العربية.

ومن ولايات الجزيرة العربية التى انتشرت فيها الدعوة الفاطمية اليمامة وعُمان، وقد تولى نشر هذه الدعوة باليمامة دعاة الإسماعيلية باليمن أثناء قيام دولة بنى الأخضر العلوية بها، أما ولاية عُمان فإن بعض أمراء الصليحيين باليمن بعثوا إليها دعاة لنشر الدعوة الفاطمية حتى أصبح بها عدد كبير من أنصار الدعوة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى.

وكانت بلاد اليمن من أهم مراكز الدعوة الفاطمية؛ فاتخذها دعاة الإسماعيلية منذ أواخر القرن الثالث الهجرى مقرًا لنشر دعوتهم وحرص هؤلاء الدعاة على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع الخلفاء الفاطميين، وظل النفوذ الفاطمى فى اليمن رغم ذلك - يتأرجح بين القوة والضعف حتى قام بأمر الدعوة الفاطمية الأمراء الصليحيون باليمن فبذل كل منهم قصارى جهده فى سبيل توثيق عرى الصداقة مع الخلفاء الفاطميين فى مصر، مما كان له أثر كبير فى احتفاظ الفاطميين بمركز مرموقة فى بلادهم، وخاصة فى عهد السيدة الحرة الصليحية.

على أن الدعوة الفاطمية أخذت فى الضعف بعد وفاة هذه الملكة إذ لم يكن هناك من الصليحيين شخصية قوية، تستطيع أن تخلفها وتسير سيرتها فى نشر تلك الدعوة. ولم يلبث أن زال النفوذ الفاطمى من اليمن باستيلاء صلاح الدين يوسف بن أيوب على اليمن.

وكانت الضرورة السياسية والعسكرية تقضى على الفاطميين أن يمدوا نفوذهم إلى بلاد الشام، بعد أن استقروا فى مصر. لكن الفاطميين واجهوا صعوبات كثيرة فى سبيل سيطرتهم على بلاد الشام؛ فإلى جانب استياء أهالى دمشق من سياسة الفاطميين القائمة على التعصب للمذهب الشيعى، قام قرامطة بلاد البحرين بدور هام فى مناهضة نفوذهم فى بلاد الشام، كما أن الحركات الاستقلالية التى تزعمها أمراء العرب فى هذه البلاد أدت إلى إضعاف سلطة الفاطميين وقد أدى ضعف الفاطميين فى بلاد الشام إلى مهاجمة السلاجقة لهذه البلاد، فبذلوا جهدهم فى بسط سيطرتهم عليها، وتصدى لهم الفاطميون حتى أصبحوا هم والسلاجقة يتقاسمون النفوذ فى بلاد الشام.

وكانت بلاد العراق محط أنظار الفاطميين، على اعتبار أنها مقر الخلافة العباسية. لذلك عهد الفاطميون إلى دعاتهم بنشر الدعوة فيها ونجح الدعاة

الفاطميون فى العراق وفارس نجاحًا كبيرًا حتى انضم إليها العديد من الديالمة أنصار بنى بويه والترك، بل أقيمت الدعوة الفاطمية فى بغداد نفسها، وقد تصدى السلاحقة للشيعة فى العراق وفارس، كما حاول الفاطميون بسط سيادتهم على والأندلس وصقلية أيضًا.

وكان الفاطميون يرون أن بلاد المغرب لا تصلح أن تكون مركزًا لدولتهم ومن ثم اتجهت أنظارهم إلى مصر، فأنفذوا إليها فى مستهل القرن الرابع الهجرى عدة حملات أخفقت جميعها فى تحقيق غايتها، ثم لجأ الفاطميون إلى كسب صداقة الإخشيديين فى سبيل ذلك، حتى إذا ما ولى الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، حاول الاستيلاء على البلاد المصرية وقوى عزمه على غزوها، حين استنجد به أولو الرأى فى هذه البلد، لينقذهم من الفوضى التى انتشرت فى بلادهم فأعد حملة بقيادة جوهر الصقلى، تمكنت من ضم مصر إلى حوزة الفاطميين، ثم أسس جوهر مدينة القاهرة، كما بنى الجامع الأزهر، ومهد لاتخاذ القاهرة مقرًا للخلافة الفاطمية، فقضى على الدعوة العباسية، وأحل محلها الدعوة الفاطمية وأصبحت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة .

* * *

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى قسمين:

القسم الأول الدعوة الإسماعيلية وقيام الدولة الفاطمية في المغرب والعقبات التى واجهتها، وانتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، واتخاذ الفاطميين القاهرة حاضرة لدولتهم، والجامع الأزهر مركزًا لنشر دعوتهم.

وتحدث المؤلف عن الأحوال الداخلية فى مصر؛ التنظيمات الإدارية والمالية، الحركات السياسية والدينية فى مصر الفاطمية؛ سياسة الفاطميين مع أهل الذمة - الحاكم بأمر الله ودعوى ألوهيته - العناصر الأجنبية وأثرها فى الوضع الداخلى فى مصر - عصر نفوذ الوزراء فى مصر - زوال الخلافة الفاطمية.

* * *

وفى القسم الثانى من الكتاب كتب المؤلف عن علاقة الفاطميين بولايات الجزيرة العربية، اليمامة والبحرين وعُمان واليمن والحجاز وبلاد الشام والعراق والأندلس والمغرب.

وأثر ضعف الفاطميين فى مصر فى ضعف المذهب الإسماعيلى فى مصر وخارجها.

تعرض دار الفكر العربى مشكورة للقراء هذا الكتاب القيم، وتعيد طبعه، بعد أن اشتد الطلب عليه من الطلاب، ومن القارئ المثقف لأن هذا الكتاب عظيم القيمة، يعرض لفترة تاريخية هامة جدًا فى تاريخ مصر الإسلامية، ويعطى للقارئ مادة دسمة بأسلوب ممتع.

ونعرض هذا الكتاب بمناسبة الذكرى الثالثة لأستاذ الجيل وأستاذ أساتذة التاريخ الإسلامى والفكر الإسلامى أستاذنا المرحوم جمال الدين سرور فى ذكراه الثالثة تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته.

لقد ترك فى نفوس تلاميذه آثار كبيرة - وأنا أحد أوائل تلاميذه.

كان لا يكتفى بتعليمنا المادة العلمية وإنما يحاول جاهدًا أن يغرس فينا مكارم الأخلاق ومثله العليا.

د. عصام عبد الرءوف الفقى

أستاذ التاريخ الإسلامى

كلية الآداب جامعة القاهرة

القاهرة فى ٢٣ / ١ / ١٩٩٥

محتويات القسم الأول

القسم الأول

الدولة الفاطمية في مصر
سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها

١ ـ قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب.

٢ ـ الأحوال الداخلية في مصر قبل أن يستقر فيها سلطان الفاطميين.

٣ ـ السيادة الفاطمية في مصر.

٤ ـ الحركات السياسية والدينية في العصر الفاطمي.

٥ ـ عصر نفوذ الوزراء الفاطميين.

٦ ـ النظم والحضارة في العصر الفاطمي بمصر.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وبعد؛ فهذا القسم يتناول تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر، يتجلى لنا فيه: مدى نجاح الفاطميين فى نشر دعوتهم وإقامة خلافتهم بالمغرب، والأحوال الداخلية فى مصر قبل أن يمتد إليها سلطان الدولة الفاطمية، والجهود التى بذلها الفاطميون فى سبيل بسط سيادتهم على مصر واتخاذها مقرا لخلافتهم، والحركات السياسية والدينية التى ظهرت فى العصر الفاطمى الأول بمصر، وازدياد نفوذ الوزراء وما ترتب عليه من نتائج فى العصر الفاطمى الثانى، وتطور نظم الحكم والحضارة فى مصر على عهد الدولة الفاطمية.

أخذ أئمة الإسماعيلية منذ منتصف القرن الثانى الهجرى يوجهون جهودهم إلى نشر دعوتهم فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى. وقد لقيت الدعوة نجاحاً كبيراً فى بلاد المغرب، كان من ثماره خضوع كثير من مدن شمال إفريقية لدعاتهم، ثم قيام الخلافة الفاطمية بتلك البلاد فى أواخر القرن الثالث الهجرى.

ولم يكن سلطان الفاطميين موطدا فى بلاد المغرب فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، ولذلك اتجهت جهود خلفائهم إلى العمل على ضبط الأمور فى تلك البلاد، وبخاصة فى المغرب الأقصى، على أن ما بذلوه من جهد فى هذا

السبيل لم ينه الاضطراب الذى ساد المغرب، فسرعان ما قامت فيه بعض الثورات بعد انتقال المعز لدين الله إلى مصر. مما ترتب عليه ضعف النفوذ الفاطمى فى المغرب.

وكانت مصر فى الوقت الذى أخذ فيه الأئمة الإسماعيلية فى نشر دعوتهم، ولاية إسلامية، خاضعة لسلطان الخلافة فى بغداد، وكثيرا ما تأثرت أحوالها الداخلية بالسياسة العامة للعباسيين، فوليها ولاة من الأتراك بعد أن ازداد نفوذ العنصر التركى فى العراق فى مستهل القرن الثالث الهجرى، ثم عمد بعض النواب والولاة إلى الاستقلال بمصر عن الخلافة العباسية بعد أن تطرق الضعف إليها؛ فحاول أحمد بن طولون ـ الذى حكم مصر نائبا عن واليها التركى ـ توطيد سلطته فى هذه الولاية. ثم لم يلبث أن انفرد بتدبير شئونها، وأقام بها دولة مستقلة، عرفت باسم الدولة الطولونية، ظلت نحو ثمانية وثلاثين عاما (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ)، ثم عادت مصر إلى سلطان العباسيين.

لم تنعم البلاد المصرية بالهدوء والاستقرار فى الفترة التى عادت فيها إلى الخلافة العباسية بسبب السياسة التى اتبعت فى تعيين الولاة وعزل بعضهم مرارا، فضلا عن النزاع والتنافس على حكمها. وكان سوء الأحوال فى مصر مما شجع الفاطميين فى بلاد المغرب على التطلع لغزوها، فوجهوا إليها عدة حملات، تصدت لها قوات من جند العراق ومصر.

على أن تلك الفترة التى عادت فيها مصر إلى حكم العباسيين لم تستمر طويلا، فقد انتهت منذ أن قلد الخليفة الراضى محمد بن طغج الإخشيد ولايتها سنة ٣٢٣هـ لبلائه فى صد الجيش الفاطمى عن البلاد المصرية، واستطاع الإخشيد بفضل الوفاق الذى ساد علاقته بالخلافة العباسية أن يوطد سلطته فى مصر، فأصبح له حق توريث إمارتها لأبنائه من بعده مدة ثلاثين سنة. غير أن أولاد الإخشيد لم يتيسر لهم إدارة شئون الولاية بأنفسهم، فولى الوصاية عليهم كافور الإخشيدى الذى باشر أمور البلاد المصرية مع أعوانه؛ وما لبث أن استأثر بالسلطة فيها، ثم اضطربت الحالة السياسية فى مصر بعد وفاة كافور؛ فاستغل هذه الفرصة الفاطميون لتحقيق أمنيتهم فى بسط سلطانهم على تلك البلاد.

وكان الفاطميون يرون أن بلاد المغرب لا تصلح لتكون مركزا لدولتهم، ومن ثم اتجهت أنظارهم إلى مصر؛ فأنفذوا إليها فى مستهل القرن الرابع الهجرى عدة حملات أخفقت جميعها فى تحقيق غايتها؛ ثم لجأ الفاطميون إلى كسب صداقة الإخشيديين، حتى إذا ما جاء الخليفة المعز لدين الله حاول إعادة الكرة للاستيلاء على البلاد المصرية؛ وقوى عزمه على غزوها حين استنجد به أولو الرأى فى تلك البلاد لينقذ بلادهم من الفوضى التى انتشرت فيها؛ فأعد حملة بقيادة جوهر الصقلى، تمكنت من ضم مصر إلى حوزة الفاطميين، ثم أسس جوهر مدينة القاهرة، كما بنى الجامع الأزهر. ولم يكتف بذلك، بل أخذ يمهد لاتخاذ القاهرة مقرا للخلافة الفاطمية، فقضى على الدعوة العباسية، وأحل محلها الدعوة الفاطمية ورسومها، وما لبثت ولاية مصر أن أصبحت بعد قدوم المعز إليها دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب.

اتخذ الفاطميون ـ بعد أن استقر سلطانهم فى مصر ـ وسائل مختلفة فى معاملة سكانها من الطوائف الدينية والعناصر الأجنبية، فركزوا اهتمامهم فى تحويل المصريين السنيين إلى المذهب الشيعى، لكنهم لم ينجحوا فى ذلك السبيل، فظل المذهب السنى محتفظا ببعض مظاهر قوته فى مصر، أما فيما يتعلق بأهل الذمة، فإن الفاطميين قربوهم إليهم وأحاطوهم برعايتهم وتسامحهم بعد أن أيقنوا من تعذر اعتمادهم على السنيين، غير أنهم لم يتمسكوا طيلة عهدهم بهذه السياسة، فكثيرا ما اضطروا إلى العدول عنها، ولم يعمل الفاطميون على مجافاة العناصر الأجنبية، بل ساروا على طريقة العباسيين فى الاستعانة بهم، وكان لتزايد عددهم وتنافس طوائفهم أثر سيئ فى حالة مصر الداخلية.

وكانت مصر فى مستهل العصر الفاطمى تحتل مكانا مرموقا بين الدول المعاصرة لها وتنعم بالرخاء والاستقرار، غير أن الأحداث التى طرأت على هذه البلاد منذ أواخر القرن الخامس الهجرى أضعفت من شأنها، فقد اضمحل سلطان الخلافة الفاطمية وأخذ نفوذ الوزراء فى الازدياد، وأصبح فى أيديهم أمر تعيين الخلفاء وعزلهم، بل انصرف بعضهم عن الاحتفاظ بمظاهر المذهب الفاطمى، وحاول البعض الآخر إحياء المذهب السنى. كما تنافس كبار رجال الحكومة الفاطمية على منصب الوزراء؛ واستعان بعض الطامعين فى هذا المنصب بأمراء

الدول المجاورة مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى السيطرة على مصر، الأمر الذى مهد السبيل لزوال الخلافة الفاطمية.

على أن أهم ما اتصف به العصر الفاطمى فى مصر هو النهضة التى ظهرت آثارها فى جميع نواحى الحياة المصرية؛ فإلى جانب ما نلمسه من تطور فى نظم الحكم والإدارة، نلحظ اهتمام الفاطميين بتنمية الثروة مما ساعد على انتشار الرخاء فى البلاد؛ وفضلا عن ذلك فقد اتخذت الحياة الاجتماعية فى هذا العصر عدة مظاهر؛ فبلغ الترف والبذخ أقصاه فى بلاط الخلفاء والوزراء، كما تجلت قوة الشعور الإسلامى فى مواكبهم ورسومهم أيام الأعياد والمواسم الدينية.

وكان من مظاهر تطور الحضارة فى العصر الفاطمى نشر الثقافة العلمية والأدبية، فضلا عن الثقافة المذهبية التى تتصل بالمذهب الإسماعيلى؛ فعنى الفاطميون بإنشاء المكتبات والمعاهد العلمية، كما شجعوا العلماء والكتاب وغيرهم من رجال الأدب مما كان له أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية فى مصر فى ذلك العصر؛ فأصبح كثير من أبنائها طلابا للعلم وأنصارا للأدب، كما وفد إلى معاهدها بالقاهرة كثير من أعلام المشرق.

* * *

وقد بدأت هذا القسم ببحث قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب، والسياسة التى اتبعها الفاطميون لتوطيد نفوذهم فى تلك البلاد حتى منتصف القرن الرابع الهجرى، ثم تحدثت عن الأحوال الداخلية فى مصر إبان الفترة التى قضاها الفاطميون فى تأسيس دولتهم فى الشرق وبسط سيادتهم على المغرب، وبينت سياسة هذه الدولة الجديدة فى مد سلطانها إلى مصر واتخاذ القاهرة مقرا لها.

كذلك تناولت بالبحث الحركات السياسية والدينية فى مصر فى العصر الفاطمى الأول؛ فوضحت سياسة الفاطميين مع المصريين على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم، وشرحت أسباب كثرة العناصر الأجنبية فى مصر وقتذاك، ومدى تأثر حالة مصر الداخلية من جراء استعانة الفاطميين بهذه العناصر.

وعنيت أيضا بتوضيح الظروف التى أدت إلى ازدياد نفوذ الوزراء واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء فى العصر الفاطمى الثانى؛ كما تحدثت عن انصراف بعض

وزراء هذا العصر عن تأييد المذهب الفاطمى، وتنافس كبار رجال الدولة على منصب الوزراء، وما كان لذلك من أثر فى القضاء على الخلافة الفاطمية.

ومن الموضوعات التى أوليتها اهتمامى: حضارة مصر فى العصر الفاطمى، فبحثت التطورات التى طرأت على نظم الحكم والإدارة فى ذلك العصر، وبينت مدى ما وصلت إليه مصر من تقدم فى ميدان الزراعة والصناعة والتجارة، وما تجلى فيها من رقى الحياة الاجتماعية وازدهار الحركة العلمية والأدبية.

والله أسأل أن يوفقنى لمتابعة البحث فى تاريخ الدولة الإسلامية وحضارتها.

الباب الأول

قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب

١ ـ الدعوة الإسماعيلية إلي قيام الخلافة الفاطمية.

٢ ـ سياسة الفاطميين في توطيد سلطانهم بالمغرب.

١ ـ الدعوة الإسماعيلية إلى قيام الخلافة الفاطمية:

لما ظفر العباسيون بالخلافة لم يرحب بهم العلويون من أبناء الحسن بن على والحسين بن على بن أبى طالب، واستمر النزاع بين الفريقين طوال العصر العباسى الأول حتى أصبحنا لا نجد تاريخ خليفة عباسى خاليا من الحروب ضد العلويين.

غير أن أحفاد الحسن بن على المعروفين بالحسنيين لم يكونوا فى أوائل العصر العباسى الأول متفقين مع أحفاد الحسين بن على الذين عرفوا بالحسينيين، فقد تخلى جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين عن محمد ابن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية، وأخذ يعمل فى الخفاء ليمهد السبيل لأبنائه من بعده للوصول إلى الخلافة، واستطاع جعفر الصادق بحسن سياسته أن يقنع بقايا العلويين من أحفاد الحسن بن على الذين التفوا حوله ـ بعد أن بدد العباسيون شملهم ـ أنه الوارث الحقيقى لعلى وفاطمة.

انحصرت زعامة العلويين منذ أواخر العصر الأموى، وأوائل العصر العباسى فى جعفر الصادق ـ وهو الإمام السادس عند طائفة الإمامية ـ وكانت هذه الطائفة تذهب إلى أن الإمامة تكون فى سلالة على عن طريق ابنه الحسين، وأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد أن انتقلت من الحسن إلى الحسين، ولا تكون إلا فى الأعقاب(١). وقد خرج بعض الإمامية على هذه التعاليم بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ، وانقسموا إلى طائفتين:

---

(١) انظر: كتاب فرق الشيعة لأبى محمد الحسن النوبختى، ص ٥٧ ـ ٥٨، ٧١ ـ ٧٢.

١ ـ الإمامية الموسوية وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد الإمامية الاثنا عشرية. وقد قالوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو عندهم الإمام السابع.

٢ ـ الإمامية الإسماعيلية وقد قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وكان أكبر أولاد أبيه جعفر.

ويروى أن الصادق خلع ابنه إسماعيل من الإمامة وأحل ابنه موسى الكاظم محله لمسائل نسبت إليه. وقد اعترض الشيعة الذين كانوا يميلون إلى إمامة إسماعيل على خلعه، كما لم يعترفوا بأحقية جعفر فى نقل الإمامة إلى موسى الكاظم.

ولما توفى إسماعيل فى حياة أبيه سنة ١٤٥هـ، رأى أتباعه أن الإمامة يجب أن تنقل بعد وفاة جعفر الصادق إلى حفيده محمد بن إسماعيل طبقا لتعاليمهم التى تنص على أن الإمامة لا تنتقل من أخ إلى أخ، بل يجب أن تظل فى الأعقاب، وبذلك حولوا إليه الإمامة وأصبح الإمام السابع عندهم، ومن ثم أطلق على هذه الطائفة اسم السبعية لتمييزهم عن طائفة الاثنا عشرية.

أما الإمامية الموسوية، فقالوا إن الإمامة بعد موسى الكاظم تنتقل إلى ابنه على الرضا، ثم إلى أعقابه من بعده حتى الثانى عشر من أئمتهم وهو محمد المنتظر بن الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا. وعرفت هذه الطائفة باسم الإمامية الاثنا عشرية لانتظارهم إمامهم الثانى عشر، ويقال إن محمدا دخل سردابا فى مدينة سامرا سنة ٢٦٠هـ وأمه تنظر إليه، ولكنه لم يعد ولم يقف له أشياعه على أثر من ذلك الحين.

ولا يزال أنصاره ينتظرون عودته، ويعتقدون أنه سيظهر ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، ومن ثم سمى الإمام المنتظر.

انتقلت إمامة الإسماعيلية، إلى محمد بن إسماعيل بعد وفاة جده جعفر الصادق، وأمعن أنصاره فى التخفى ونشر الدعوة[1] له سرا أيام الخلفاء العباسيين

(١) هذه الدعوة هى التى نبتت منها الخلافة الفاطمية.

المهدى والهادى والرشيد. ولما ذاعت دعوته فى خلافة الرشيد أيقن أن بقاءه بالمدينة المنورة سيسهل على العباسيين مهمة تتبع حركاته والتخلص منه، فرحل منها شرقا، وأخذ ينتقل بين بلاد الدولة الإسلامية، فذهب إلى الرى، ثم انتقل إلى جبل دماوند القريب منها، واستقر هناك بقرية تدعى سملا، أطلق عليها فيما بعد اسم محمد أباد نسبة إليه.

كان محمد بن إسماعيل يعتمد فى نشر دعوته على رجل اسمه ميمون القداح، ويقول عنه الإسماعيلية إنه من نسل سلمان الفارسى. ولما توفى محمد خلفه فى الإمامة عبد الله الرضى الذى أمعن فى التخفى واتخذ عبد الله بن ميمون القداح داعية له.

يرجع السبب فى اختفاء الأئمة الذين تولوا الإمامة بعد محمد بن إسماعيل إلى ما ذهب إليه الإسماعيلية من أن الإمام يجوز له أن يستتر إذا لم تكن له قوة يظهر بها على أعدائه. ومن المرجح أنهم نهجوا هذه الطريقة خشية أن يلحق بهم ما لحق أتباع طائفة الإمامية الاثنا عشرية من الاضطهاد والقتل.

استقر الإمام عبد الله الرضى بسلمية من أعمال حمص، وكان العباسيون قد تتبعوه فى عهد المأمون مما اضطره إلى الهرب مع ابنه أحمد ولى عهده فى الإمامة، فقصدا مازندران والأهواز ثم رحلا إلى قرية سلمية التى لم تلبث أن أصبحت دار هجرة للأئمة الإسماعيلية، ولما توفى عبد الله تولى ابنه أحمد إمامة الإسماعيلية، فاتخذ عبد الله بن ميمون القداح داعية له كما اتخذه أبوه من قبل(١).

أصبحت سلمية المركز الرئيسى للدعوة الإسماعيلية منذ أن اتخذها الأئمة الإسماعيلية دار هجرة فى عهد المأمون العباسى، فكان يخرج منها الدعاة لنشر دعوتهم فى البلاد الإسلامية، وظلت على هذه الحال أيام الإمام الحسين بن أحمد ابن عبد الله الذى استطاع أن يقيم فى سلمية آمنا مطمئنا دون أن تناله يد العباسيين. والواقع أن كرم الإمام الحسين، وبذله الأموال الكثيرة وتفانيه فى إظهار حبه للهاشميين، وتفانى أنصاره فى طاعته، كل ذلك ساعد على ذيوع الدعوة فى سلمية.

---

(١) حسن إبراهيم وطه شرف: كتاب عبيد الله المهدى، ص ٤١ ـ ٤٤.

اتسمت أيام الإمام الحسين بن أحمد بانتشار الدعوة الإسماعيلية فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى، ففى بلاد اليمن أخذ كل من على بن فضل اليمنى وأبى القاسم رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى منذ وصلا إليها سنة ٢٦٨هـ فى نشر الدعوة الإسماعيلية، ونجحا فى ذلك نجاحا كبيرا، ثم بنى ابن حوشب حصنا بجبل لاعة (جنوبى صنعاء) وأعد جيشا زحف به على صنعاء وأخرج منها بنى يعفر، وتمكن بمعاونة دعاته من التغلب على كثير من أرجاء اليمن[١]. ثم بعث ابن حوشب الدعاة إلى اليمامة وعمان والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب[٢]. وكان مبعوثاه إلى المغرب أبا سفيان والحلوانى. وقد نصح لهما ابن حوشب بأن يبتعد كل منهما عن صاحبه فى نشر دعوة الإسماعيلية ويمهدا بعملهما لظهور المهدى ودولته.

وكان الإمام الحسين بن أحمد يحرص على نشر دعوته فى بلاد المغرب، فأرسل أبا عبد الله الشيعى إلى ابن حوشب باليمن سنة ٢٧٨هـ وأمره بالدخول فى طاعته والاقتداء بسيرته على أن يرحل بعد ذلك إلى المغرب لينشر الدعوة الإسماعيلية، فقدم أبو عبد الله علّى ابن حوشب وصار من كبار أصحابه، وأقام باليمن عاما واحدا[٣].

ولما اتصل بابن حوشب نبأ وفاة أبى سفيان والحلوانى بالمغرب، عهد إلى أبى عبد الله الشيعى القيام بالدعوة إلى المذهب الإسماعيلى فى تلك البلاد وقال له: إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان، وقد ماتا وليس لها غيرك، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك[٤].

غادر أبوعبد الله الشيعى بلاد اليمن قاصدا مكة، فوصلها فى موسم الحج سنة ٢٧٩هـ، وسأل أبو عبد الله عن حجاج كتامة واجتمع بهم، فسمعهم يتحدثون عن فضائل آل البيت، فاشترك معهم فى الحديث، ثم سألوه عن الجهة التى سوف يرحل إليها بعد الحج، فقال إنه يريد مصر، فسروا بصحبته ورحلوا من مكة وهو يخفى عنهم أغراضه، وما لبثوا أن تعلقوا به لما شهدوه من ورعه وزهده.

---

(١) كتاب النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب للمؤلف ص٦٢ ـ ٦٣.

(٢) ابن خلدون: جـ٤ ص٣١.

(٣) انظر: كتاب «عبيد الله المهدى» ص٧٦.

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص٧٤ ـ ٧٥.

وقد استطاع أبو عبد الله بما اجتمع إليه من ضروب الحيل أن يقف على جميع أحوال حجاج كتامة، فلما وصلوا مصر أخذ يودعهم، فشق عليهم فراقه وسألوه عن حاجته بمصر دون غيرها من البلاد، فقال إنه يريد أن يطلب فيها العلم، فقالوا له: «فأما إذا كنت تقصد هذا، فإن بلادنا أنفع لك وأطوع لأمرك ونحن أعرف بحقك»، وما زالوا به حتى أجابهم إلى المسير بصحبتهم(١) ولما أصبحوا على مقربة من بلادهم كتامة، خرج إلى لقائهم أصحابهم الذين انتشرت بينهم تعاليم الشيعة على يد دعاة الإسماعيلية من قبل.

وكان التشيع قد انتشر فى بلاد المغرب على يد الإمام إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الذى فر من أيدى العباسيين بعد موقعة فخ فى عهد الخليفة الهادى سنة ١٦٩هـ، وأقام الأدارسة فى المغرب الأقصى دولة علوية سنة ١٧٢هـ، تعرف بدولة الأدارسة التف حولها البربر، ومن ثم أصبحت بلاد المغرب أرضا صالحة للدعوة الإسماعيلية، وكان ذلك مما سهل على كل من الداعيين أبى سفيان والحلوانى نشر الدعوة للمهدى من آل على، وصار الناس يتحدثون فى تلك البلاد عن قرب ظهور المهدى، فلما ذهب أبو عبد الله الشيعى إلى المغرب فى أوائل سنة ٢٨٠هـ وجد الأمور ممهدة له، كما وجد التشيع قد استقر فى عقول البربر واعتنقه كثير من وزراء الأغالبة الذين قامت دولتهم فى إفريقية (تونس) على يد إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ (٨٠٠م) وظلت قائمة إلى أن استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦هـ.

أكرم أهالى كتامة وفادة أبى عبد الله الشيعى وأحلوه من أنفسهم محل الإجلال والإكرام، وتهافت كل منهم على إنزاله فى بيته، وازداد التفاف المغاربة حوله بسبب ما كان يخبرهم به من أنه البشير بالمهدى. ولم يلبث أبو عبد الله أن كشف عن نواياه لرجال كتامة، فقال لهم: «أنا صاحب البذر الذى أخبر به أبو سفيان والحلوانى، فازدادت محبتهم له، وعظم أمره فيهم وأتته القبائل من كل مكان(٢)، وظل أبو عبد الله مواليا لإمام الإسماعيلية بسلمية الحسين بن أحمد الذى عرف أيضا باسم محمد الحبيب يرسل إليه رسله وهداياه.

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص٧٥.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ٧٦ ـ ٧٧.

لم يكتف أبو عبد الله الشيعى بنشر الدعوة للفاطميين فى بلاد المغرب، بل أخذ يعمل منذ سنة ٢٨٩هـ على بسط نفوذهم فى شمال إفريقية، فوقعت فى يده عدة مدن، وكان مما ساعد على تقدمه فى الفتوح موت إبراهيم الثانى بن أحمد بن الأغلب أمير الأغالبة بإفريقية سنة ٢٩١هـ، ولحاق ابنه أبى العباس عبد الله به الذى لم يبق فى الإمارة سوى تسعة أشهر، فخلفه ابنه زيادة الله الثالث آخر أمراء الأغالبة الذى انصرف إلى اللهو والترف بينما كان وزراؤه يعملون على نجاح المذهب الشيعى الذى اعتنقه أهالى هذه البلاد. ولم تنقطع الحرب بين قوات كل من أبى عبد الله الشيعى وزيادة الله الثالث حتى سنة ٢٩٦هـ حيث دارت واقعة الأربس[١] التى أدت إلى زوال دولة الأغالبة بإفريقية، وامتد نفوذ الفاطميين فى ذلك الوقت إلى أكثر أجزاء بلاد المغرب حتى أصبحوا أصحاب السلطان المطلق فى جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان[٢].

* * *

كان دعاة الإسماعيلية باليمن يعتقدون أن دولة المهدى ستظهر فى بلادهم، كما حرص رؤساؤهم على أن يكون قيامها على أيديهم، وكذلك كانت الحال بين دعاة الإسماعيلية فى بلاد المغرب، إذ كانوا يرجون قدوم المهدى إليهم لإقامة دولتهم المنشودة، ولذا أنفذ زعيمهم أبو عبد الله الشيعى ـ بعد أن استقر به المقام فى هذه البلاد وصادفت دعوته شيئا كثيرا من النجاح ـ إلى عبيد الله بن الإمام الحسين بن أحمد ـ وهو بسلمية ـ وفدا من رجال كتامة يدعوه للقدوم إلى بلاد المغرب[٣]. وكانت بلاد المغرب وقتذاك تشمل عدة دول وإمارات وهى دولة الأغالبة فى إفريقية (تونس) ودولة الأدارسة فى المغرب الأقصى، وإمارة مدرار فى سجلماسة وإمارة بنى رستم فى تاهرت بالمغرب الأوسط[٤].

كان الخليفة المكتفى العباسى قد وصله إذ ذاك ذيوع الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن والمغرب، فعهد إلى بعض رجاله بتعقب حركات عبيد الله والقبض عليه فخرج عبيد الله من سلمية بعد مقابلته وفد كتامة ووقوفه على مدى نجاح الدعوة فى بلاد المغرب وأخبر أتباعه أنه سيقصد اليمن[٥].

---

(١) كانت فيما بعد تعد باب المهدية.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص٥٠ ـ ٥١.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ٢، ص١١.

(٤) انظر زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى جـ١ ص١٠٠ ـ ١٠١ ـ ١٠٢.

(٥) النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب للمؤلف ص ٦٤ ـ ٦٥.

على أن عبيد الله لم يكن راغبا رغبة أكيدة فى إقامة دولته ببلاد اليمن، بل أزمع الرحيل إلى بلاد المغرب منذ خرج من سلمية تلبية للدعوة التى وجهها إليه داعيته أبو عبد الله الشيعى. وقد أدى به حرصه على ألا يقع فى قبضة العباسيين إلى إخفاء حقيقة الجهة التى سيقصدها؛ فلما وصل إلى مصر اتضح لداعى دعاته فيروز أنه سيقصد المغرب فشق ذلك عليه، وتخلف عن المسير مع الإمام عبيد الله ومضى إلى اليمن[1]. أما عبيد الله فرحب به أتباعه بمصر وعلى رأسهم داعيته أبو على الذى طلب من ابن عياش أن يسمح له بالإقامة فى داره ويكرم وفادته. وكان ابن عياش يخلص للمذهب الإسماعيلى وأنصاره ويتمتع بمنزلة كبيرة عند ولاة مصر.

بذلت الخلافة العباسية جهودا كبيرة للقبض على عبيد الله لكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلا بفضل ما قدمه له أنصاره من معونة، ذلك أنه لما جاءت أوامر الخليفة العباسى إلى والى مصر محمد بن سليمان الكاتب بالقبض على المهدى، تمكن أنصاره من إيهام الوالى أن عبيد الله رجل هاشمى يحترف التجارة وأن الشخص المقصود فر إلى اليمن، كما أن هذا الوالى نفسه لم يكن وفيا للعباسيين، فأمر بالقبض على بعض غلمان المهدى وضربهم ضربا خفيفا وأهمل شأن المهدى.

لما بلغ العباسيين أن محمد بن سليمان الكاتب تهاون فى القبض على عبيد الله المهدى، ولّوا عيسى بن محمد النوشرى[2] على مصر بدلا منه: فقدم إليها فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٢هـ وكان كثير من حاشية هذا الوالى يدينون بعقائد المذهب الإسماعيلي، فحذروا عبيد الله المهدى مما قد يحيق به من خطر العباسيين الذين كانوا إذ ذاك يتعقبونه ويبثون العيون عليه؛ فقرر الرحيل من مصر.

خرج عبيد الله من الفسطاط مرتديا زى التجار يريد المغرب، غير أن عيسى النوشرى لحق به وقبض عليه، لكنه ما لبث أن أطلقه بعد أن رشاه بمال كبير. ولم تقف متاعب عبيد الله عند هذا الحد، فقد هجم على قافلته وهى فى طريقها إلى طرابلس جماعة من البربر عند الطاحونة (وهى موضع فى برقة) ونهبوها[3].

(١) النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب للمؤلف ص٦٥ ـ ٦٦.

(٢) كان عيسى بن محمد النوشرى من بين القواد الذين قدموا مع محمد بن سليمان الكاتب إلى مصر للقضاء على الدولة الطولونية (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٣، ص١٤٥).

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص٨٣.

لما وصل عبيد الله المهدى إلى طرابلس، وبعث رسلا من قبله إلى داعيه أبى عبد الله الشيعى يخبره أنه فى طريقه إليه، ومن هؤلاء الرسل الذين أنفذهم عبيد الله إلى المغرب أبو العباس أخو عبد الله الشيعى وجماعة من الكتاميين، غير أن زيادة الله الثالث أمير الأغالبة قبض على أبى العباس هذا بالقيروان وعذبه ليدله على الجهة التى يقيم فيها المهدى، فلم يجبه، واستطاع عبيد الله بفضل الأموال التى أعطاها لعامل طرابلس أن يهرب مع أتباعه إلى سجلماسة(١) بالمغرب الأقصى.

ظل عبيد الله فى بداية الأمر طليقا فى سجلماسة بسبب إغداقه الأموال على واليها اليسع بن مدرار؛ غير أن معاملة والى سجلماسة لعبيد الله ما لبث أن تبدلت بعد انتصار أبى عبد الله الشيعى على الأغالبة سنة ٢٩٦هـ إذ خشى مما سوف تتطور إليه الحال بعد ذلك؛ فقبض على عبيد الله وزجه هو وأتباعه فى السجن.

كان أبو عبد الله إذ ذاك يمد نفوذه على معظم أرجاء المغرب عن طريق الحرب والفتح، فدخل رقادة مقر إمارة الأغالبة، وحذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة، ثم سار فى قوة كبيرة إلى سجلماسة لإطلاق عبيد الله من سجنه، ولما علم اليسع بن مدرار أمير سجلماسة بوصول أبى عبد الله الشيعى إليها، هرب ليلا وخلا الجو لأبى عبد الله، فأطلق داعى الفاطميين سراح عبيد الله المهدى وابنه أبى القاسم(٢).

أخذت البيعة لعبيد الله المهدى بسجلماسة، وتلا ذلك تقليد أبى عبد الله الشيعى سيفا ومنحه خلعة للدلالة على مكانته، وأخذ أبو عبد الله يقدم إلى عبيد الله أشياعه وأنصاره ثلاثة أيام كاملة، ثم رحل عبيد الله عن سجلماسة ـ بعد أن أقام بها أربعين يوما ـ قاصدا إفريقية فى حفل كبير من العساكر ـ وكان أبو عبد الله الشيعى ورؤساء كتامة مشاة بين يديه وولده خلفه ـ فلما اقترب من رقادة تلقاه أهلها وأهل القيروان بالترحاب، ثم نزل بقصر من قصور رقادة واتخذها حاضرة له فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٧هـ وأمر بذكر اسمه فى الخطبة على منابر البلاد وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين(٣)، وبذلك قامت الخلافة الفاطمية فى شمال إفريقية.

---

(١) ابن الأثير جـ٨ ص١٤.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ٧٨ ـ ٩٠.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص٩٢.

سياسة الفاطميين فى توطيد سلطانهم بالمغرب

أرسل عبيد الله المهدى بعد إعلان خلافته عمالا إلى الولايات المختلفة واختارهم من زعماء كتامة وممن يثق بهم من المغاربة، وعهد إلى أبى عبد الله الشيعى بإخضاع بلاد المغرب الأوسط والأقصى لأن أهلها لم يدينوا له بالطاعة. فخرج أبو عبد الله سنة ٢٩٧هـ مع بعض قادة كتامة ودعاتهم إلى تلك البلاد، فافتتح مدنها، ثم سار على رأس جيش سنة ٢٩٨هـ لإخضاع قبائل زناتة جنوبى بلاد كتامة، فدخلوا فى طاعته وصار يجبى منهم الأموال(١).

وعلى الرغم من أن الدولة الفاطمية تدين بظهورها لأبى عبد الله الشيعى، فإن عبيد الله المهدى لم يلبث أن عمل على التخلص منه؛ لأن أبا عبد الله كان موضع ثقة كثير من الكتاميين، كما علت مكانته بين أهالى بلاد المغرب مما أثار حنق عبيد الله المهدى عليه، فخشى أن يفتتن به الناس فيضعف بذلك نفوذه، لذلك أمر بقتل كل من أبى عبد الله وأخيه وأبى العباس فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٨هـ(٢).

أثار حادث مقتل أبى عبد الله الشيعى أهالى بلاد المغرب، فثارت طرابلس، واشتبك الكتاميون مع أهل القيروان، غير أن عبيد الله ما لبث أن تمكن من إخماد تلك الثورات. ثم عهد عبيد الله المهدى إلى ولده أبى القاسم بالخلافة من بعده، وبعثه على رأس حملة لمحاربة الكتاميين الذين عادوا إلى بلادهم وأقاموا طفلا ادعوا أنه المهدى، وزعموا أن أبا عبد الله لم يمت، فقاتلهم أبو القاسم وأوقع بهم الهزيمة وقتل الطفل الذى ولوه باسم المهدى(٣).

رأى عبيد الله المهدى بعد أن تخلص من أبى عبد الله الشيعى وأخضع الكتاميين أن يستعين فى إدارة دولته بولاة آخرين، يطمئن إليهم، فولى على المغرب الأدنى حباسة بن يوسف، وعين على بلاد المغرب الأوسط والأقصى أخاه عروبة بن يوسف؛ وكان مقره تاهرت.

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ١ ص١٩٢.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص٩٣ ـ ٩٥.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص٩٧.

كذلك وجه عبيد الله المهدى عنايته إلى إخضاع قبائل صنهاجة، بالمغرب الأقصى والقضاء على نفوذ الأدارسة فى فاس، وعهد بذلك إلى قائده مصالة بن حبوس الذى نجح فى الاستيلاء على «ناكور» حاضرة الصنهاجيين سنة ٣٠٨هـ، ثم اتجه نحو الأدارسة فى فاس والتقى بيحيى بن إدريس بالقرب من مكناسة، فأوقع به الهزيمة واضطر يحيى إلى طلب الصلح على أن يؤدى إليه بعض الأموال ويبايع لعبيد الله المهدى، فولاه مصالة على فاس، كما ولي موسي بن أبي العافية على سائر بلاد المغرب الأقصى، ومالبث موسى أن تغلب على ملك الأدارسة ببلاد المغرب، وقصد يحيى بن إدريس مدينة المهدية حيث قضى بها بقية حياته.

استقرت الأمور لموسى بن أبى العافية فى بلاد المغرب الأوسط والأقصى منذ زال نفوذ الأدارسة من فاس فى عهد عبيد الله المهدى، وأخذ نفوذه فى الازدياد بعد وفاة مصالة بن حبوس القائد الفاطمى سنة ٣١٢هـ حتى أصبح يهدد كيان الفاطميين فى بلاد المغرب الأقصى، فخلع طاعة خليفتهم ودخل فى طاعة عبد الرحمن الناصر الأموى بالأندلس[١]، الذى طمع إذ ذاك فى امتلاك المغرب الأقصى واستولى على مدينة سبتة وأرغم موسى على إقامة الخطبة له على منابر بلاده. ولما علم عبيد الله المهدى بذلك عهد لولى عهده أبى القاسم سنة ٣١٥هـ بالعمل على توطيد سلطته فى هذه البلاد؛ فسار إليها واستطاع أن يعيد للفاطميين كثيرا من نفوذهم[٢].

* * *

لم تقتصر مجهودات عبيد الله المهدى على توطيد سلطان خلافته، بل رأى أن يبنى حاضرة فى مكان يتوسط أجزاء دولته ليتخذها حصنا يعتصم به هو وأنصاره ويوجه منه هجماته إلى الخارجين عليه، ولتكون مقرا للدعوة الإسماعيلية، فخرج يرتاد موقعا يصلح لتحقيق أغراضه، فوقع اختياره على مكان يقع على بعد ستين ميلا جنوبى القيروان، حيث وضع أساس مدينة جديدة أسماها المهدية. وقد ذكر أبو عبيد البكرى[٣] أن البحر يحيط بها من ثلاث جهات، وأن المهدى اتخذ لهذه المدينة بابين من الحديد زنة كل باب منهما ألف قنطار وطوله

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٤ ص٣٩ ـ ٤٠.

(٢) كتاب عبيد الله المهدى، ص١٩٨.

(٣) المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص٢٩ ـ ٣١.

ثلاثون شبرا، ونقش على هذين البابين صور بعض الحيوانات، وأقيم بها ثلاثة وستون صهريجا عدا ما كان يجرى فيها من القنوات. وبنى المهدى بمدينة المهدية دارا للصناعة تسع أكثر من مائتى مركب. ولما فرغ من إحكام بناء حاضرة خلافته الجديدة سنة ٣٠٥هـ، قال «اليوم أمنت على الفاطميات». يعنى بناته؛ ثم انتقل إليها سنة ٣٠٨هـ، وأنشأ فيها الدكاكين، كما رتب أرباب المهن؛ فجعل كل طائفة فى سوق. وبعد أن تم للمهدى تأسيس هذه المدينة أمر ببناء مدينة أخرى بجوارها وجعل بين المدينتين ميدانا فسيحا وأحاطها بسور وأبواب وسماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل بلاد المغرب وأصدر أوامره إلى أصحاب الدكاكين بأن يقيموا فيها بحرمهم وأهاليهم.

* * *

كانت حالة بلاد المغرب بعد وفاة عبيد الله المهدى سنة ٣٢٢هـ، تتطلب كل جهود ابنه أبى القاسم الذى آلت إليه الخلافة ولقب القائم بأمر الله، فقد ثار فى عهده ابن طالوت القرشى بطرابلس وزعم أنه ابن المهدى. ولما ظهر للبربر كذبه قتلوه، كما اشتد خطر الثورة التى أضرم نارها أبو يزيد مخلد بن كيداد وهو من قبيلة زناتة التى خرجت على عبيد الله المهدى وانحاز زعيمها محمد بن خزر إلى عبد الرحمن الناصر الأموى بالأندلس. وكانت هذه القبيلة ناقمة على الفاطميين لإيثارهم الكتاميين بالمناصب، لذلك عمدوا إلى مناهضتهم فى بلاد المغرب الأوسط، واستفحل سلطانهم بهذه البلاد.

وقد تجلى حقد زناتة على الفاطميين ورغبتهم فى القضاء على خلافتهم ببلاد المغرب فى ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الذى نشأ فى بلد توزر[١] وتعلم القرآن وخالط جماعة من الخوارج الصفرية[٢]، فمال إلى مذهبهم واعتنقه[٣] وكان الخوارج قد التمسوا الأمان فى بلاد المغرب بعد أن اشتد اضطهاد الأمويين لهم، فوجدوا أهالى هذه البلاد حانقين على بنى أمية وولاتهم، لذلك أصبح من اليسير

(١) وهى ببلاد الجريد فى إمارة تونس.

(٢) أتباع زياد بن الأصفر وموطنهم الإقليم الشرقى من الجزيرة. وكان الخوارج قد التمسوا الأمان فى بلاد المغرب بعد أن اشتد اضطهاد الأمويين لهم.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٠٩.

على هؤلاء الخوارج ضم البربر إلى صفوفهم. كما لقيت مذاهبهم قبولا طيبا منهم(١).

اتخذ أبو يزيد تاهرت محلا لإقامته وصار يعلم الصبيان القرآن ومذاهب الخوارج، وقد عرف أبو يزيد بعدائه للشيعة، فصار يدعو الناس للخروج على الخليفة الفاطمى. وابتدأ نفوذه فى الازدياد منذ سنة ٣١٦هـ، وذاعت دعوته بين بعض قبائل البربر، كما قويت شوكته فى عهد القائم، واجتمع إليه سائر الخوارج، وأخذ له البيعة عليهم سنة ٣٣١هـ صاحبه أبو عمار: على قتال الشيعة واستباحة الغنائم والسبى، وعلى أنهم إن ظفروا بالمهدية والقيروان صار الأمر شورى(٢).

كان حركة أبى يزيد ذات طابع وطنى، الغرض منها إنشاء حكومة من البربر لا يشترك فيها العرب، وذلك أن البربر رأوا أنهم فتحوا بلاد الأندلس بدمائهم وسيوفهم، وبذلوا جهدهم فى تولية الفاطميين الخلافة بالقيروان دون أن ينالوا شيئا من ثمار أعمالهم، لذلك تزعم أبو يزيد ثورة هؤلاء البربر ليستعيد سلطانهم(٣).

زحف أبو يزيد فى عهد الخليفة القائم الفاطمى إلى رقادة، فانسحب منها الكتاميون، ثم تقدم إلى القيروان وبعث برسله مع وفد من أهلها إلى عبد الرحمن الناصر الأموى صاحب قرطبة ليخبروه بدخوله فى طاعته، ورغبته فى أن يمده بقوة لمحاربة الفاطميين؛ فوعدهم الناصر الأموى بإجابة طلبهم؛ وظل أبو يزيد يواصل مهاجمة المدن التى فى حوزة الخلافة الفاطمية، ففاجأ أهل المهدية بحملاته حتى اضطروا إلى النزوح عنها إلى طرابلس وصقلية ومصر(٤).

على أن نفوذ أبى يزيد سرعان ما ضعف على أثر انضمام عدد كبير من رجاله إلى جيوش الفاطميين؛ وكان ذلك مما اضطره إلى الارتداد عن المهدية بقوة صغيرة من رجاله تاركا خلفه ما كان معه من مؤن وعتاد. ثم تقدم إلى القيروان، فأوقع بأهلها الهزيمة سنة ٣٣٤هـ(٥).

(١) ابن خلدون: جـ٧، ص١١.
(٢) ابن خلدون: جـ٧، ص١٣.
(٣) O'Leary, A Short History of the Fatimid Khalifate, P. 89.
(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص٢٥٠.
(٥) ابن خلدون جـ٧، ص١٤ ـ ١٥.

ولما توفى الخليفة القائم فى هذه السنة، كتم ابنه وولى عهده إسماعيل الذى تلقب بالمنصور موته خوفا من أن يطمع فيه أبو يزيد، ولم يتلقب بالخليفة، كما لم يغير السكة ولا الخطبة ولا البنود حتى فرغ من أمر أبى يزيد.

وجه المنصور الفاطمى كل عنايته للقضاء على حركة أبى يزيد؛ وسرعان ما قويت جيوشه بانضمام قبيلة صنهاجة إليها، وأخذت قواته فى مطاردة أبى يزيد حتى عجز عن مقاومتها وحلت به الهزيمة؛ وانتهت فتنة هذا الخارجى بالقبض عليه ووفاته متأثرا بجراحه سنة ٣٢٦هـ[١].

وقد كشفت ثورة أبى يزيد عن مدى استعداد البربر لتأييد كل خارجى يثور على الدولة الفاطمية، وأخذ النفوذ الفاطمى فى بلاد المغرب يتضاءل منذ قيام هذه الثورة، كما ابتدأت الحكومات المستقلة فى الظهور فى المناطق العربية من الدولة الفاطمية[٢].

أخذ المنصور الفاطمى بعد قضائه على ثورة أبى يزيد فى تعقب الزناتيين بإفريقية، وكان يعلى بن محمد أحد أمراء زناتة قد استفحل خطره من ناحية المغرب الأوسط، وأقام الخطبة على منابرها لعبد الرحمن الناصر؛ ولم يزل سلطانه بالمغرب فى ازدياد إلى أن بعث إليه المعز لدين الله الفاطمى قائده جوهر الصقلى سنة ٣٤٧هـ، فبادر يعلى إلى لقائه والإذعان لطاعته[٣].

ساءت حالة البلاد فى شمال إفريقية من جراء تلك الثورات التى استنفدت كثيرا من أموال الخلافة الفاطمية؛ فرأى المنصور أن يعيد تنظيم هذه البلاد ويعمل على إنعاش مواردها ليعوض ما أنفقته الدولة من الأموال. كذلك شرع المنصور فى إنشاء أسطول كبير، كما أسس سنة ٣٣٧هـ مدينة فى الموضع الذى دارت فيه الواقعة بينه وبين أبى يزيد على مقربة من القيروان وسماها المنصورية، واتخذها حاضرة له. وكان لهذه المدينة خمسة أبواب: الباب القبلى والباب الشرقى، وباب زويلة، وباب كتامة، وباب الفتوح. وكانت جيوش الفاطميين تخرج من هذا الباب الأخير[٤].

---

(١) انظر: المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٢٣ ـ ١٣٥.

(٢) O'Leary, A Short History of the Fatimid Khalifate, P. 91.

(٣) ابن خلدون: جـ٧، ص١٧ ـ ١٨.

(٤) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص٢٥.

نقل المنصور إلى هذه المدينة أسواق القيروان، كما رحل إليها كثير من الصناع، فازدهرت فيها الصناعة والتجارة؛ وأصبحت على جانب عظيم من التقدم والرقى، وغدت منذ ذلك الحين حاضرة الفاطميين إلى أن قدم المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢هـ، فحلت محلها مدينة القاهرة(١).

لما توفى المنصور سنة ٣٤١هـ، آلت الخلافة إلى ابنه المعز؛ وقد أوضح سياسته فى خطبة ألقاها على رؤساء كتامة بمدينة المنصورية؛ فقال لهم(٢): «إنه شغل بكتب ترد عليه من المشرق والمغرب، يجيب عنها بنفسه، كما بين أنه سيوجه عنايته إلى صيانة أرواح رعاياه، وتعمير بلاده وقمع الفتن والثورات حتى يسود الأمن والطمأنينة بين ربوع دولته. وختم بقوله. إنكم إذا لزمتم ما آمركم به، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق، كما قرب أمر المغرب بكم».

كذلك عنى المعز بالعمل على توطيد نفوذ الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب؛ فعهد إلى جوهر الصقلى بإخضاع الأمراء الثائرين على الحكم الفاطمى فى هذه البلاد؛ فسار فى أوائل سنة ٣٤٧هـ على رأس جيش كبير يضم كثيرا من رجالات المغاربة من بينهم زيرى بن مناد الصنهاجى قاصدا تاهرت، فاستولى عليها وقضى على واليها يعلى بن محمد الزناتى الذى عرف بانحرافه عن الفاطميين، وولائه لعبد الرحمن الناصر الأموى(٣)، ثم استأنف جوهر السير إلى فاس؛ ولما امتنعت عليه اتجه إلى سجلماسة. وكان قد استبد بحكمها رجل يقال له ابن واسول تلقب بالشاكر بالله وخاطبه الناس بأمير المؤمنين، ونقش اسمه على السكة؛ فطارده جوهر حتى قبض عليه وأخذه أسيرا. واستعاد الفاطميون بذلك سلطانهم على سجلماسة. وبلغ من عناية المعز بفتحها أنه ضرب بها عملة، نقش عليها اسمه(٤).

أخذ جوهر يتابع السير فى بلاد المغرب الأقصى وما زال يفتح مدنه مدينة بعد مدينة حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسى؛ ولم يمتنع عليه سوى سبتة

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص٥٢٦.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٣٧ ـ ١٣٨.
(٣) السلاوى: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، جـ١، ص٨٦.
(٤) انظر: النعمان: المجالس والمسايرات، جـ١ ص٣١٧ ـ ٣٢٨.

وطنجة، ثم انصرف راجعا إلى المهدية بعد نجاحه فى إقامة الدعوة للفاطميين على جميع منابر المغرب[١].

على الرغم من الجهــود التى بذلها كل من جوهــر الصقلى، وزيرى بن مناد لتوطيــد سلطان الفاطميين على بلاد المغــرب، فإن الأمور لم تستــقر لهم فى هذه البلاد، فقد ثار أحد زعماء زناتة على المعز سنة ٣٥٩هـ مما اضطره إلى الخروج إليه بنفسه؛ فلمــا وصل إلى «باغاية»[٢] ولى هذا الثائر هاربا، فــبعث إليه المعــز قائده زيرى بن مناد، فقــبض عليه، وانتهت ثورته بدخوله فى طــاعة المعز[٣]. على أن ذلك لم ينه الاضطراب الذى ساد المغرب؛ فلم يكد ينتقل المعز إلى مصر حتى ثار أهالى باغاية وتاهرت، وزناتة فى تلمســان؛ فتصدى لهم يوسف بن زيرى بن مناد وتمكن من إخماد ثوراتهم[٤].

(١) حسن إبراهيم وطه شرف: كتاب المعز لدين الله الفاطمى، ص٣٢ ـ ٣٣.

(٢) باغاية، مدينة بأقصى إفريقية وقسنطينة. انظر: ياقوت: معجم البلدان.

(٣) ابن الأثير: جـ٨، ص١٧٧ ـ ١٩٨.

(٤) ابن الأثير: جـ٨، ص٢٠٥.

الباب الثانى

الأحوال الداخلية فى مصر
قبل أن يستقر فيها سلطان الفاطميين

١ ـ التنظيمات الإدارية والمالية في مصر إلي نهاية العهد الإخشيدي.

٢ ـ العلاقات السياسية بين مصر والخلافة في عهد الطولونيين والإخشيديين.

(أ) الطولونيون والخلافة.

(ب) عودة مصر إلي الخلافة العباسية.

(جـ) الإخشيديون والخلافة.

ا ـ التنظيمات الإدارية والمالية فى مصر إلى نهاية العهد الإخشيدى:

لما استقر سلطان العرب فى مصر سنة ٢٠هـ (٦٤١م)، أبقوا على الأنظمة القائمة بها واكتفوا بشغل بعض المناصب الرئيسية ليشرفوا بأنفسهم على الإدارة فكان الخليفة يعين فى مصر واليا يمثله، يعرف بأمير مصر.

وكان الوالى يؤم المسلمين فى صلاة الجمع والأعياد بوصفه نائبا عن الخليفة، ويعهد إليه فى بعض الأحيان جباية الخراج، وأحيانا يعين الخليفة عاملا مستقلا عن الوالى للقيام بهذا العمل يعرف بعامل الخراج[١]. كذلك كان من مهام والى مصر الإشراف على شئون الحامية المقيمة بها وقيادة الجيوش لصد غارات الأعداء عنها، ولتأمين حدودها، فقاد عمرو بن العاص الحملات لفتح برقة وطرابلس، كما خرج عبد الله بن سعد بن أبى سرح أثناء ولايته على مصر، على رأس الحملات التى سارت لغزو إفريقية والنوبة[٢].

كان الخلفاء الراشدون والأمويون يسندون ولاية مصر إلى ولاة من العرب، وقد تمتع هؤلاء الولاة فى عهد الأمويين بشىء من الاستقلال، فكانوا لا يرجعون للخليفة إلا فى الأمور الهامة؛ فولى معاوية بن أبى سفيان عمرو بن العاص صلاة مصر وخراجها وجعلها طعمة له بعد النفقة على إدارتها وتوزيع العطاء على

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ١، ص٣٦٢.
(٢) انظر: الكندى: كتاب «الولاة والقضاة» ص٢٣.

جندها، وظل مسلمة بن مخلد واليا على مصر خمس عشرة سنة (٤٧ ـ ٦٢هـ)، كما طالت ولاية عبد العزيز بن مروان، فاستمر بها إحدى وعشرين سنة (٦٥ ـ ٨٦هـ). وكان شبه أمير مستقل فى حكم البلاد المصرية.

ولما جاءت الدولة العباسية، تأثرت ولاية مصر بالسياسة العامة لهذه الدولة ذلك أن العباسيين لم يتعصبوا للعرب، بل اعتمدوا على عناصر غير عربية. وكان عنبسة بن إسحق آخر وال عربى على مصر، فقد أسندت إليه ولايتها سنة ٢٣٨هـ، غير أنه لم يلبث أن عزل سنة ٢٤٢هـ وخلفه ولاة من الأتراك[1].

ظل العرب أصحاب النفوذ فى مصر إلى أن ولى الخليفة المعتصم الخلافة (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ)، فحرمهم من المرتبات المقررة لهم فى ديوان العطاء وأحل محلهم الأتراك؛ ويرجع السبب فى استعانته بهم إلى ما اتصفوا به من شدة البأس وحب القتال، هذا إلى ضعف ثقته بالفرس[2].

على أن مصر لم تستفد من وراء السياسة التى اتبعها الخلفاء العباسيون فى إحلال الأتراك محل الولاة من العرب، لأن هذه البلاد صارت تمنح لهم بصفة إقطاع على أن يؤدوا خراجا معينا، كما أن الولاة من الأتراك من ناحية أخرى صاروا يؤثرون البقاء فى بغداد أو سامرا، ينيبون عنهم حكاما يديرون شئون الولايات باسمهم، ويدعون لهم بعد الخليفة فى خطبة الجمعة ويرسلون إليهم الخراج. وكان من أثر هذه السياسة أن عمد بعض النواب والولاة إلى الاستقلال بمصر عن الخلافة العباسية بعد أن تطرق الضعف إليها[3]، فحاول أحمد بن طولون الذى قدم إلى مصر سنة ٢٤٥هـ نائبا عن واليها التركى باكباك توطيد سلطته فى هذه الولاية وما لبث أن نجح فى تأسيس دولة مستقلة عرفت باسم الدولة الطولونية، ظلت نحو ثمانية وثلاثين عاما (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ).

ولم يكن فى مصر وزراء فى عصر الولاة، بل اكتفى الخلفاء بإرسال ولاة إلى هذه البلاد يديرونها باسمهم، فلما استقل أحمد بن طولون بولاية مصر، اتخذ

(١) المقريزى: خطط جـ٢، ص٢٤٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٢ ص٣٠٨.

(٢) انظر: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق للمؤلف، ص٢٢.

(٣) انظر: تاريخ الحضارة الإسلامية فى مصر للمؤلف. ص٦٩.

أحمد بن محمد الواسطى كاتبا له، وكان يقوم بأعباء الوزارة دون أن يلقب بلقب وزير، وحذا أمراء الطولونيين حذوه، فاتخذوا كتابا لهم[١]، وفى عهد محمد ابن طغج الإخشيد ولى الوزارة أبو بكر محمد بن على المادرائى. وكان هذا الوزير من كبار الموظفين فى مصر، ويرعى جانبه أمير البلاد ويخشى بأسه، وإليه يرجع الفضل فى إسناد ولاية مصر إلى أنوجور بن الإخشيد بعد وفاة محمد الإخشيد. وقد كوفئ على ذلك بأن أسند إليه الإشراف على جباية الخراج بجانب قيامه بأعمال الوزارة[٢].

كان لمحمد الإخشيد أعوان آخرون يقومون بأعمال الوزير دون أن يتلقبوا بلقبه، ومن هؤلاء الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات الذى عاون الإخشيد فى إدارة الدولة على الرغم من أن الخليفة العباسى ندبه للإشراف على جمع مال الخلافة من خراج مصر والشام، ولما توفى الفضل بن جعفر، كتب الخليفة الراضى إلى الإخشيد يأمره بإرسال ابنه جعفر بن الفضل إلى بغداد ليتقلد منصب الوزارة، لكن الإخشيد لم يجبه إلى طلبه، فعينه الخليفة وزيرا وممثلا للخلافة فى مصر والشام، فصار يراقب أعمال الإخشيد ويبعث بأخباره إلى الخليفة. غير أن الإخشيد استطاع بحسن سياسته أن يقربه إليه وينتفع بخبرته، ولم يزل جعفر بن الفرات يتمتع بنفوذ كبير فى ولاية مصر حتى أيام كافور الإخشيدى[٣].

وكان الطولونيون والإخشيديون يعتمدون اعتمادا كبيرا فى إدارة شئون دولتهم على البريد، فعين أحمد بن طولون أحد المقربين إليه عاملا للبريد فى سامرا التى كانت وقتذاك حاضرة الخلافة العباسية ليوافيه بما يجرى فى العراق وبما يدبره له أعداؤه من المؤامرات التى يدبرها له أبو أحمد الموفق طلحة أخو الخليفة

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص٤٤١.

(٢) انظر: المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٢٩.

سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص١٥٥، ١٥٨.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص٤٤١ ـ ٤٤٢.

العباسي المعتمد[١]. وكان لمحمد بن طغج الإخشيد ممثل في بغداد يأتيه بأخبار الخليفة ودواوين حكومته وما يعنيه من الأمور، ويدافع عن مصالحه[٢].

كذلك اهتم أمراء الطولونيين والإخشيديين بالشرطة، وكان صاحب الشرطة ينوب عن الوالى فى عصر الولاة فى حكم البلاد ويحل محله إذا تغيب، وكثيرا ما كان الخليفة يعين صاحب الشرطة واليا على البلاد ويحل محله إذا مات الوالى أو عزل[٣]. أما فى العصر الطولونى والإخشيدى فاقتصرت مهمة صاحب الشرطة على المحافظة على الأمن وتنفيذ أحكام القضاة.

كان بمصر ديوان خاص، تصدر عنه الرسائل والمكاتبات، يعرف بديوان الإنشاء. وقد أنشأه الطولونيون بعد أن اتسعت دائرة أعمالهم، وازدهر نشاطه فى عهدهم، ولم يعمل ولاة مصر قبل العصر الطولونى على إنشائه بل اكتفوا باتخاذ بعض الكتاب لكتابة الرسائل التى يرسلونها إلى الخلفاء وغيرهم، وكان أول من تولى ديوان الإنشاء في عهد أحمد بن طولون: أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود المعروف بابن عبد كان[٤]. ومن الكتاب الذين ظهروا فى عهد الطولونيين جعفر بن عبد الغفار المصرى الذى اتخذه أحمد بن طولون كاتبا له. ولم يكن لدى هذا الكاتب من الكفاية بحيث يستطيع الاضطلاع بأعباء هذا المنصب، فأشار أحمد ابن خاقان على أحمد بن طولون بعزله، فلم يجبه إلى طلبه، وقال له: أنا أحتمله لأنه مصرى، فقال ابن خاقان: أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصرى على الكاتب البغدادى، قال: لا والله، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلدا أن يكون كاتبه منه[٥].

وكان بعض الكتاب الذين أسندت إليهم وظيفة الكتابة فى العصر الإخشيدى يشتغلون بالشئون السياسية. وقد خلط الناس بينهم وبين الوزراء. أما الفريق الآخر من الكتاب، فاقتصر عمله على تحرير الرسائل، وهؤلاء كانوا يؤلفون ديوان الإنشاء[٦].

* * *

(١) انظر: المقريزى: خطط، جـ٢، ص١٧٨ - ١٧٩.
(٢) انظر: ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص٢٦.
(٣) سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص٢٤.
(٤) محمد كامل حسين. أدبنا العربى فى عصر الولاة ص٩٥.
(٥) ابن الداية: سيرة ابن طولون ص١٥.
(٦) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيدين ص١٦٧.

أما عن الإدارة المالية، فقد عنى ولاة مصر بتنمية موارد بيت المال وتنظيم مصارفه. وكانت تأتى هذه الموارد من الجزية والخراج والضرائب، فقد فرض الولاة الجزية على الذميين ولم يعف منها إلا النساء والأطفال والشيوخ وكانت تتناسب مع ثروة الشخص، وتدفع نقدا بالدنانير. كذلك فرض الخراج على الأرض التى يزرعها أهل مصر. وكان هناك إلى جانب ذلك ضرائب على الصناع والأجراء وضرائب على التجارة الداخلية وأخرى على التجارة التى تمر بالموانى والبلاد الواقعة على الحدود المصرية سواء أكانت ترد إليها أم تصدر عنها[1]؛ فيذكر المقريزى[2] أنه كان يجيء من التجار فى الثغور المصرية وهى دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب وأسوان والإسكندرية ضرائب مقررة تعرف بالمكوس.

كان عهد الخلفاء الراشدين والأمويين بصفة عامة عهد عدل وتسامح، فلم يشتط ولاة مصر فى جمع الخراج إلا فى أواخر العهد الأموى. أما فى العصر العباسى، فإنا نلحظ أن أحمد بن المدبر الذى قلده الخليفة المتوكل خراج مصر، لجأ إلى الشدة فى جباية الخراج، كما أثار سخط المصريين بزيادته الضرائب واستعماله القسوة فى جبايتها مما حمل ابن طولون على العمل للتخلص منه؛ فصرف عن ولاية مصر وحل محله أحمد بن خالد.

ولما ولى أحمد بن طولون شئون مصر كلها (الإدارية والمالية والعسكرية) زاد الخراج عما كان فى أيام ابن المدبر؛ فبلغ ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار. ولم يعرف عنه أنه لجأ إلى العنف فى جبايته. غير أن الخراج ما لبث أن نقص فى عهد ابنه خمارويه لإسرافه وتبذيره فضلا عن الأموال التى كان يرسلها كل عام إلى دار الخلافة[3].

على أن الطولونيين لم يستمروا طويلا فى حكم مصر، فقد زالت دولتهم سنة ٢٩٢هـ. وعادت هذه البلاد إلى حكم العباسيين؛ فالتزم الماذرائيون[4] خراج

(١) سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام، ص٥٦ ـ ٥٧.

(٢) المقريزى: خطط، جـ١، ص٩٠١.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص٤٨٧.

(٤) أسرة فارسية الأصل، تنسب إلى ماذرايا أو مادرايا وهى قرية من أعمال البصرة. وقد نزح بعض أفرادها إلى مصر فى عهد الطولونيين، وأسندت إليهم الوظائف الرئيسية، وكان على بن محمد الماذرائى زعيم الماذرائيين فى ولاية خمارويه بن أحمد بن طولون، إذ اختاره وزيرا له، وفى سنة ٢٧٢هـ استقدم على بن=

مصر والشام، وصاروا يقومون بجباية الخراج فى هذين الإقليمين، ويرسلون سنويا إلى بيت المال فى دار الخلافة ـ بعد النفقة على الجيش والإدارة وما تحتاجه البلاد من ضروب الإصلاح ـ مبالغ تختلف بحسب السنين وتتراوح بين مليون وسبعمائة ألف دينار(١).

أما فى عهد الإخشيديين فإن خراج مصر بلغ فى أيام محمد بن طغج مليونين من الدنانير فى السنة(٢). ولما استأثر كافور فى مصر بذل قصارى جهده لتنمية موارد دولته فبلغ خراج مصر فى إحدى سنى حكمه ٣,٢٧٠,٠٠٠ دينار(٣). ومما يجدر ذكره أنه فى أواخر عهد الدولة الإخشيدية انخفض ماء النيل انخفاضا استمر تسع سنوات (٣٥٢ ـ ٣٦٠هـ)، أدى إلى اشتداد الغلاء وانتشار المجاعات والأوبئة، كما ترتب عليه اضطراب الأعمال الحكومية(٤).

= أحمد إلى مصر ولديه أبا بكر محمد وأبا الطيب أحمد. وتولى كل منهما خراج مصر بين سنتى ٣٠١,٣٠٤هـ. (سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين ص٣٨، ٣٩) ويذكر عريب بن سعد (صلة تاريخ الطبرى، تاريخ الأمم والملوك جـ٨ ص٣١، ١٠٥) أن أبا بكر بن محمد بن المادرائى تمتع بسلطة كبيرة فى مصر، فتقلد أعمالها فضلا عن أعمال الشام وتدبير الجيوش منذ قدم إليها سنة ٣٠١هـ ثم عين عاملا على خراج مصر فى جمادى الأولى سنة ٣١٨هـ.

(١) هلال بن الصابئى: تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص٢٩٠.

(٢) المقريزى: خطط جـ١، ص٩٩.

(٣) انظر (أبو صالح الأرمنى) كنائس وأديرة مصر، ص٣٠، سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص٣٤٣.

(٤) انظر (المقريزى) إغاثة الأمة، ص١٢ ـ ١٣.

٢ ـ العلاقات السياسية بين مصر والخلافة فى عهد الطولونيين والإخشيديين:

(أ) الطولونيون والخلافة:

لما تقلد باكباك التركى ولاية مصر من قبل الخليفة المعتز، استخلف عليها أحمد بن طولون سنة ٢٥٤هـ وقصر اختصاصه على مدينة العسكر دون غيرها من البلاد. وكان ولاة مصر فى ذلك العهد يقسمون أعمال هذه الولاية بين عدة أشخاص حتى لا يتطلع أحدهم إلى الاستقلال بما فى يده[١]. ومن ذلك نرى أن أحمد بن طولون لم يكن يتمتع بنفوذ كبير فى ولاية مصر، بل واجه عدة صعوبات فى سبيل تثبيت مركزه وخاصة منافسه أحمد بن المدبر عامل الخراج الذى أوقع به عند الخليفة العباسى. ثم توفى المعتز وخلفه المهتدى، فأسند ولاية مصر إلى يارجوخ[٢]، صهر أحمد بن طولون، فكتب إليه «تسلم من نفسك لنفسك» واستخلفه على مصر كلها، وبذلك زادت سلطة ابن طولون وأصبح واليا على جميع الديار المصرية، وأتيحت له الفرصة للتخلص من ابن المدبر عامل الخراج، فطلب صرفه من خراج مصر، فأجيب طلبه، وتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن سنة ٢٥٧هـ. ولم يمض غير قليل حتى توفى يارجوخ صاحب إقطاع مصر سنة ٢٥٩هـ. فأصبح أحمد بن طولون واليا على مصر من قبل الخليفة العباسى مباشرة. ثم قلده الخليفة المعتمد سنة ٢٦٣هـ خراج مصر وولاه الثغور الشامية، وبذلك صارت البلاد كلها فى قبضة يده لا ينازعه فيها أحد[٣].

على أن أحمد بن طولون لم ينعم بالاستقرار فى ولايته، فقد ناصبه العداء أبو أحمد الموفق طلحة أخو الخليفة العباسى المعتمد، ذلك أنه لما استفحل خطر ثورة الزنج[٤] فى بعض بلاد العراق، ندب الخليفة أخاه لمحاربتهم، فلم ير الموفق

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى: جـ٣، ص٢٢٠.

(٢) أحد كبار رجال البلاط العباسى.

(٣) المقريزى: خطط، جـ١، ص٣١٩.

(٤) تزعم هذه الثورة رجل فارسى يسمى على بن محمد من أهالى الطالقان ادعى أنه من ولد على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب. ويرى بعض المؤرخين أنه دعى، وأن أصله عربى من عبد قيس.

(انظر: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق للمؤلف، ص١٦٦).

بدا ـ بعد أن انقطعت عنه موارد الولايات الشرقية وتقاعد الأهالى عن دفع الخراج الذى كانوا يؤدونه كل عام[١] ـ من الالتجاء إلى أحمد بن طولون ليمده بما يساعده على القضاء على زعيم هذه الثورة الذى يعرف بصاحب الزنج، فبعث إليه ابن طولون مليونا ومائتى ألف دينار. غير أن الموفق استقل هذا المبلغ وبعث إليه بكتاب أظهر له فيه الجفاء. فاستاء منه ابن طولون، وكتب إليه يقول[٢]:

«. . وصل إلى كتاب الأمير ـ أيده الله تعالى ـ وفهمته، وكان ـ أسعده الله ـ حقيقا بحسن التخير لمثلى وتصييره إياى عمدته التى يعتمد عليها وسيفه الذى يصوله، وسنانه الذى يتقى الأعداء بحده. . . واحتملت الكلف العظام والمؤن الثقال باستجذاب كل موصوف بشجاعة واستدعاء كل منعوت بغنى. . ومن كانت هذه سبيله فى الموالاة ومنهجه فى المناصحة فهو حرى أن يعرف له حقه؛ فعوملت بضد ذلك من المطالبة بحمل ما أمر به الجفاء فى المخاطبة بغير حال توجب ذلك. . . وإنى لا أعرف السبب الذى يوجب الوحشة ويوقعها بينى وبين الأمير، ولا ثم معاملة توجب مشاجرة، أو تحدث منافرة؛ لأن العمل الذى أنا بسبيله لغيره والمكاتبة فى أموره إلى من سواه، ولا أنا من قبله، فإنه والأمير جعفر المفوض قد اقتسما الأعمال، وصار لكل واحد منهما قسم، انفرد به دون صاحبه. . والذى عاملنى به الأمير من محاولة صرفى مرة وإسقاط رسمى أخرى. . ناقض لشرطه مفسد لعهده، وقد التمس أوليائى وأكثروا الطلب فى إسقاط اسمه وإزالة رسمه، فآثرت الإبقاء وإن لم يؤثره، واستعملت الأناة إذ لم تستعمل معى. . . والأمير أيده الله ـ أولى من أعاننى على ما أوثره من لزوم عهده. . . وكف الأذى والمضرة، وألاّ يضطرنى إلى ما يعلم الله ـ عز وجل ـ كرهى له أن أجعل ما قد أعددته لحياطة الدولة من الجيوش المتكاثفة والعساكر المتضاعفة. . . مصروفا إلى نقضها. . . ، والأمير يعلم. . أنه لا ناصر له إلا لفيف البصرة وأوباش عامتها، فكيف من يجد ركنا منيعا وناصرا مطيعا، وما مثل الأمير فى أصالة رأيه يصرف مائة ألف عنان عدة له فيجعلها عليه بغير ما سبب يوجب ذلك. . . . . .».

(١) المقريزى: خطط، جـ٢، ص١٧٨.

(٢) المقريزى: خطط، جـ٢، ص١٧٩.

كان لهذا الكتاب أثر سيء في نفس الموفق، فحاول النيل من أحمد بن طولون بعزله عن مصر؛ لكنه فشل في محاولته، فعمد إلى عزله عن ولاية الثغور فأجابه الخليفة إلى ما أراد - وهو مكره - غير أنه ما لبث أن عهد إلى ابن طولون بإدراتها على أثر اضطراب الأمور بها، ورأى ابن طولون أن الفرصة سائحة لمد نفوذه إلى بلاد الشام حين جاءته الأخبار بوفاة واليها، فسار إليها بجيشه واستطاع الاستيلاء على كثير من مدنها، ثم دعى له على منابرها (٢٦٤ - ٢٦٥هـ) لكنه اضطر إلى العودة إلى مصر للقضاء على ثورة ابنه العباس، ثم خرج ثانية إلى الشام في جمادى الأولى سنة ٢٦٩هـ بعد أن وصله نبأ خروج لؤلؤ والى الرقة عليه وانضمامه إلى الموفق فاستخلف على مصر ابنه خمارويه. وبينما هو في دمشق جاءه كتاب الخليفة العباسي ينبئه فيه برغبته في المسير إليه والاحتماء به، فرحب ابن طولون بقدومه وأنفذ إليه كتابا جاء فيه(١):

«قد منعني الطعام والشراب خوفي على أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - من مكر يلحقه، . . وقد اجتمع عندي مائة ألف عنان مؤلفة قلوبهم، مجتمعة آراؤهم، شديد بأسهم، وأنا أرى لسيدي أمير المؤمنين - أدام الله عزه بالنصر والتمكين - الانجذاب إلى مصر، فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولا يكن فيه ما يخافه في كل لحظة منه عليه». لكن الموفق ما لبث أن علم بما عزم عليه الخليفة المعتمد؛ فأرسل إلى ابن كنداج عامل الموصل والجزيرة يأمره برد الخليفة، فأعاده إلى سامرا(٢).

تطور الخلاف بين الموفق وابن طولون إلى عداء شديد بينهما، فأرسل ابن طولون إلى أهل مصر كتابًا تضمن أن أبا أحمد الموفق طلحة نكث بيعة أخيه المعتمد وحجر عليه(٣)، كما بعث إلى عامله على دمشق كتابًا أمره فيه بأن يدعو القضاة والفقهاء والأشراف إلى مجلسه ويقرأ عليهم كتابه الذى أعلن فيه خلع الموفق من ولاية العهد لمخالفته المعتمد وحصره إياه(٤)، وطلب منهم لعن الموفق

(١) ابن الداية: كتاب «سيرة أحمد بن طولون» ص٦٨ - ٦٩.

(٢) الكندى : كتاب «الولاة والقضاة» ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 68-69.

(٣) الكندى : كتاب «الولاة والقضاة»، ص ٢٢٦.

(٤) البلوى : سيرة أحمد بن طولون، ص ٢٩٥.

على منابر دمشق. ولما بلغ الموفق ما قام به ابن طولون من خلعه من ولاية العهد وحذف اسمه من الخطبة ولعنه على المنابر، طلب من الخليفة المعتمد أن يأمر بلعنه على منابر ولايات الدولة العباسية، فأجابه على كره منه، وولى ابن كنداج على ما كان يليه من البلاد[1].

كان من أثر الدعاية السيئة التى قام بها الموفق ضد ابن طولون ولعنه على المنابر أن ضعف نفوذه فى البلاد التى خضعت لسلطانه، فحلت الهزيمة بجيشه فى مكة[2]، كما عجز عن إخضاع أهالى طرسوس لسلطته[3]، وأخذت الهزائم تتوالى عليه، ثم أصيب بمرض أودى بحياته فى ذى القعدة سنة ٢٧٠هـ.

اجتمع الجند بعد وفاة أحمد بن طولون وولوا مكانه ابنه خمارويه ووافق الخليفة العباسى المعتمد على تعيين الوالى الجديد. غير أن سلطة الطولونيين فى ولاية مصر لم تكن موطدة فى ذلك الوقت، فأصبح لزاما على خمارويه أن يتغلب على الصعاب التى تعترضه. وكان أبو أحمد الموفق طلحة أخو الخليفة المعتمد لايزال على سياسته فى عدائه للطولونيين، فلم يعترف بولاية خمارويه على مصر بحجة أنه لم يأخذ تفويضا شرعيا من الخليفة بهذه الولاية على حين أخذ إسحق ابن كنداج عامل الموصل والجزيرة تفويضا بحكمها من الخليفة قبل وفاة أحمد بن طولون، ومن ثم اتفق مع ابن كنداج وحليفه محمد بن أبى الساج والى أرمينية على أن يرسلا بعض القوات إلى الشام، كما أنفذ الموفق قوة أخرى بقيادة ابنه أبى العباس.

ولما علم خمارويه بمسير هذه القوات إلى الشام، أنفذ جيشا إليها بقيادة كاتب أبيه أبى عبد الله أحمد بن محمد الواسطى وعززه بأسطول قوى من البحر[4]. لكن قوات الموفق وأنصاره أوقعت الهزيمة بالواسطى وتمكنت من الاستيلاء على دمشق، فلم ير خمارويه بدا من المسير بنفسه إلى الشام سنة ٢٧١هـ على رأس جيش كبير واشتبك فى معركة على مقربة من الرملة مع قوات الموفق انتهت

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص ٢٢٧.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ٨، ص٩١.

(٣) الكندى: كتاب «الولاة والقضاة»، ص٢٩٦، الطبرى: جـ٨ ص١٠٢.

(٤) المقريزى: خطط جـ١ ص٢٢١.

بهزيمته وعودته إلى مصر[١]. لكن فلول جيشه سرعان ما باغتوا الجند العباسى أثناء انشغالهم فى جمع الأسلاب والغنائم وقضوا عليهم قضاء تاما. وعندما وصل إلى خمارويه نبأ هذا الانتصار تجددت فى نفسه روح الأمل، فعاد إلى الشام واستولى على مدينة دمشق فى أوائل سنة ٢٧٣هـ. ثم واصل السير لمحاربة ابن كنداج والى الموصل؛ فأوقع بجيشه الهزيمة واضطره إلى التقهقر حتى سامرا[٢].

وكان من أثر هذا النصر الذى أحرزه خمارويه أن عقد الصلح بينه وبين الموفق، وأرسل إليه تفويض موقع عليه من الخليفة المعتمد وأخيه الموفق وابنه المفوض، يتضمن توليته وأبنائه من بعده حكم مصر والشام والثغور الشامية ثلاثين سنة[٣].

على أن نفوذ خمارويه ما لبث أن امتد إلى بعض بلاد الدولة العباسية، فاستولى على الرقة[٤]، واعترف بولايته على الموصل والجزيرة، كما قضى على حركة ابن أبى الساج ـ والى أرمينية ـ الذى خرج عليه وحاول غزو الشام، فالتقى به على مقربة من دمشق وهزمه، ثم أخذ يطارد جيوشه حتى مدينة بلد[٥]. وهناك أقام سريرا من الذهب جلس عليه إشارة إلى انتصاره[٦].

أما عن حالة الخلافة فى ذلك الوقت، فإن الخليفة المعتمد كان مسلوب السلطة مع أخيه أبى أحمد الموفق طلحة. ولما توفى بايع كبار القواد ابنه أبا العباس بولاية العهد ولقبوه المعتضد، فتحولت إليه سلطة أبيه، وسار على سياسته فى إضعاف نفوذ الخليفة المعتمد، ولم يلبث أن خلفه بعد وفاته[٧]. واستطاع خمارويه أن يتقرب إليه بهداياه، فأقره على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٥٠.

(٢) المقريزى: خطط، جـ١ ص٣٢١.

(٣) الكندى: «كتاب الولاة والقضاة» ص٢٣٥ ـ ٢٣٨.

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 73.

(٤) تقع على نهر الفرات.

(٥) تقع على نهر دجلة.

(٦) انظر الكندى: كتاب الولاة والقضاة ص٢٢٩.

(٧) انظر: الطبرى: تاريخ الأمم والملوك. جـ٨. ص١٦٣.

سنة، وجعلها لأولاده من بعده، وقدم رسول الخليفة على خمارويه يحمل إليه اثنتى عشرة خلعة وسيفا وتاجا ووشاحا[١].

كان من أثر سياسة حسن التفاهم بين خمارويه والخليفة المعتضد، أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التى تلقب بقطر الندى من ابن هذا الخليفة، لكنه اختارها زوجة له.

وعلى الرغم من أن هذه المصاهرة أدت إلى توثيق العلاقات بين خمارويه والخليفة العباسى، فإن ما اقترن بها من إسراف[٢] فى النفقات كان له أثر سيئ فى بيت المال فى مصر مما حمل بعض المؤرخين على القول بأن المعتضد كان يرمى من وراء زواجه بقطر الندى إلى نفاد خزانة مصر[٣]. وبذلك يضعف شأنها ويسهل على العباسيين استعادة سلطانهم عليها.

توفى خمارويه سنة ٢٨٢هـ بدمشق وتعاقب على ولاية مصر من بعده ثلاثة من آل طولون، تجلى فى عهدهم انتشار الفوضى وتنازع السلطة بين المتنافسين على الحكم من أفراد البيت الطولونى، وانتصار الجند لفريق دون فريق مما سهل على الخليفة العباسى المكتفى العمل على إعادة مصر إلى سلطان الخلافة، فعهد إلى محمد بن سليمان الكاتب باستردادها من هارون بن خمارويه فسار إليها على رأس أسطول بحرى، والتقى الأسطولان العباسى والمصرى فى تنيس[٤]، فحلت الهزيمة

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٧٨.

(٢) أسرف خمارويه فى تجهيز ابنته حتى قيل أنه لم يبق تحفة من كل لون إلا حملها معها (المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٩١).

وبلغت نفقات الجهاز مليون دينار، ولم يكتف خمارويه بذلك، بل أعطى ابنته مائة ألف دينار لتشترى بها من العراق ما قد تحتاج إليه مما يتعذر وجوده فى البلاد المصرية. (السيوطى حسن المحاضرة جـ٢ ص١٤٨).

كذلك أمر خمارويه أن يبنى لها قصر على رأس كل مرحلة تنزل بها فيما بين مصر وبغداد وأرسل معها أخاه خزرج بن أحمد بن طولون وجماعة من المختصين به، فكانت إذا وافت المرحلة وجدت قصرا به كل ما تحتاج إليه من وسائل الراحة وأسباب الرفاهية كأنها فى قصر أبيها، ولم تزل على ذلك طيلة رحلتها حتى وافت بغداد فى أول محرم سنة ٢٨٢هـ (أبو المحاسن جـ٣ ص٨٧، تاريخ الإسلام، جـ٣ ص٦٦٢).

(٣) ذكر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٥٣.

أن المعتضد أراد (بزواج قطر الندى) أن يفقر أباها خمارويه فى جهازها، وكذلك وقع.

(٤) كانت هذه المدينة تقع على جزيرة فى بحيرة المنزلة، ولم تزل عامرة إلى سنة ٥٧٣هـ (١١٧٧م) (انظر حاشية رقم ٤ ص١٣٢ تاريخ الحضارة الإسلامية للمؤلف).

بأسطول مصر، ووقعت تنيس ودمياط فى يد محمد بن سليمان الكاتب[١]. واضطر هارون بن خمارويه إلى الهرب فقصد العباسة[٢] حيث قتله عماه شيبان وعدى ثم خلفه فى ولاية مصر أحد أعمامه وهو شيبان بن أحمد بن طولون، غير أن الأمور لم تستقر له فثار عليه الجند ولم يعترفوا بولايته، وبعثوا إلى محمد بن سليمان الكاتب يطلبون منه المسير إلى مصر، فقدم إلى الفسطاط ودعا لأمير المؤمنين المكتفى بالله وحده بعد أن كان يدعى معه للأمير الطولونى[٣]. ثم دخل مدينة القطائع وألقى فيها النيران، فالتهمت القصر والميدان والدور والأسواق، ولم يبق فيها إلا الجامع، وعاث جنده نهبا وفسادا فى الفسطاط، وأخرج محمد بن سليمان آل طولون وأعوانهم مكبلين فى الحديد إلى بغداد فى رجب سنة ٢٩٢هـ حتى لم يبق بمصر منهم أحد[٤]. وبذلك قضى على الدولة الطولونية بعد أن حكمت مصر مدة ثمان وثلاثين سنة.

(ب) عودة مصر إلى الخلافة العباسية :

عادت مصر إلى سلطان العباسيين بعد أن قضى محمد بن سليمان الكاتب على حكم الطولونيين فى مصر، وأسند الخليفة العباسى المكتفى ولايتها إلى عيسى ابن محمد النوشرى فقدم إليها فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٢هـ وفى أيامه ثار محمد بن على الخلنجى[٥] ـ أحد قواد الطولونيين ـ وكان من بين الذين خرجوا من مصر مع محمد بن سليمان الكاتب، ثم انصرف عنه بعد وصوله إلى حلب والتف حوله فريق من الجند الذين كانوا فى خدمة الطولونيين وبايعوه، واتفقت كلمتهم على إحياء الدولة الطولونية، ومضى الجميع فى سيرهم إلى مدينة الرملة، فهزموا واليها وأمر ابن الخلنجى بإقامة الدعوة على منابرهم للخليفة العباسى، ومن بعده لإبراهيم بن خمارويه.

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص٢٣٢.
(٢) بلدة صغيرة، تقع إلى الشمال الشرقى من مدينة بلبيس، سميت بذلك نسبة إلى العباسة بنت أحمد بن طولون (انظر: ياقوت: معجم البلدان).
(٣) الكندى: الولاة والقضاة. ص٢٤٧.
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: جـ٣، ص١١٢ ـ ١١٣، ص١٣٧ ـ ١٣٩.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص١٤٥ ـ ١٤٧.
ورد اسمه فى (المقريزى: خطط جـ١، ص٣٢٧) محمد بن الخلنج.

ولما علم عيسى النوشرى والى مصر بخروج ابن الخلنجى، جهز جيشا لملاقاته، فلحقت به الهزيمة عند غزة، واضطر إلى التقهقر بقواته حتى وصل الفسطاط، ثم عبر النيل إلى الجيزة، ومهد بذلك السبيل لدخول ابن الخلنجى الفسطاط بدون مقاومة فى ٢٦ ذى القعدة سنة ٢٩٢هـ، فرحب به أهالى هذه المدينة ودعى له فى الخطبة بعد الخليفة العباسى وإبراهيم بن خمارويه[١].

وجه ابن الخلنجى اهتمامه بعد دخوله الفسطاط إلى ضبط الأمور فى البلاد والقضاء على الفوضى، كما عنى بدفع رواتب الموظفين والجند، ولم يكتف بما أحرزه من نصر فى حاضرة البلاد المصرية، بل أنفذ قوة برية وأخرى بحرية إلى الإسكندرية، ولم يلبث أن تمكن من الاستيلاء عليها.

ظل ابن الخلنجى يقلق بال الخلافة العباسية ما يقرب من ثمانية شهور حتى أرسل إليه الخليفة المكتفى عدة جيوش؛ وانتهى الأمر أخيرا بهزيمته بعد أن انضم أربعة آلاف من جنده إلى الجيش الذى أرسله الخليفة بقيادة فاتك المعتضدى، واضطر ابن الخلنجى إلى العودة إلى الفسطاط، وهناك قبض عليه فى رجب سنة ٢٩٣هـ[٣]، وأرسل إلى بغداد حيث عنفه الخليفة وطيف به وبأصحابه على ظهور الإبل، ثم قتل[٤].

آلت ولاية مصر بعد وفاة عيسى النوشرى فى أواخر شعبان سنة ٢٩٧هـ إلى أبى منصور تكين الذى عينه الخليفة المقتدر؛ وفى عهده شرع الفاطميون يوجهون حملاتهم إلى مصر؛ لكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها، بل حلت بهم الهزيمة واضطروا إلى العودة إلى المغرب.

وعلى الرغم من انتصار تكين على الجيش الفاطمى فإن القائد مؤنس الخادم الذى أنفذه الخليفة العباسى على رأس جيش من العراق لصد الفاطميين عن مصر عزله عن ولايتها وأمره بالرحيل عنها فى ذى الحجة سنة ٣٠٢هـ وكتب إلى الخليفة

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص١٤٨.

(٢) سيدة كاشف: مصر فى عهد الإخشيديين ص٢١ ـ ٢٢.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٣ ص١٥٢.

(٤) المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٢٧.

العباسى بذلك(١). وظل مؤنس الخادم يتولى أمور مصر حتى أسند الخليفة المقتدر ولايتها إلى ذكا الرومى فى أوائل سنة ٣٠٣هـ؛ فوجه اهتمامه إلى وضع حد للأعمال التى قام بها أنصار الفاطميين فى مصر؛ فقبض على كل من اتهم منهم بمراسلتهم، كما مثل ببعضهم، فقطع أيديهم وأرجلهم(٢). كذلك عنى ذكا بتحصين مدينة الإسكندرية والدفاع عنها، فولى عليها ابنه مظفر، وصار يرسل إليها القواد خشية أن يعاود الفاطميون غزوها. ولم يزل هذا الوالى يواصل جهوده فى حشد الجنود لصد الحملات الفاطمية حتى توفى فى ربيع الآخر سنة ٣٠٧هـ(٣).

وكانت الحالة الداخلية فى مصر وقتذاك يسودها الاضطراب، فقد قاسى أهلها كثيرا من عبث الجنود الذين أوفدهم الخليفة العباسى لصد الفاطميين، كما ساءت الحالة المالية بسبب ما استنفده هؤلاء الجنود من نفقات؛ وفضلا عن ذلك فإن السياسة التى اتبعت فى تعيين الولاة وعزل بعضهم مرارا أدت إلى عدم استقرار الأمور فى البلاد؛ فعزل القائد العباسى مؤنس الخادم تكين عن ولاية مصر فى ربيع الأول سنة ٣٠٩هـ، ورغم محبة أهل مصر له وتقديرهم لأعماله، وخلفه بعض ولاة ضعاف، ثار فى أيامهم فريق من الجند، واضطرب الأمن فى البلاد، وعجزت الحكومة المركزية فى بغداد عن إخضاع هؤلاء الثوار. واضطر الخليفة المقتدر إلى إعادة تكين واليا على مصر سنة ٣١٢هـ(٤)، فوجه اهتمامه إلى القضاء على عوامل الاضطراب فى هذه البلاد. وقد تكللت جهوده بالنجاح؛ إذ أضعف من شوكة الجند الثائرين ثم أخرجهم من مصر وتيسر له بذلك إعادة الاستقرار والأمن إلى البلاد، وظل تكين واليا على مصر، حتى توفى الخليفة المقتدر سنة ٣٢٠هـ وخلفه أخوه القاهر بالله، فأقره على ولايته وبعث إليه بالخلع(٥).

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٣ ص١٧٣.

(٤) الكندى: الولاة والقضاة ص٢٧٤، كتاب «الفاطميون فى مصر» ص٨٢.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٣ ص١٩٦.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٣ ص٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٣ ص٢١١، سيدة كاشف: مصر فى عهد الإخشيديين، ص٣٥.

لم تنعم البلاد المصرية بالهدوء والاستقرار بعد وفاة تكين سنة ٣٢١هـ، بسبب النزاع والتنافس على حكمها؛ فولى ابنه محمد ولاية هذه البلاد دون أن يمنحه الخليفة تقليدا بذلك؛ ونافسه فى تدبير أمورها أبو بكر محمد بن على الماذرائى، ولم يلبث أن أرغمه على الخروج إلى الشام. وكتب ابن تكين إلى الخليفة يطلب توليته على مصر، فأجابه إلى طلبه، وعهد إلى الماذرائى بتدبير أمور البلاد المالية. غير أن الماذرائى لم يعترف بولاية ابن تكين ومنعه من دخول البلاد. وظل منصب الولاية شاغرا إلى أن ورد كتاب الخليفة العباسى القاهر بتولية محمد ابن طغج فى شعبان سنة ٣٢١هـ، وكان وقتذاك فى دمشق ـ فصار يذكر اسمه مع الخليفة على منابر مصر نحو اثنين وثلاثين يوما[١]، ثم قلد الخليفة القاهر العباسى ولاية مصر لأحمد بن كيغلغ[٢] للمرة الثانية فى شوال سنة ٣٢١هـ[٣].

ازدادت الحالة سوءا فى مصر بعد عودة أحمد بن كيغلغ واليا عليها، فقد ثار الجند على أبى بكر محمد بن على الماذرائى مطالبين برواتبهم، كما قامت فتن ومعارك بين طوائف الجند، وقدم محمد بن تكين من فلسطين فى ربيع الأول سنة ٣٢٢هـ، وأعلن أن الخليفة العباسى الراضى بالله ولاه مصر، فأدى ذلك إلى نشوب القتال بينه وبين ابن كيغلغ، وانتهى الأمر بهزيمته. غير أن هذا النصر الذى أحرزه ابن كيغلغ لم يترتب عليه توطيد سلطته، فما لبث الخليفة العباسى أن قلد محمد بن طغج ولاية مصر للمرة الثانية سنة ٣٢٣هـ، لبلائه فى صد الجيش الفاطمى عن البلاد المصرية.

وكتب محمد بن طغج إلى أحمد بن كيغلغ كتابا جاء فيه[٤]:

«هذا كتاب الراضى بتقليدى، فإن سلمت وإلا انصرفت بعد أن آخذ خطك وأشهد عليك بمنعك إياى، وأسير إلى حضرة السلطان». فرأى ابن كيغلغ أن يسلم مقاليد الأمور فى مصر لابن طغج بعد أن أيقن من ضعف سلطته وعجزه عن ضبط أمورها[٥].

---

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٢) ولاه الخليفة المقتدر إمرة مصر للمرة الأولى فى ربيع الآخر سنة ٣١١هـ. (أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٢ ص٢٠٦).

(٣) المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٢٨.

(٤) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ص١٢.

(٥) المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٢٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٣ ص٢٤٤.

(جـ) الإخشيديون والخلافة:

كانت العلاقة بين الخليفة الراضى ومحمد بن طغج تنطوى فى بادئ الأمر على الصداقة والود، فقد منحه لقب إخشيد سنة ٣٢٧هـ، ثم لم تلبث أن تبدلت صلة المودة بينهما حين بلغه ازدياد نفوذ محمد بن رائق الخزرى أمير الأمراء ببغداد وأطماعه فى ولاية الشام، فكتب إلى نائبه ببغداد يطلب إليه أن يخبر الخليفة بما وصله عن موقف ابن رائق منه وطموحه إلى مد نفوذه إلى الشام[1]؛ غير أن الخليفة لم يكن وقتذاك لديه من النفوذ بحيث يستطيع أن يتخذ قرارا يلزم أحد الفريقين باتباعه. ولذلك استقر رأى محمد الإخشيد على إعداد العدة لمحاربة ابن رائق؛ فخرج على رأس جيشه فى أوائل سنة ٣٢٧هـ، ودارت بين الفريقين معركة فى العريش حلت فيها الهزيمة بابن رائق، فمضى منهزما إلى الرملة، ثم تداعيا إلى الصلح، واتفقا على أن تكون طبرية وما فى شمالها من البلاد لمحمد بن رائق[2].

على أن ابن رائق لم يلبث أن نقض هذا الصلح، وسار بجيشه من دمشق فى شعبان سنة٣٢٨هـ، وقصد الرملة فى طريقه إلى مصر. فكتب إليه الإخشيد رغبة فى أن يصل معه إلى اتفاق ينهى الحرب بينهما، لكن محاولته السلمية باءت بالفشل، وعاد القتال بينهما سيرته الأولى؛ فهزم جيش الإخشيد فى بداية الأمر عند العريش، ثم انسحب ابن رائق إلى دمشق، وأرسل الإخشيد جيشا لمطاردته، لكنه لم يتمكن من التغلب عليه، وانتهى النزاع بينهما رغم ذلك بعقد الصلح، على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالى الرملة، وعلى أن يدفع الإخشيد إليه جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار[3]. ومن المحتمل أن الإخشيد اضطر إلى قبول هذا الصلح، خشية أن توجه الخلافة العباسية الحملات ضده، ورغبة فى التفرغ لمواجهة الغزو الفاطمى الذى كان يهدده من ناحية حدود مصر الغربية[4].

---

(١) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ص٢٦، كتاب «النفوذ الفاطمى فى الشام» للمؤلف ص١٠.
(٢) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين ص٨٢ ـ ٨٣.
(٣) الكندى: الولاة والقضاة ص٢٨٩، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٣ ص٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٤) انظر: النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام للمؤلف ص١١.

استطاع الإخشيد أن يعيد بلاد الشام إلى حوزته من غير حرب بعد وفاة ابن رائق سنة ٣٣٠هـ، وبذلك استقر حكمه فى هذه البلاد، ولم يلبث أن أصبح من القوة بحيث اضطر الخليفة المتقى إلى الاستنجاد به بعد أن ساءت علاقته بتوزون التركى، فجاءه الإخشيد وهو بالرقة[١]، وقال له: «يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك، وقد عرفت الأتراك وفجورهم وغدرهم، فالله الله فى نفسك، سر معى إلى مصر، فهى لك وتؤمن على نفسك» فأبى الخليفة قبول دعوته ـ وكان قد سعى إلى مصالحة توزون ـ ورحل من الرقة قاصدا بغداد فى المحرم سنة ٣٣٣هـ. وقد سر الخليفة المتقى من إخلاص الإخشيد له، فقلده ولاية مصر وجعل له حق توريث إماراتها لأبنائه من بعده مدة ثلاثين سنة، كما حصل الإخشيد على تقليد من الخليفة المستكفى فى جمادى الآخرة من هذه السنة، أقره فيه على ولاية مصر والشام. وقام الإخشيد بالدعاء له على المنابر فى أنحاء ولايته[٢].

ظلت العلاقة بين مصر والخلافة يسودها الوفاق؛ فأقر المطيع الذى خلف المستكفى سنة ٣٣٤هـ الإخشيد على ولايته. وكانت سلطة الإخشيد وقتذاك قد اتسعت، فاستقر له الحكم فى مصر والشام، وقلده الخليفة ولاية الحرمين[٣] واليمن. فيروى ابن سعيد[٤] أن محمد بن طغج «ما زالت همته تعلو وسعادته تعينه إلى أن ملك مصر والشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن».

ولما توفى الإخشيد بدمشق فى أواخر سنة ٣٣٤هـ خلفه بعهد منه ابنه أبو القاسم أنوجور ـ وكان لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، فقام بتدبير أمره كافور الإخشيدى الذى أخذ يترقى فى بلاط الإخشيد حتى أصبح مربيا لأولاده وقائدا من قواده، ثم آلت إليه الوصاية على ابنيه أنوجور وأبى الحسن على[٥]. وقد توطدت سلطة أبى القاسم أنوجور بعد أن وصله كتاب الخليفة المطيع لله يقره على ولاية

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٣ ص٤١٨.

(٢) الكندى: الولاة والقضاة ص٢٩٢.

(٣) كان الخليفة الراضى قد أسند ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طغج الإخشيد، وأيد ذلك أخوه المتقى من بعده، فضم إليه الحجاز، وصارت تقام له الخطبة مع الخليفة العباسى على منابر مكة والمدينة.

انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٣٢٦، النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب للمؤلف ص١١.

(٤) المغرب فى حلى المغرب، ص٤٤.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٢٩١.

مصر والشام وما كان لأبيه من الولاية[١]، ولما استأثر معز الدولة بن بويه بالسلطة فى بغداد دون الخليفة العباسى، بعث إليه أنوجور سنة ٣٣٨هـ يطلب منه الموافقة على أن يشترك معه أخوه فى إمرة مصر ويخلفه بعد وفاته؛ فأجابه إلى طلبه[٢].

أصبح كافور منذ ولى الوصاية على أبى القاسم أنوجور صاحب السلطان المطلق فى إدارة الدولة الإخشيدية. وبلغ من ازدياد نفوذه أنه حدد لأبى القاسم راتبا سنويا قدره أربعمائة ألف دينار[٣]، كما لم يتح له أى فرصه لإظهار مدى كفايته للحكم، بل انفرد بتدبير أمور الدولة مع أعوانه، وصار يدعى له على المنابر منذ سنة ٣٤٠هـ[٤].

ولما توفى أبو القاسم أنوجور فى ذى القعدة سنة ٣٤٩هـ، خلفه أخوه أبو الحسن على بن الإخشيد، وأقره الخليفة المطيع على ولاية مصر والشام والحرمين، وعلى الرغم من أن الأمير الجديد قد ناهز الثالثة والعشرين من عمره، فإن كافور ظل يباشر بنفسه أمور الدولة، وحال بينه وبين القيام بأى عمل يتصل بشئون الحكم، بل منعه من الاجتماع بالناس، وحدد له أربعمائة ألف دينار فى كل سنة أسوة بأخيه[٥]. واستمر الحال على ذلك حتى توفى الأمير أبو الحسن على بن الإخشيد سنة ٣٥٥هـ وكان الوارث له ولدا صغيرا فى التاسعة من عمره يدعى أحمد؛ اعترض كافور على توليته محتجا بصغر سنه. وبقيت مصر عدة أيام بغير وال حتى ورد كتاب من الخليفة العباسى فى المحرم من هذه السنة بتقليد كافور ولاية مصر وما يليها من البلاد؛ فدعى له على المنابر، ومع ذلك فقد احتفظ كافور بلقبه «الأستاذ» ولم يلقب بالأمير[٦]. يقول ابن خلكان[٧] «إنه لما أشير على كافور بإقامة الدعوة لولد أبى الحسن على بن الإخشيد احتج بصغر سنه، وركب بالمطارد وأظهر خلعا جاءته من العراق، وكتابا بتكنيته، وركب بالخلع يوم الثلاثاء لعشر خلون من صفر سنة خمس وخمسين وثلاثمائة».

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٢٩١.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٢٩٨.
(٣) المقريزى: خطط جـ١ ص٣٢٩.
(٤) المقريزى: خطط، جـ٢، ص٢٧.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٣، ص٣٢٦، سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين ص١٢٦.
(٦) المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٣٠، جـ٢ ص٢٧.
(٧) وفيات الأعيان جـ١ ص٥٤٧.

لم يكن كافور من أفراد البيت الإخشيدى، ومع ذلك فقد آسند إليه الخليفة العباسى ولاية مصر لأن مقاليد الأمور فى البلاد كانت بيده منذ وفاة محمد بن طغج الإخشيد، فلما توفى على بن الإخشيد، استقل بحكم مصر؛ غير أنه لم يستمر طويلا فى حكمها، فقد توفى فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧[١] واجتمع كبار القواد ورجال الدولة، وأسندوا الولاية لأبى الفوارس آحمد بن على بن الإخشيد ـ وكان فى الحادية عشرة من عمره ـ ودعى له على منابر مصر والشام والحرمين، ثم من بعده للحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد على اعتبار أنه سيخلفه[٢]. ولم يلبث الحسن أن قدم إلى مصر منهزما من القرامطة؛ وظل يتولى تدبير أمورها نحو ثلاثة أشهر[٣]، وأساء خلالها معاملة الأهلين؛ ثم اضطر أخيرا إلى العودة إلى الشام بعد أن تم لجوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فتح مصر فى شعبان سنة ٣٥٨هـ[٤].

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١، ص٥٤٧.
(٢) المقريزى: خطط جـ١، ص٣٣٠، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص٩.
(٣) كتاب «مصر فى عصر الإخشيديين» ص١٠٢.
(٤) المقريزى: خطط جـ١ ص٣٣٠.

الباب الثالث

السيادة الفاطمية فى مصر

١ ـ امتداد سلطان الفاطميين إلي مصر.

٢ ـ اتخاذ مصر مقرا للخلافة الفاطمية.

١ ـ امتداد سلطان الفاطميين إلى مصر :

رأى الفاطميون بعد أن امتد نفوذهم فى بلاد المغرب أن هذه البلاد لا تصلح لتكون مركزا لدولتهم، ففضلا عن ضعف مواردها كان يسودها الاضطراب من حين لآخر. لذلك اتجهت أنظارهم إلى مصر لوفرة ثروتها وقربها من بلاد المشرق الأمر الذى يجعلها صالحة لإقامة دولة مستقلة تنافس العباسيين.

كان عبيد الله المهدى يطمع فى أن يتخذ مصر قاعدة يوجه منها حملاته إلى بغداد للقضاء على الخلافة العباسية المتداعية، لذلك وجه نشاطه على أثر تأسيس خلافته بالمغرب إلى وضع الخطط لغزو مصر، فأعد فى سنة ٣٠١هـ (٩١٣) جيشا من المغاربة تحت إمرة ابنه وولى عهده أبى القاسم وقائده حباسة بن يوسف، واستولى هذا الجيش على برقة فى طريقه إلى مصر؛ ثم واصل السير حتى استولى على الإسكندرية وتوغل فى الوجه البحرى؛ وأنفذ الخليفة المقتدر العباسى مؤنسا الخادم لدفع المغيرين، واشتبك الفريقان فى معركة ببلدة مشتول على مقربة من الجيزة، وانهزم حباسة وعاد إلى بلاد المغرب حيث قتله الخليفة عبيد الله المهدى على أثر رجوعه[١].

وقد كشفت هذه الحملة ـ رغم ما أصابها من فشل ـ عن ميل كثير من المصريين إلى الدعوة الفاطمية بفضل دعاة الإسماعيلية كأبى على الداعى الذى بذل مجهودا كبيرا فى دعوة أهالى مصر إلى الدخول فى المذهب الإسماعيلى، وقام بمصر بنفس الدور الذى قام به أبو عبد الله الشيعى فى بلاد المغرب.

رأى عبيد الله المهدى أن يعاود الكرة لغزو مصر؛ فأخذ فى إعداد جيش لفتحها، وأوفد أبا القاسم على رأس هذا الجيش فى أواخر سنة ٣٠٦هـ، فاستولى على الإسكندرية سنة ٣٠٧هـ (٩١٩م) دون عناء، ثم سار إلى الجيزة، وأخذ الفاطميون يتوغلون فى بلاد الوجه القبلى حتى تمكنوا من الاستيلاء على الأشمونين والفيوم.

---

(١) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبرى، ص٥٣.

على أن الخليفة المقتدر العباسى ما لبث ـ بعد أن بلغه نجاح الفاطميين فى الزحف على مصر ـ أن أرسل قائده مؤنس الخادم على رأس جيش إلى تلك البلاد، فانتصر على الفاطميين واستولى على سفنهم وأحرقها[١] وبذلك حلت الهزيمة بالحملة الفاطمية، وكان من أهم عوامل إخفاقها أن الخطة التى وضعها المهدى لغزو مصر لم تنفذ بدقة، ذلك أن أبا طاهر الجنابى أمير القرامطة ببلاد البحرين لم يتقدم بجيشه إلى مصر ليعاون جيش الفاطميين.

ولما اضطربت أحوال الخلافة العباسية ببغداد بعد وفاة الخليفة المقتدر وانقسم القادة الأتراك على أنفسهم؛ اتخذ عبيد الله المهدى من ذلك فرصة سانحة لمعاودة فتح مصر، فاتفق مع أبى طاهر الجنابى على إثارة الاضطراب فى بلاد المشرق فى الوقت الذى تزحف فيه جيوشه إلى مصر، وأرسل حملة إلى تلك البلاد سنة ٣٢١هـ (٩٢٣م) تحت قيادة حبشى بن أحمد المغربى: فحدثت مناوشات بين جنود الفاطميين والمصريين، ثم عقدت هدنة فى صفر سنة ٣٢٢هـ بين الطرفين المتحاربين، غير أن هذه الهدنة لم يطل أمدها، فنشبت عدة وقائع بين المغاربة والمصريين فى بعض المدن كالجيزة وبلبيس، ثم أوقع محمد بن طغج (الإخشيد) الهزيمة بالفاطميين فى جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـ (٤٣٤هـ) فاضطروا إلى العودة إلى بلاد المغرب، وقبل ذلك بشهرين توفى الخليفة عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية وأخفى ابنه أبو القاسم موته ولم يعلنه للناس إلا بعد سنة حيث استقرت أموره فى المغرب وتلقب بالقائم.

تابع أبو القاسم سياسة أبيه المهدى فى غزو مصر، فأرسل إليها جيوشه فى أواخر سنة ٣٢٣هـ، فوصلت الإسكندرية فى أوائل سنة ٣٢٤، وانضم إليها بعض زعماء المصريين، مما يدلنا على مدى تأثير الدعاية الفاطمية فى تلك البلاد، فأنفذ إليهم الإخشيد قوة كبيرة، استطاعت أن تهزم جند الفاطميين الذين ما لبثوا أن أرغموا على العودة إلى أفريقية[٢].

لم تثبط تلك الهزائم التى لحقت بالفاطميين من عزمهم على بذل جهودهم لبسط سيادتهم على مصر، فلجأ الخليفة القائم إلى المفاوضات لعله يبلغ بها ما لم

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٠٣ ـ ١٠٤.

(٢) الكندى: الولاة والقضاة، ص٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧.

تبلغه الحملات السابقة، وأنفذ إلى محمد الإخشيد رسولا ومعه كتاب يطلب فيه صداقته إيثارا للمسالمة. وكان مما ورد فى هذا الكتاب[1] «أرجو أن تقودك صحة عزيمتك وحسن رأيك إلى ما أدعوك إليه، فقد شهد الله على ميلى إليك وإيثارى لك ورغبتى فى مشاطرتك ما حوته يمينى واحتوى عليه ملكى، وليس يتوجه لك العذر فى الخلف عن إجابتى، لأنك قد استفرغت مجهودك فى مناصحة قوم لا يردون إحسانك ولا يشكرون إخلاصك، يخلفون وعدك ويحفزون ذمتك، لم يعتقد فيهم أحد حسن المكافأة ولا جميل المجازاة. وليس ينبغى لك أن تعدل عن منهج من نصحك وإيثار من آثرك، إلى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك، وأنا أعلم أن طول العادة فى طاعتهم قد كره إليك العدول عنهم فإن لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق، فإنى أرضى منك المودة والأمر والطاعة حتى تقيمنى مقام رئيس من أهلك..».

على أن الإخشيد رأى أن تتاح له فرصة التفكير فى الأمر، لم يسلم رسول الخليفة الفاطمى رد هذا الكتاب، بل «احتج إليه بأنه لا يقرأ ولا يكتب، ولا يجوز له أن يبوح بما فى نفسه إلى كاتب» ثم قال: «أنا أتدبر الجواب، وأجيب عنه وسيصل مع من أثق به، وأسلك من حسن الموالاة ما لم يكن غيرى يسلكه».

ولا شك أن الإخشيد لم تخف عليه مطامع الخليفة الفاطمى التى تنطوى على دعوته للدخول فى طاعته، لكنه كان يحرص على بقائه تحت لواء الخلافة العباسية؛ إذ أن ضعفها يتيح له التمتع ببعض الاستقلال، وقيل أن الإخشيد فكر فى قطع صلته بالخلافة العباسية، وحذف اسم الخليفة العباسى الراضى من الخطبة وذكر اسم الخليفة القائم الفاطمى بدله حين وصل إليه أن الخليفة العباسى قلد محمد بن رائق الخزرى ولاية الشام سنة ٣٢٨هـ، لكن بعض أخصائه نصحوه بالعدول عن ذلك.

وعلى الرغم من تمسك الإخشيد بألا يكون تابعا للخليفة القائم الفاطمى فإنه سعى لتوثيق علاقته به، فبعث إليه كتابا يعرض عليه زواج ابنته من ولى عهده المنصور، وأجاب الخليفة الفاطمى على ذلك بكتاب جاء فيه[2]: «وصل كتابك،

(١) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص٢٥ ـ ٢٦.

(٢) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب، ص٢٧.

وقد قبلنا مـا بذلت وهى وديعة لنا عندك، وقد منحناها من بيت مـالنا قبلك مائة ألف دينار، فوصل ذلك إليها».

لم يؤد هذا الكتـاب إلى زواج ابنة الإخشـيد بالمنصور بن القـائم، ذلك أن الخليفة الفاطمى ـ على مـا يفهم من كتابه ـ عامل الإخشيـد كأحد ولاته، وأصبح يرى أن فى ذمتـه إتاوة أو مالا للحكومـة الفاطمـية، ومن ثم منح ابنتـه مائة ألف دينار من هذا المال، أما الإخشـيد، فكان يظن أن القائم سيـرسل إليه من الأموال والهدايا ما يفخر به، فلما لم تتحقق أمنيته فشل مشروع الزواج(١).

ظل محـمد الإخشيـد مواليا للخـلافة العبـاسية فى بغـداد حتى توفى سنة ٣٣٤هـ (٩٤٦)، ثم واجهت مصر بعد وفاته عدة صعوبات، ذلك أن سيف الدولة الحمـدانى أمير حلب أغـار على دمشق ثم عول على السـير إلى الرملة للاستـيلاء على مصر، فنهض كافور الذى كان يقوم بالوصاية على أنوجور بن الإخشيد لدفع ذلك الخطر فرد الجيش الحمدانى منهزما إلى حلب وحال دون مسيره إلى مصر.

أما من ناحـية المغرب، فإن المنصـور الفاطمى الذى آلت إليه الخلافـة، بعد وفاة أبيه القائم سنة ٣٣٤هـ، لم يقم بأية محـاولة لغزو مصر، ويرجع سبب ذلك إلى انشغال هذا الخليفة بالعمل على ضـبط الأمور فى دولته. لكن الفاطميين رغم ذلك كانوا يرقبون الأمور فى البـلاد المصرية، ويأملون أن يتمكنوا من مد سلطانهم عليها.

وقد حرص كافـور الذى كان وقتذاك يستأثر بالسلطة فى مـصر على تحسين علاقته؛ بكل من الخليفة العباسى والخلـيفة الفاطمى، فكان ـ كما قال أبو المحاسن فى كتابه «النجوم الزاهرة(٢)» يهادى المعز صـاحب المغرب ويظهر ميـله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء.

وفى عهد ولاية كافـور حاول الخليفة المعز إعادة الكرة للاستـيلاء على مصر فبعث جموعـا من عساكره هاجمت الواحات المصرية؛ فأعد كافـور جيشا أجلاهم عنها، كما وجه هذا الخليـفة اهتمامه إلى نشر الدعوة الفاطميـة فى مصر، فقدمت

(١) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص٣٦١، ٣٦٢.
(٢) جـ٤، ص٦.

رسله إلى كافور، تدعوه إلى الاعتراف بسيادته، فرحب بهم ولم يعطهم أى رد حاسم، على حين استطاع دعاة الفاطميين أن يأخذوا البيعة للمعز من رجال بلاد كافور وكبار موظفى دولته(١).

لما توفى كافور سنة ٣٥٧هـ (٩٦٨م)، اضطربت الحالة السياسية فى مصر فوقع اختيار رجال البلاط على أبى الفوارس أحمد ـ حفيد الإخشيد ـ ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره، وما لبث أن استقل الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات(٢) بتدبير أمور ولاية مصر وأصبحت البلاد فى عهده مسرحا للفوضى، فقبض على طائفة من كبار الموظفين وذوى الرأى وصادر أملاكهم، وكان من بينهم يعقوب بن كلس(٣) الذى ظل معتقلا حتى شفع له الشريف أبو جعفر مسلم بن عبد الله الحسينى عند الوزير ابن الفرات فأطلق سراحه، ولم يلبث ابن كلس أن هرب إلى بلاد المغرب حيث التقى بالخليفة المعز ودله على وجوه ضعف مصر، كما حثه على النهوض لغزوها.

على أن ابن الفرات لم يفلح فى القضاء على عناصر الفوضى فى أواخر عهد الإخشيديين. بل ساءت فى أيامه الحالة المالية، وحل بالبلاد الوباء والقحط من جراء انخفاض النيل، وفقدات الحكومة كل هيبة واستقرار، وعلى الأخص حين عجزت عن دفع رواتب الجند وجمع الضرائب مما حمل كثيرا من أولى الرأى فى مصر على الكتابة إلى المعز لدين الله يطلبون إليه القدوم إلى مصر لإنقاذها من الفوضى التى انتشرت فيها منذ أن توفى كافور(٤).

وكان الخليفة المعز يعد العدة لفتح مصر قبيل وفاة كافور؛ ففى سنة ٣٥٦هـ (٩٦٧م) أمر بإنشاء الطرق وحفر الآبار فى طريق مصر، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة، ولما وصلته الأخبار بوفاة كافور سنة ٣٥٧هـ أخذ فى إعداد المال اللازم لتجهيز حملة لفتح مصر، كما بعث إلى دعاته بالبلاد المصرية أعلاما وأمرهم أن

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٢٧.

(٢) كان جعفر بن الفرات مندوبا للخلافة فى مصر والشام.

(٣) كان يعقوب بن كلس يهوديا، نشأ ببغداد، ثم سافر مع أبيه إلى الشام، ورحل منها إلى مصر حيث اتصل بكافور، فأعجب بذكائه وعينه فى ديوانه الخاص، ولما أظهر إسلامه فى شعبان سنة ٣٥٦هـ، زادت حظوته عند كافور (ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣، ص٤٦١).

(٤) سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص٢٦٥.

يوزعوها على الجند الذين يؤيدون بيعته لينشروها إذا ما اقتربت عساكره من مصر(١).

عهد المعز لدين الله إلى جوهر الصقلى بقيادة الحملة التى أعدها لفتح مصر وخرج لوداعه يوم رحيله من القيروان فى الرابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٨هـ فسار جوهر على رأس جيشه حتى وصل برقة فقدم له صاحبها فروض الطاعة واحتفل بلقائه، ثم مضى فى سيره قاصدا الإسكندرية فدخلها من غير مقاومة ومنع جنده من التعرض للأهلين واستطاع أن يتألف عساكره بما أغدقه عليهم من الأرزاق.

ولما وردت إلى الفسطاط أخبار وصول جوهر إلى الإسكندرية واستيلائه عليها، شاور الوزير جعفر بن الفرات ذوى الرأى والنفوذ من أهلها، فاستقر رأيهم على مفاوضة جوهر فى شروط التسليم وطلب الأمان على أرواح المصريين وأملاكهم، واتفقوا على تأليف وفد للمفاوضة وكان على رأسه الشريف أبو جعفر مسلم الحسينى والقاضى أبو طاهر الذهلى، فالتقى الوفد بالقائد الفاطمى عند تروجة(٢) فى ١٨ رجب ٣٥٨هـ، وتصدى أبو جعفر مسلم لمفاوضته، وانتهت المفاوضة بكتاب الأمان(٣) الذى كتبه جوهر وأعلنه للمصريين. وقد بين جوهر فى هذا الكتاب الذى التمسه وفد أهالى الفسطاط، أن جيوش الفاطميين إنما قدمت لحمايتهم، كما عرض لبرنامج الإصلاح الذى سيقوم به كإقامة شعائر الحج وإصلاح الطرقات، والعمل على استتباب الأمن وتوفير الأقوات وإصلاح العملة، ونشر العدل، كما وعد بترميم المساجد وتأثيثها، وأن تدفع للمؤذنين فيها والأئمة رواتبهم من بيت المال. كذلك نص فى كتاب الأمان على أن يظل المصريون على مذهبهم، أى لا يلزمون بالتحول إلى المذهب الشيعى وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره والزكاة والحج والجهاد على ما ورد فى كتاب الله وسنة رسوله، وتعهد جوهر فى كتاب الأمان بتأمين المصريين على أنفسهم وأموالهم وأهاليهم وضياعهم.

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٤٧.

(٢) تروجة: إحدى قرى مركز أبى المطامير بمحافظة البحيرة.

(٣) انظر: المقريزى. اتعاظ الحنفا، ص١٤٨ ـ ١٥٣.

على أن أهل الفسطاط لم يقبلوا هذا الأمان، كما تبين فى الوقت نفسه أن طائفة كبيرة من الجند غير راضية عن عقد الصلح، وقالوا: «ما بيننا وبين جوهر إلا السيف»، وولوا قائدا من بينهم يسمى «نحرير» الإمارة، وعلم بذلك جوهر، فقدم بجيشه إلى الجيزة واستطاعت فرقة من جنده عبور النيل عند منية شلقان (شرقى القناطر الخيرية)، ودار القتال بينها وبين الجند المصريين، فقتل منهم عدد كبير، ثم استقر رأى المصريين على مطالبة الشريف أبى جعفر مسلم الحسينى بالكتابة إلى جوهر فى إعادة الأمان، فكتب إليه يهنئه بالفتح ويسأله الأمان من جديد، فأجاب القائد الفاطمى دعوة الشريف وأعاد الأمان، وأذاع على الجند منشورا يحرم فيه عليهم أن يقوموا بعمل من أعمال السلب والنهب، ثم خرج أبو جعفر مسلم وجعفر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء ووجوه التجار والأعيان إلى الجيزة لاستقبال جوهر. وهدأت الحالة فى الفسطاط وعادت الأعمال التجارية إلى ما كانت عليه[1] وهكذا بدأ حكم الفاطميين فى مصر وزال عهد الدولة الإخشيدية.

تأسيس مدينة القاهرة والجامع الأزهر:

رأى جوهر بعد أن تيسر له ضم مصر إلى حوزة الفاطميين أن يشرع فى إنشاء مدينة جديدة تكون مقرا للخلافة الفاطمية ومركزا لنشر دعوتها الدينية، وعدل عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر عاصمة له.

ووضع جوهر أساس المدينة التى عزم على إنشائها شمالى الفسطاط فى ليلة ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ، كما وضع فى الليلة التالية أساس القصر الذى بناه لمولاه المعز، وعرف هذا القصر باسم القصر الشرقى الكبير، ثم أقام حول تلك المدينة وقصر الخليفة سورا كبيرا.

أطلق جوهر على مدينته الجديدة اسم المنصورية تقربا إلى خليفته المعز بإحياء ذكرى والده المنصور، وظلت تعرف بذلك حتى قدم المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر بعد أربع سنوات فسماها القاهرة[2] تفاؤلا بأنها ستقهر الدولة العباسية

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٥٨.

المنافسة، وقيل أيضا أنها سميت القاهرة لأنها تقهر من شذ منها وحاول الخروج على أميرها[١]، كما روى أن اسم القاهرة مأخوذ من قول المعز - وهو يودع جوهر أمام جمع من مشايخ كتامة الذين وجههم معه - «والله لو خرج جوهر هذا وحده، لفتح مصر... وليدخلن في خرابات ابن طولون ويبنى مدينة تسمى القاهرة، تقهر الدنيا[٢]».

أنشأ جوهر بسور القاهرة[٣]، أربعة أبواب وهي: باب النصر، وباب الفتوح، وبابا زويلة[٤]، ويعرف أحد هذين البابين الأخيرين باسم باب القوس، وقد مر منه المعز عند قدومه إلى القاهرة، وصار الناس يتبركون بالمرور به، أما الباب الثاني فقد تشاءم منه الناس وهجروه[٥].

وكانت القاهرة وقت إنشائها تحد من الشمال بموقع باب النصر، ومن الجنوب بموقع باب زويلة وما يليه، وتحد شرقا بموقع باب البرقية وباب المحروق المشرفين على المقطم، وتعرف هذه المنطقة في أيامنا بالدراسة، وتحد غربا بباب سعادة وما يليه حتى شاطىء النيل.

كان بمصر قبل الفتح الفاطمي ثلاثة مساجد جامعة، هي: جامع عمرو بن العاص الذى أسس سنة ٢١هـ، وسمى فى عهد ازدهاره تاج الجوامع، ثم عرف بعد أن تقادم به العهد بالجامع العتيق، ويقع شمالى حصن بابليون الذى كانت تقيم فيه حامية الروم وقت الفتح الإسلامي، ولما أصبحت مصر تابعة للخلافة العباسية،

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص٥٢٨ - ٥٢٩.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٦٢.

(٣) لما تقلد أمير الجيوش بدر الجمالى منصب الوزارة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى أعاد بناء السور المحيط بالقاهرة المعزية، واستخدم الحجارة فى تجديده سنة ٤٨٠هـ، كما بنى باب الفتوح أيضا فى هذه السنة فى مكان آخر غير الذى بنى فيه جوهر بابه، وتفيدنا النقوش التي عثر عليها أخيرا بسور القاهرة أن هذا الباب كان يعرف باسم باب الإقبال. كذلك نقل بدر الجمالى باب النصر الذى بناه جوهر إلى المكان الذى يوجد به الآن، وبنى فى سنة ٤٨٤هـ باب زويلة الكبير، وقد استعان بدر الجمالى فى تجديد بناء هذه الأبواب بثلاثة إخوة من مدينة الرها، بنى كل منهم بابا (انظر المقريزى: خطط جـ١، ص٣٨٠ - ٣٨١).
Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, P. 152.

(٤) عرفا بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة زويلة إحدى قبائل البربر التى جاءت مع جوهر من بلاد المغرب (القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص٣٥٢).

(٥) انظر: المقريزى: خطط، جـ١ ص٣٦١، ٣٦٢، ٣٨٠.

بنى واليها الفضل بن صالح سنة ١٦٩هـ مسجد العسكر بجوار دار الإمارة، ثم بنى أحمد بن طولون بعد أن استقل بولاية مصر سنة ٢٦٣هـ مسجده المعروف باسمه على جبل يشكر فى الجهة الجنوبية من القاهرة الحالية، والجهة الشمالية من العسكر.

وكانت هذه المساجد الجامعة الثلاثة تعتبر رمزا لسيادة الإسلام الروحية ومنبرا للدين الجديد، فجامع عمرو بن العاص كان يمثل ظهور الإسلام فى مصر وانضواء تلك البلاد تحت الحكم العربى، أما جامع العسكر فإن تأسيسه إلى جانب جامع عمرو بن العاص أكبر دليل على نجاح الدعوة العباسية فى مصر وانضمام تلك البلاد إلى حوزة العباسيين، كذلك الحال فيما يتعلق بجامع أحمد بن طولون، فنستطيع أن نقول أن إقامته ترجع إلى الرغبة فى إظهار الدولة الطولونية وسيادتها.

* * *

لما أسس جوهر مدينة القاهرة فى نفس الليلة التى دخل فيها مدينة مصر، رأى ألا يفاجئ السنيين فى مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمى خشية إثارة حفيظة المصريين عليه، ومن ثم عول على بناء مسجد يكون رمزا لسيادة الدعوة الفاطمية، كما كانت القاهرة رمزا لسيادة الفاطميين على مصر، فشرع فى بناء الجامع الأزهر فى اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠م)، وتم بناؤه فى سنتين تقريبا، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة فى اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١[١] (٩٧٢م).

وقد سمى هذاالجامع فى بادئ الأمر بجامع القاهرة[٢] نسبة إلى العاصمة الجديدة التى أنشأها جوهر. وهناك ما يدل على أن هذه التسمية هى التى كانت تغلب عليه طوال العصر الفاطمى، وذلك أن معظم مؤرخى هذا العصر يذكرونه دائما باسم جامع القاهرة، أما تسميته بالجامع الأزهر، فيظهر أنها أطلقت عليه فى عصر العزيز بعد إنشاء القصور الفاطمية التى كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة. وقال آخرون إنما سمى بذلك لما سيكون له من الشأن العظيم والمكانة الكبرى بازدهار العلوم فيه، على أنه ليس ببعيد أن يكون الفاطميون الذين ينتسبون إلى فاطمة بنت الرسول ﷺ سموه الأزهر إشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء، وقد

(١) المقريزى: خطط، جـ٢، ص٢٧٣.

(٢) المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٦٢.

استمر هذا الجامع يعرف بهذين الاسمين حتى عصر المقريزى فى أوائل القرن التاسع الهجرى، ثم تقلص الاسم القديم وغلب عليه اسم الجامع الأزهر.

كان الجامع الأزهر وقت إنشائه يتوسط العاصمة الفاطمية الجديدة، ويشتمل على مكان مسقوف للصلاة يسمى المقصورة، وآخر غير مسقوف يسمى صحنا، وقد بنى فيه القائد جوهر مقصورة كبيرة، وأنشأ بها محرابا يسمى الآن القبلة القديمة، وكان الخلفاء الفاطميون منذ عهد المعز يحتفلون بإقامة الصلوات يوم الجمعة والأعياد فى الجامع الأزهر، وكثيرا ما كانوا يؤمون الناس فى الصلاة ويخطبون فيهم، وكانت تقام بهذا الجامع إلى جانب الصلوات بعض الحفلات الدينية.

٣ـ اتخاذ مصر مقرا للخلافة الفاطمية :

شرع جوهر الصقلى منذ أن وضع أساس مدينة القاهرة فى التمهيد لاتخاذها حاضرة للخلافة الفاطمية، فأمر بحذف الدعوة لخلفاء بنى العباس التى كانت تقام بمساجد مصر وأقامها للخليفة المعز، وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمى(١) بدلا من اسم الخليفة العباسى، وعلى أحد وجهيها: «دعا الإمام معد بتوحيد الإله الصمد»، وفى السطر الثانى: «المعز لدين الله أمير المؤمنين»، وفى السطر الثالث: «ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة» وعلى الوجه الآخر: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، علىٌّ أفضل الوصيين وزير خير المرسلين».

كذلك منع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين، وزيد فى الخطبة العبارة الآتية(٢): «اللهم صل على محمد النبى المصطفى، وعلى على المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا، اللهم صل على الأئمة الراشدين، آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين»، كما أمر جوهر بأن يؤذن فى جميع المساجد بحى على خير العمل(٣)، وهى من العبارات التى يتميز بها الأذان عند الشيعيين، ولم تلبث هذه التغييرات الدينية التى أدخلها جوهر الصقلى رغبة فى نشر الدعوة الفاطمية أن لقيت كثيرا من النجاح مما سر القائد جوهر، فبعث للمعز يخبره بما لقيته دعوته من تأييد.

رأى جوهر بعد أن استقر سلطان الفاطميين فى مصر أن يكتب إلى المعز يستدعيه ليتولى بنفسه زمام الحكم فى البلاد، فلما أيقن المعز أن دعائم ملكه قد توطدت فى مصر عول على الرحيل إليها، فاستخلف يوسف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى على إفريقية والمغرب(٤)، وخرج من المنصورية فى شوال سنة ٣٦١هـ متوجها إلى مصر وبصحبته كثير من أتباعه وجمع كبير من رجالات

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٦٤ ـ ١٦٥.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٦٦.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٦٩.
(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٨ ص٢٠٥.

دولته، من بينهم أولاده وإخوته وأعمامه، كما أحضر معه رفات آبائه[١] (عبيد الله المهدى، والقائم، والمنصور)، وفضلا عن ذلك فإنه كان فى ركابه خمسمائة حمل من الأموال التى أخرجها من قصور آبائه. وقد تابع المعز سيره مارا ببرقة حتى دخل الإسكندرية فى شعبان سنة ٣٦٢هـ، فاستقبله أعيان البلاد وعلى رأسهم قاضى مصر، وجلس الخليفة عند منارة الإسكندرية حيث ألقى خطبة، قال فيها[٢]: «إنه لم يدخل مصر طمعا فى زيادة ملكه ولا لمال، وإنما أراد إقامة الحق وحماية الحجاج والجهاد ضد الكفار، وأن يختم حياته بالأعمال الصالحة، وأن يعمل بما أمر به جده رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم وعظ الحاضرين وخلع على القاضى فى أواخر شعبان من هذه السنة، فوصلها فى يوم الثلاثاء ٧ رمضان سنة ٣٦٢هـ دون أن يمر على مدينة مصر ـ وكان أهلها قد أقاموا معالم الزينة على جانبى الطريق ظنا منهم أنه سيزورها ـ وسار متجها إلى القصر الشرقى الذى بناه له جوهر ولم يكد يصعد إلى إحدى ردهاته حتى سجد شكرا لله تعالى وصلى ركعتين. وفى اليوم التالى لوصوله خرج أشراف مصر وقضاتها وأعيانها ورجال العلم فيها لتهنئته والاحتفاء به، ثم أخذ جوهر بعد ذلك يقدم إليه الناس طائفة بعد أخرى[٣].

لقى المعز بالقاهرة كثيرا من مظاهر الترحيب، فقدمت إليه الهدايا والتحف بعد أن استقر هو وأسرته وأتباعه بالقصر الشرقى، وقد اشتملت هدية القائد جوهر التى قدمها إلى مولاه المعز على: مائة وخمسين فرسا مسرجة، ملجمة، بعضها مذهب، وبعضها مرصع، والبعض الآخر معنبر، وإحدى وثلاثين قبة على نوق بخاتى بالديباج والمناطق والفرش، وثلاث وثلاثين بغلة، وكان منها سبعة مسرجة ملجمة، تتبعها مائة وثلاثون بغلة معدة للنقل. وكانت الهدية تشتمل أيضا على أربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها من أوانى الذهب والفضة، ومائة سيف محلاة بالذهب والفضة وشاشية مرصعة فى غلاف وتسعمائة آنية فيها طرائف مختلفة، انتخبها جوهر من ذخائر مصر.

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٨٦.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص١٣٤.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٧٦، ١٨٨.

كذلك قام أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسينى بتقديم هدية للمعز وهى أحد عشر سفطا من متاع تونة[١] وتنيس[٢] ودمياط، وخيل وبغال، وقال: كنت أشتهى أن يلبس منها المعز لدين الله ثوبا أو يتعمم بالعمامة التى فيها، فما عمل لخليفة قط مثلها.

ولما انتهى المعز من تقبل الهدايا والتحف التى أهديت إليه، أمر بإطلاق سراح المعتقلين من الإخشيدية والكافورية الذين اعتقلهم جوهر، وكانوا نحو الألف[٣].

أصبحت ولاية مصر بعد قدوم المعز إليها دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين فى بلاد المغرب، كما حلت القاهرة محل المنصورية، وغدت عاصمة للدولة الفاطمية، على أن انتقال المعز إلى مصر كان له أثره فى بلاد المغرب إذ ضعف نفوذ الفاطميين فى هذه البلاد واستقل بولاياتها بعض الأمراء. ولم يأت منتصف القرن الخامس الهجرى حتى تقلص منها الحكم الفاطمى، وكانت أمور ولاية مصر قد أسندها المعز إلى جوهر بعد الفتح، فأقر الوزير جعفر ابن الفرات فى منصبه، كما أبقى على الموظفين المصريين فى وظائفهم وأشرك مع كل موظف مصرى موظفا آخر من المغاربة[٤]، وصار جوهر يشرف على إدارة الدواوين وجباية الخراج حتى أوائل سنة ٣٦٣هـ حيث تسلم المعز منه دواوين مصر وجباية أموالها والنظر فى أحوالها.

وهكذا استأثر المعز بالنفوذ والسلطان فى مصر، ولم يشأ أن يترك لجوهر من السلطة ما يساعده على الاستئثار بالحكم، بل أبقاه بجانبه يشير عليه بما تتطلبه أحوال البلاد، وما لبث أن صرفه عن بعض المناصب الإدارية وأسندها إلى يعقوب ابن وعسلوج كلس بن الحسن[٥]، وبذلك فقد جوهر ما كان يتمتع به من نفوذ.

---

(١) قرية قديمة كانت على مقربة من تنيس ودمياط.

(٢) مدينة قديمة كانت تقع على جزيرة فى بحيرة المنزلة، ولها أهمية كبيرة فى تاريخ الصناعات الإسلامية (انظر: زكى حسن: كنوز الفاطميين ص١٥).

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٨٩.

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٦٨، كتاب المعز لدين الله، ص١٦٠.

(٥) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٤٥.

وليس من شك أن المعز كان يمثل الحاكم المستنير الذى يجمع فى يده جميع السلطات ويعمل فى نفس الوقت على إسعاد شعبه، فبذل قصارى جهده للنهوض بدولته، واستطاع بفضل الأموال الوفيرة التى أحضرها معه من بلاد المغرب، وحسن سياسته، واهتمامه بإعداد قواته الحربية أن يقيم دولة فى مصر تناهض الدولة العباسية.

الباب الرابع

الحركات السياسية والدينية فى العصر الفاطمى الأول

١ ـ موقف الفاطميين من أهل السنة في مصر.

٢ ـ سياسة الفاطميين مع أهل الذمة.

٣ ـ الحاكم بأمر الله ودعوي ألوهيته.

٤ ـ العناصر الأجنبية وأثر التنافس بينها في حالة مصر الداخلية.

أ ـ موقف الفاطميين من أهل السنة فى مصر :

تأثرت مصر بالمذاهب الإسلامية التى ظهرت فى العصر العباسى وهى: مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ)، ومذهب الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) ويتميز مذهبه باعتماده على الحديث أكثر من أبى حنيفة ومذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعى القرشى (ت ٢٠٤هـ)، ومذهب الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ).

وعلى الرغم من أن مذهب الإمام أبى حنيفة أقدم المذاهب السنية إلا أن مذهب مالك هو الذى دخل مصر أولا وانتشر بها، فيذكر المقريزى[١] أن «أول من قدم بعلم مالك إلى مصر عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى مولى جمح، وكان فقيها روى عنه الليث بن سعد وابن وهب ورشيد بن سعد، وتوفى بالإسكندرية سنة ١٦٣هـ ثم نشره بمصر عبد الرحمن بن القاسم، فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبى حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر».

ولم يزل المصريون يتبعون مذهب الإمام مالك إلى أن قدم الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى إلى مصر سنة ١٩٨هـ وأظهر بها مذهبه الجديد وجعله يلائم الحياة المصرية، فمال إليه عدد كبير وصار لكل من مذهب الإمام مالك والإمام الشافعى أتباع فى مصر، كما نبغ فيها كثير من فقهاء المالكية والشافعية.

كان أهل السنة يكونون السواد الأعظم من المصريين المسلمين فى مستهل القرن الرابع الهجرى حيث شرع الفاطميون يوجهون حملاتهم إلى مصر، وقد

---

(١) خطط، جـ٢، ص٣٣٤.

استطاع دعاتهم نشـر المذهب الفاطمى بين عدد قليل من المصريين كانوا خـير عون لهم على فتح مصـر، فدخل جوهر الصقلى قائد الخليفـة المعز لدين الله الفاطمى الإسكندرية سنة ٣٥٨هـ دون مقاومة، وكتب أمانا أعلنه للمصريين.

لم يعمل الفاطمـيون - بعد أن انتقل الخليفـة المعز إلى القاهرة سنة ٣٦٢هـ - بكتاب الأمان الذى التزم فيه جوهر الصقلى إطلاق الحرية للمصريين فى المعتقدات الدينيـة، بل تركز الاهتـمام فى تحـويل المصريين إلى المذهب الشـيعى، واتبـعت الخلافة الفاطمية لذلك عدة وسائل منها: إسناد المناصب العليا وخاصة القضاء إلى الشيعـيين، واتخاذ المساجد الكبـيرة مراكز للدعاية الفـاطمية وهى وقتذاك مـسجد عمرو بن العاص، ومسجد أحمـد بن طولون، والجامع الأزهر، واهتمامهم بتعيين أحد كبار المـتفقهين فى مذهب الشـيعة للقيام بنشر دعـوتهم، وكان يعرف بداعى الدعاة. وكانت منزلـة هذا الداعى الكبير تلى قاضى القـضاة ويتزيا بزيه[١]. وكان يعاونه اثنا عشر نقـيبا ونواب فى سائر البلاد، واشترطوا فيـه أن يكون عالما بجميع مذاهب أهل البيت وكثيرا ما تقلد رجل واحد منصبى قاضى القضاة والدعوة.

كذلك أمعن الفاطميون فى إظهار شعـائرهم المخالفة لشعائر السنيين كالأذان بحى على خير العمل والاحتفال باليـوم العاشر من المحرم وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين بكربلاء؛ وعيـد الغدير المعروف بغدير خم[٢] (وهو اليوم الثـامن عشر من ذى الحجة)، وسبب الاحتفال به ما يرويه الشيعة من أن رسول الله ﷺ بعد عودته من حجة الوداع فى السنـة العاشرة للهجرة نزل بغـدير خم فى طريقه إلى المدينة، وأخذ بيد على بن طـالب وقال: ألستم تعلمون أنى أولى بكل مـؤمن من نفسه؟، قالوا: بلى، فـقال: من كنت مولاه، فعلى مـولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه[٣]. ويعلق الشيعة أهمـية كبرى على هذا الحديث، إذ يعتبرونه بمثـابة مبايعة علنية من الرسول لعلى بن أبى طالب[٤].

---

(١) انظر: القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، جـ٣، ص٤٨٣.

(٢) موضع على ثلاثة أميال من الجحفة، بين مكة والمدينة به غدير وحوله شجر كثير.

(٣) المقريزى: خطط جـ١، ص٣٨٩، أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ١ ص١٤٩.

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا (حاشية رقم، ص١٩٥).

أثار إحياء الشعائر الشيعية فى مصر استياء المصريين السنيين، لما كان يقترن بها فى كثير من الأحيان من اعتداءات الشيعيين والمغاربة عليهم، فقد حدث عند الاحتفال بعيد غدير خم (١٨ ذى الحجة سنة ٣٦٢هـ) أن قام المغاربة بإثارة الشغب والاضطرابات؛ فخرج جوهر ليحول دون تماديهم فى الاعتداء على أموال الأهالى(١)، كذلك أصاب المصريين السنيين كثير من الضر والأذى بسبب إرغام الشيعيين لهم على مشاركتهم فى إظهار شعائرهم؛ ففى العاشر من المحرم سنة ٣٦٣هـ، سار جماعة من المصريين الشيعيين والمغاربة فى موكبهم ينوحون ويبكون على الحسين؛ وصاروا يعتدون على كل من لم يشاركهم فى مظاهر الأسى والحزن مما أدى إلى تعطل حركة الأسواق وقيام القلاقل(٢).

رأى السنيون المصريون إزاء اهتمام الشيعيين بإظهار شعائرهم أن يتخذوا مناسبة دينية يحتفلون بها مضاهاة لعيد غدير خم عند الشيعة ونكاية لهم؛ فاحتفلوا فى سنة ٣٦٢هـ باليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم غار ثور هو وأبو بكر الصديق، وقالوا إنه يوافق ٢٦ من ذى الحجة؛ وبالغوا فى هذا اليوم فى إظهار الزينات ونصب القباب وإيقاد النيران، ورأت الحكومة الفاطمية فى عهد المعز ألا تمنع أهل السنة فى مصر من إحياء هذا العيد حتى لا تثير غضبهم.

لم ينشأ التوتر بين المصريين والمغاربة الشيعيين عن إحياء الشعائر الشيعية وحدها، بل أدى انحياز الفاطميين إلى المغاربة والاعتماد عليهم فى إدارة شئون دولتهم إلى استغلال نفوذهم فى إلحاق الأذى بالمصريين فقاموا بنهب أملاكهم واغتصبوا الدور وأجلوا السكان عنها مما حمل المصريين على رفع شكاياتهم إلى المعز؛ فأصدر أوامره إلى المغاربة بإخلاء هذه الدور والانتقال إلى نواحى عين شمس(٣). وخرج بنفسه وعين المواضع التى ينزلون فيها، وأقر المال المطلوب للبناء كما جعل لهم واليا وقاضيا عهد إليهما بالنظر فى أحوالهم(٤). ولم يلبث الخليفة -

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٩٥.
(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٩٨، حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر، ص١٨٧.
(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٩٧.
(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٤٥.

بعد أن أنشئت الأحياء الخاصة بالمغاربة ـ أن أمرهم بالخروج من مصر والإقامة بالقاهرة[١].

لما آلت الخلافة إلى العزيز سنة ٣٦٥هـ عنى كأبيه المعز بنشر المذهب الشيعى وحتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق هذا المذهب، كما قصر المناصب الهامة على الشيعيين، وأصبح لزاما على الموظفين السنيين الذين تقلدوا بعض المناصب الصغيرة أن يسيروا طبقا لأحكام المذهب الإسماعيلى، وإذا ما ثبت على أحدهم التقصير فى مراعاتها عزل عن وظيفته، وكان ذلك مما دفع الكثيرين من الموظفين السنيين إلى اعتناق مبادئ المذهب الفاطمى[٢].

ولما قبض الحاكم بأمر الله على زمام الأمور فى مصر بعد تخلصه من وصيه برجوان سنة ٣٩٠هـ (٩٩٩م) عمد إلى إصدار كثير من الأوامر والقوانين المبنية على التعصب الشديد للمذهب الفاطمى؛ فأمر فى سنة ٣٩٥هـ بنقش سب الصحابة على جدران المساجد وفى الأسواق والشوارع والدروب؛ وصدرت الأوامر إلى العمال فى البلاد المصرية بمراعاة ذلك[٣].

ثم خفف الحاكم من مظاهر التعصب للمذهب الفاطمى إرضاء لرعاياه السنيين؛ فأبطل سنة ٣٩٧هـ بعض ما أمر به سابقا من لعن الخلفاء الثلاثة الأول وغيرهم من الصحابة، وأمر بمحو ما نقش فى لعنهم، كما منع المؤذنين من إضافة عبارة «حى على خير العمل» إلى الأذان، وأجاز لهم أن يقولوا فى أذان الفجر «الصلاة خير من النوم»، وسمح الحاكم بإقامة صلاة الضحى وصلاة التراويح[٤] بعد أن بطلت بأمره بضع سنين، وأنشأ مدرسة لتعليم المذهب السنى، وألحق بها مكتبة، وعين أبا بكر الأنطاكى ناظرا لها ومنحه الخلع هو وأعوانه من مدرسى هذه المدرسة.

كذلك أصدر الحاكم مرسوما سنة ٣٩٨هـ وفق فيه بين السنيين والشيعيين، وأطلق لكل فريق منهم الحرية فى أداء شعائره الدينية، وذلك على أثر ما حدث

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص٢٠٣.
(٢) المقريزى: خطط، جـ٢، ص٢٨٦.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان: جـ٢، ص١٦٦.
(٤) المقريز: خطط، جـ١ ص٣٤٢.

بينهم من خلاف على فهم الأحكام وتطبيقها[١]؛ فأجار فى هذا المرسوم للشيعيين صوم رمضان دون أن يتقيدوا برؤية الهلال، وسمح للسنيين بصوم شهر رمضان إذا ثبت لديهم رؤية الهلال، كما أباح للشيعيين أن يكبروا فى الصلاة على الميت خمس مرات؛ أما السنيون فأجاز لهم أن يكبروا فى صلاة الجنازة أربع تكبيرات. وفضلا عن ذلك فإن الحاكم بأمر الله أطلق الحرية للمؤذنين فى ذكر عبارة حى على خير العمل فى الأذان، ونهى عن سب الصحابة.

ظلت سياسة اللين التى سار عليها الحاكم إزاء ثلاث سنوات غيرأنها ما لبثت أن تبدلت على حين غفلة؛ ففى سنة ٤٠١هـ، أمر بإقامة الأذان بحى على خير العمل، كما أبطل صلاة الضحى وصلاة التراويح، ثم اتجهت السياسة الفاطمية زمن الخليفتين الظاهر والمستنصر إلى عدم إثارة السنيين فتمتعوا بمطلق الحرية فى أداء شعائرهم، كما أهملت بعض المظاهر الشيعية؛ فصار الموذنون لا يحرصون على ذكر عبارة حى على خير العمل فى الأذان حتى تقلد بدر الجمالى الوزارة فى أواخر عهد المستنصر ـ وكان مغاليا فى مذهب الشيعة ـ فأظهر روح العداء والكراهة إزاء أهل السنة سنة ٤٧٨هـ وأمر بإضافة حى على خير العمل إلى الأذان، كذلك أعاد بدر الجمالى نقش عبارات تتضمن لعن الصحابة على الجدران، وأصدر أوامره بأن يكون التكبير على الميت خمسا فقط طبقا للمذهب الشيعى[٢].

وعلى الرغم من أن الخلافة الفاطمية حرصت على نشر مذهبها الشيعى بين أهالى البلاد التى ضمت إلى حوزتها سعيا وراء توطيد سلطتها، فإنها لم تنجح فى أداء رسالتها الشيعية فى مصر، فظل المذهب السنى محتفظا بقوته رغم تحول بعض المصريين إلى المذهب الفاطمى خوفا من تطبيق القوانين الجائرة التى فرضها الفاطميون على مخالفيهم فى المذهب، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الفاطميين رأوا حين دخولهم مصر واستقرارهم بها، أن يتركوا الفسطاط حاضرة المصريين السنيين ويتخذوا لهم حاضرة جديدة تكون مقرا لأنصارهم ودعاة مذهبهم، كما أنشأوا لهم مسجدا خاصا،وأجازوا لأهل السنة فى مصر إظهار شعائرهم على

---

(١) ابن خلدون: جـ٤، ص٦٠، المقريزى، خطط، جـ٢، ص٢٨٧.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص١٢٠، وحسن إبراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص٢٢٥.

اختلاف مذاهبهم؛ فصارت تعاليم مذاهب الإمام مالك والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل تدرس فى دولتهم، بل إنهم صاروا يراعون مذهب الإمام مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه[1]. أما مذهب الإمام أبى حنيفة، فلم يلق تأييدا من الفاطميين لأنه مذهب العباسيين. وظهر فى العصر الفاطمى بمصر بعض علماء مذاهب أهل السنة، وكانوا يلقون دروسهم على جمهور المستمعين بجامع عمرو ابن العاص.

كذلك من بين الأسباب التى جعلت أهل السنة فى مصر يحتفظون بمذاهبهم وتقاليدهم تشريعات الوراثة التى أدخلها الفاطميون، إذ رأوا فيها ما يتنافى مع ما نص عليه القرآن وما أثر عن السنة، فيجيز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل ما تركه أبوها إذا لم يكن لها أخ أو أخت مع وجود ذوى العصبية، وهذا يخالف مذهب السنة الذى يقضى بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة.

(١) انظر القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص٥٢٠.

٢ـ سياسة الفاطميين مع أهل الذمة :

رأى بعض خلفاء العصر الفاطمى الأول بعد أن جاءوا إلى مصر بمذهب شيعى خالفوا به جمهور المسلمين أنهم بحاجة إلى من يعاونهم فى تثبيت سلطانهم، ولما أيقنوا أنه من المتعذر عليهم الاعتماد على السنيين فى مصر أنصار الدعوة العباسية، قربوا إليهم أهل الذمة وأظهروا لهم كثيرا من التسامح واستخدموهم فى أهم شئون الدولة، على أن هذه السياسة لم يتمسك بها الفاطميون، فكثيرا ما اضطروا إلى العدول عنها.

استعان المعز لدين الله الفاطمى بكثير من الأطباء اليهود وما لبث أن عظم نفوذهم فى بلاطه، وصار يعقوب بن كلس الذى أسند إليه المعز بعض دواوين دولته يتحيز إلى إخوانه فى الدين من قبل. وارتقى يعقوب فى المناصب حتى أصبح وزيرا للعزيز بن المعز، وإليه يرجع الفضل فى وضع قواعد الدولة ونظمها، كذلك اتسم عهد العزيز بالتسامح مع النصارى، فزاد بلاطه فى إكرامهم لما كان بينه وبينهم من صلة النسب[١]، إذ تزوج من مسيحية، وكان لها أخوان رفعهما العزيز إلى أرقى مناصب الكنيسة؛ فعين أحدهما بطريركا للملكانيين ببيت المقدس سنة ٣٧٥هـ، وعين الثانى مطرانا للقاهرة، ثم رقى فى عهد الحاكم بطريركا للملكانيين بالإسكندرية سنة ٣٩٠هـ[٢]، وكان لهذه السيدة نفوذ عظيم على العزيز، فقد حملته على انتهاج سياسة التسامح مع المسيحيين وإعادة بعض الكنائس. وبلغ من عطف العزيز على المسيحيين أن احتفل بأعيادهم ومواسمهم الدينية مشاركة لهم فى شعورهم.

وكان من أثر سياسة التسامح التى اتبعها العزيز نحو الذميين أن ازداد نفوذهم فى أيامه، وأصبح بدواوين الدولة كثير من كتابهم وخاصة بعد أن عين هذا الخليفة منشا بن إبراهيم الفرار اليهودى واليا على بلاد الشام وولى عيسى بن نسطورس كتابته.

---

(١) متن الحضارة الإسلامية، جـ١، ص٩٠ ـ ٩١.

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ١٤٤ ـ ١٤٥.

استاء المصريون المسلمون من استئثار الذميين بمناصب الدولة؛ فقدموا للعزيز بالله الفاطمى الاحتجاجات على محاباته المسيحيين واليهود؛ وتبين للخليفة حقيقة استئثار الذميين بمعظم السلطات، فأمر بالقبض على عيسى بن نسطورس وزملائه من الكتاب، كما قبض على منشا وغيره من الموظفين اليهود، وأعاد الكتاب المسلمين إلى أعمالهم بالدواوين.

على أن العزيز لم يلبث أن عفا عن عيسى بن نسطورس بعد أن شفعت له ابنة الخليفة الأميرة ست الملك وزوجه المسيحية؛ وولاه الوزارة بعد أن شرط عليه أن يولى المسلمين فى الدواوين(١).

أما الخليفة الحاكم بأمر الله، فلم تكد تستقر له الأمور فى مصر حتى نبذ سياسة التسامح الدينى التى سار عليها كل من المعز والعزيز؛ إذ تقدم إليه الكتاميون وهم عصب الخلافة الفاطمية طالبين عزل ابن نسطورس وتولية زعيمهم أبى محمد الحسن بن عمار، فأجاب الحاكم طلبهم وتقلد ابن عمار أمور الدولة، ثم أسند الخليفة إلى ابن نسطورس الديوان الخاص، لكنه لم يتمتع طويلا بهذا المنصب؛ فقد اتهم بالعبث بأموال الدولة، وأعطى بذلك سلاحا لخصمه ابن عمار فقبض عليه وقتله(٢).

بدأ الحاكم ينتهج سياسة الشدة مع غير المسلمين من رعاياه سنة ٣٩٣هـ، وقد حمله على اتباع هذه السياسة المصريون المسلمون الذين ساءهم استئثار أهل الذمة بالسلطة وإحرازهم الثروات الكبرى، ثم تجلى عنفه فى معاملتهم سنة ٣٩٥هـ، فحتم عليهم لبس أزياء خاصة، ولم يمض على ذلك ثلاث سنوات حتى اتسع نطاق اضطهاد النصارى واليهود؛ فأمر الحاكم بهدم بعض الكنائس فى القاهرة، وفى الوقت الذى اشتد فيه اضطهاد الذميين، تقلد الوزارة منصور بن عبدون النصرانى، ومن الأمور الهامة التى حدثت فى عهد هذا الوزير إشارته على الخليفة الفاطمى الحاكم بوجوب هدم كنيسة القيامة أو القبر المقدس، فأصدر

---

(١) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم، ص١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) أنظر: تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ص١٨٠.

مرسوما بهدمها[١]. وكان لهدم هذه الكنيسة أثر كبير فى إذكاء الدعوة الصليبية التى أعلنتها البابوية للاستيلاء على بيت المقدس.

كذلك أمر الحاكم بمنع النصارى من الاحتفال بالنوروز على شاطىء النيل كما حرم الألعاب التى تقام فى هذا العيد لما اقترن بها من الملاهى الباذخة وخاصة على ضفاف النيل والخليج، ولم يقف اضطهاد الحاكم للذميين عند هذا الحد بل ألغى جميع الأحباس المرصودة على الكنائس والأديرة بأعمال مصر وضمت إلى الديوان.

أدت سياسة الحاكم التى انطوت على اضطهاد الذميين إلى دخول كثير من كتابهم فى الإسلام وتبعهم من عامة النصارى، كما هاجر بعضهم إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية والحبشة والنوبة، وأجاز لهم الحاكم هذه الهجرة، وأذن للمهاجرين منهم بحمل أموالهم.

على أن الحاكم لم يستمر على هذا الاضطهاد، فأصدر قبيل اختفائه سنة ٤١١هـ، عدة مراسيم لإطلاق حرية الشعائر للنصارى واليهود، ورد ما أخذ من أوقاف الكنائس والأديرة، وسمح للمسيحيين بتجديد الكنائس، كما منحهم أمانا جاء فيه[٢]: «هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين بن الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين لجماعة النصارى بمصر عندما أنهوا إليه الخوف الذى لحقهم، والجزع الذى هالهم فأقلقهم. . ، أنتم جميعا بأمان الله عز وجل، وأمان نبيه خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ وعلى آله الطاهرين وأمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب. . وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم. . وما تحويه أيديكم، أمانا صريحا ثابتا وعقدا صحيحا باقيا فثقوا به واسكنوا إليه، وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته ونصرته تحميكم وعصمته تقيكم، لا يقدم عليكم بسوء أحد. . . ، والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدون من صلاح وإصلاح لسكان أقطار مملكته، ومن له وسيلة الثواء فى كنف دولته. . . وعهده الذى يشرفه طرفكم، وكفى بالله شهيدا».

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ص١٩٤.

(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ص٢٣٢.

كان الخليفة الظاهر على النقيض من أبيه الحاكم فى سياسته نحو أهل الذمة، فلم يكد يتولى الخلافة حتى عمل على اكتساب عطفهم بأن أصدر بيانا[١]، أعلن فيه أنهم أحرار فى عقائدهم وشعائرهم، وأنه لا إكراه فى الدين، وأن من آثر منهم الدخول فى الإسلام، اختيارا من قلبه وهداية من ربه، فليدخل فيه مقبولا مبرورا، ومن آثر البقاء على دينه من غير ارتداد، كان عليه ذمته وحياطته.

أخذ الشعور العدائى نحو الذميين يقل ويضعف منذ ذلك الوقت، ولم يظهر له أثر إلا فى فترات قصيرة وبخاصة حين يتقلد أحدهم منصبا كبيرا من مناصب الدولة[٢]، ففى أوائل عهد المستنصر بالله الفاطمى، ارتفع شأن أبى سعد إبراهيم ابن سهل التسترى اليهودى لأن والدة ذلك الخليفة كانت من قبل أمة فى بيته، فلما ولى ابنها المستنصر الخلافة قربت التسترى وولته ديوانها مما أدى إلى حقد الوزير فخر الدولة أبى منصور صدقة بن يوسف الفلاحى عليه لأنه غدا مسلوب السلطة؛ ولم يبق له من الوزارة إلا الاسم فقط، وتحيز التسترى لليهود، فتقلدوا فى أيامه كثيرا من مناصب الدولة مما جعل المسلمين فى مصر يظهرون استياءهم منه، فاستغل الوزير صدقة بن يوسف الفلاحى هذه الفرصة للإيقاع به، ولم يلبث أن ترصد له بعض الجنود الأتراك وتخلصوا منه سنة ٤٣٩هـ.

وعلى الرغم من تذمر المسلمين فى مصر من إسناد بعض مناصب الدولة إلى اليهود فى عهد المستنصر، فإن هذا الخليفة أظهر عطفا وتسامحا نحوهم، فبعد مقتل التسترى أسند إلى أخيه أبى نصر هارون ديوان خاصته، كما ثارت حفيظة أم المستنصر على صدقة بن يوسف الفلاحى لتآمره على قتل التسترى، وانتهى الأمر بإقالته من الوزارة وقتله فى أوائل سنة ٤٤٠هـ[٣].

---

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ص٢٣٥.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص٢٠٩ - ٢١٠.

(٣) ابن منجب الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة ص٣٧ - ٣٨، وابن ميسر تاريخ مصر، ص٢.

٣ـ الحاكم بأمر الله ودعوى ألوهيته :

ولى الحاكم بأمر الله الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٣٨٦هـ، وله من العمر إحدى عشرة سنة ونصف سنة، وقام بالوصاية عليه برجوان الصقلبى، وتقلد أبو محمد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين الوساطة وهى دون الوزارة فى الرتبة[(١)]، وكان برجوان يطمح إلى الاستئثار بالسلطة، فأخذ يؤلب زعماء الجند من الأتراك على ابن عمار، فاضطر ابن عمار إلى الهرب مع جماعة من أعوانه بعد أن تفاقم العداء بين الكتاميين والأتراك سنة ٣٨٧هـ، فحل برجوان محله[(٢)]. واستبد بالسلطة، وعين فهد بن إبراهيم كاتبا له، وعهد إليه بالنظر فى ظلامات الناس ولقبه بالرئيس.

على أن الحاكم شعر رغم حداثته بخطورة منصب الخلافة الذى يتقلده، كما فطن إلى حرص برجوان على الاستئثار بالسلطة وخاصة عندما منعه من الاتصال المباشر برجال دولته، ولذا استدعى الحاكم الحسين بن جوهر وعهد إليه بالعمل على التخلص منه فقتله فى ربيع الثانى سنة ٣٩٠هـ[(٣)]، وبذلك استعاد الخليفة الحاكم سلطته، وقلد الحسين بن جوهر أمور الدولة ولقبه قائد القواد[(٤)].

لم يكد يقبض الحاكم على زمام الأمور فى البلاد بعد تخلصه من برجوان حتى كون مجلسا يضم كبار الموظفين لبحث شئون الحكم، كما حرص على التجول ليلا فى المدينة للوقوف على أحوال الناس؛ ولكى يتيسر له تحقيق هذه الغاية وتوطيد الأمن، أمر بتعليق المصابيح على جميع الحوانيت والمحال المختلفة فى جميع طرقات القاهرة والفسطاط[(٥)]، وترتب على ذلك حدوث تغيير كبير فى نظم الحياة المصرية، فصارت جميع الأعمال والمعاملات التجارية تؤدى ليلا[(٦)].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٨٩.

(٢) ابن منجب الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة ص٢٧.

(٣) المقريزى: خطط جـ٢ ص٤.

(٤) المقريزى: خطط، جـ٢، ص١٤ ـ ١٥.

(٥) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى، ص٢٠٥.

(٦) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 125-126

وكانت سياسة الحاكم تتصف فى بعض الأحيان بكثير من العنف، مثال ذلك أنه لما بلغه أن بعض العناصر استغلت إضاءة الشوارع والطرقات ليلا للعبث والمجون، فرض قوانين شديدة فمنع النساء من الخروج ليلا منذ العشاء. كما نهى الرجال عن الجلوس فى الحوانيت،ثم منع الناس كافة من التجول فى الطرقات من بعد العشاء إلى مطلع الفجر، وأتبع ذلك بإصدار قوانين تحرم على الأهلين فتح محلاتهم التجارية ليلا[١].

ولما رأى الحاكم أن أوامره السابقة لم تضع حدا للفوضى الاجتماعية التى سادت البلاد، عمد سنة ٣٩٥هـ إلى إصدار قوانين جديدة، مدفوعا فى ذلك بدافع الشعور الدينى وإصلاح الأخلاق وتطهير نفوس المجتمع من الرذائل، فمنع النساء من الظهور سافرات ومن السير خلف الجنازات[٢]، ثم أصدر فى سنة ٤٠٢هـ، أمرا بمنع خروج النساء إلى الأسواق والحمامات، كما حظر عليهن التطلع من نوافذ البيوت والوقوف فوق أسطح المنازل، وبلغ من حرص الحاكم بأمر الله على تنفيذ أوامره أن منع صانعى الأحذية من صنع الأخفاف للنساء حتى يتعذر عليهن الخروج من بيوتهن[٣]، وكان من أثر هذه السياسة التى اتبعها الحاكم إزاء النساء أن اعتكفن فى بيوتهن.

كذلك حرم الحاكم الاجتماعات للهو على شواطىء الخليج المصرى بالقاهرة، فأمر بسد أبواب الدور التى على الخليج والطاقات المطلة عليه[٤]، وفرض قيودا على بعض أنواع المأكل والمشرب[٥]. فمنع بيع الزبيب واستيراده حتى لا يصنع خمرا، كما منع شراء أكثر من أربعة أرطال من العنب دفعة واحدة خشية استعماله فى صنع النبيذ، ثم أمر الخليفة كذلك بإتلاف أشجار الكروم.

أما فيما يتعلق بالمأكولات، فإنه منع عجن الخبز بالأرجل، كما أمر ألا يصطاد الصيادون سمكا بغير قشر، وأنذر المخالفين بالعقاب الشديد، كذلك نهى

(١) المقريزى: خطط، جـ٢ ص١٠٨.
(٢) المقريزى: خطط جـ٢ ص٣٤٢.
(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى: ص٢٠٨، المقريزى: خطط، جـ٢ ص٢٨٨.
(٤) المقريزى: خطط، جـ٢ ص٢٢٧.
(٥) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 126.

الحاكم عن ذبح البقر إلا فى عيد الأضحى المبارك[١] رغبة فى الإكثار من نسل الماشية، واتخذ الحاكم أيضا بعض الإجراءات لمكافحة الغلاء فأمر سنة ٣٩٨هـ بألا يخزن أحد من المؤن أكثر من حاجته، وحدد أسعار القمح والمواد الغذائية وجعل عقوبة من يخالف ذلك القتل.

وحرص الحاكم على الإشراف بنفسه على مصالح دولته، ولزم هذه الخطة طول حياته، ولكنه لجأ إلى إنزال العقوبات الصارمة بمن يعصى أوامره رغبة منه فى فرض هيبته على رعاياه وتأييد حكمه، فإذا أظهر فريق من الناس تذمرا، أسرع إلى التخلص منهم[٢]. وكان لهذه السياسة أكبر الأثر فى توطيد سلطة الحاكم والقضاء على عناصر الثورة. ومع أن أوامر الحاكم كانت موجهة على الأغلب إلى أهالى القاهرة، فإن كل البلاد بوجه عام لقيت الكثير من العنت بسبب شدته وعنفه.

تعرض لقسوة الحاكم أقرب الناس إليه من الوزراء والكتاب والغلمان، وكان رجال الدولة وغيرهم من العمال والطوائف المختلفة يخشون ازدياد عقوباته القاسية، فالتمسوا منه أمانا سنة ٣٩٥هـ فأجابهم، وأصدر أمانا، جاء فيه[٣] «هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله، إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين، وأبينا على خير الوصيين، وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه عليهم أجمعين، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال، لا خوف عليكم، ولا تمتد يد بسوء إليكم، إلا فى حد يقام بواجبه، وحق يؤخذ بمستوجبه فيوثق بذلك، وليعول عليه إن شاء الله تعالى...».

على الرغم من سياسة العنف التى سار عليها الحاكم بأمر الله، فإنه كان متقشفا فى حياته العامة والخاصة، فمنع الناس من ذكر عبارة سيدنا ومولانا فى المكاتبات الواردة إليه، وحتم عليهم أن يلقبوه بأمير المؤمنين، كما أصدر أوامره بألا يقبل أحد له الأرض ولا يقبل يده عند السلام عليه فى المواكب، وكانت حجته أن ذلك من رسوم الروم.

---

(١) المقريزى: خطط، جـ٢، ص٣٤١، ٣٤٢.
(٢) انظر: تاريخ بن سعيد الأنطاكى، ص٢٢١.
(٣) المقريزى: خطط جـ٢ ص٢١.

لم يقف حب الحاكم للتواضع عند هذا الحد، بل أمر ألا يصلى عليه أحد فى الخطب الدينية والمكاتبات والمحادثات الرسمية[١]، وكان من المعتاد أن يصلى الخطيب على الخليفة كما يصلى على النبى فى خطبة الجمعة، فاقتصر الخطباء على ما نصه: «اللهم صل على محمد المصطفى، وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين، آباء أمير المؤمنين، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك». ومنع الحاكم ضرب الطبول والأبواق حول القصر الفاطمى ـ وكان ذلك من مظاهر سيادة الخلفاء ـ ونهى عن إقامة الزينات فى طريقه إلى المصلى الذى أنشأه بجبل المقطم وعرف بمصلى العيد، وصار يدخل للصلاة فى أبسط المظاهر[٢].

وعنى الحاكم عناية خاصة بتنظيم القضاء وتطهيره من الرشوة، كما وجه اهتمامه إلى مطاردة العابثين بالأمن، كذلك كان الحاكم زاهدا فى مال الدولة برغم ما تكدس لديه من الأموال والتحف. وبلغ من تعففه عن أموال الناس أنه إذا صادر أملاك أحد رجاله، أضافها إلى خزائن الدولة[٣]. ومع أن الحاكم كان يؤثر مظاهر البساطة حرصا على مال الدولة، فإنه كثيرا ما يسرف فى العطايا والهبات مما أثار اعتراض بعض وزرائه ورجال دولته[٤].

وحذا الحاكم حذو أسلافه المعز والعزيز فى الاهتمام برصد النجوم ومعرفة ما وراءها من الأحداث، وصار يشجع الفلكيين والمنجمين ويغدق عليهم المنح والعطايا، وأخذ المنجمون يسيطرون على عقول الكثيرين من الناس حتى اضطر الحاكم سنة ٤٠٤هـ إلى إصدار مرسوم بتحريم مهنة التنجيم[٥]. لكنه مع ذلك ظل حريصا على رصد النجوم[٦]، كما شغف بالتطلع إلى معرفة أخبار رعاياه، ولكى يوهم الناس أنه واقف على حركاتهم، اتخذ جواسيس يطوفون بالأسواق والدور، يرفعون إليه تقاريرهم عما يقع فى نواحى حاضرته من الأحداث[٧].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص١٦٦.
(٢) المقريزى: خطط جـ٢ ص٢٨٧ ـ ٢٨٨.
(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ص٢٠٦، المقريزى خطط، جـ٢ ص٥.
(٤) ابن منجب الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص٢٩.
(٥) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ص٢٠٠ ـ ٢٠٢.
(٦) المقريزى: خطط، جـ٢ ص٢٨٩.
(٧) المكين بن العميد: تاريخ المسلمين، ص٢٥٩.

وفى الوقت الذى كثر فيه شغف الحاكم بالخروج لزيارة مرصده الذى أقامه بجبل المقطم لرصد النجوم، جاء إلى مصر بعض الفرس، واختلف هؤلاء إلى مجالس الدعوة له، وخرجوا بذلك على تعاليم المعتدلين من الإسماعيلية. وكان أعظم هؤلاء الدعاة تأثيرا فى السنوات الأخيرة من عهد الحاكم: حمزة بن على الزوزنى، وحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم، ومحمد بن إسماعيل البخارى الدرزى.

كان حمزة بن على فى بادئ أمره عاملا يشتغل بصنع اللباد فى فارس، وقدم إلى مصر سنة ٤٠٥هـ، ثم انضم إلى الدعاة الذين كانوا يتوافدون على دار الحكمة التى أنشأها الحاكم سنة ٣٩٥هـ، وأخذ ينشر سرا الدعوة إلى تأليه الحاكم، ثم جهر بهذه الدعوة سنة ٤٠٨هـ، فاجتمع إليه طائفة من متطرفى الشيعة الإسماعيلية وأولاه الحاكم رعايته حتى إنه كثيرا ما يلتقى به فى القرافة، ويرحب به وبأنصاره أحسن ترحيب(١).

وكان حسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم من أعوان حمزة بن على وقد شجعه على الجهر بتأليه الحاكم سنة ٤٠٩هـ، واستطاع الأخرم بفضل تأييده هذه العقيدة أن يتقرب إلى الحاكم ويكتسب عطفه ورعايته، ولما أعلن حسن الأخرم بجامع عمرو بن العاص أصول دعوة ألوهية الحاكم أثار حديثه غضب السنيين فرفعوا شكواهم إلى القاضى أحمد بن محمد بن أبى العوام بالمسجد، فثار القاضى فى وجه أتباع الأخرم وتبعه فى ذلك الحاضرون، فانقضوا عليهم ثم استقر رأيهم على التخلص من حسن الأخرم الذى تمكن من النجاة بنفسه، فظلوا يتعقبونه حتى تيسر لبعض السنيين القبض عليه وقتله(٢).

لم تضعف عزيمة أنصار حسن بن حيدرة الفرغانى من متطرفى الإسماعيلية بعد مقتله، فحل محله سنة ٤٠٩هـ الداعى محمد بن إسماعيل الدرزى - وهو أقوى رسل حمزة بن على - وكان من القائلين بألوهية الحاكم. وشرح الدرزى دعوته وأصول مذهبه فى رسالة قدمها إلى الحاكم، فقربه الحاكم إليه وأجزل له

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص٣٦٥.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص١٨٣.

العطاء، وجعله محل رعايته وعطفه. كما ارتفعت منزلته عنده، فعهد إليه الإشراف على شئون الدولة «وبلغ منه أعلى المراتب، بحيث إن الوزراء والقواد والعلماء كانوا يقفون على بابه ولا ينقضى لهم شغل إلا على يده[١]».

أثار إعلان محمد بن إسماعيل الدرزى أصول مذهبه فى الجامع الأزهر سخط المصريين السنيين والمعتدلين من الشيعيين، فأخذوا يتعقبونه حتى علموا أنه ملتجئ بقصر الخليفة؛ فذهبوا إلى الحاكم بأمر الله وطالبوه بتسليمه، فظل يماطلهم حتى دبر له سبيل الفرار بعد أن أمده بالأموال، وقال له: اخرج إلى الشام وانشر الدعوة فى الجبال، فإن أهلها سريعو الانقياد. وسرعان ما رحل محمد بن إسماعيل الدرزى عن مصر ونزل ببعض قرى بانياس[٢]، وهناك أخذ ينشر دعوة تأليه الحاكم، وتمكن بفضل قوة حجته أن يستميل إلى جانبه كثيرا من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية[٣].

أظهر الخليفة الحاكم استياءه من أهالى الفسطاط الذين جاهروا بتذمرهم من وقوفه موقف التأييد من هؤلاء الدعاة، وعهد إلى جنوده السودانيين بالتنكيل بهم، فأضرموا النيران فى أرجاء مدينة الفسطاط. ولما اشتد عسف هؤلاء الجند بأهالى هذه المدينة، اضطر الحاكم إلى إصدار أمره لهم بالتفرق ولزوم السكينة[٤]، كما اعتذر لأشراف مصر وزعماء الأتراك والمغاربة عما وقع، ولم يكتف بذلك، بل أصدر أمانا لأهالى الفسطاط قرئ على المنابر[٥].

أكتنف الغموض نهاية حياة الحاكم، فقيل أنه ركب فى ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١هـ (١٠٢١م) قاصدا جبل المقطم، وأنه لم يعرف بعد ذلك مصيره. وبينما يروى بعض المؤرخين[٦] أن أخته ست الملك دبرت وقتذاك مؤامرة لقتله لأنه اتهمها فى أخلاقها؛ نرى فريقا آخر من المؤرخين يبرئ

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤ ص١٨٤.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٤ ص١٨٤. بانياس: بلد صغيرة غربى دمشق.
(٣) حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام السياسى جـ٣، ص٣٦٧.
(٤) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 133.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٤، ص١٨١ ـ ١٨٢.
(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٤، ص١٨١ ـ ١٨٢، ١٩٠.

ست الملك من جريمة قتل أخيها الحاكم، ومن بينهم يحيى بن سعيد الأنطاكى الذى بدأ فى كتابة تاريخه سنة ٤٠٥هـ، إذ تحدث عن مصرع الحاكم دون أن يذكر شيئا عن صلة أخته بهذا الحادث، ومن ذلك الفريق أيضا المقريزى[1] الذى قال إن اتهام ست الملك بقتل أخيها جاءنا من كلام المشارقة، وزاد على ذلك فروى لنا رواية تتلخص فى أن رجلا من إحدى بلاد الصعيد ظهر فى سنة ٤١٥هـ أى بعد اختفاء الحاكم بأربع سنوات وادعى أنه قتل الحاكم.

كان لما أظهره الحاكم فى أواخر عصره من ميل كبير إلى إحاطة نفسه بسياج من التقديس رغبة منه فى جعل رعاياه طوع إرادته أثره فى موقفه من دعاة الفرس، إذ رأى فى الدعوة التى نشرها هؤلاء الدعاة ما يساعده على تحقيق هذه الأمنية ويجعله فى مقام المهدى الذى يعتقد الإسماعيلية بظهوره فى آخر الدنيا ليملأ الأرض عدلا وأمنا. ومن المحتمل أن يكون الحاكم هداه تفكيره إلى الاعتزال والاختفاء عن أعين الناس ليقضى حياته بعيدا عن الأنظار، وبذلك يعتقد أنصاره أنه سيعود فى آخر الزمان فى شخص الإمام أو المهدى.

ليس هناك ما يثبت أن الحاكم ذهب فى تصرفاته الدينية إلى حد الخروج على قواعد الإسلام على الرغم مما نوه إليه الدعاة فى رسائلهم التى أذيع أكثرها بعد اختفائه، وينكر ابن خلدون[2] ما قيل عن كفر الحاكم بقوله: «وأما ما يرمى به من الكفر وصدور السجلات بإسقاط الصلوات فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك قتل لوقته».

ولم يكن ما ذهب إليه الدعاة من اعتقادهم بغيبة الحاكم ورجعته جديدا بالنسبة لبعض الطوائف الشيعية، فقد بنوا آراءهم على عقيدة متطرفى الشيعة فى المهدى، وأساسها أن العلويين كانوا فى عهد الأمويين والعباسيين فئة مظلومة، مضطهدة، لذلك طمعوا فى ظهور قائد مخلص يعيد إليهم عهد الأمن والحرية والإخاء، وهذا القائد فى نظرهم هو المهدى المنتظر.

---

(١) خطط جـ٢، ٢٨٩.

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر: جـ٤، ص٦٠.

كذلك كانت الحال بالنسبة لعقيدة تأليه الحاكم، فقد استمدت من معتقدات متطرفى الشيعة، فكان بعضهم يعتقد أن عليا وخلفاءه من الأئمة ليسوا بشرا عاديين، فقالت طائفة السبئية(١) برجعة على بن طالب، كما زعمت أنه لم يمت، وأنه مستقر فى السحاب، وسينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما(٢) وغلا فريق من الكيسانية(٣) فى اعتقادهم بإمامة محمد بن الحنفية، وبإحاطته بالعلوم كلها، وأنكروا موته، وقالوا إنه يقيم بجبل رضوى (على مقربة من المدينة)، وأن عودته ستكون من هذا المكان(٤)، كما كان القرامطة والإسماعيلية ببلاد الفرس يقدسون بعض أحفاد على ويعتبرونهم حكاما معصومين.

أعلن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بعد مضى ثلاثة أعوام على وفاة الحاكم براءته من دعوى الألوهية التى قيلت فى أبيه وأسلافه، وكان متأثرا فى ذلك برغبته الصادقة فى تطهير مصر من هذه الفتنة، ولا غرو فقد عرف هذا الخليفة بميله إلى استعمال العنف فى مطاردة الخارجين على الدين، فأصدر الأوامر بتتبعهم فى سائر البلاد، كما جاهر بإنكار ما ادعاه بعض الناس من تأليه آبائه وهدد بإيقاع الأذى الشديد على كل من تحدثه نفسه بذلك فى رسالة أذاعها على المصريين(٥).

لم يسهم المصريون فى نشر دعوة ألوهية الحاكم، بل كان أغلب القائمين بنشرها من الفرس حيث حاولت بعض الطوائف إحياء نحلها القديمة، واتخذت لها مبادئ كان من أهمها مناوأة سلطان الإسلام السياسى وإعادة مجد الدولة الفارسية مما يحملنا على الظن أن هؤلاء الدعاة الذين وفدوا على مصر وحاولوا نشر دعوة ألوهية الحاكم كانوا ينتمون إلى هذه الطوائف. وقد عمدوا من وراء دعوتهم التى قاموا بنشرها إلى إثارة الفتن والقلاقل فى القاهرة ليمهدوا بذلك للقضاء على الدولة الفاطمية، غير أن محاولتهم سرعان ما باءت بالفشل.

---

(١) انصار عبد الله بن سبأ الذى كان يرى أحقية على بن طالب بالخلافة منذ أيام عثمان بن عفان.

(٢) انظر: الشهرستانى، الملل والنحل جـ٢، ص١١.

(٣) عرفت بذلك نسبة إلى كيسان رئيس حرس المختار بن أبى عبيد الثقيفى، كما عرفت أيضا بالمختارية، وهى فرقة شيعية كونها المختار من أتباعه.

(٤) البغدادى: الفرق بين الفرق، وحسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر ص٣١، ٣٦ الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية.

(٥) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ص٢٣٦.

٤ ـ العناصر الأجنبية وأثر التنافس بينها فى حالة مصر الداخلية :

لما اتخذ الفاطميون مصر مقرا لخلافتهم، وساروا على طريقة العباسيين فى الاعتماد على غير أبناء جنسهم، فصار جيشهم فى عهد المعز يتألف من قبائل كتامة وزويلة وبعض طوائف البربر، ومن الصقالبة[١]. ثم استخدم العزيز الديلم والأتراك. وظل الحال على ذلك إلى أن ولى الحاكم بأمر الله الخلافة، فقرب إليه الكتاميين فى بداية عهده، ثم انحرف عنهم واعتمد فى جيشه على الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيين. وحذا حذوه ابنه الظاهر فى الاعتماد على الأتراك فضعف بذلك شأن الكتاميين ثم تلاشى أمرهم فى عهد المستنصر بالله الفاطمى الذى استكثر من الأتراك على حين استكثرت أمه من العبيد حتى بلغ عددهم خمسين ألفا. وظهر فى أيام هذا الخليفة التنافس والتشاحن بين هاتين الطائفتين مما كان له أسوأ الأثر فى حالة مصر الداخلية[٢].

(أ) **المغاربة** : قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ثم فى مصر وكانوا يدينون بعقائد المذهب الفاطمى. وقد اعتمد الفاطميون على هؤلاء المغاربة وخاصة الكتاميين منهم ـ وهم عصب الدولة الفاطمية وقوتها فى مصر ـ ومن زعمائهم أبو محمد الحسن بن عمار الذى ولاه الحاكم بأمر الله الوساطة وخلع عليه سنة ٣٨٦هـ ولقب بأمين الدولة، وبلغ من نفوذه أن ألزم سائر الناس بالترجل له[٣].

استغل ابن عمار سلطته فى تحقيق مصالح وأطماع الكتاميين، فخصهم ببعض الوظائف وأنفق فيهم الأموال وأعطاهم الخيول، واعتمد على أحداث المغاربة[٤] ليقضى بذلك على نفوذ الحزب التركى الذى استحدثه العزيز.

وكانت نتيجة هذه السياسة ازدياد جرأة المغاربة، فعاثوا فسادا فى القاهرة ونهبوا المتاجر واشتبكوا مع الأتراك فى بعض المعارك، وتطورت هذه المعارك إلى

---

(١) انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص٩٠.

(٢) المقريزى: خطط، جـ٢ ص١٢.

(٣) المقريزى: خطط، جـ٢ ص٢٦.

(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر. ص٥٥.

قتال بين الفريقين، وانتهى الأمر بهزيمة المغاربة[١]، وقد ضعف نفوذ الكتاميين منذ ذلك الوقت حتى صاروا من جملة الرعية فى عهد المستنصر بالله الفاطمى بعد أن كانوا من أكابر رجال الدولة.

(ب) **السودانيون**: بدأ ظهورهم فى مصر منذ أيام كافور الإخشيدى، وكانوا يجلبون من الجنوب كجنود مرتزقة، ولم يعمد كل من المعز والعزيز إلى استخدامهم فى الجيش، وإنما استعان بهم الحاكم بأمر الله ضد المصريين السنيين بالفسطاط، فهاجموا أرجاء تلك المدينة واقتحموا بيوتها وحماماتها ونهبوا أسواقها[٢]، ثم ازداد خطرهم على أمن الدولة فى عهد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، فثاروا بتنيس سنة ٤١٥هـ مطالبين بأرزاقهم، وعاثوا فى البلد وسلبوا ما فى خزائنها من مال، فبعث إليهم الوزير الفاطمى نجيب الدولة على بن أحمد الجرجرائى من قبض على الجناة، وأخضع ثورتهم[٣].

(جـ) **الأتراك**: ظهر أمرهم فى عهد العزيز بعد أن استكثر منهم، وقربهم إليه، وأصبحوا منذ ذلك الوقت عنصرا هاما فى الجيش الفاطمى. وقد ثار الجند الأتراك فى عهد الحاكم حين أبطل ابن عمار أعطياتهم وبالغ فى محاباة المغاربة، كما حاصر هؤلاء الجند قصر هذا الخليفة حين بلغهم أن محمد بن إسماعيل الدرزى لجأ إليه، وطالبوه بتسليمه، فاضطر الحاكم أن يخبرهم بنفسه أنه ليس موجودا بقصره[٤]، وكان قد سهل له سبيل الفرار إلى بلاد الشام.

واجه الأتراك منافسة شديدة من السودانيين فى عهد المستنصر، فنشبت بين الفريقين معارك عنيفة، وقف منها الجند المغاربة إلى جانب الأتراك، فأوقعوا الهزيمة بالسودانيين رغم المساعدات التى قدمتها لهم أم المستنصر، واستقر خمسة عشر ألفا منهم فى الصعيد حيث عاثوا فى البلاد فسادا، وأخذوا يشنون هجمات متتالية عن طريق البر والنهر على القاهرة رغبة فى الاستيلاء عليها وطرد الأتراك منها.

---

(١) المقريزى: خطط، جـ٢ ص٣٦، ٣٧.

(٢) انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٤ ص١٨١ - ١٨٢.

(٣) المقريزى: خطط، جـ١ ص١٨١.

(٤) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 132-133.

كان يتـولى قيادة الأتراك فى أوائل عـهد المستـنصر ناصر الدين الحـسين بن حمدان التغلبى، وقد ازداد نفوذهم فى القاهـرة بعد طرد السودانيين إلى الصعيد، وسرعان ما استفحل أمرهم وأخـذوا يطالبون الخليفة بزيادة مرتباتهم سنة ٤٦٠هـ، فزاد فى أعطياتهم حتى بلغت أربعمائة ألف دينار فى كل شهر بعد أن كانت ثمانية وعشرين ألف دينار.

لم يقنع جند الأتراك بالمرتبات التى قررها لهم المـستنصر، بل ألحوا فى زيادة مخصصـاتهم، ولما أظهر عجزه عن تلبية طلبـاتهم لقلة إيرادات الدولة ألزموه ببيع ذخائره، فأخرجها إليهم وقوموها على أنفسهم بأبخس الأثمان(١).

واصل ناصر الدولة بن حمدان سياسته فـى محاربة العبيد، فسار على رأس جماعة من الأتراك إلى الصعيد لتحقـيق هذه الغاية، واشتبك معهم فى قتال عنيف قضى فيه على كثير منهم.

لم يكد يفـرغ ناصر الدولة بن حـمدان من التغلـب على السودانيـين حتى كشف القناع عن غرضه الأصلى، فجاهر بالإساءة للمستنصر، واستبد بالأمور دون الأتراك، كما اسـتأثر بأموالهم، وكان ذلك مما جعلهم يسـعون إلى الخلاص منه، فرفـعوا شكاياتـهم من تصرفـاته إلى خطير الملك وزير المسـتنصر، ولما تحـقق هذا الوزير من صدق قولهم لامهم على انضمامهم إليه أول الأمر، وحسن لهم الخروج عليه ومناهضته، ثم توجهوا إلى المستـنصر وأظهروا له استياءهم من ناصر الدولة، كما طلبوا منه أن يخـرجه من الديار المصرية، فبعث إليه المسـتنصر يأمره بالرحيل عن مصر ويهـدده بإلحاق الأذى به إن امتنع عن الخروج منها، فـسار ناصر الدولة إلى الجيـزة، ثم عاد بعد قليل إلى دار القـائد تاج الملوك شاذى بالقـاهرة وقدم له فروض الطاعة، وطلب منه أن يعاونه على التخلص من خطير الملك وإلذكر - أحد أمراء الأتراك - لاعتقاده أنهما كانا السبب فى حمل الأتراك على مناهضته واضطهاد المستنصـر له، فوعده تاج الملوك بتنفيـذ رغبته، ومـا لبث أن تمكن من قتل الوزير خطير الملك، أما إلذكر فقد التجأ بقصر المستنصر واستجار به، وأخذ يحرضه على

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص١٧.

قتال ناصر الدولة، فلقى هذا القول قبولا من الخليفة، وخرج على رأس فريق كبير من جنده وألحق بناصر الدولة هزيمة ساحقة فمضى منهزما فى نفر قليل من أصحابه إلى البحيرة حيث انضم إليه فريق من الأعراب(١).

على الرغم من أن الخليفة المستنصر أظهر بعض الجرأة خلال هذه الاضطرابات، وتمكن من هزيمة ناصر الدولة بفضل مساعدة بعض الجند الذين كانوا لا يزالون على ولائهم له، إلا أن سلطته لم تعد تتعدى فى الواقع حدود عاصمته، فبينما كان الجند السودانيون يثيرون الاضطرابات فى الوجه القبلى، كان نحو من أربعين ألف فارس من قبيلة لواتة والأعراب تحت زعامة ناصر الدولة يغيرون على الوجه البحرى وينهبون بلاده ويحطمون الجسور والقنوات مما ترتب عليه انقطاع المؤن والإمدادات عن القاهرة والفسطاط(٢). ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن ناصر الدولة بعث سنة ٤٦٢هـ إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة بالعراق رسولا من قبله يسأله أن يرسل إليه عسكرا ليقيم الدعوة العباسية على أن تئول إليه السيادة على مصر فرحب ألب أرسلان بذلك، غير أنه ما لبث أن شغل بمحاربة الروم عن المسير إلى دمشق ثم مصر(٣).

ولما بلغ المستنصر أن ناصر الدولة أرسل إلى ألب أرسلان يستدعيه إلى الديار المصرية، جهز إليه جندا من الأتراك لمحاربته بالبحيرة، فأوقع بهم ناصر الدولة الهزيمة، وغنم منهم مغانم كثيرة، وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى الإسكندرية ودمياط وجميع أنحاء الوجه البحرى وحال دون وصول الأقوات إلى القاهرة ومصر(٤).

وكان مما زاد الحالة سوءا تلك المجاعة التى بدأت بانخفاض النيل سنة ٤٥٧هـ، واستمرت سبع سنين، فقلت الأقوات بالقاهرة ومصر، وغلت الأسعار، فبلغ ثمن الرغيف من الخبز الذى زنته رطل أربعة عشر درهما، وأردب القمح

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ص١٩.
(٢) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 146.
(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر ص١٩ - ٢٠.
(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر ص٢٠ والمقريزى: خطط جـ١ ص٣٣٦.

ثمانين دينارا[١] والبيضة الواحدة دينارا، وأصبح المنزل يباع مقابل عشرين مكيالا من القمح، وقد عانى الأغنياء وكبار رجال الدولة من هذه المجاعة مثل معاناة الفقراء تماما[٢]، واضطر بعض أصحاب النفوذ والأعيان إلى مغادرة مصر والرحيل إلى بلاد الشام والعراق[٣].

رأى الجند الأتراك بعد ما حل بهم وبالخليفة المستنصر من الشدائد بسبب المجاعة أن يصالحوا ابن حمدان على أن يظل مقيما بالبحيرة ويحمل إليه مبلغ مقرر من المال، ويكون تاج الملوك شاذى نائبا عنه، فرضى بذلك، وأرسل الغلال إلى القاهرة ومصر، مما أدى إلى توافر القوت الضرورى للأهالى[٤].

على أن تاج الملوك شاذى سرعان ما نقض هذا الصلح واستبد بالأمور فى القاهرة وصار لا يرسل لابن حمدان إلا القليل من الأموال. فاستاء من ذلك ابن حمدان وسار فى جموع العربان إلى الجيزة حيث تمكن من القبض على شاذى، كما أطلق لجنده العنان فى الفسطاط، فنهبوا دورها وأشعلوا النيران فيها، ولما استفحل أمرهم عول المستنصر على محاربتهم، فأنفذ إليهم فريقا من جنده، ودارت بين الفريقين عدة معارك انتهى الأمر فيها بهزيمة أتباع ابن حمدان وفرارهم إلى البحيرة.

ظل ناصر الدولة ابن حمدان ـ على الرغم من الهزيمة التى لحقت به ـ يعمل على إضعاف شأن الخليفة الفاطمى والاستئثار بالحكم، فحذف فى سنة ٤٦٤هـ اسم المستنصر من الخطبة فى الوجه البحرى، وبعث إلى الخليفة القائم العباسى ببغداد يلتمس الخلع، ثم قدم إلى الفسطاط على رأس جيش كبير وتولى الحكم فيها، وأرسل إلى المستنصر يطلب منه الأموال. «وكان إذ ذاك قد امتنع بقصره[٥]».

---

(١) انظر: المقريزى خطط جـ١ ص٣٣٧.

(٢) انظر: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٥ ص١٥ ـ ١٧.

Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 146-147.

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر ص٢٠.

(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر ص٢١.

(٥) المقريزى: خطط، جـ١ ص٣٣٧.

كانت حالة المستنصر حين وفد إليه رسول ناصر الدولة تنبئ بزوال أبهة الخلافة عنه، فلما علم بذلك ناصر الدولة أطلق للخليفة مائة دينار كل شهر وتولى الحكم في القاهرة، وأظهر ميله إلى مذهب أهل السنة، واضطر كثير من أقارب المستنصر وأولاده إلى النزوح إلى المغرب والعراق[١].

خشى الأتراك على أنفسهم من جراء استبداد ناصر الدولة بالأمور في القاهرة وإقامته الدعوة العباسية وعمله على إزالة خلافة الفاطميين، فاجتمع بهم إلدكز وبلدكوز وأعلماهم أنه إن تم لناصر الدولة تحقيق ما يريده سيقضى عليهم؛ ومن ثم اتفقوا على تدبير مؤامرة لقتله، فركب إلى داره فريق منهم ذات ليلة وانقضوا عليه بسيوفهم، ولم يكتفوا بذلك، بل تتبعوا كل أفراد أسرة بنى حمدان بمصر وتخلصوا منهم[٢].

(د) الأرمن : لم تنته الفوضى والاضطرابات التى انتابت مصر بقتل ناصر الدولة بن حمدان، بل سرعان ما ازداد نفوذ إلدكز وأتباعه من الأتراك واستبدوا بالأمور دون المستنصر حتى ضاق بهم ذرعا واضطر سنة ٤٦٦هـ أن يبعث إلى بدر الجمالى[٣] والى عكا يطلب منه القدوم ليتولى تدبير شئون دولته وإصلاح ما فسد من أمور مصر، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من عساكر بلاد الشام ليستعيض بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر فوافق المستنصر على طلبه.

ولما أتم بدر الجمالى إعداد عدته للرحيل إلى مصر، أبحر من عكا ومعه جند كثير من الأرمن وغيرهم ، غير مبال بأخطار البحر فى فصل الشتاء ونزل مع جنده بدمياط، فاقترض من تجارها بعض المال، ثم تابع سيره حتى وصل قليوب؛ وهناك بعث إلى المستنصر يقول له إنه لن يدخل القاهرة إلا بعد قتل بلدكوز ـ أحد أمراء الأتراك ـ فوافقه الخليفة على مطلبه[٤].

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر ص٢١.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر ص٢.

(٣) كان بدر الجمالى مملوكا أرمنيا للأمير جمال الدولة بن عمار، ثم أخذ يترقى فى المناصب لما أظهره من كفاية خلال الحروب التى قامت فى بلاد الشام حتى ولى إمارة دمشق من قبل المستنصر سنة ٤٥٦هـ وأخذ يحارب الأتراك فى تلك البلاد ولم يلبث أن أصبح من أقوى قوادها، ثم تقلد نيابة عكا سنة ٤٦٠هـ (المقريزى: خطط جـ١ ص٣٨١).

(٤) المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٨١.

ولما دخل بدر الجمالى مدينة القاهرة على رأس جنده الأرمن، استقبله الجند الأتراك استقبالا وديا لأنهم لا يعلمون شيئا عن نواياه نحوهم، وما لبث أن دبر مؤامرة للتخلص من قوادهم، فعين لكل واحد من ضباطه الأرمن أحد القواد الأتراك ليقتله خلال الليل، ولم يكد يشرق صباح اليوم التالى حتى تقدم ضباطه حاملين رءوس قواد الأتراك الذين عهد إليهم بقتلهم(١). وبذلك تمهدت له الأمور.

رحب الخليفة المستنصر بقدوم بدر الجمالى، وبلغ من تقديره لكفايته أنه حين شرع فى العمل على توطيد الأمن وإصلاح حال البلاد خلع عليه بعقد من الأحجار الكريمة وقلده وزارة السيف والقلم، كما زاد فى ألقابه السيد الأجل أمير الجيش كافل قضاة المسلمين وداعى المؤمنين(٢).

كان يحيط ببدر الجمالى جنده الأرمن الذين عرفوا بالمشارقة تمييزا لهم عن الأتراك والبربر والسودان(٣). وقد تفانوا فى الإخلاص له، واحتفظ الكثيرون منهم بديانتهم المسيحية؛ وكان يرافقهم «بطريق» خاص بهم، ولم يظهر هؤلاء الأرمن تذمرا من البقاء فى مصر، بل آثروا الإقامة بوطنهم الجديد على العودة إلى بلادهم لتعذر حصولهم فيها على مقومات الحياة.

اتخذ بدر الجمالى مقرا له بحارة برجوان بالقاهرة(٤)،وعول على إعادة الأمن والسكينة إلى العاصمة واستعادة كل ما يمكن أن تصل إليه يده من كنوز الخليفة التى نهبت من قصره. وعندما فرغ بدر الجمالى من إعادة الأمور إلى نصابها فى العاصمة والفسطاط بدأ يوجه عنايته إلى بقية الأقاليم، فاتجه أولا نحو الوجه البحرى، فأخضع بنى لواتة، كما توجه إلى دمياط وقتل جماعة المفسدين، ثم سار إلى الصعيد، سنة ٤٦٩هـ حيث كان الجند السودانيون وجماعة من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة، فانقض عليهم فجأة وأفنى أكثرهم، وغنم منهم كثيرا من الغنائم(٥)، وأعاد نفوذ الخليفة على جميع بلاد الوجه القبلى حتى أسوان(٦).

(١) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 150-151.
(٢) المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٨٢.
(٣) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 150.
(٤) االمقريزى: خطط، جـ١، ص٤٦١.
(٥) المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٨٢.
(٦) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp. 151.

لم تكن الحالة بالإسكندرية أحسن منها فى غيرها من المدن المصرية، فقد ثار بها سنة ٤٧٧هـ الأوحد على أبيه بدر الجمالى، والتف حوله جماعة من الأعراب، فسار إليه أبوه وقبض عليه، كما قتل فريقا من أتباعه، ولم يكتف بذلك، بل صادر كثيرا من أموال أهالى الإسكندرية، وأنفق منها على بناء جامع العطارين(١) الذى ظلت تقام به الخطبة إلى أن استبد صلاح الدين بالأمور فى مصر.

استطاع بدر الجمالى بعزمه ومهارته أن يعيد إلى البلاد المصرية ما كانت تتمتع به من رخاء قبل الشدة العظمى التى حلت بها واستمرت سبع سنوات (٤٥٧ ـ ٤٦٤هـ)، فزاد خراج مصر فى أيامه من ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار إلى ٣,١٠٠,٠٠٠ دينار. وعاد الفلاحون إلى الأرض يزرعونها وتحسنت أحوالهم بعد أن رفع عن كاهلهم بعض الأعباء المالية(٢).

على أن الأمر الذى يسترعى النظر فى سياسة بدر الجمالى فى مصر أنه انتهز فرصة استبداده بالسلطة فى أواخر عهد المستنصر بالله الفاطمى، ومهد لابنه الأفضل الاستيلاء على مقاليد الأمور فى الدولة، فجعله ولى عهده، ولما توفى بدر الجمالى فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ، وهو فى الثمانين من عمره، خلفه ابنه الأفضل شاهنشاه فى الوزارة، وظل المستنصر فى عهد وزارته كالمحجور عليه إلى أن توفى فى ١٧ ذى الحجة سنة ٤٨٧هـ(٣).

---

(٥) المقريزى: خطط، جـ١ ص٣٨٢

(٢) Stanley Lane-Poole, A History Of Egypt in the Middle Ages, pp.151.

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر ص٣٠.

(٤) المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٥٦، ٣٨٢.

الباب الخامس

عصر نفوذ الوزراء الفاطميين

١ ـ ازدياد سلطة الوزراء في العصر الفاطمي الثاني.

٢ ـ زوال الخلافة الفاطمية.

١ ـ ازدياد سلطة الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى :

أخذ نفوذ الوزراء في الازدياد منذ أواخر عهد المستنصر بالله، وبدأ ذلك باستئثار بدر الجمالى بالسلطة دون الخليفة، وتغالى ابنه الأفضل فى اغتصاب حقوق هذا الخليفة، بل أقدم بعد وفاته سنة ٤٧٨هـ على إقصاء ابنه نزار ولى عهده وأكبر أبنائه عن العرش، وبايع أخاه الصغير الأمير أبا القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى بالله فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٤٨٧هـ وكانت أم المستعلى هذا ابنة بدر الجمالى وأخت الأفضل، لذلك كان بدر يحبذ تعيينه خليفة بعد أبيه، كما حرص ابنه الأفضل على تحقيق هذه الأمنية حين أراد المستنصر قبيل وفاته أخذ البيعة لابنه نزار على رجال الدولة فتقاعد الأفضل عن ذلك وماطله حتى مات[١]. وكان الأفضل يعتقد أن نزارا إذا ولى الخلافة حال بينه وبين مناصب الدولة، على حين كان أبو القاسم أحمد صغير السن، ففى استطاعته إذا ما ولاه الخلافة أن يصبح مطلق التصرف فى شئون الدولة.

أدى إقصاء نزار عن الخلافة رغم أحقيته لها إلى اضطراب الأمور فى بعض البلاد المصرية؛ فخرج أهل الإسكندرية على طاعة الخليفة الفاطمى الجديد وانحازوا إلى نزار بعد أن قدم إليهم مع أخيه عبد الله وبايعوه بالخلافة ولقبوه المصطفى لدين الله، كما رحب به واليها ناصر الدولة أفتكين.

لما وصل إلى الأفضل بن بدر الجمالى نبأ هذه الفتنة التى أثارها نزار سار إلى الإسكندرية على رأس حملة، وهناك دارت معركة بينه وبين واليها ناصر الدولة أفتكين الذى وعده نزار بالوزارة إن ظفر هو بالخلافة، غير أن المعركة انتهت بهزيمة الأفضل وارتداده إلى القاهرة حيث أعد حملة جديدة فى أوائل سنة ٤٨٨هـ، حاصر بها الإسكندرية مدة سبعة أشهر، ارتكب فى أثنائها كثيرا من ضروب القسوة والقتل، حتى اضطر كل من أفتكين ونزار إلى طلب الأمان؛ فأمنهما الأفضل ثم أمر بإنفاذهما إلى القاهرة حيث نكل بهما[٢].

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٣٥.
(٢) ابن ميسر: تاريخ المستنصر، ص٣٦ ـ ٣٧.

ويتبين لنا من الرسالة التى بعث بها الخليفة المستعلى فى صفر سنة ٤٨٩هـ إلى الملكة الحرة السيدة أروى الصليحية ـ وكانت تتولى إذ ذاك شئون اليمن ـ الظروف التى قامت فيها ثورة نزار وتغلب الأفضل بن بدر الجمالى عليه. وقد جاء فيها[1]: «من عبد الله ووليه أحمد بن أبى القاسم الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين بن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى الحرة الملكة السيدة السديدة.. ولية أمير المؤمنين.. قد علمت ما كان صدر إليك من حضرة أمير المؤمنين عندما أصاره الله تعالى إليه من إرث خلافته... وذلك بالنص الذى كان من مولانا الإمام المستنصر بالله... وإن البيعة انتظمت لأمير المؤمنين على أجمل القضايا والأسباب، ودخل الناس فيها من كل باب، بحسن سياسة فتاه وخليله السيد الأجل الأفضل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين.. وكان الأمراء إخوة أمير المؤمنين أول من دخلوا فى البيعة مسارعين وانقادوا لأحكامها طائعين. ومن جملتهم نزار وهو الأخ الأكبر سنا.. ثم إن الشيطان استزله واستغواه.. ففارق جناب أمير المؤمنين وسار منه متوغلا فى القفار، راكبا الأخطار حتى وصل إلى الإسكندرية وفيها أفتكين ـ أحد مماليك السيد الأجل أمير الجيوش... فقابل هذا العبد العاق.. نعم مواليه بالكفر.. ووافق نزارا على ما سعى إليه من الفساد.. فتقدم أمير المؤمنين إلى فتاه الأمين.. بأن يكاتبهم معذرا وزاجرا.. وهم على غلوائهم متمادون.. إلى أن حملهم العدوان على البروز عن الإسكندرية فيمن انضم إليهم من لفيف الأجناد وطوائف العربان والمغاربة والسودان... فصدمهم صدمة تزعزع منها أركان الجبال.. ولما يسر الله تعالى مفتتح هذا النصر.. أذن أمير المؤمنين لفتاه السيد الأجل باتباعهم.. فتوجه يقتص آثارهم.. واختلف الطعن والضرب حتى خاضت الخيل فى بحر من الدماء...، وكان المخاذيل فى هذه النوبة قد تجمعوا من كل فج وواد، فزادت عدتهم على ثلاثين ألف فارس وراجل، فرمى الله جمعهم بالحتف العاجل.. وكان الفتح فى هذه الوقعة مثل ما تقدمه بحملات واصلها السيد الأجل بنفسه وغلمانه.. فلم تزل السيوف تتحكم فيهم إلى أن سترتهم الظلماء، وقتل وأسر منهم ألوف كثيرة.. وتوجه نحوهم حتى نزل على البلدة فى خيامه..

(١) انظر السجلات المستنصرية رقم ٤٣، ص١٤٥ ـ ١٥١.

فحصرها برا وبحرا. . وحضر شهر الصوم فأخر مناجزتهم حفظا لحرمة الشهر الشريف. . . فلما انقضى (هذا الشهر) ولم تنقض غوايتهم وبغيتهم. . رماهم بحجارة المنجنيقات. . فلم تمض إلا أيام قلائل حتى تداعى الحصن من سائر أركانه، فتهاوت الرجال مستأمنين وبالعفو لائذين. . . فأيقن أفتكين اللعين انقضاء مدته. . فخرج بغير عهد ولا عقد يتعلق به، ووقف بين يدى مولاه ملتحفا ثوب الذل والهوان. . فأضرب عنه صفحا. . . وتوفر على المهم من الحوطة على نزار، وحفظ الثغر من عوادى النهب والأضرار. . وتنزه عن معالجة ذلك اللعين بالجزاء على ذميم أفعاله، وألقاه فى جانب الاطراح والإذلال إلى أن يأمره أمير المؤمنين بما يرشد بامتثاله. . . ».

لم يقتصر الأثر الذى أحدثه إقصاء نزار عن الخلافة وقتله على ظهور فريق من الناس يتشيع له بمصر، بل دعا إلى إمامته بعض أهالى بلاد الفرس من الإسماعيلية الذين كانوا يدعون إلى انتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل وبنيه من بعده. وقد بدأ نشاط هذه الطائفة فى بلاد الفرس منذ لجأ محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق إلى دوماوند (قرب الرى) بسبب ما تعرض له العلويون من اضطهاد على يد خلفاء العصر العباسى الأول كما ظهر له أتباع فى بلاد الشام.

تجلت قوة طائفة الإسماعيلية فى بلدة ساوة (بين الرى وهمذان) فى أيام السلطان ملكشاه السلجوقى، وما زال نفوذهم فى ازدياد حتى استولوا على أصبهان ونشروا بها دعوتهم فى عهد زعيمهم أحمد بن عبد الملك بن عطاش. وكان من تلامذته الحسن بن الصباح الذى تقلد رئاسة الدعوة الإسماعيلية فى أصبهان، ثم رحل إلى مصر ليتعمق فى دراسة المذهب الإسماعيلى فى دار الحكمة وفى غيرها من مجالس الدعوة بالقاهرة.

حدث فى أثناء وجود الحسن بن الصباح بالقاهرة أن عين الخليفة المستنصر ابنه الأكبر نزارا ولى عهد. وكان الحسن بن الصباح يرى أن تولية نزار الإمامة بعد أبيه المستنصر تتفق مع تعاليم الإسماعيلية التى تشترط فى الإمام أن يكون أكبر أبناء أبيه. وهذا على خلاف ما رأى بدر الجمالى وابنه الأفضل. ويروى بعض

الكتاب[١] أن الحسن بن الصباح سأل الخليفة المستنصر يوما عن ولى عهده بقوله: من الإمام بعدك؟ فقال له: ولدى نزار. غير أن فريقا آخر[٢] يذكر أن الحسن بن الصباح لم يحظ فى أثناء إقامته بالقاهرة بمقابلة المستنصر، وأن الخليفة ولى ابنه الصغير أحمد العهد تحت تأثير بدر الجمالى.

أدى الخلاف بين الحسن بن الصباح وبدر الجمالى بشأن ولاية العهد إلى نزاع داخلى، إذ رأى بدر فى وجود الحسن بن الصباح بالقاهرة خطرا يهدد كيانه؛ فأخذ يكيد له ثم زجه فى السجن بمدينة دمياط، ولم يكتف بدر الجمالى بذلك؛ بل عول على إخراجه إلى بلاد المغرب؛ غير أن الريح قذفت بالسفينة التى أبحر عليها من الإسكندرية فى رجب سنة ٤٧٢هـ إلى سواحل الشام، فنزل بثغر عكا وقصد منها إلى حلب فبغداد، ثم اتجه إلى خوزستان ـ وكانت إذ ذاك مركزا هاما للإسماعيلية ثم سار الحسن بن الصباح إلى أصبهان حيث أخذ ينادى بإمامة المستنصر وابنه نزار من بعده، ولذلك عرف هو وأتباعه بالنزارية.

ولما توفى المستنصر سنة ٤٨٧هـ، وخلفه ابنه المستعلى، أذاع الحسن بن الصباح بين أنصاره أن المستعلى اغتصب الخلافة والإمامة من نزار؛ وبذل قصارى جهده فى الرد على حجج طائفة المستعلية بمصر، فزود مكتبات قلاع الإسماعيلية ببلاد الفرس بالمؤلفات الكثيرة التى تثبت صحة إمامة نزار وبطلان إمامة المستعلى[٣].

أما عن الحالة الداخلية فى مصر بعد القضاء على الفتنة التى أثارها نزار فإن الأفضل بن بدر الجمالى قبض على شئون الحكم فى البلاد، واستبد بالسلطة دون المستعلى، ومن ثم دخلت مصر فى عهد نفوذ الوزراء، وصار وزير السيف ـ كما يقول المقريزى[٤] ـ «هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد وإليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية، وهو الذى يولى المناصب الديوانية والدينية»، كما خلع عليه منذ ذلك الحين بالعقد المنظوم بالجوهر، وزيد له

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٣٧، وابن خلدون: جـ٤ ـ ص٦٦.
(٢) Dozy, Essai sur l'Isamisme, p. 301.
(٣) طه شرف: دولة النزارية، ص٢١٢.
(٤) خطط، جـ١، ص٤٤٠.

فى زيه الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور وهو زى قاضى القضاة، وغدا يتقلد السيف إشارة إلى أنه كبير أرباب السيوف والأقلام(١).

بلغ من نفوذ الأفضل أنه لما توفى المستعلى سنة ٤٩٥هـ أحضر ابنه أبا على وبايعه بالخلافة وأقامه مكان أبيه ولقبه بالآمر بأحكام الله، وعمره وقتذاك خمس سنين(٢). ويتضح علو شأن الوزير الأفضل ومكانته في الدولة من سجل تولية الآمر الخلافة الذى جاء فيه(٣): «. . وقد كان الإمام المستعلى ـ قدس الله روحه ـ عند نقلته جعل لى عقد الخلافة من بعده، وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده وعهد إلى أن أخلفه فى العالم وأجرى الكافة فى العدل والإحسان. . ، وأوصانى بالعطف على البرية والعمل فيهم بسيرتهم المرضية.

وكان مما ألقاه إلى وأوجبه على أن أعلى محل السيد الأجل الأفضل من قلبه الكريم، وما يحب له من التبجيل والتكريم، وأن الإمام المستنصر بالله كان عندما عهد إليه (إلى المستعلى)، ونص بالخلافة عليه، وأوصاه أن يتخذ هذا السيد الأجل خليفة وخليلا، ويجعله للإمامة زعيما وكفيلا. . . ويفوض إليه تدبير ما وراء السرير، وأنه عمل بهذه الوصية. . وأسند إليه أحوال العساكر والرعية، وناط أمر الكافة بعزمته الماضية وهمته العلية. . ، فأوصانى أن أجعله لى ـ كما كان له ـ صفيا وظهيرا، وألا أستر عنه من الأمور صغيرا ولا كبيرا، وأن أقتدى به فى رد الأحوال إلى تكلفه، وإسناد الأمور إلى تدبيره. . . ».

استغل الأفضل بن بدر الجمالى سلطته فى عهد الآمر، فلم يعن بالاحتفاظ برسوم الفاطميين الدينية، بل أخذ يميل ميل السنيين، وقد تجلت هذه الظاهرة فى إلغائه الاحتفال بمولد النبى ﷺ ومولد ابنته فاطمة وعلى ـ رضى الله عنهما ـ ومولد الخليفة القائم بالأمر، ولا يخفى علينا أن عمله هذا يؤدى إلى إضعاف نفوذ الفاطميين الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بهذه الأعياد لتأييد انتسابهم إلى على بن أبى طالب وزوجته فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام.

---

(١) المقريزى: خطط جـ٢، ص٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٤٠.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ٢ ص١٤ ـ ١٧.

انظر: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص١٨٣ ـ ١٩٠.

على أن الخليفة الآمرالذى ضعفت سلطته كثيرا بتداخل الأفضل لم يلبث بعد أن بلغ سن الرشد أن شعر بالحاجة إلى التخلص من وزيره؛ فأوعز إلى أبى عبد الله محمد بن البطائحى - أحد خواص الوزير - بتدبير مؤامرة لاغتياله؛ فقتل الأفضل وخلفه ابن البطائحى فى الوزارة سنة ٥١٥هـ[١].

كذلك حرص الآمر على أن يخلفه أحد أولاده، فلما رزق طفلا فى ربيع الأول سنة ٥٢٤هـ، سماه أبا القاسم الطيب واحتفل بإعلان البشرى بولايته وتوليته الإمامة من بعده[٢]؛ غير أن هذا الخليفة سرعان ما قتل بتدبير فريق من النزارية[٣] فى اليوم الرابع عشر من شهر ذى القعدة من هذه السنة، فقبض على زمام السلطة بعض رجال الجيش، ووقع اختيارهم على الأمير أبى الميمون عبد المجيد ابن عم الآمر ليلى أمورالخلافة؛ فأخفى أمر الإمام الطيب، وبايعه الناس بولاية العهد ولقب الحافظ لدين الله، وأقيم كفيلا لحمل منتظر لأن الآمر لما مات ترك إحدى زوجاته حاملا[٤].

على أن الأمير عبد المجيد لم تتح له الفرصة للاحتفاظ بسلطته فى الدولة بسبب ثورة الجند عليه وتوليتهم قائدا يدعى أبا على أحمد بن الأفضل الوزارة. فبدأ هذا الوزير عمله بمنع الحافظ من التصرف فى شئون الدولة، كما سجنه فى خزانة؛ وصار لا يسمح لأحد بزيارته إلا بإذنه[٥]، وأمر الخطباء بحذف اسمه من الخطبة، واستولى الوزير على جميع ما فى قصر الحافظ من الذخائر والأموال زاعما أن ذلك كان لأبيه؛ واستأثر منذ ذلك الوقت بالسلطة والنفوذ.

لم يكن الوزير أبو على أحمد بن الأفضل إسماعيلى المذهب، بل كان إماميا؛ لهذا شرع على أثر توليته الوزارة فى اتخاذ إجراءات غايتها إظهار مذهب الإمامية وإضعاف مذهب الإسماعيلية، فأمر بإسقاط اسم إسماعيل بن جعفر الصادق - الذى تنتسب إليه الإسماعيلية - من الخطبة والدعاء لمحمد المنتظر الإمام

---

(١) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص٣٠٣ - ٣٠٤.
(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٧٢.
(٣) كان لا يزال للنزارية أعوان فى مصر، يرون أن الآمر وأباه المستعلى وليا الخلافة دون حق.
(٤) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٧٤، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٥ ص٢٤٠ - ٢٤١.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٢٤٠.

الثانى عشر عند طائفة الإمامية، وضرب دراهم ودنانير جديدة باسم الإمام المنتظر ونقش عليها «الله الصمد، الإمام محمد» كما أبطل من الأذان «حى على خير العمل»، وقولهم: «محمد وعلى خير البشر»، واختار لنفسه ألقابا يقرن بها اسمه فى الخطبة، وهى «السيد الأجل الأفضل، مالك أصحاب الدول، المحامى عن حوزة الدين، ناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق فى حالتى غيبته وحضوره، والقائم فى نصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادى القضاة إلى اتباع شرح الحق واعتماده، ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، رافع الجور عن الأمم ومالك فضيلتى السيف والقلم»[(١)].

كذلك أمعن الوزير أبو على أحمد بن الأفضل فى إضعاف المذهب الإسماعيلى بأن عين سنة ٥٢٥هـ أربعة قضاة: اثنين من الشيعة، أحدهما إمامى والآخر إسماعيلى؛ واثنين من السنيين، أحدهما شافعى والآخر مالكى، وأعطى لكل منهم السلطة فى إصدار أحكامه وفق مذهبه، وقد علق المقريزى على هذا النظام بقوله: «ولم يسمع بمثل هذا فى الملة الإسلامية قبل ذلك»[(٢)].

وعلى الرغم من أن الوزير أبا على أحمد بن الأفضل قد استقل بحكم البلاد، فإنه كان يرى أن بقاءه فى منصبه مستأثرا بالسلطة يتوقف إلى حد كبير على من يلى أمر الخلافة بعد أن أبعد الحافظ وشدد عليه الرقابة فى سجنه. وكان أهم ما يشغله ذلك المولود الذى وضعته إحدى نساء الآمر، وقد اختلفت أقوال المؤرخين فى شأنه، فبينما يذكر البعض[(٣)] أن المرأة التى تركها الآمر حاملا وضعت أنثى. يشير البعض الآخر[(٤)] إلى أن المولود كان ذكرا، وأن أمه أخفته فى القرافة خوفا على حياته من الطامعين فى الخلافة، وظل الوزير أبو على أحمد يضيق الخناق على أهل القصر الفاطمى لعله يصل من وراء ذلك لمن قتلهم الخليفة الآمر من إخوته ورغبة فى التخلص من وريث شرعى للخلافة، غير أنه لم يتمكن من العثور عليه.

---

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٧٥.
(٢) انظر: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص٩٠. .
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص٢٣٨.
(٤) انظر: مجموعة الوثائق الفاطمية ص٤٩ ـ ٩٥.

لم يتمتع الوزير أبو على أحمد بن الأفضل طويلا بالحكم، إذ كان لسياسته التى تنطوى على مناهضة المذهب الإسماعيلى أسوأ الأثر فى نفوس الإسماعيلية فكونوا معارضة قوية ضده بزعامة الأمير أبى الفتح ناصر الجيوش يانس(١) الأرمنى، وتآمروا على اغتياله، فكمن له جماعة منهم وقتلوه سنة ٥٢٦هـ بعد أن ظل مستأثرا بالسلطة سنة وشهرا، وأخرجوا الحافظ من سجنه، وبذلك قضى بالفشل على محاولة نشر مذهب الإمامية فى مصر، واستعاد المذهب الإسماعيلى مكانته، واعتبر اليوم الذى أطلق فيه سراح الحافظ وأعيد إلى الحكم عيدا عرف بعيد النصر، وظل الفاطميون يحتفلون به إلى أن زالت دولتهم.

لم يكن للحافظ حق شرعى فى الخلافة، ذلك أنه لم يكن ابنا للآمر، وإنما ابن عمه، فلما أطلق سراحه بعد مقتل الوزير أبى على أحمد بن الأفضل، رأى رجال الدولة فى مصر أن يعيدوه وليا للعهد وكفيلا لولد الآمر الذى لم يعرف مقره(٢).

على أن الحافظ كان يطمع فى الاستقلال بالخلافة، ومن ثم أمعن فى البحث عن ولد الآمر، فلما اهتدى إلى محل إقامته ـ بعد شهرين من عودته وليا للعهد ـ أسرع إلى التخلص منه، ثم أعلن نفسه خليفة، وقرئ سجل بإمامته فى ٣ ربيع الآخر سنة ٥٢٦هـ، وأمر الحافظ بأن يدعى له من المنابر بهذه العبارة: «اللهم صل على الذى شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأقررت به الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا إمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبى ميمون وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين»(٣).

اتخذ الحافظ بعد أن استقرت له الخلافة الأمير يانس الأرمنى وزيرا له، غير أن وزارته لم يطل أمدها، فقد توفى بعد تسعة أشهر، وتولى الحافظ أمور الدولة بنفسه، فلم يستوزر أحدا، وظل منصب الوزارة شاغرا حتى طمع فيه بهرام

(١) يانس هذا مولى أرمنى، أهدى إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى وترقى فى خدمته إلى أن أصبح أميرا. (انظر: المقريزى، خطط جـ٢، ص١٧).

(٢) المقريزى: خطط، جـ٢، ص٣٥٧، مجموعة الوثائق الفاطمية ص٩٨.

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٧٤ ـ ٧٥.

الأرمني والى الغربيـة، فقدم إلى الـقاهرة في شهـر جمادى الثـانية سنة ٥٢٩هـ، وحاصـرها يومـا فاضطر الحـافظ إلى توليتـه الوزارة على الرغم من عدم دخـوله الإسلام.

لم يكترث بهـرام بما أظهره الناس من السخط عليـه، بل تغالى في التحـيز لبني جنسه، فبـعث في طلب كثير من الأرمن إلى مصـر حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفا بعـد زمن قصير. وكـانت سياسـة هؤلاء للمسلمين في مـصر لا تنطوى على شيء من الود، بل اتسمت بروح العداء فاشتد جورهم، وصادروهم في أموالهم، وأكثروا من بناء الكنائس والأديرة حتى صار لكل رئيس منهم كنيسة بجوار داره مما حمل المسلمين على متابعة الشكاية من أهل بـهرام وأقاربه. كما بعث أمراء الجيش وقواده إلى رضوان بن ولخشى والى الغربية يطلبون منه القـدوم إليهم لينقذهم مما لحق بهم من سطوة الأرمن، فأجـاب رضوان طلبهم وقـدم إلى القاهرة على رأس جيش كبـير، وانضم إليه الجنود المسلمون في جيش بهـرام، فازدادت بذلك قوته، واضطر بهرام إلى الرحـيل عن القاهرة والالتجـاء إلى أخيه الباسـاك والى قوص، فخلفه رضوان في الوزارة سنة ٥٣٠هـ وتلـقب بالسيد الأجل الملك الأفضل، وهو أول من لقب بالملك من وزراء مـصـر، وصار الوزراء الفـاطمـيون الذين خلفـوه يتلقبون بهذا اللقب.

واشتد رضوان في معاملة أعوان بهرام، فـاستولى على أملاكهم وقتل الكثير منهم وهم بخلع الحافـظ بحجة أنه ليس إمـاما، بل هو كفيل لغـيره، فاسـتاء منه الحافظ، واضطر رضوان إلى الخروج إلى بلاد الشام، ثم ما لبث أن عاد إلى مصر على رأس جيش كبير سنة ٥٤٣هـ فتـصدى له جند الخليفة وأرغم على المسير إلى الوجه القبلـي حيث طارده الأمير أبو الفضـائل بن مصال الذى عرض عليـه عهد الأمان فاستجاب له وجاء إلى القاهرة، غير أن الحافظ لم يف بهذا العهد، فاعتقله بالقصـر، ولم يزل في معـتقله حـتى سنة ٥٤٢هـ، حيث تمكن من الفـرار وجمع أنصاره حوله، ثم دارت بينه وبين جند الخليفة السودانيين عدة معارك، انتهى الأمر فيها بهزيمته وقتله[١].

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٨٢ ـ ٨٣.

لم يتخذ الخليفة الحافظ وزيرا بعد أن اشتد الخلاف بينه وبين رضوان بن ولخشى، فظل يحكم البلاد بلا وزير حتى توفى فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ، فخلفه بعهد منه ابنه أبو المنصور إسماعيل ولقب بالظافر بأمر الله، وولى الوزارة الأمير نجم الدين بن مصال ولقب بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش.

عاد التنافس فى عهد الظافر بين رجال الدولة على تقلد منصب الوزارة، فثار الأمير المظفر على بن السلار والى الإسكندرية والبحيرة، وقصد القاهرة على رأس فرقة من أعوانه، فاضطر ابن مصال إلى الفرار وحل ابن السلار محل منافسه فى الوزارة وتلقب بالعادل، ثم جهز العساكر لمحاربة ابن مصال، وأخذت قواته تتعقبه حتى أوقعت به الهزيمة فى الوجه القبلى وقضت عليه، وبذلك خلا الجو لابن السلار وقام بأعباء الوزارة.

كان ابن السلار شافعى المذهب، فأنشأ سنة ٥٤٦هـ بالإسكندرية مدرسة للشافعية، وأسند إدارتها إلى الحافظ[١] السلفى الفقيه الشافعى، وذلك هيأ السبيل لرجوع المذهب السنى إلى مصر، وقد أدى تعصبه لهذا المذهب ورغبته فى إحلاله بمصر محل المذهب الإسماعيلى إلى حقد الخليفة ورجال دولته عليه، فقتل بإيعاز منه سنة ٥٤٨هـ. وفى العام التالى اغتيل الخليفة بتدبير من الوزير أبى الفضل عباس الذى خلف ابن السلار فى الوزارة.

أثار مقتل الخليفة الظافر أهالى القاهرة، فنشبت المعارك فى طرقات المدينة وتعرض أتباع الوزير عباس لكثير من الضر والأذى بسبب سخط الأهلين عليهم حتى اضطروا إلى الانصراف عنه، كما أن هذا الوزير ما لبث أن لقى حتفه فى أثناء محاولته الفرار إلى سورية.

بويع بالخلافة بعد مقتل الظافر لابنه عيسى وهو فى الخامسة من عمره ولقب بالفائز بنصر الله، وقد ساد الفزع القصر الفاطمى إذ ذاك وأرسل نساء القصر إلى طلائع بن رزيك والى الأشمونين يطلبن منه القدوم لإنقاذهن من الأخطار المحدقة بهن[٢]؛ فقدم طلائع مرتديا الثياب السوداء ومعه أعلام سود. وقد علق

(١) الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى الأصبهانى.
(٢) المقريزى: خطط، جـ٢ ص٢٩٣.

المقريزى[١] على ذلك بقوله: «فكان فألا عجيبا، فإنه بعد خمس عشرة سنة دخلت أعلام بنى العباس السود من بغداد إلى القاهرة لما مات العاضد واستبد صلاح الدين بملك مصر».

تقلد طلائع بن رزيك الوزارة بعد قضائه على الاضطرابات التى حدثت بالقاهرة على أثر مقتل الخليفة الظافر وتلقب بالملك الصالح؛ غير أنه ما لبث أن استبد بالسلطة، فقد أسند إليه الخليفة جميع أمور الدولة فى تقليد توليته الوزارة، وقد جاء فيه: «فقلدك من وزارته وفرض إليك تدبير ممالكه وكفالته، وجعل لك إمارة جيوشه الميامين وكفالة قضاء المسلمين، وهداية دعاة المؤمنين، وترديد ما هو مردود إليهم من الصلاة والخطابة، وإرشاد الأولياء المستجيبين والنظر فى كل ما أغدقه الله من أمور أوليائه أجمعين وجنوده وعساكره المؤيدين، وكافة رعاياه بالحضرة وجميع أعمال المملكة دانيها وقاصيها وسائر أحوال الدولة باديها وخافيها[٢]. . . ».

ظل طلائع بن رزيك قابضا على زمام الأمور فى مصر حتى توفى الفائز فى السابع عشر من رجب سنة ٥٥٥هـ، دون أن يوصى لأحد بولاية العهد أو الخلافة من بعده، فأقام الوزير طلائع: العاضد خليفة؛ وفى ذلك يقول المقريزى: «لما مات الخليفة الفائز، ركب الصالح بن رزيك إلى القصر بثياب الحزن، واستدعى زمام القصر، وسأله عمن يصلح فى القصر للخلافة فقال: ها هنا جماعة، فقال عرفنى أكبرهم: فسمى له واحدا فأمر بإحضاره، فتقدم إليه أمير يقال له، «على بن الزيد»، وقال له سرا، «لا يكن (الوزير) عباس أحزم منك رأيا حيث قبل الصغير وترك الكبير، واستبد بالأمر، فمال (الصالح) إلى قوله، وقال للزمام، أريد منك صغيرا، فقال: عندى ولد الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله، وهو دون البلوغ فقال (الصالح): على به، فأحضره بعمامة لطيفة وثوب مفوط. . وكان عمره نحو إحدى عشرة سنة، ثم أمر صاحب خزانة الكسوة أن يحضر بذلة ساذجة خضراء وهى لبس ولى العهد إذا حزن على ما تقدمه، وقام فألبسه إياها. . »، وما

(١) خطط: جـ٢، ص٣٠.

(٢) مجموعة الوثائق الفاطمية، ص١٥٢ ـ ١٥٣

لبث أن أخذ الصالح بيد عبد الله وأجلسه إلى جانبه، وأمر بأن يحمل إليه ثياب الخلافة فألبسها، وبايعه وتبعه سائر الناس فى مبايعته ولقب بالعاضد لدين الله فى يوم الثامن عشر من رجب سنة ٥٥٥[١].

يتضح لنا مما تقدم إلى أى حد زادت سلطة الوزراء فى العصر الفاطمى الأخير حتى أصبحوا يتدخلون فى تولية الخلفاء، بل لم يراعوا فى توليتهم تعاليم الإسماعيلية، وفضلا عن ذلك فإن بعضهم انصرف عن تأييد مذهب الخليفة الفاطمى وأهل دولته كما فعل كل من أبى على أحمد بن الأفضل، وطلائع بن رزيك، فقد أظهرا مذهب الإمامية، وعملا على إحلاله فى مصر محل مذهب الإسماعيلية، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد كان للوزير طلائع بن رزيك مطامع خاصة تجلت فى حرصه على زواج ابنته من الخليفة العاضد، وكان يرجو من وراء هذه المصاهرة أن ترزق ابنته منه ولدا «فيجتمع لبنى رزيك الخلافة مع الملك».

(١) راجع مجموعة الوثائق الفاطمية فى مصر، ص١٢٠ ـ ١٢٢.

٣ ـ زوال الخلافة الفاطمية :

تطور التنافس على الوزارة فى مصر فى العصر الفاطمى الأخير إلى استعانة بعض الطامعين فيها بأمراء الدول المجاورة مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى بسط سلطانهم عليها، فقد انفرد شاور الذى كان واليا على الصعيد بالسلطة بعد تخلصه من الوزير العادل بن طلائع بن رزيك فى المحرم من سنة ٥٥٨هـ، غير أن ضرغام ـ أحد قواد الجيش ـ ما لبث أن ثار عليه وتقلد الوزارة، فاضطر شاور إلى الالتجاء بنور الدين محمود صاحب دمشق ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه، ووعد بأن ينزل له عن ثلث خراج مصر إذا ما عاونه فى التغلب على ضرغام وانتزاع الوزارة منه، فتردد نور الدين بادئ الأمر فى إجابة طلبه، ثم ما لبث أن قوى عزمه على تحقيق رغبته، فأعانه بحملة أسند قيادتها إلى أسد الدين شيركوه، فلما وصلت هذه الحملة إلى القاهرة تصدت لضرغام وتغلبت عليه، وبذلك خلا الجو لشاور، فأعيد إلى منصبه فى الوزارة فى رجب سنة ٥٥٩هـ[١].

على أن شاور سرعان ما تخلى عن حليفه نور الدين، فلم يف بما عاهده عليه، وأرسل إلى أسد الدين شيركوه يطلب منه الرجوع إلى الشام، ولم يكتف بذلك، بل بعث إلى أملريك[٢] (Amalric)ملك بيت المقدس يستمده ويخوفه من نور الدين إن ملك الديار المصرية، فسارع إلى تلبية طلبه، وأرسل جيشا أرغم شيركوه على العودة بجنده إلى الشام، وكان لهذه السياسة أثرها فى توجيه أنظار كل من نور الدين صاحب دمشق والفرنجة ببيت المقدس إلى غزو مصر، فأنفذ نور الدين حملة ثانية إلى مصر سنة ٥٦٢هـ بقيادة أسد الدين شيركوه وذلك حين ثبت لديه غدر شاور به ونقضه الاتفاق معه، وسير بصحبته بعض الأمراء، وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب من بين الذين اشتركوا فى هذه الحملة[٣].

رأى شاور أن يستنجد مرة ثانية بالفرنجة، فاستقر رأيهم على تحقيق رغبته خشية أن يستولى جيش نور الدين على مصر ويضمها إلى بلاد الشام فيصبح مركزهم فى بيت المقدس مهددا بالأخطار. ولما وصلت عساكر الفرنجة إلى مصر

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ١ ص١٣٧ ـ ١٣٩.

(٢) ورد اسمه فى بعض المراجع Amaury

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص١٤٧.

انضمت إلى جيوش شاور والمصريين. وكان شيركوه قد تقدم بعساكره إلى الصعيد فتتبعه الفرنجة والمصريون، والتقى الفريقان فى مكان يعرف بالبابين (على مقربة من المنيا)، فكان النصر حليف شيركوه الذى رأى بعد ذلك آن يسير إلى الإسكندرية، فدخلها من غير مقاومة وعين ابن أخيه صلاح الدين واليا عليها.

أما قوات الفرنجة والمصريين فعادت إلى القاهرة بعد واقعة البابين، ثم زحفت إلى الإسكندرية حيث قامت بحصارها برا، بينما كان أسطول الصليبيين يحاصرها بحرا، ولم يكن لدى صلاح الدين من الجند ما يمكنه من رفع الحصار، فأسرع أسد الدين شيركوه إلى نجدته. ولم يلبث المصريون والفرنجة أن أرسلوا إليه يطلبون الصلح، فأجاب طلبهم واشترط ألا يقيم الفرنجة فى البلاد المصرية، ثم عاد إلى دمشق.

على أن جميع قوات الفرنجة لم تغادر مصر تنفيذا لهذا الصلح، بل عقدت مع شاور معاهدة، كان من أهم شروطها: أن يكون لهم بالقاهرة شحنة (صليبية)، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين عن إنفاذ عسكره إليهم»، كما اتفق الطرفان على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنويا من دخل مصر[١] وقد عقب أبو شامة[٢] على هذه الشروط بقوله: «هذا كله يجرى بين الفرنج وشاور، وأما العاضد ـ صاحب مصر ـ فليس له من الأمر شيء ولا يعلم شيئا من ذلك، قد حكم عليه شاور وحجبه، وعاد الفرنج إلى بلادهم وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة».

أدى دخول الفرنجة البلاد المصرية إلى اطلاعهم على ما وصلت إليه حالة هذه البلاد من الضعف والاضطراب مما جعلهم يطمعون فى الاستيلاء عليها، وذلك أنهم قد تحكموا فى شئون أهلها دون أن يقف فى وجههم أحد، وبعثوا إلى ملكهم أملريك يهونون عليه أمر امتلاك هذه البلاد، كما أن فئة من أعيان المصريين ممن كانوا يعادون شاور كاتبوا هذا الملك يحببون إليه القدوم إلى مصر ـ وكان قد وصل إليه من بعض أعوانه أسماء قراها ومقدار خراج كل منها ـ، وبذلك تمهد

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ص١٥٢.
(٢) الروضتين فى أخبار الدولتين ص١٤٣.

السبيل لقوات الفرنجة لغزو البلاد المصرية فخرج أملريك على رأس الحملة التى جهزها فى أوائل سنة ٥٦٤هـ. ولما تقدم الفرنجة فى زحفهم صوب القاهرة، اضطر شاور إلى إخلاء الفسطاط، ثم أشعل النار فيها حتى لا يأوى إليها الصليبيون، وأمر سكانها بالنزوح إلى القاهرة، فحملوا معهم كل ما استطاعوا حمله من متاع وطعام وتركوا مدينتهم، فظلت النار مشتعلة بها أربعة وخمسين يوما.

ولما شدد الفرنجة الحصار على القاهرة وضيقوا على أهلها حتى ضعفت قواهم، رأى شاور بعد أن أيقن من عجزه عن مقاومتهم وضعفه عن ردهم على أعقابهم أن يعمد إلى إعمال الحيلة، فأرسل إلى أملريك يذكره بما بينهما من صلة المودة، ويبدى له خوفه من نور الدين، ويشير عليه بالصلح على أن يؤدى إليه ألف ألف دينار، فرحب أملريك بما عرضه عليه شاور واستقر الرأى بينهما على أن يعجل بدفع مائة ألف دينار لملك الفرنجة، ويؤخر الباقى خشية أن يسارع نور الدين إلى الاستيلاء على البلاد المصرية.

على أن شاور ما لبث أن خدع الفرنجة، فأرسل إلى نور الدين يطلب النجدة، كما بعث إليه أيضا الخليفة العاضد لدين الله يستنجد به، وتعهد بأن ينزل له عن ثلث بلاد مصر، وأن يأذن لأسد الدين شيركوه بالإقامة عنده مع جنده، وأن يكون إقطاع هؤلاء الجند خارجا عن ثلث البلاد الذى أفرده لنور الدين[١].

لم تكد تصل هذه الرسائل إلى نور الدين حتى سارع إلى تجهيز قوة من حرسه الخاص ومن التركمان بقيادة أسد الدين شيركوه، وانضم إليهم عدد كبير من الأمراء وبعض أقاربه ومن بينهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومضوا جميعا فى سيرهم نحو مصر. فلما وصلوا إلى القاهرة كان لا يزال أملريك معسكرا بقواته أمام أسوارها، فرحب بهم المصريون، واضطر أملريك - بعد أن اتضح له موقف المصريين منه - إلى الرحيل إلى فلسطين من غير حرب ولا قتال، ثم دخل أسد الدين شيركوه القاهرة فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ، فرحب به أهلها، واستقبله الخليفة العاضد وخلع عليه.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ص١٥٨.

أيقن شاور بعد وصول حملة شيركوه الثالثة إلى القاهرة أن غايتها القضاء عليه والاستيلاء على مصر، فظل يوجس خيفة منه، وصار كل منهما يكيد لخصمه. ولما حاول شاور تدبير مؤامرة للقبض على شيركوه ومن معه من الأمراء، نهاه ابنه الكامل وقال: «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين» فقال شاور: «والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعا» فرد عليه الكامل بقوله: «صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج»، فعدل شاور عن عزمه، غير أن أسد الدين ما لبث أن اتفق مع أصحابه على التخلص منه واضطلع بعضهم بتنفيذ هذه المؤامرة، فقبضوا عليه وقتلوه، ثم نهبت العامة دوره. وهكذا انتهت حياة ذلك الوزير الذى استبد بالسلطة فى أواخر العصر الفاطمى واستعان بالعناصر الأجنبية لتثبيت نفوذه، ولم يعد للصليبيين بعد مقتله من يحفزهم على التطلع إلى غزو مصر.

أصبح أسد الدين شيركوه صاحب السلطان الفعلى فى البلاد بعد أن انتهى عهد شاور، فاتخذ العاضد وزيرا له، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، وقلده جميع أمور الدولة، فجاء فى سجل تعيينه وزيرا: «وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته وتدبير مملكته، وحياطة ما وراء سرير خلافته، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة إمامته، وكفالة قضاة المسلمين، وهداية دعاة المؤمنين[1]. . .» كما أوصاه بأن يحسن معاملة رعاياه بقوله: «والرعايا قد علمت ما نالهم من إجحاف الجبايات وإسراف الجنايات، وتوالى عليهم من ضروب النكايات، فأعمر أوطانهم التى أخربها الجور والأذى، وانف من مواردهم الكدر والقذى، وأحسن حفظ وديعة الله منهم، وخفف الوطأة ما استطعت عنهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا».

استطاع أسد الدين شيركوه فى الفترة القصيرة التى قضاها فى الوزارة أن يقبض على زمام الأمور فى البلاد، كما وزع الإقطاعات على عساكره، وأعاد أهالى الفسطاط إلى بلدهم، وأوصى أصحابه ألا يتركوا القاهرة، ثم توفى بعد أن ظل فى منصبه ما يقرب من ثلاثة أشهر، فتنازع أمراء نور الدين الذين كانوا معه فى طلب الرياسة والوزارة، غير أن العاضد مال إلى تولية صلاح الدين يوسف بن أيوب لصغر سنه وضعفه عنهم فاستدعاه وولاه الوزارة.

---

(١) مجموع الوثائق الفاطمية ص١٧٢.

شرع صلاح الدين ـ بعد أن ولى وزارة العاضد الفاطمى ـ فى استمالة قلوب الناس إليه. وكان لبذله الأموال عليهم أثره فى اكتساب محبتهم مما ساعد على تقوية مركزه فى مصر، بينما أخذت سلطة العاضد فى الضعف، فقد أمر صلاح الدين بذكر اسم نور الدين فى الخطبة بعد الخليفة الفاطمى وأقطع أصحابه البلاد، وأسند إليهم بعض المناصب، وبذلك كشف القناع عن حقيقة نواياه إزاء الخلافة الفاطمية وتجلى حرصه على القضاء عليها.

ولما ثقلت وطأة صلاح الدين على أهل القصر الفاطمى وتجلى استبداده بأمر الدولة وإضعافه جانب الخلافة، حنق عليه رجال القصر ودبروا المكائد للتخلص منه، وكان يتزعمهم جوهر مؤتمن الخلافة. وقد اتفق رأيهم على مكاتبة الفرنجة ودعوتهم إلى مصر، فإذا ما خرج صلاح الدين إلى لقائهم قبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة وانضموا إلى الفرنجة فى محاربته والقضاء عليه[١].

على أن صلاح الدين ما لبث أن وقف على ما دبره له أعداؤه، فشدد الرقابة على مؤتمن الخلافة، وأرسل إليه جماعة من أصحابه تمكنوا من اغتياله فى أواخر سنة ٥٦٤هـ[٢]، فأدى ذلك إلى ثورة جند الخليفة وأكثرهم من السودانيين ـ وكانوا يزيدون على خمسين ألفا. وقد دار بينهم وبين قوات صلاح الدين قتال عنيف فى المكان المعروف ببين القصرين بالقاهرة أحرق فيه كثير من المنازل، كما أحرق حيهم المعروف بالمنصورية، وحلت بهم الهزيمة، ومضت فلولهم إلى الجيزة[٣]. وما زال صلاح الدين يتتبعهم فى الصعيد إلى أن قضى على نفوذهم نهائيا سنة ٥٧٢هـ[٤].

لم تكن الصعاب التى واجهت مصر فى الفترة التى قضاها صلاح الدين وزيرا للعاضد مقصورة على الفتن التى أثارها رجال القصر الفاطمى وأتباعهم من الجند، بل كان الفرنجة فى بيت المقدس يرقبون إذ ذاك ازدياد نفوذ نور الدين المتواصل فى مصر ويرون فيه خطرا يهدد كيانهم، ولذلك استقر رأى ملك بيت

---

(١) المقريزى: خطط جـ٢ ص٢.

(٢) المقريزى: خطط جـ٢ ص٣.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ١، ص١٧٤ ـ ١٧٧.

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص١٩٧.

المقدس على الاستنجاد بملوك أوربا لإحباط أطماع نور الدين، لكن دعوته لم تلق استجابة منهم لانشغال غالبيتهم بمسائل تتعلق بدولهم، فلجأ إلى مانويل إمبراطور الدولة البيزنطية الذى رحب بمد يد المعونة إليه، ومن ثم توجهت قواتهم إلى دمياط يعاونهم أسطول بيزنطى مزود بالمؤن والعتاد الحربى، فوصلوا إليها فى صفر سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م). وكان الإمبراطور البيزنطى يرجو أن تحقق هذه الحملة أطماعه فى توسيع رقعة البلاد الداخلة فى دائرة نفوذه[١].

رأى صلاح الدين بعد أن بلغه خبر الحملة التى أنفذها الفرنجة إلى دمياط أنه لابد من النهوض لصدهم، فأرسل جنده عن طريق النيل بقيادة ابن أخيه تقى الدين عمر وخاله شهاب الدين محمود، وأمدهما بالسلاح والذخائر والمال. واضطر صلاح الدين للبقاء بالقاهرة خشية أن يقوم رجال القصر الفاطمى وجند السودان الناقمون عليه بتدبير المؤامرات ضده. وبعث إلى نور الدين محمود يطلب منه النجدة، ويشكو إليه ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنجة، وإن سار إليها دبر له أعداؤه من المصريين المكائد، وبذلك يصبح الفرنجة أمامه والمصريون خلفه. فاستجاب نور الدين لدعوة صلاح الدين وبعث إليه الإمداد، وكان كلما جهز فرقة من الجند أرسلها إليه[٢]، كما حرص الخليفة العاضد على إعانته بالمال طوال مدة حصار الفرنجة لدمياط. وقد نوه صلاح الدين بمعاونة العاضد له بقوله:[٣] «ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى ما أرسله إلى من الثياب وغيرها».

لم يتيسر للمغيرين على دمياط من الفرنجة وحلفائهم البيزنطيين تحقيق غرضهم، فقد تسرب القلق إلى نفوسهم من جراء ما عانوه فى سبيل تموين قواتهم، كما وقع الخلف بين قوادهم على الخطة التى يتبعونها لمهاجمة هذه المدينة، وفضلا عن ذلك، فإن ما بلغهم عن قيام نور الدين بمهاجمة حصن الكرك وغيره من النواحى التى فى أيديهم حملهم على الإسراع فى رفع الحصار عن المدينة

(١) حسن حبشى: نور الدين والصليبيون، ص١٣٤ ـ ١٣٦.
(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص١٨١.
(٣) المقريزى: خطط، جـ١ ص٢١٥.

والرجوع بجيوشهم إلى بلادهم فى ربيع الأول سنة ٥٦٥هـ وبذلك فشلت هذه الحملة فى غزو دمياط والاستيلاء على مصر(١).

كان لإحباط خطة الفرنجة والبيزنطيين فى مهاجمة دمياط ورحيلهم إلى بلادهم منهزمين أثره البالغ فى توطيد سلطة صلاح الدين فى مصر. فقد اعتبره المصريون حاميا لهم واتفقوا معه على محاربة الفرنجة أعدائهم جميعا، كما أن صلاح الدين حرصا منه على تدعيم مركزه، رأى أن يحيط نفسه بأهل بيته، فطلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه، فوصلوا إلى مصر فى جمادى الآخرة سنة ٥٦٥هـ (١١٧٠م)، وما لبث أن أسند إليهم بعض المناصب الهامة، فجعل أباه على بيت المال وأقطع إخوته بعض الأراضى(٢).

لما أيقن صلاح الدين أن سلطته قد استقرت، وجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعى فى مصر، فأنشأ سنة ٥٦٦هـ مدرسة لتدريس المذهب الشافعى وأخرى لتدريس المذهب المالكى، وعزل قضاة الشيعة، وعين صدر الدين عبد الملك بن درباس قاضيا للقضاة فى جميع أنحاء البلاد المصرية، فأناب عنه فى سائر البلاد قضاة شافعية، فاستعاد بذلك المذهب السنى قوته، وأخذ المذهب الإسماعيلى فى الاختفاء تدريجيا حتى لم يبق له أنصار فى مصر(٣).

كان لسياسة صلاح الدين التى تنطوى على إضعاف المذهب الإسماعيلى أثرها فى زوال الخلافة الفاطمية، فقد انهارت منذ ذلك الوقت سلطة الخليفة العاضد، وكثر القول من صلاح الدين وأصحابه فى ذمه، كما تحدثوا بخلعه وإقامة الدعوة العباسية. لكن صلاح الدين رغم استبداده بأمور مصر لم يسارع إلى إقامة الخطبة للمستضىء بنور الله العباسى، بل أعرض فى بادئ الأمر عن تنفيذ رغبة نور الدين الذى أرسل إليه يأمره بإحلال اسم الخليفة العباسى فى الخطبة محل الخليفة الفاطمى، واعتذر بتخوفه من أن يثير هذا العمل غضب المصريين، غير أن

(١) حسن حبشى: نور الدين والصليبيون، ص١٣٧ ـ ١٤٠.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص٢٤ ـ ٣٥، وابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص١٨٥ ـ ١٨٦.

(٣) المقريزى: خطط جـ١ ص٣٥٨ ـ ٣٥٩.

نور الدين أبى قبول هذا العذر وبعث إليه يلزمه بقطع الخطبة للخليفة العاضد، فرأى صلاح الدين أن يشاور الأمراء فى ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة بدل الخليفة الفاطمى فوافقه بعضهم وأظهروا استعدادهم لمعاونته على تحقيق هذه الرغبة، وخشى آخرون من الإقدام على ذلك، وكان قد وفد إلى القاهرة رجل فارسى يعرف بالأمير العالم، فلما رأى تردد صلاح الدين فى إقامة الخطبة للخليفة العباسى، أبدى حرصه على القيام بنفسه بالدعاء لهذا الخليفة، فصعد المنبر فى أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ قبل الخطيب، ودعا للمضىء فلم يعارضه أحد، وفى الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بإسقاط اسم العاضد من الخطبة وذكر اسم الخليفة العباسى بدلا منه، وكان العاضد إذ ذاك مريضا فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك، ثم توفى فى العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ[١]. وقيل إنه علم قبل وفاته بحذف اسمه من الخطبة، فاعتل وتوفى بعد خمسة أيام[٢].

وهكذا سقطت الدولة الفاطمية الشيعية، وظلت الخلافة العباسية قائمة على الرغم مما أصابها من الضعف والانحلال. ويرجع السبب فى ذلك إلى رغبة المسلمين الاحتفاظ بها لاعتقادهم أنها نظام لابد منه لصلاح العالم الإسلامى واستقامة شئونه.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١ ص٢٠٠ ـ ٢٠١.
(٢) أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين جـ١ ص١٩٦.

الباب السادس

النظم والحضارة فى العصر الفاطمى بمصر

١ ـ نظم الحكم والإدارة.

٢ ـ الحالة الاقتصادية.

٣ ـ مظاهر الحياة الاجتماعية.

٤ ـ الحياة الثقافية.

١ ـ نظم الحكم والإدارة :

تطلب نظام الوراثة عند الإسماعيلية وهو الذى أخذ به الفاطميون منذ نشأة دولتهم أن تنتقل الإمامة من الأب إلى الابن عن طريق التعيين بالنص. وحرص الفاطميون على اتباع هذا النظام منذ أقاموا دولتهم، ولكن بعض الأحداث حملتهم على الخروج عليه، فحاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يحرم ابنه أبا الحسن عليا، الذى ولى الخلافة من بعده باسم الظاهر من ولاية العهد، ويعهد بها لابن عمه عبد الرحيم بن إلياس، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل وخلفه ابنه الظاهر، كذلك خولف هذا النظام بعد وفاة الخليفة الآمر حين ولى الخلافة بعده عمه الحافظ، كما أنه بعد وفاة الفائز ولى الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله[١].

وكان الخليفة الفاطمى يعين ولى عهده قبل وفاته ولم يكن له الحق فى أن يعهد بالإمامة من بعده لأكثر من واحد، وهذا يميز ولاية العهد عند الفاطميين عن ولاية العهد عند الأمويين والعباسيين، فكان الأمويون والعباسيون من بعدهم يعهدون بالخلافة لأكثر من واحد. وأسرف العباسيون فى تعيين ولاة العهد. فعهدوا بالخلافة من بعدهم إلى ثلاثة أمراء مما أدى إلى قيام المنافسة بين أفراد البيت المالك، كما أدى إلى ضعف كل من البيتين الأموى والعباسى فى النهاية.

أحاط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس، ويتجلى لنا ذلك من حديث الداعى هبة الله الشيرازى الذى وصف فيه مقابلته الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى مجلس الخلافة بالقاهرة، فقال: «فلم تقع عينى عليه إلا وقد أخذتنى الروعة، وغلبتنى العبرة، وتمثل فى نفسى أننى بين رسول الله وأمير المؤمنين ـ صلى الله عليهما ـ ماثل، وبوجهى إلى وجهيهما مقابل، واجتهدت عند وقوعى إلى الأرض ساجدا لولى السجود ومستحقه، أن يشفعه لسانى بشفاعة حسنة

---

(١) انظر: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص٢٠ ـ ٢١.

بنطقه، فوجدته بعجمة المهابة معقولا، وعن مزية الخطابة معزولا.. ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ولا يهتدى لقول، وكلما استطرد الحاضرون منى كلاما ازددت إعجابا.. وهو - خلد الله ملكه - يقول: دعوه يهدأ ويستأنس، ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عينى وصدرى، وودعت وخرجت[١]...».

وكان الخلفاء الفاطميون يرون فى تقديس الناس لهم إعلاء لشأنهم واعتبروا أنفسهم هداة لهم. وكانوا يلقبون أنفسهم بألقاب كثيرة منها: الخليفة الفاطمى أوالعلوى أو أمير المؤمنين. وكان السنيون يطلقون عليهم العبيديين نسبة إلى عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، كما أطلق عليهم «الفاطميون» نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء[٢].

أما عن الوزارة فى عهد الفاطميين، فإن جوهرا الصقلى لما فتح مصر أقر الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات فى منصبه حتى لا يحدث عزله اضطرابا فى شئون ولاية مصر، ولم يقدم على عزل أحد من الموظفين السنيين وإحلال المغاربة وغيرهم من أنصار الفاطميين محلهم لأنه لم يوجد من المغاربة فى أول الأمر خبير بالشئون الإدارية فى مصر.

على أن جوهرا ما لبث أن أشرك مع كل موظف مصرى آخر مغربيا حتى إذا ما تدرب أنصار الفاطميين على الإدارة انفردوا بالوظائف. كذلك عمل جوهر على إضعاف سلطة الوزير جعفر بن الفرات بأن عين له خادما يلازمه فى داره ويسير فى ركابه ليكون عينا عليه[٣]. وساء الوزير ابن الفرات أن يرى نفسه فى هذه الحال. لذلك انتهز فرصة قدوم الخليفة المعز إلى مصر واعتذر له عن البقاء فى منصب الوزارة، فأظهر له الخليفة رغبته فى ضرورة بقائه فى البلاد المصرية بعد اعتزاله منصبه ليستأنس برأيه فى مهام الأمور، فأجابه إلى ذلك[٤].

---

(١) سيرة المؤيد، ص٨٥ - ٨٦.
(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص٢١٦.
(٣) المقريزى اتعاظ الحنفا ص١٦٨ - ١٨٠.
(٤) انظر: كتاب «المعز لدين الله» ص١٤٩.

ثم عهد الخليفة المعز إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن المغربى فى إدارة شئون الدولة الفاطمية المدنية والحربية، وقلدهما أمور الدولة التى يضطلع بها الوزراء، على أن ابن كلس لم يسند إليه منصب الوزارة، ويلقب بلقب وزير إلا فى عهد الخليفة العزيز بالله.

كانت الوزارة فى العصر الفاطمى الأول (٣٥٨ ـ ٤٦٥هـ) وزارة تنفيذ لأن الخلفاء كانوا على جانب كبير من القوة بحيث استأثروا بإدارة شئون الدولة. وحرص الخلفاء الفاطميون على اختيار وزرائهم من المختصين بتدبير الأموال، كما كان لحكام الولايات وكبار موظفى الدولة على اختلاف درجاتهم الحق فى تقلد منصب الوزارة إذا توافرت عندهم الكفاية اللازمة لهذا المنصب، وبلغ من تسامح الفاطميين أن عهدوا إلى بعض ذوى الشأن من أهل الذمة بتولية الوزارة[(١)].

لم تظهر تسمية الوزير وزيرا بوضوح إلا فى أيام الخليفة العزيز مع أن هذا المنصب كان معروفا فى عهد الطولونيين والإخشيديين. ومن وزرائه يعقوب بن كلس، وكان يجلس للمظالم كل يوم بعد صلاة الصبح، فيدخل عليه الناس بظلامتهم، واتخذ فى قصره عدة دواوين، خص بعضها بالنظر فى شئون الجيش والمالية والسجلات وما يتعلق بجباية الخراج، وعين لكل ديوان ما يحتاج إليه من الموظفين[(٢)].

ضعف شأن الوزارة بعد وفاة يعقوب بن كلس وتحولت إلى ما يسمى الوساطة خشية ازدياد نفوذ الوزراء، ففى أوائل عهد الخليفة الحاكم بأمر الله عزل عيسى بن نسطورس لإسناده مناصب الدولة إلى أهل ملته من المسيحيين، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين الوساطة وتلقب أمين الدولة.

ومن أشهر رجال العصر الفاطمى الذين تقلدوا الوساطة والوزارة: أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح الذى لقب وزير الوزراء ذا الرياستين، وأبو القاسم على ابن أحمد الجرجرائى الذى تقلد بعض المناصب العليا فى عهد الحاكم، ثم أسندت إليه الوساطة فى أوائل خلافة الظاهر الفاطمى، لكنه لم يل الوزارة إلا فى سنة

---

(١) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، ص٩٢، ٩٣.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص٢٧٢.

٤١٨هـ وظل شاغلا هذا المنصب إلى أن توفى سنة ٤٣٦هـ، خلفه فى الوزارة أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى[١] غير أن هذا الوزير لم يتمتع بما تمتع به غيره من نفوذ بسبب اتساع سلطة أبى سعد التسترى اليهودى الذى تقرب من الخليفة المستنصر بالله وعظم شأنه فى عهده[٢].

أصبحت الوزارة منذ أواخر عهد المستنصر بالله إلى نهاية العصر الفاطمى وزارة تفويض تقلدها كثير من أرباب السيوف بعد أن كانت وزارة تنفيذ أو وساطة يرجع من تقلدها إلى أمر الخليفة ونهيه، وبذلك تحولت الوزارة إلى سلطة استبدادية. ومن أشهر وزراء هذا العصر بدر الجمالى الذى كان واليا على عكا، ثم استدعاه المستنصر لينقذ عرش خلافته ويصلح الأمور فى مصر، فلما قدم إلى القاهرة فوض إليه جميع سلطاته، فقد جاء فى سجل توليته الوزارة[٣]: «وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره». وبذلك أصبح بدر الجمالى صاحب الحل والعقد، له أن يولى كبار موظفى الدولة ويعزلهم.

ضعف نفوذ الخلفاء الفاطميين كثيرا فى العصر الفاطمى الثانى، بينما زادت سلطة الوزراء الذين استفحلت قوتهم وتضخمت ثروتهم، وأصبح فى أيديهم أمر تعيين الخلفاء وعزلهم. وكان بعضهم يؤثر اختيار أحد أمراء البيت الفاطمى الضعاف حتى يكون ألعوبة فى أيديهم. وقد تجلت هذه الظاهرة فى عهد الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى الذى كان يتمتع بسلطة مطلقة، فأصبحت فى قبضة يده موارد الدولة الواسعة. وقد نقل الدواوين إلى داره التى بناها سنة ٥٠١هـ، كما جلب إليها كثيرا من الذخائر النفيسة.

وكان من ألقاب وزراء التفويض: أمير الجيوش، وكافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين. ثم أضيف إليها لقب ملك بعد أن ولى الوزارة رضوان بن ولخشى فى عهد الخليفة الحافظ، وفى ذلك يقول المقريزى[٤]: «وأول من لقب

---

(١) ابن منجب الصيرفى: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص٣٥ ـ ٣٨.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص٢٧٦ ، ١٧٧.

(٣) المقريزى: خطط، جـ١ ص٤٤.

(٤) خطط، جـ٢ ص٣٠٥.

بالملك منهم مضافا إلى بقية الألقاب رضوان بن ولخشى عندما وزر للحافظ لدين الله، فقيل له: السيد الأجل الملك الأفضل، وذلك فى سنة ثلاثين وخمسمائة، وفعل ذلك من بعده، فتلقب طلائع بن رزيك بالملك المنصور، كما تلقب صلاح الدين بالملك الناصر.

* * *

كانت مصر تنقسم فى العصر الفاطمى إلى أربع ولايات أو أقاليم كبيرة وهى: ولاية قوص ويحكم متوليها جميع بلاد الصعيد، وولاية الشرقية وتشمل على وجه التقريب الأراضى الواقعة شرقى فرع دمياط. وولاية الغربية وتشمل جميع البلاد الواقعة بين فرعى رشيد ودمياط من الشمال إلى الجنوب. أما الولاية الرابعة فهى ولاية الإسكندرية، ويضاف إليها البحيرة[١]. وقد منحت الحكومة الفاطمية كل وال من ولاة هذه الأقاليم الأربعة الحرية فى تعيين العمال على المدن والنواحى والقرى الداخلة فى نطاق ولايته، كما أجازت لهم العناية بمرافق إقليمهم دون الرجوع إليها[٢].

وكان على القاهرة وال، كما تولى على الفسطاط وال آخر، وتمتع كل منهما بمركز ممتاز عند الخليفة، غير أن مرتبة والى القاهرة كانت أعلى من مرتبة والى الفسطاط، وكذلك كان لكل من تنيس وعيذاب وال يحكمهما لأهميتهما التجارية.

أما شئون الإدارة فى العصر الفاطمى بمصر، فكان يشرف عليها عدة دواوين، نذكر من بينها: ديوان الإنشاء، وديوان الإدارة المالية التى تقوم بجباية الأموال وإنفاقها، ودواوين الإدارة المحلية التى تحكم الولايات، وتنقسم الدواوين الرئيسية بدورها إلى عدة دواوين، يختص كل منها بعمل معين.

كان الموظفون فى العهد الفاطمى يتقاضون الرواتب الكبيرة ويمنحون الملابس والهدايا الثمينة فى الأعياد والمواسم؛ وأصبحوا بفضل هذه الرواتب والمنح فى رغد من العيش مما سهل عليهم القيام بواجباتهم على أحسن وجه، فلم يألوا جهدا فى العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ودفع إغارات الأعداء عنها.

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٨ ص٤٩٧ ـ ٤٩٨.

(٢) انظر: كتاب «المعز لدين الله» ص١٦٠ ـ ١٦١.

وحرص الفاطميون على أن يكون موظفو الإدارة من بين ذوى الخبرة كما اهتموا بتدريب كتاب الدواوين على جميع الأعمال الكتابية؛ وأحسن مثل لذلك ابن منجب الصيرفي الذى عمل قبيل توليته ديوان الإنشاء - فى عهد الخليفة الآمر - فى ديوان المكاتبات ودواوين الجيش والمالية. وكانت هذه الطريقة تهيئ لأرباب الوظائف قدرا كبيرا من الثقافة الإدارية(١).

كان ديوان الإنشاء أهم دواوين الإدارة فى عهد الفاطميين وهو يلى الوزارة فى الأهمية؛ وأطلق عليه ابن منجب الصيرفى «ديوان الرسائل» وغلبت عليه التسمية الأولى، وازدادت أهمية ديوان الإنشاء فى ذلك العهد عما كان عليه فى عهد الطولونيين والإخشيديين، لأن مصر أصبحت مركزا للخلافة الفاطمية التى امتد نفوذها من بلاد المغرب إلى بلاد الشام وجزيرة العرب، وصارت فى حاجة للقيام بدعاية واسعة لخلفائها مما يتطلب من هذا الديوان مجهودا كبيرا. وكان يتولى شئون هذا الديوان كاتب يقال له صاحب ديوان الإنشاء ويطلق عليه أيضا صاحب الدست الشريف لكتابته على الدست، ومن واجباته تسلم المكاتبات الواردة ثم عرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها. وكان صاحب الإنشاء يتقاضى راتبا شهريا قدره مائة وخمسون دينارا، ويتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت إدارته ثلاثين دينارا(٢).

ويلى صاحب الإنشاء فى الرتبة صاحب القلم الدقيق الذى كان يوقع على المظالم ويجالس الخليفة، وكان يتقاضى مائة دينار كل شهر، ويلى صاحب القلم الدقيق فى الرتبة صاحب القلم الجليل، ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق وعرضها على الخليفة(٣).

وفى بعض الأحيان كان يتولى صاحب ديوان الانشاء إدارة البريد، فيذكر المقريزى(٤) أن الخليفة الحاكم بأمرالله قلد الحسين بن جوهر البريد والإنشاء فى شوال سنة ٣٨٦هـ. واهتم الفاطميون بالبريد اهتماما كبيرا، وصار أصحابه يعرفون فى أيامهم بأصحاب الأخبار. وكانوا يوافونهم بكل ما يصل إليهم من الأحداث، وبذلك لم يعد يخفى عليهم شىء من أمور دولتهم.

(١) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، جـ١ ص٩٥ - ٩٦، ١٠٣.
(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٩٠.
(٣) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٩١ - ٤٩٢.
(٤) خطط: جـ٢ ص١٤.

وكانت الشرطة من النظم الإدارية الهامة التى عنى بها الفاطميون، وتختص بحفظ النظام واستتباب الأمن، ويتولى رئيسها الذى يعرف بصاحب الشرطة تنفيذ أحكام القضاة. وكان حكام الولايات المصرية يقومون بأعمال صاحب الشرطة فى ولاياتهم ويعاونهم جماعة من الجند.

ومما تجدر ملاحظته أن الشرطة قسمت فى العصر الفاطمى بمصر إلى قسمين وهما، الشرطة العليا فى القاهرة، والشرطة السفلى فى مصر (الفسطاط والعسكر). وكان هذا التقسيم معمولا به منذ العصر الطولونى، غير أن الشرطة العليا كانت فى مدينة العسكر، والشرطة السفلى كانت فى الفسطاط، فلما تأسست مدينة القاهرة وأصبحت العاصمة، اقتضى ذلك نقل الشرطة العليا إليها، وبقيت الشرطة السفلى فى الفسطاط.

* * *

كذلك كان للتنظيم الحربى نصيب موفور من عناية الفاطميين، فقد رأوا أنهم بحاجة إلى جيش قوى يحمى دولتهم ويساعدهم على امتداد نفوذهم فى أراضى الدولة الإسلامية، كما اهتموا بإنشاء أسطول لصد الأعداء الذين يغيرون على دولتهم من ناحية البحر وليكون عونا لقواتهم البرية.

وقد سار الفاطميون فى تحقيق هذه السياسة على ما كان سائدا فى ذلك الوقت، فكونوا جيشهم من عدة أجناس لم يكن بعضها معروفا فى مصر، وكان المعز منذ استقر له الأمر فى البلاد المصرية يعتمد على المغاربة - وهم يكونون معظم جيشه - ويشملون عدة طوائف من البربر، نذكر منها، الكتامية والباطلية[١] والمصادمة والجودرية[٢]. ولما ولى العزيز بالله الخلافة، استخدم الأتراك والديلم، ثم ظهر عنصر السودان فى الجيش فى عهد الحاكم بأمر الله، وتضاعف عدده فى خلافة المستنصر بالله حتى بلغ عدد السودانيين فى الجيش خمسين ألفا، وظل هذا العنصر يكون فرقة كبيرة فى الجيش الفاطمى حتى زالت الدولة الفاطمية. وقد أدى تعدد العناصر فى الجيش إلى قيام التنافس والتشاحن بين طوائف الجند، وليس أدل على ذلك مما حدث فى عهد المستنصر حيث قام خلاف بين طائفتى الأتراك والسودانيين كان له أسوأ الأثر فى حالة مصر الداخلية.

---

(١) انظر: المقريزى: خطط جـ٢ ص٨.

(٢) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، جـ١ ص١٩٥ - ١٩٦.

وكان فى الجيش الفاطمى أيضا عناصر أجنبية، وفدت إلى مصر مع بعض الذين تقلدوا الوزارة، منها جند الأرمن، وقد أحضرهم بدر الجمالى من بلاد الشام، كما عمل بهرام الأرمنى أثناء توليه الوزارة على استجلاب عدد كبير منهم إلى مصر. كذلك أتى الأكراد مع أسد الدين شيركوه وصلاح الدين ويوسف بن أيوب فى عهد الخليفة العاضد.

وكان من بين طوائف الجيش فرق من الجند تنسب إلى الخلفاء أو الوزراء، فمن طوائف الخلفاء: الآمرية والحافظية والظافرية والعاضدية. ومن طوائف الوزراء: الوزيرية وتنسب إلى الوزير يعقوب بن كلس. وقد سمح له الخليفة العزيز بتكوين حرس خاص به. وهناك طوائف أخرى ظهرت فى العصر الفاطمى الثانى، منها الجيوشية نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى والأفضلية نسبة إلى ابنه الأفضل، والبرقية وهم جماعة من أهل برقة، وقد أنشأ الوزير طلائع بن رزيك فرقة منهم وجعل ضرغام مقدمهم(١).

لم يعمل الفاطميون على إشراك المصريين فى جيشهم، غير أنه فى أواخر العصر الفاطمى حين أصبحت مصر مهددة من جانب الصليبيين اشترك المصريون فى الدفاع عن بلادهم، فأصبح الجيش الفاطمى يتكون من جنود وأمراء مصريين فضلا عن الطوائف الفاطمية الأخرى.

اتخذ الفاطميون للجيش أحياء خاصة، فأنزل جوهر الصقلى عساكر المعز ـ وكانت تتكون من عدة عناصر ـ فى مواضع بالقاهرة عرفت بالحارات، وخصص لكل طائفة حارة، يقيم فيها الجند وأسرهم، وبها دكاكين وأسواق. ويرجع السبب فى اتخاذ أماكن معينة لإقامة الجند إلى منعهم من مضايقة سكان القاهرة.

ويتألف الجيش الفاطمى من الأمراء وهم القادة، وطوائف الجند. ويتميز الأمراء بعضهم عن بعض بعلامات فى الأعياد والمواكب الرسمية بحسب مراتبهم، فالأمراء الكبار يحملون حول أعناقهم أطواق الذهب، ويقود كل منهم ألف جندى، وهناك فريق آخر من الأمراء يعرفون بأصحاب القضب، يحملون فى أيديهم قضب الفضة وهى رماح فضية، ويقود كل منهم مائة جندى(٢).

---

(١) انظر: خطط جـ٢ ص١٢٠٥.

(٢) القلشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٨.

وكان الفاطميون لا يألون جهدا فى سبيل تجهيز جيشهم بكل ما يحتاج إليه من أسلحة، فأنشأوا خزانة السلاح. وكانت تحتوى على خوذات وسيوف ورماح وسهام ودروع وأقواس مختلفة الأشكال. وهناك خزائن تمد الجيش بمعداته، منها خزانة الخيام، وبها عدة أنواع من خيام الجند، وخزائن لصناعة السروج اللازمة للدواب فى الحرب(١). ويذكر المقريزى(٢) أن الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى لما فكر فى الرحيل إلى المشرق ومهاجمة بغداد، أعد فى هذه الخزائن سروجا مجوفة ومبطنة بصفائح من قصدير يوضع بداخلها الماء ليشرب منها الفارس. وكان كل سرج منها يسع سبعة أرطال ماء.

وقد أظهر الجند الفاطمى مهارة فى استخدام أسلحة الحرب التى شاع استعمالها إذ ذاك كالحراب والسيوف وآلات الحرب الضخمة كالمجانيق التى ترمى الأسوار بالحجارة، كما زود الجيش بفرقة من النفاطين(٣) الذى يقومون بإعداد القوارير المملوءة بالنفط ورميها على قوات الأعداء لتحول دون تقدمها.

كان هناك دواوين لإعداد الجيش وتجهيزه وتنظيم النفقة عليه، ويعمل فيها موظفون مدنيون وهى: ديوان الجيش وديوان الرواتب وديوان الإقطاع، فيشرف ديوان الجيش على الجنود وإعدادهم، ويختص ديوان الرواتب بتسجيل عطاء الجنود وجميع موظفى الدولة. وقد طرأ على العطاء عدة تغييرات فى عهد الدولة الفاطمية. فكان يبلغ عطاء الجندى عشرين دينارا فى كل شهر. أما ديوان الإقطاع، فكان مختصا بما هو مقطع للأجناد، ويتولى إثبات الإقطاعات والأموال التى يدفعها المقطعون لبيت المال. ولم تكن هذه الإقطاع والأموال التى يدفعها المقطعون لبيت المال من الكثرة كما كانت فى عهد الأيوبيين والمماليك فى مصر.

أما فيما يتعلق بالقوات البحرية، فقد اتخذ الفاطميون مراكز لإنشاء السفن الحربية فى مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) وجزيرة الروضة التى عرفت فى العصر الفاطمى باسم جزيرة مصر، والمقس التى أنشأ بها المعز لدين الله دارا لصناعة السفن، والإسكندرية ودمياط.

---

(١) انظر: المقريزى: خطط جـ١ ص٤٧١ ـ ٤٢٠.
(٢) خطط: جـ١ ص٤١٨.
(٣) انظر. المقريزى: خطط جـ٢ ص٣.

وبذلت الحكومة الفاطمية جهدها للحصول على الخشب الذى يصلح لبناء السفن الحربية، وكان يؤتى ببعضها من مناطق الغابات المغروسة فى كثير من جهات الوجه القبلى. وقد احتكر الفاطميون أجود أنواع الخشب برسم الأسطول والمراكب الديوانية. على أن إنتاج البلاد من الخشب لم يكن كافيا، كما أن بعض أنواعه لا تمتاز بالصلابة اللازمة؛ لذلك كانوا يستوردون الخشب من تجار البندقية، وكثيرا ما تدخل الأباطرة البيزنطيون لمنع المدن الإيطالية من تزويد مصر بما تحتاج إليه من هذه المادة.

وقد تنوعت السفن الحربية التى يتكون منها الأسطول فى العصر الفاطمى فمنها: الشوانى (جمع شينى أو شونى)[١] التى امتازت بأبراج الدفاع والهجوم واحتوت على أهراء لخزن القمح وصهاريج لخزن الماء العذب. ومن سفن الأسطول أيضا: الحراريق (جمع حراقة) وهى من المراكب الحربية الكبيرة المخصصة لمهاجمة سفن العدو بالنفط الذى يرمى بالمجانيق أو بالسهام. كذلك كان من سفن الأسطول الطرائد (جمع طريدة)، وتستخدم فى نقل الخيول، والشلنديات وهى مراكب مسطحة يستعان بها فى حمل العتاد والجند، والحمالات وتستخدم فى حمل الذخيرة[٢].

ويشرف على الأسطول عشرة قواد بحريين، يختار من بينهم رئيس يعرف بأمير الأسطول، وتحمل كل سفينة حربية عددا من المقاتلة عدا البحارة. وهناك أشخاص معروفون عند ديوان الجهاد يسمون «النقباء» يقومون بجمع المقاتلة من أنحاء البلاد إذا ما تأهب الأسطول للخروج. ولم يكن أحد يجبر على العمل فى السفن الحربية. وكان الناس يقدرون أعمال البحارة فى الأسطول ويسمونهم «المجاهدين فى سبيل الله والغزاة فى أعداء الله[٣]».

وكان للأسطول ديوان يعرف بديوان الجهاد، يقوم بالإشراف على بناء السفن وتجهيزها بالمعدات الحربية ودفع مرتبات الرجال العاملين فيها. أما عن نفقات الأسطول، فقد خصصت له الحكومة الفاطمية ميزانية ضخمة من مستغلات

---

(١) المقريزى: خطط جـ١ ص جـ٤٢٨.

(٢) ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم جـ١ ص٢٢١ ـ ٢٢٣.

(٣) المقريزى: جـ٢ ص١٩٤.

الإقطاعات المحبوسة. ولم يزل الأسطول محل عناية الفاطميين حتى زال حكمهم من مصر سنة ٥٦٧هـ.

وكان من مظاهر اهتمام الفاطميين بقواتهم البرية والبحرية، الاحتفال بتوديعها عند تأهبها للرحيل لمحاربة الأعداء، فإذا ما خرج الجيش الفاطمى جلس الخليفة بمنظرة باب الفتوح وعلى الأخص حين تكون الحملة متجهة إلى بلاد الشام، وفى هذه المنظرة كان يؤذن لقائد الحملة بالمثول بين يدى الخليفة فيخلع عليه خلعا مزركشة بالذهب، ثم يأمر الجيش بالمسير[١]، أما فى حالة خروج الأسطول، فيحضر الخليفة بصحبة الوزير والأعيان إلى منظرة المقس حيث يكون مقدم الأسطول فى انتظاره، وبعد أن يستعرض الخليفة المراكب الحربية يأذن للمقدم بالمثول بين يديه فيخلع عليه[٢]، ثم يودعه ويبدأ الأسطول فى المسير. وعند عودة الأسطول مظفرا يقام احتفال كالذى أقيم عند رحيله، فيحضر الخليفة بصحبة رجال الدولة ليشهد أسطوله الذى أحرز النصر[٣].

(١) المقريزى: خطط جـ١ ص٤٨١ ـ ٤٨٢، حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر، ص٢٢٣.
(٢) المقريزى: خطط جـ١، ص٤٨، القلشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص٥٢٣ ـ ٥٢٤.
(٣) المقريزى: خطط، جـ٢ ص١٩٣.

٣ ـ الحالة الاقتصادية :

الزراعة : اهتم الفاطميون بالزراعة على اعتبار أنها من أهم مصادر الثروة فى مصر، وكانت زراعة القمح تشغل الجزء الأكبر من الأراضى المصرية الخصبة التربة ـ وعلى الأخص أنحاء الدلتا والوجه القبلى ـ لأنه الغذاء الرئيسى لأهل البلاد. أما الذرة فلم تكن معروفة فى مصر فى ذلك العهد(١).

وكان الكتان يزرع فى الأراضى المنخفضة التى تظل مغمورة بالمياه مدة طويلة. لذلك انتشرت زراعته فى الدلتا والفيوم. أما قصب السكر، فقد توسع المصريون فى زراعته فى العصر الفاطمى. وليس أدل على ذلك من قول ناصر خسرو الذى زار مصر حوالى سنة ٤٤٠هـ، «وتنتج مصر عسلا كثيرا وسكرا».

وكانت مصر تشتهر أيضا بإنتاج أنواع مختلفة من الفواكه، ومن أهمها: الكروم، وتزرع فى نواحى مريوط والجيزة والفيوم وقليوب، وبعض جهات الوجهين القبلى والبحر، وكذلك كان شجر النخيل مغروسا فى مختلف أنحاء القطر. وقد ذكر الأدفوى(٢) أنه كان يغرس بالصعيد أشجار النخيل على شاطئ النيل من الجانبين الشرقى والغربى، كما قال إن محصول إسنا من التمر بلغ فى إحدى السنوات أربعين ألف أردب، وكانت أسوان أكثر نخيلا من غيرها من جهات الصعيد. وقد بلغ مجموع محصولها من التمر فى سنة واحدة ستة وثلاثين ألف أردب.

كذلك اهتمت الحكومة الفاطمية بغرس أشجار الغابات حتى يتسنى لها الحصول على الأخشاب اللازمة لبناء أسطولها الحربى ومراكبها التجارية ومن أشهر مناطق الغابات فى العصر الفاطمى: البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص.

وعلى الرغم من اهتمام الفاطميين بالرى والزراعة، فلم يخل عهدهم من أحداث أثرت فى الإنتاج الزراعى: فكثيرا ما نقص فيضان النيل عن المستوى العادى اللازم لرى الأراضى كما حدث سنة ٤٥٧هـ فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، حيث حل بالبلاد المصرية الشدة العظمى التى استمرت سبع سنوات،

---

(١) متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢ ص٢٦١.

(٢) كتاب «الطالع السعيد»، ص١٠ ـ ١١.

وكان من مظاهرها إهمال الزراعة وارتفاع أسعار الحبوب والمواد الغذائية، وانتشار الوباء. وقد اقترنت هذه الشدة بقيام الفتن والحروب الأهلية، فلما ولى بدر الجمالى الوزارة سنة ٤٦٦هـ قضى على المفسدين ووجه اهتمامه إلى إصلاح حال البلاد، فسادت الطمأنينة، وعنيت الحكومة الفاطمية بالترع والجسور، فزاد خراج مصر فى أيامه إلى أكثر من ثلاثة ملايين دينار(١).

وبلغ من عناية الفاطميين بالزراعة أن أنشأوا إدارة خاصة تشرف على أمورها، كما قاموا بمشروعات عظيمة لتنظيم رى الأراضى نخص بالذكر منها الخليج الذى أشرف على حفره أبو المنجا متولى ديوان جهات الدلتا الشرقية فى عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالى. وكان هذا الخليج يخرج من النيل لرى الأراضى الواقعة فى شرق فرع دمياط(٢).

وكان الفاطميون يعاملون الفلاحين معاملة تنطوى على التسامح والرعاية فلم يتركوا تقدير الخراج للمقطعين(٣)، بل حددوا مقداره، كما حرصوا منذ امتد نفوذهم إلى مصر على عدم انتزاع الأراضى من أيدى أصحابها، فقد جاء فى عهد الأمان الذى أعطاه جوهر للمصريين: «ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل، الشامل الكامل، المتحدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام، فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم(٤)» أما الأراضى التى تمتلكها الدولة، فأخذوا فى توزيع أجزاء منها على بعض أعوانهم والمختصين بهم. وكانت هذه الأراضى إذا نزلت عنها الحكومة صارت ملكا للمقطعين، ولكن إذا منحت الأرض لبعض الأفراد مقابل دفع مبلغ معين من المال تصبح إقطاع استغلال، وهذا النوع من الإقطاع كان يعطى للأجناد فى العصر الفاطمى.

وقد أدخل تعديل كبير على الإقطاعات فى عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالى، ذلك أنه لما شكا صغار المقطعين من قلة دخل إقطاعاتهم، على حين زاد المتحصل من إقطاعات الأمراء، أمر الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بحل جميع

(١) المقريزى: خطط جـ١، ص١٠٠
(٢) القلشندى: صبح الأعشى جـ٣ ص٣٠٥ ـ ٣٠٦.
(٣) انظر: المقريزى: خطط جـ١ ص٨٥.
(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص١٥١ ـ ١٥٢.

الإقطاعات وإعادة توزيعها، ولم يتعرض للأرض المملوكة، بل أبقاها فى أيدى ملاكها، ومن قوله فى هذا الشأن: «إن كل من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الإقطاع وهو محكم إن شاء باعه وإن شاء أجره». وكان أكثر المقطعين فى ذلك الوقت من الأجناد، وقد سمح لهم الأفضل بن بدر الجمالى بأن يستغلوا فى إقطاعاتهم مدة ثلاثين سنة، وفى ذلك يقول المقريزى(١): «وكتبت السجلات بأنها باقية فى أيديهم إلى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد».

وكان المقطع فى أواخر العصر الفاطمى يدفع ضريبة منتظمة عن كل فدان مقدارها دينار وخمسة قراريط، وإذا انقطعت مدة الإقطاع، عليه أن يرد الأرض المقطعة كما تسلمها، ولا ينقل شيئا من المنشآت التى أقيمت عليها(٢).

الصناعة: استخدمت أساليب جديدة فى الصناعة فى العصر الفاطمى. وكان مما ساعد على تقدمها استقرار الأمور فى البلاد؛ فضلا عن حياة الترف والبذخ التى سادت المجتمع فى بعض المدن المصرية وبخاصة القاهرة والفسطاط. وكان لهذه الحياة تأثير كبير فى الإنتاج الصناعى، فأصبح عمل المصانع ليس مقصورا على إمداد الجيش والأسطول الفاطمى بالسلاح والعتاد الحربى والملابس لطوائف الجند، بل تنوعت لسد حاجة الخلفاء والوزراء ورجال الدولة وغيرهم.

وكان من الصناعات التى ازدهرت فى هذا العصر وتنوعت أصنافها: صناعة النسيج؛ إذ بلغت من الرقى فى مصر بحيث أصبح من اليسير صنع بعض الأقمشة الصوفية فامتازت بلدة القيس بعمل المنسوجات الصوفية الرفيعة(٣). وكانت بعض منسوجات الصعيد الصوفية تصدر إلى بلاد الفرس حيث عرفت هناك باسم «المصرى»(٤).

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين مركزا هاما لصناعة المنسوجات الحريرية. وقد أنشأ المعز لدين الله فيها دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفى الدولة على اختلاف درجاتهم، وكان يصنع بهذه الدار أيضا كسوة الكعبة والخلع التى

---

(١) خطط، جـ٢ ص٨٣.

(٢) ابن مماتى: قوانين الدواوين ص٣٩٧.

(٣) متز الحضارة الإسلامية، جـ٢ ص٢٩٦.

(٤) ناصر خسرو: كتاب «سفر نامة» ص٧٠.

يمنحها الخلفاء للوزراء والأمراء والأشراف وكبار رجال الدولة فى عيد الفطر حتى سمى هذا العيد بعيد الحلل؛ كذلك عمل الفاطميون على النهوض بصناعة النسيج، فأنشأوا عدة مصانع لإنتاج الأنواع الفاخرة. وكانت دار الديباج[١] منذ عهد الأفضل بن بدر الجمالى تنتج نوعا من الحرير يعرف بالحرير الديباج. كما أن خزانة البنود التى بناها الخليفة الظاهر الفاطمى كان بها ثلاثة آلاف صانع لصنع أفخر أنواع الثياب[٢].

وكان لصناعة المنسوجات الكتانية شأن كبير فى مصر فى العصر الفاطمى، ويرجع السبب فى ذلك إلى وفرة الكتان فى منطقة دمياط وشرق الدلتا، ومن المراكز الرئيسية لهذه الصناعة: الفيوم وتنيس ودمياط وشطا ودبيق، وينسب إلى هذه المدينة الأخيرة أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالدبيقى، وكان يصنع فى دبيق قماش ثقيل جيد النسيج، والعمائم الطويلة التى يبلغ طول الواحدة منها مائة ذراع[٣].

كذلك تقدمت صناعة الزجاج والخزف فى العصر الفاطمى. وكانت الفسطاط من أكثر مراكز صناعة الزجاج. ومن البلاد التى اشتهرت بهذه الصناعة أيضا الفيوم والأشمونين والإسكندرية؛ أما الخزف فقد أشار ناصر خسرو إلى أن المصريين كانوا يصنعون أنواعا مختلفة منه، وبلغ من انتشار استعماله فى مصر أن البقالين وغيرهم من التجار كانوا يضعون ما يبيعونه فى أوان من الخزف بدلا من الورق[٤].

التجارة: ازداد النشاط التجارى فى الفسطاط والقاهرة حيث يقيم الأعيان وأصحاب الإقطاعات، ويكثر توافد الناس. وكانت الفسطاط من أهم مراكز مصر التجارية لموقعها على النيل وتوسطها بين الوجهين القبلى والبحرى، واتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل، وفضلا عن ذلك فإنه كان يخرج منها طرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام والمغرب.

---

(١) المقريزى: خطط جـ١، ص٤٦٥.

(٢) المقريزى: خطط جـ١، ص٤٣٣.

(٣) المقريزى: خطط جـ١، ص٢٢٦، متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢ ص٢٩٦.

(٤) زكى حسن: كنوز الفاطميين، ص١٥٠ ـ ١٥١.

ولم يؤثر إنشاء القاهرة على مركز الفسطاط التجارى، لأن المدينة الجديدة ظلت أشبه بمعسكر يقيم فيه الجنود والموظفون، كما أن موقعها بالنسبة للنيل كان دون موقع الفسطاط مما جعل الأسعار فى الفسطاط أقل منها فى حاضرة الخلافة الفاطمية[١].

وكانت الفسطاط تتمتع برخاء عظيم فى العصر الفاطمى، فكثرت بها المتاجر والأسواق، كما كان يأتى إليها كثير من المراكب، يقول ناصر خسرو[٢] فى وصفه لها إنه كانت بها الأسواق التى تباع فيها جميع أنواع السلع كسوق القناديل الزاخر بالتحف النادرة، وبها أيضا كثير من الخانات.

ومن مراكز التجارة الداخلية مدينة دمياط التى تميزت عن غيرها من المدن بازدهار التجارة والصناعة فيها، وأصبحت الميناء المصرى الوحيد فى الجزء الشرقى من البحر المتوسط، كذلك كانت مدينة قوص من مراكز التجارة الداخلية، فقامت بها الأسواق الكبيرة لوقوعها عند نهاية طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل. وكان لأسوان أيضا شأن كبير فى التجارة الداخلية بسبب ورود تجارة النوبة والسودان إليها[٣].

أما عن التجارة الخارجية، فقد اتسع نطاقها مع البلاد الآسوية والأوربية، فكانت مصر تستورد الكثير من غلات الهند والصين، كما أن حاجتها إلى المواد الخام كالخشب والحديد حملتها على استيرادها من بعض الدول الأوربية. وصارت الإسكندرية من المراكز الرئيسية للتجارة، فتنتقل منها البضائع الآسيوية إلى أوربا وترد إليها السفن الأوربية محملة بالسلع اللازمة للصناعة المصرية. ولم تكتف مصر بأن تكون طريقا لمرور الغلات الآسيوية، بل كان لديها ما تصدره إلى البلاد الأوربية كالنطرون والشب والمنسوجات على اختلاف أنواعها[٤].

وقد قامت بين مصر والمدن الإيطالية وبخاصة جنوة والبندقية علاقات تجارية، فأخذت سفن البندقية تنقل الخشب والحديد إلى الموانى المصرية، كما أقدم

(١) انظر: البراوى، حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص١٩٩.

(٢) كتاب «سفر نامه» ص٥٨ ـ ٥٩.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية ص٦٠٠ ـ ٦٠١.

(٤) البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص٢١٣ ـ ٢٤٣.

تجار جنوة على التعامل مع الفاطميين فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر، وصارت سفنهم تبحر إلى الموانى المصرية، وقد استجاب بعض الخلفاء فى أواخر العصر الفاطمي لرغبة هؤلاء التجار فى الحصول على أمان لهم ولسفنهم تشجيعا لهم على الاتجار مع بلادهم(١).

وعلى الرغم من المنازعات السياسية بين مصر والدولة البيزنطية فإن العلاقات التجارية بينهما لم تنقطع، فكان البيزنطيون يستوردون المنسوجات المصرية من مصانع تنيس ودمياط(٢)، كما أن مصر كانت تستورد بعض منتجات الدولة البيزنطية وبخاصة الغلال، وقد ذكر الرحالة الفارسى ناصر خسرو أن كثيرا من السلع التى رآها وأعجب بها فى أسواق مدينة مصر كانت من واردات بلاد الروم.

وقد أذنت الحكومة الفاطمية فى مصر للتجار الإيطاليين وغيرهم من الأوربيين بإنشاء الفنادق الخاصة بهم. وكان لكل جالية أجنبية بالإسكندرية فندق وهو عبارة عن بناء يقيم فيه التجار الأوربيون ويحفظون فيه بضائعهم إما فى داخل المدينة أو خارجها. وكانوا عادة يختارون أحد أفراد الجالية للإشراف على تنظيم الإقامة فى الفندق.

كذلك أقيمت فى مصر فى ذلك العصر الوكالات وهى كالفنادق(٣)؛ وينزل بها التجار القادمون من بلاد الشرق الإسلامية فيذكر ابن ميسر(٤) أن الوزير المأمون البطائحى أمر سنة ٥١٦هـ ببناء وكالة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التجار.

وكان هناك بجانب هذه المنشآت التى أعدت للتجار أبنية أخرى أطلق عليها اسم القياسر(٥). وكانت القيسارية كمجموعة من المبانى العامة، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن. وكان فى بعض القياسر مساجد لتجار المسلمين

(١) Heyd: Hist. du Commerce du Levant au Moyen Age, tome I, P.391.
(٢) Heyd: Hist. du Commerce du Levant au Moyen Age, tome I, P.58.
(٣) المقريزى: خطط جـ٢ ص٩٣.
(٤) تاريخ مصر، ص٦٢.
(٥) انظر: المقريزى. خطط جـ٢ ص٨٦.

ويعلوها رباع يقيم فيها الصناع والتجار بأجر[١]. وقد أنشئ بمصر فى العصر الفاطمى عدد قليل من هذه القياسر[٢].

* * *

أما عن نظم المعاملات التجارية فلم تكن موحدة فى الدولة الإسلامية، ففى مصر والشام شاع استعمال الدنانير الذهبية؛ أما فى بلاد الفرس والعراق، فعملتها الجارية الدراهم الفضية، واستمر الدينار فى مصر قاعدة التعامل حتى بعد الفتح الفاطمى، غير أن جوهر القائد بادر إلى سبك دنانير جديدة أطلق عليها المعزية، وأبقى التعامل بالدينار الراضى (نسبة إلى الخليفة العباسى الراضى).

ولما عهد المعز لدين الله الفاطمى فى أوائل سنة ٣٦٣هـ إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بالإشراف على الخراج، صار ابن كلس يجبى خراج الدولة بالدينار المعزى. فانحطت بذلك قيمة الدينار الراضى. ومن ذلك يتضح لنا كيف حملت الحكومة الفاطمية أهالى البلاد المصرية على التعامل بنقودها.

ولم تكتف الحكومة الفاطمية بأن يكون الدينار المعزى وحدة للتعامل، فأصدرت دراهم جديدة فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، وقررت أن يكون كل ثمانية عشر درهما بدينار[٣]. ومن المرجح أن ضرب الدراهم الفضية فى ذلك العهد إنما أريد به تيسير التعامل فى السلع القليلة الثمن، وهكذا أصبحت مصر تتعامل بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية.

---

(١) المقريزى: خطط جـ٢ ص٨٧.

(٢) البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٣) الكرملى «كتاب النقود العربية» ص٥٨ ـ ٥٩.

٣ـ مظاهر الحياة الاجتماعية :

اتخذت الحياة الاجتماعية بمصر فى العصر الفاطمى مظاهر خاصة، كما تقلبت بين ألوان من البذخ والترف قل أن نجدها فى عصر آخر من عصور مصر الإسلامية. وقد تجلى بذخ الخلفاء فيما أورده المقريزى[١] عن خزائن الفرش والأمتعة والجواهر والخيام والشراب، كما نستدل أيضا على ترفهم من القصور التى بنوها ليتخذوها مساكن لهم ولأفراد أسرتهم، ومن أشهرها القصر الشرقى الكبير. وكان به عدة أبواب، منها: باب الذهب وتعلوه منظرة، وباب العيد وأمامه رحبة متسعة، يقف فيها الجنود فى يومى العيدين، وتعرف برحبة العيد، وباب الديلم، وقد أسس العزيز بهذا القصر قاعة الذهب التى يجتمع فيها مجلس الملك[٢]. وكانت مؤثثة بأفخم الأثاث ومزينة بالستور والطنافس الحريرية.

وليس أدل على مظاهر العظمة وأبهة الحياة الاجتماعية عند الخلفاء فى آخر العصر الفاطمى من هذا الوصف الذى كتبه غليوم رئيس أساقفة صور عن زيارة رسولى أملريك[٣] ملك بيت المقدس للقصر الفاطمى فى عهد الخليفة العاضد، ومما جاء فيه[٤]. «. . . وسار السفراء يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة، وفيه زخارف أنيقة. وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم. . . فوجدوا فى هذا القصر حراسا عديدين، وسار الحراس فى طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة، وقادوا السفراء فى ممرات طويلة. . ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف، وتحيط به أروقة ذات أعمدة، وأرضية مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان. وكان فى وسط الفناء نافورة، يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام. . . وفى هذا المكان حل محل الحراس المرافقين للسفراء بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى الخليفة، فساروا

---

(١) خطط، جـ١، ص٤١٦ ـ ٤٢٥.

(٢) المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(٣) ورد اسمه فى بعض المراجع Amaury

(٤) †Stanley Lane-Poole, Salah El Din and the Fall of the Kingdom Jerusalem, pp. 86-89.

زكى حسن: كنوز الفاطميين، ص٧٤ ـ ٧٦.

بصحبة المبعوثين من قبل الملك أملريك فى أفنية جديدة أشد جمالا وإبداعا. . وبعد أن عبر السفيران أبوابا عديدة وصلا إلى القصر الكبير حيث يقيم الخليفة، وقد فاق هذا القصر كل ما رأوه قبل ذلك، وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلمين، متقلدين أسلحتهم. . . وأدخل المبعوثان فى قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان، ولم يكن فى هذه القاعة أحد، لكن شاور خر راكعا فور دخوله. . ثم ارتفعت الحبال فجأة وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق. . وظهر (السلطان العاضد) لأعين السفراء وكان على وجهه نقاب يخفيه تماما وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة.

وكان الوزراء الفاطميون يعيشون عيشة الترف، فجعل يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى فى قصره مطابخ خاصة له ولأضيافه، وأخرى لغلمانه وحاشيته وأتباعه، كما اتخذ بقصره طائفة من الحجاب يرتدون الملابس الحريرية ويتقلدون السيوف ويتمنطقون بالمناطق[(١)].

كذلك كان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى مترفا فى حياته، فاتخذ مسكنه فى دار الملك التى بناها سنة ٥٠١هـ، وجعل فيها محال خاصة تقام فيها الأسمطة فى الأعياد، واتخذ فى أحد أبهائها مجلسا، يجلس فيه للعطاء، وقد وجد فى هذه الدار بعد وفاته ما لا يحصى من الأدوات، وتسعون ألف ثوب عتابى (نوع من الثياب الحريرية)، وثلاثة خزائن ممتلئة بالثياب الدبيقية من صنع تنيس ودمياط، وخزانة للطب. أضف إلى ذلك أربعة آلاف من البسط والستور المصنوعة من خيوط السجاد، وكان للأفضل مجلس شراب به ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات، منهن أربع بيض من كافور، وأربع سود من عنبر، وكن مرتديات أفخر الثياب ومتزينات بأثمن الحلى. وكان الأفضل إذا دخل من باب هذا المجلس نكسن رؤوسهن إجلالا له، فإذا أخذ مكانه فى صدر المجلس استوين قائمات[(٢)].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢ ص٤٤١، حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية جـ٢ ص٦٣٣.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٥٨.

وكان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى مولعا بالبساتين، فبنى لأحدها سورا يشبه سور القاهرة، وحفر به بركة كبيرة، كما بنى فى وسط هذا البستان منظرة على أربعة أعمدة من الرخام، وزرع حواليها شجر النارنج، وجلب إليه كثيرا من الطيور المسموعة وسرح فيه كثيرا من الطواويس(١).

اهتم الفاطميون بالاحتفال بالأعياد الدينية فى شىء كثير من الأبهة والعظمة فمنها عيد الفطر، وعيد الأضحى، ورأس السنة الهجرية، ومولد النبى ﷺ، ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب، ومولد ولديه الحسن والحسين، ومولد السيدة فاطمة الزهراء، ويوم عاشوراء، هذا إلى مواسم أخرى، وهى ليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه.

وكان يقام فى ليلة عيد الفطر بالإيوان الكبير الذى يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم، يبلغ طوله نحو ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع، وتنثر عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية، فإذا ما انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر عاد إلى مجلسه، وفتحت أبواب القصر والإيوان على مصاريعها، وهرع الناس من جميع الطبقات إلى السماط الخليفى، وتناولوا مما عليه من الطعام بمشهد من الخليفة ووزرائه(٢)، وحينما تبزغ الشمس يخرج الخليفة فى موكبه إلى الصلاة. وفى ذلك يقول المقريزى: «وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد وبين يديه الجنائب والقباب والعسكر فى زيه، من الأتراك والديلم والعزيزية والإخشيدية والكافورية، وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب، وعلى الجانب السروج، وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر، وبيده قضيب جده عليه السلام، فصلى على رسمه وانصرف». وإذا ما عاد الخليفة من الصلاة، وجد سماطا آخر، فيجلس وأمامه مائدة من فضة، يقال لها المدورة، وكانت توضع عليها أوانى الذهب والفضة الزاخرة بألوان الطعام، وقبالتها سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدعو، نثرت عليه الأزهار والرياحين وصفت على جانبيه الأطباق الحافلة بصنوف الطيور والحلوى وكان يجلس إليه رجال الدولة والعظماء.

(١) المقريزى: خطط، جـ٢، ص٣٧٩.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص٩٧.

أما عيد الأضحى، فيحتفل فى أول يوم منه بركوب الخليفة إلى الصلاة على النحوالذى اتبع فى عيد الفطر، غير أنه يمتاز بخروج الخليفة إلى المنحر ثلاث مرات متواليات في أيامه الثلاثة الأولى واشتراكه فى إجراءات النحر. وكان الخليفة إذا انقضى اليوم الثالث خلع على وزيره ثوبه الأحمر الذى كان يرتديه يوم العيد[١].

وكان احتفال الفاطميين بعيد رأس السنة الهجرية مثال الروعة والبهاء. وقد أورد لنا المقريزى[٢] وصفا لمراسم الاحتفال بهذا العبد؛ فذكر أنهم كانوا يعدون العدة للاحتفال به منذ العشر الأخير من شهر ذى الحجة فى كل سنة، حيث يبدأ المستخدمون والعمال فى إعداد آلات موكب الخلافة من الأسلحة وغيرها. وإذا ما أصبح اليوم التاسع والعشرون من هذا الشهر، تأهب الخليفة لعرض الخيل، فيخرج راكبا من قصره، وينزل بمكان يقال له السد حيث يجلس فى مكان محجوب بالستائر.

أما الوزير، فيركب فى هذا اليوم من داره وبصحبته الأمراء، فإذا وصل إلى باب القصر ترجل الأمراء وظل راكبا حتى باب الدهاليز بقصر الخليفة حيث ينزل هناك ويسير محاطا بحاشيته وغلمانه وأولاده وأقاربه، ثم يجلس فى المكان المعد له، وحينئذ ترفع الستائر التى بجانبه فيرى الخليفة جالسا، فيقف الوزير ويسلم عليه؛ ثم يتلو القراء بعض آيات مناسبة لعيد رأس السنة. وبعد أن يتموا تلاوتهم، يشرع الخليفة فى عرض الخيل. وإذا ما فرغ من عرضها، عاد القراء إلى تلاوة بعض آيات الذكر الحكيم إيذانا بانتهاء الحفل.

وفى صباح أول المحرم يركب الوزير، مرتديا الثياب الفاخرة، ومتقلدا سيفا من الذهب، إلى قصر الخليفة، وبين يديه الأمراء ركبانا ومشاة وأمامه أولاده وإخوته. فإذا وصل القصر دخل من بابه راكبا إلى دهليز يعرف بدهليز العمود حيث يترجل على مصطبة هناك؛ وبعد قليل يرفع صاحب المجلس الستر، فيظهر الخليفة فى ثيابه البيضاء متقلدا السيف، وبيده قضيب الملك مكسوا بالذهب المرصع بالدر والجوهر، وحينئذ يشرع الأمراء فى الخروج وبعدهم الوزير الذى يركب دابته، ويقف قبالة القصر بهيئته، ثم يخرج الخليفة وحواليه الأستاذون.

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، ص٥٠١ ـ ٥١٢.
(٢) خطط، جـ١ ص٤٤٦ ـ ٤٥٠.

ويبدأ الموكب الخلافى فى السير، يتقدمه الأمراء وطائفة من العسكر والأساتذة المحنكون[١]، ثم الخليفة يحيط به مقدمو صبيان الركابة متقلدين سيوفهم ويزيد عددهم على ألف رجل. ويسير خلف دابة الخليفة فريق من صبيان الركاب لحفظ أعقابه، ثم يأتى الخليفة وفى ركابه قوم من أقوياء الأجناد، ويبلغ عددهم خمسمائة، خلفه الطبول والصنوج، وطوائف الجند من الرجالة والفرسان، وإذا وصل الخليفة إلى الجامع الأقمر بالقماحين، سارع الوزير إلى الوقوف بين يديه، فيحييه الخليفة بإشارة خفية، ثم يعود الموكب الخلافى إلى القصر.

كذلك اهتم الخلفاء الفاطميون بالاحتفال بليلة مولد النبى ﷺ احتفالا باهرا يليق بمكانته العظيمة فى نفوس المسلمين. وكان الاحتفال بمولد النبى بدعة فى نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية، لكن أهل الصلاح والورع من المسلمين رغبة منهم فى تكريم النبى، رأوا منذ بداية القرن الرابع الهجرى أن يحتفلوا بمولده[٢]. ومن المظاهر الدينية المألوفة فى هذا العيد قراءة السيرة النبوية فى المساجد.

وكانت ليالى الوقود ـ وهى التى تسبق أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان ومن أشهر المواسم التى اختصت بها الدولة الفاطمية، ففيها تضاء جميع المساجد بعد غروب الشمس وتبدو القاهرة فى حلل بديعة من الأنوار، ويخرج الناس إلى الجامع الأزهر الذى تضاء حافاته بالمشاعل ويعقد فى صحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء برئاسة قاضى القضاة،[٣] وكان جمهور المسلمين فى مصر يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون بشهر رمضان، واستمر الاحتفال بها إلى وقتنا الحاضر.

وكان شهر رمضان من أهم المواسم الدينية التى عنى الفاطميون بإحيائها، فيحتفل فى أول يوم منه بركوب الخليفة من القصر الشرقى الكبير ويصحبه وزيره، وحوله حرسه الخاص، فيخترق موكبه شوارع القاهرة ومصر حتى جامع عمرو بن

(١) جمع أستاذ محنك. وهو رجل مدرب، وكان يتلثم بطرف عمامته. ومن الأساتذة المحنكين: صاحب المجلس وصاحب الرسالة، وصاحب بيت المال.
(انظر القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣. ص٣٨٤، ٣٨٥).
(٢) انظر: متز، الحضارة الإسلامية. ص٢٥٠.
(٣) المقريزى: خطط، جـ١، ص٤٦٦ ـ ٤٦٧.

العاص الذى كان يعرف إذ ذاك بالجامع العتيق، فإذا وصل إلى بابه وجد الخطيب فى انتظاره، وبيده المصحف المنسوب خطه إلى على بن طالب، فيتناوله الخليفة ويقبله عدة مرات، ثم يأمر بتوزيع بعض المنح المالية على خطيب المسجد ومؤذنيه. وإذا ما انتهى الخليفة من أداء الصلاة بالمسجد، استأنف سيره إلى دار الملك. وكان ركوب الخليفة فى غرة رمضان يقوم عند الفاطميين مقام الاحتفال برؤية الهلال عند أهل السنة. وكان يهدى فى أول شهر رمضان للأمراء وأرباب الدولة أطباق من الحلوى بوسط كل منها صرة من ذهب، كما كانت ترسل مثل هذه الأطباق إلى أفراد أسرهم.

كانت المآدب والأسمطة مظهرا من مظاهر الاحتفال بالمواسم والأعياد فى العصر الفاطمى بمصر، فقد عنى الفاطميون بتنظيمها عناية خاصة، كما بالغوا فى إعدادها سواء أكان ذلك فى المساجد أو فى قصر الخليفة أو فى دار الوزير، ففى قصر الخليفة كانت تقام الأسمطة فى المكان المعروف بقاعة الذهب حيث يجتمع مجلس الملك. وكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أول من سن تلك السنة، وحذا خلفاؤه حذوه، فكانوا يقيمون الأسمطة من اليوم الرابع من شهر رمضان إلى السادس والعشرين منه، وكان يدعى إليها قاضى القضاة والأمراء وكبار رجال الدولة من القواد والموظفين. ويمثل الخليفة فيها الوزير، فإن تغيب ناب عنه ابنه أوأخوه. وكانت أصناف المأكولات من الوفرة بحيث يستطيع الناس أن يأخذوا منها ما يريدون. وبلغ ما ينفق على سماط شهر رمضان ثلاثة آلاف دينار.

وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون على الركوب فى الجمع الثلاث من رمضان إلى جوامع الحاكم بأمر الله والأزهر وعمرو بن العاص على التوالى لصلاة الجمعة. ويشرف صاحب بيت المال فى كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على تأثيث المسجد الذى يصلى فيه الخليفة صلاة الجمعة. وكانت توضع فى المقصورة ثلاثة طنافس دبيقية أو سامانية بيضاء بعضها فوق بعض، وكان ينصب على جانبى المنبر ستران، يكتب على الأيمن البسملة والفاتحة وسورة الجمعة، وعلى الآخر البسلمة والفاتحة وسورة «المنافقون» كتابة واضحة.

وكان الخليفة يرتدى فى هذا اليوم ثوبا من الحرير الأبيض، ويتعمم بعمامة من هذا النوع من الحرير ويحمل قضيب الملك بيده، ويصل إلى الجامع فى موكب حافل يحف به بعض الأشراف وعدد كبير من حرسه الخاص ومن الجنود الآخرين(١)، ويتبع هؤلاء جم غفير من الناس، ويدخل الخليفة المسجد يحيط به قراء الحضرة الذين كانوا يصحبونه من القصر وهم يرفعون أصواتهم بتلاوة القرآن بنغمات شجية، ثم يستريح قليلا فى قاعة الخطابة التى كان يحرسها قائد القواد وفريق من حرسه، ويظل جالسا فى هذه القاعة حتى ينتهى الأذان، فيدخل إليه قاضى القضاة ويقول له: «السلام على أمير المؤمنين، الشريف القاضى، ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله» فيصعد الخليفة المنبر ويلقى خطبة قصيرة تعد لهذا الغرض فى ديوان الإنشاء، يتلو فيها آية من القرآن، ثم يصلى على أبيه وجده (محمد صلى الله عليه وسلم) ويعظ الناس وعظما بليغا موجزا، ويتوسل بدعوات فخمة تليق به، ويختم خطبته بالدعاء للوزير وبنصر الجيش وخذلان الكفار والمخالفين، وإذا ما فرغ من خطبته قال: اذكروا الله يذكركم، ثم يؤم المصلين، فيقرأ فى الركعة الأولى ما هو مكتوب على الستر يمين المحراب، وفى الركعة الثانية ما هو مكتوب على الستر الأيسر. وحينما يكبر، يبلغ الوزير عنه، ثم قاضى القضاة، ثم المؤذنون. . فإذا ما انتهت الصلاة خلا المسجد من الناس وخرج الخليفة، يحيط به الوزير عن يمينه وقاضى القضاة وداعى الدعاة عن يساره، وحرسه الخاص، ويعود بموكبه إلى مقره على الهيئة التى اتخذها فى ذهابه إلى الجامع(٢). وكانت هذه الرسوم تتكرر فى صلاة الجمعتين الأخيرتين من رمضان.

وكان الشعب المصرى يستقبل هذه المواسم بمظاهر الفرح والسرور إلا يوم عاشوراء(٣) فقد كان يعتبر يوم حزن عام، تعطل فيه الأسواق، ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ليلقوا الأناشيد فى رثاء الحسين؛ وفى نفس اليوم يقام سماط يسمى سماط الحزن فى بهو بسيط. وكان يقدم عليه خبز الشعير والعدس والجبن؛ يحضره الخليفة ملثما ومرتديا الثياب القاتمة(٤).

---

(١) القلشندى: صبح الأعشى جـ٣، ص٥١١.

(٢) المقريزى: خطط، جـ٢، ص٢٨٠ ـ ٢٨١.

(٣) اليوم الذى قتل فيه الحسين بن على بن أبى طالب بكربلاء (١٠ المحرم سنة ٦١هـ).

(٤) المقريزى: خطط جـ١، ص٤٣١، حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر، ص٤٦٢.

كذلك أولى الخلفاء الفاطميون الاحتفال بوفاء النيل كثيرا من اهتمامهم، فكانوا يركبون إلى المقياس بالروضة إذا ما بلغ الفيضان ستة عشر ذراعا. وقد ذكر ناصر خسرو أنه كان يحتفل بهذا العيد بحضور الخليفة وفي ركابه عشرة آلاف فارس، يمتطون الخيول المطهمة ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة، ويلى هؤلاء صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة تقودها طائفة من الجند[١].

وكان موكب الخليفة يخترق شوارع القاهرة ومصر، يحف به أفراد الشعب حتى يأتى منظرة «دار الملك» بالقرب من المقياس، فيركب منها فى العشارى الخاص بصحبة وزيره وكبار رجال حاشيته قاصدا المقياس، فإذا دخله صلى هو والوزير ركعتين، ثم يضع الخليفة بيده الزعفران والمسك فى إناء خاص يسلمه لصاحب بيت المال الذى يناوله بدوره للموظف المختص بالإشراف على المقياس، فيقوم هذا الموظف بتخليق المقياس (أى تعطيره)، بينما يتناوب قراء الحضرة تلاوة القرآن، ثم يخرج الخليفة راكبا فى العشارى، فإذا ما وصل دار الملك عاد بموكبه إلى القصر[٢].

وكانت تقدم الحلل إلى الوزراء وبعض الأمراء والأشراف وغيرهم فى عيد الفطر، كما كان الخلفاء يجودون على كبار رجال الدولة بالخلع، فى غرة رمضان وفى الجمع الثلاث الآخيرة منه وفى وفاء النيل، وكان يمنح الشعراء والكتاب والأعيان الذين يحضرون إلى القاهرة فى تلك المواسم حللا من الحرير الخالص، بعضها مزركش بالذهب[٣].

وكانت الكسوات التى تخلع على وجوه الدولة ترفق برقعة من ديوان الإنشاء. وقد أورد لنا المقريزى[٤] صورة منها. وقد جاء فيها: «لم يزل أمير المؤمنين منعما بالرغائب، موليا إحسانه كل حاضر من أوليائه وغائب. وإنك أيها

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، ص٦٦٩.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣، ص٥١٢ ـ ٥١٣، ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، ص١٠٦ ـ ١٠٧.

(٣) المقريزى: خطط، جـ١ ص٤١٠.

(٤) المقريزى: خطط جـ١ ص٤١٢.

الأمير لأولاهم من ذلك بجسيمه، وأحراهم باستنشاق نسيمه. إذ كنت فى سماء المسابقة بدرا، وفى موائد المناصحة صدرا، وممن أخلص فى الطاعة سرا وجهرا وحظى فى خدمة أمير المؤمنين بما عطر له وصفا وسير له ذكرا. ولما أقبل هذا العيد السعيد، والعادة فيه أن يحسن الناس هيأتهم، ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم. ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه فى المواسم التى تجاريه بكسوات على حسب منازلهم، تجمع بين الشرف والجمال، ولا يبقى بعدها مطمح للآمال، وكنت من أخص الأمراء المقدمين».

كذلك كانت توزع فى عيد الفطر النقود الذهبية والفضية والملابس والأطعمة على الأضياف والموظفين على اختلاف درجاتهم، هذا إلى ما كان يمنحه كبار الموظفين فى غرة المحرم من النقود الذهبية التى كانت تضرب خصيصا لهذا اليوم فى العشر الأخير من ذى الحجة. وتسمى نقود الغرة، وهى دنانير رباعية ودراهم خفاف مدورة. وكان هؤلاء الموظفون يقبلونها على سبيل التبرك من الخليفة[1].

وقد اعتاد الخلفاء عند ركوبهم إلى المناظر أن يمنحوا رجال القصر والشعراء والمؤذنين والقراء ومن إليهم فى الحاشية المنح الوفيرة، فيحمل أحد الموظفين كيسا من الحرير فيه خمسمائة دينار لتوزع فى الطريق الذى يجتازه الخليفة على الرجال والنساء والقراء الذين يقرءون القرآن على جانبى الطريق.

* * *

كثر الاهتمام بالغناء والموسيقى فى العصر الفاطمى بمصر، فأقبل وجوه القوم فى مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنين والمغنيات. وكان معظم المغنيات من الجوارى، فيحكى أنه اشتريت من بغداد جارية تجيد الغناء للأمير تميم بن المعز لدين الله بمصر، فغنت له ولجلسائه، ولم يزل غناؤها يزيده طربا حتى قال لها: تمنى ما شئت، فتمنت أن تغنى ما غنت ببغداد، فلم يجد الأمير بدا من الوفاء لها وأرسلها إلى بغداد.

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣ ص٥٠٥.

وكانت مجالس الطرب والغناء واللهو تقام على شواطئ الخليج بالقاهرة فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله؛ فلما تجلى الانحلال الاجتماعى من جراء هذه المجالس، أصدر الحاكم قوانين يمنع بعضها سماع الموسيقى ويحرم البعض الآخر الغناء والملاهى التى تعد خطرا على الأخلاق العامة(١).

على أن هذه المجالس ما لبثت أن عادت إلى الظهور بعد وفاة الحاكم؛ فقد أولع بعض من جاء بعده من الخلفاء بالغناء والموسيقى؛ فكان الخليفة المستنصر بالله يميل إلى سماع المغنيات. وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان من بين مظاهر الاحتفال باستيلاء البساسيرى على بغداد وإقامة الخطبة باسم المستنصر على منابرها أن وقفت إحدى المغنيات تحت قصر الخليفة تنشد بعض الأبيات، فأعجب المستنصر بغنائها وأجزل لها العطاء(٢).

وكان اللعب بالخيال معروفا بمصر فى العهد الفاطمى، فيخرج الناس فى بعض الأعياد ويطوفون شوارع القاهرة بالخيال والتماثيل والسماجات، كما احترف بعضهم التقليد والمحاكاة، وبلغ من حذق بعض الناس المحاكاة أنهم كانوا يقلدون طوائف السكان على اختلاف نزعاتهم وأجناسهم، وكان الأهالى يقبلون على سماع نوادرهم(٣).

وقد ذكر المقريزى(٤) أنه كان يحتفل بمصر فى ذلك العهد بعيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة، وأن العامة كانوا يطوفون فى هذا العيد بأسواق المدينة بالطبول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه فى خروجهم، غير أنه حدث أن اشتد الغلاء سنة ٤١٥هـ، فامتنع التجار عن الدفع. ولما علم بذلك الخليفة الظاهر الفاطمى أمرهم بدفع ما جرت به العادة وبأن يطلق للمحتفلين ضعف ما أطلق لهم فى السنة الماضية من الهبات، فخرجوا إلى سجن يوسف بالجيزة ومعهم التماثيل والمضاحك والخيال والسماجات، كما خرج الخليفة إلى الجيزة وأقام يومين لمشاهدة فريق المحتفلين، فأعجب بهم واستظرفهم(٥).

---

(١) انظر: المقريزى: خطط جـ٢ ص٢٨٧.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٥ ص١٢.

(٣) المقريزى: خطط، جـ١ ص٢٠٧، متز، الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢٢١.

(٤) المقريزى: خطط، جـ١ ص٢٠٧.

(٥) المقريزى: خطط جـ١ ص٢٠٧.

وكانت المجالس الاجتماعية تعقد فى قصور الخلفاء والوزراء والأعيان حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة. كما كانت المجالس الخاصة تعقد فى داخل المنازل لسماع النوادر والأحاديث التى تتجلى فيها اللباقة العقلية، لقضاء أوقات فراغهم فى لعب الشطرنج والنرد[١].

(١) انظر: متز الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص٢١٤ ـ ٢١٥.

٤ ـ الحياة الثقافية :

اهتم الفاطميون منذ استقر سلطانهم فى مصر بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية فضلا عن الثقافة المذهبية التى تتصل بالدعوة الإسماعيلية كالفقه والتفسير. وكان للجامع الأزهرأثر كبير فى النهوض بالحياة الثقافية فى مصر. وقد ظهرت فكرة الدراسة به فى أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمى حين قام قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان المغربى بشرح كتاب «الاقتصار» الذى وضعه أبوه؛ ويشتمل على مسائل فقهية استمدها من أئمة أهل البيت، كما أن أخاه أبا عبد الله محمد بن النعمان جلس فى ربيع الأول من سنة ٣٨٥هـ بقصر الخليفة لقراءة علوم أهل البيت(١).

وفى أوائل عهد العزيز بالله جلس الوزير يعقوب بن كلس بالجامع الأزهر، وقرأ على الناس رسالة ألفها فى الفقه الشيعى على المذهب الإسماعيلى، تسمى الرسالة الوزيرية، تضمنت ما سمعه فى ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز. وكان يفد إلى سماعه الفقهاء والقضاة وأكابر رجال الدولة. وصار ابن كلس يعقد مجالسه العلمية تارة بالجامع الأزهر وطورا بداره، يقرأ فيها مصنفاته على الناس.

على أن الجامع الأزهر ما لبث أن فاقت شهرته جميع المساجد الجامعة فى مصر منذ أن أشار الوزير يعقوب بن كلس سنة ٣٧٨هـ على الخليفة العزيز بتحويله إلى معهد للدراسة بعد أن كان مقصورا على إقامة الدعوة الفاطمية، فاستأذنه فى أن يعين بالأزهر بعض الفقهاء للقراءة والدرس، على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع فى كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر، فرحب العزيز بذلك ورتب لهؤلاء الفقهاء أرزاقا شهرية ثابتة، وأنشأ لهم دارا للسكنى بجوار الأزهر(٢). وظل الأزهر مركز الفقه الفاطمى إلى أن بنى جامع الحاكم بأمر الله، فانتقل إليه الفقهاء لإلقاء دروسهم.

كذلك اهتم الفاطميون بإنشاء المكتبات، فألحقوا بالقصر الشرقى الكبير مكتبة زودوها بأندر المؤلفات فى مختلف العلوم والفنون حتى تميزت على غيرها من مكتبات العالم الإسلامى بما فى خزائنها من كتب قيمة.

---

(١) انظر: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق للمؤلف ص٢٣٠.

(٢) حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر، ص١٢٧.

وكان تجار الكتب يعرضون على موظفى مكتبة القصر أندر الكتب التى يعثرون عليها. وقد روى المقريزى[١] أن رجلا أحضر إلى العزيز بالله نسخة من كتاب الطبرى اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز أمناء المكتبة، فأخرجوا من الخزائن ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبرى، منها نسخة بخط يده، كما كان بخزانة العزيز ما يزيد على ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد، ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد.

وكثيرا ما كان الخليفة الفاطمى يزور خزانة الكتب فى القصر الشرقى فيأتى راكبا، ثم يترجل ويأخذ مجلسه فوق دكة منصوبة، ويمثل بين يديه أمين الخزانة ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام مشاهير الخطاطين، ويعرض عليه ما يقترح شراءه من الكتب أو ما يريد الخليفة حمله لقراءته فى مجلسه الخاص[٢].

وكان بمكتبه القصر أربعون خزانة كتب فى سائر العلوم، وتحتوى كل خزانة على عدة رفوف، والرفوف مقطعة بحواجز، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائة ألف مجلد فى الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والفلك والكيمياء.

ومن المراكز الثقافية بمصر دار الحكمة التى أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ وأطلق عليها هذه التسمية رمزا إلى الدعوة الشيعية لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة. وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم، حوت الكثير من الكتب فى سائر العلوم والآداب، من فقه ونحو ولغة وكيمياء وطب، وسمح لسائر الناس على طبقاتهم بالتردد عليها. وفى ذلك يقول المقريزى[٣]: «وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك لسائرالناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر».

(١) المقريزى: خطط، جـ١، ص٤٠٨.
(٢) المقريزى: خطط، جـ١، ص٤٠٩.
(٣) خطط، جـ١، ص١٥٨.

كان الطلاب يتلقون في دار الحكمة إلى جانب علوم آل البيت وفقه الشيعة الكثير من علوم اللغة والفلك والطب والرياضة والفلسفة والمنطق والتنجيم. وهكذا اختلفت مناهج التعليم فى هذا المعهد عن مناهج التعليم بالمساجد الفاطمية المعاصرة، إذ كانت تغلب عليها الصبغة العلمية، بينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية. وكان بين أساتذة دار الحكمة كثير من أساتذة الحساب والمنطق والطب والنجامة، من أمثال ابن يونس المنجم، وأبى على الحسن بن الهيثم، وعلى بن رضوان(١).

وقد استطاعت دار الحكمة بفضل هؤلاء الأساتذة وما كان لها من مناهج منوعة جمعت بين الدراسات العلمية والفقهية أن تجتذب كثيرا من أعلام المشرق، من أمثال الرحالة الفارسى ناصر خسرو، والداعى الحسن بن الصباح اللذين وفدا إلى مصر فى عهد المستنصر بالله الفاطمى.

ظلت دار العلم مفتوحة ينتفع الجمهور بما فيها من الكتب إلى سنة ٥١٦هـ حيث أمرالوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى بإغلاقها بسبب ما وصل إليه من أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التى يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة وهى الشافعى والحنفى والمالكى، يترددان على دار العلم، وأن كثيرا من الناس أصغوا إليهما واعتنقوا هذا المذهب. على أن فترة إغلاق دار العلم لم يطل أمدها، فقد أعادها الخليفة الآمر إلى ما كانت عليه بعد وفاة الأفضل(٢).

فقدت مكتبة القصر الفاطمى عددا غير قليل من الكتب القيمة التى كانت بها فى غضون الشدة العظمى التى حلت بمصر فى عهد المستنصر بالله، فاستولى الجند والأمراء على الكثير مما فى خزانة الكتب(٣). وعلى الرغم من ذلك كله، فقد بقى فى خزائن القصر بعض كتب لم تصل إليها يد العبث، واستطاع الفاطميون فيما بعد أن يعوضوا بعض ما فقدوه، فجلبوا إلى مكتبة القصر كثيرا من الكتب الجديدة حتى أصبح فى قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مكتبة كبيرة(٤).

* * *

(١) خطاب عطية: التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى، ص١٥٨.
(٢) المقريزى: خطط، جـ١، ص٤٥٩.
(٣) المقريزى: خطط، جـ١، ص٤٠٩.
(٤) انظر كتاب «كنوز الفاطميين» ص٢٩، تاريخ الدولة الفاطمية، ص٤٢٩.

تجلى نشاط الحركة العقلية فى مصر منذ أن اتخذ الفاطميون القاهرة حاضرة لخلافتهم، ففتح الخليفة المعز لدين الله أبواب قصره للعلماء والطلاب، وأباح لهم جميعا الاطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر، وحذا الخلفاء من بعده حذوه، فصاروا يعقدون المجالس العلمية والأدبية بقصورهم، ويدعون إليها الفقهاء والعلماء والأدباء، فيتناظرون بحضرتهم. ولم تكن هذه المجالس تقل فى قيمتها التعليمية عن الدروس التى تلقى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة.

وقد أدى مجىء الفاطميين إلى مصر بمذهب شيعى له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة فى مصر إلى ظهور فريقين من العلماء، يعمل أولهما على تأييدهم، ويفند الفريق الآخر آراءهم(١)؛ واستتبع ذلك نشاط علماء الدعوة الفاطمية فى تأليف الكتب، وكان لأبى حنيفة النعمان المغربى وأبنائه وهم جميعا من كبار رجال القضاء والأدب الفضل الأكبر فى نشر الثقافة المذهبية التى تتصل بالدعوة الإسماعيلية.

وقد عاصر أبو حنيفة الفاطميين بالمغرب. وكان مالكى المذهب كسائر أفراد أسرته، ثم تحول إلى المذهب الإسماعيلى وقدم إلى مصر هو وأبناؤه فى ركب المعز. ويعد النعمان من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية، وله فى الفقه الإسماعيلى عدة مؤلفات منها: «دعائم الإسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام». وقد استغل النعمان ميوله المذهبية فى تأليف هذا الكتاب حتى إننا نراه يضيف إلى قواعد الإسلام الخمس الولاية وهى حب أهل البيت، والطهارة(٢).

وكان دعاة الإسماعيلية يرجعون إلى كتاب دعائم الإسلام فى أحكامهم، ونهج الوزير يعقوب بن كلس فى كتابه «مصنف الوزير» منهج كتاب الدعائم، وأشاد بذكر هذا الكتاب حميد الدين الكرمانى داعى الحاكم بأمر الله فى فارس، فى كتابه «راحة العقل» حتى جعله فى المرتبة التى تلى القرآن والحديث(٣).

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١، ص١٨٨.

(٢) H.Hamdani, (J.R.A.S), 1933, p. 369Æ

انظر «كتاب المعز لدين الله» ص٢٥٨ ـ٢٥٩.

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الدولة الفاطمية، ص٤٧٦.

وعلى الرغم من تعصب الفاطميين للمذهب الإسماعيلي وتشجيعهم فقهاءه، فقد ظهر في عهدهم بعض الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية نخص بالذكر منهم أبا بكر محمد النعالي المالكي المتوفى سنة ٣٨٠هـ. وكانت حلقته بجامع عمرو بن العاص، تدور على سبعة عشر عمودا لكثرة من يحضرها(١). وكان فقهاء المذهب السني في مصر يستنكرون تعاليم الفاطميين ولكنهم لا يستطيعون الجهر بذلك.

كان لتشجيع الفاطميين للعلماء والكتاب أثره في ظهور طائفة كبيرة منهم في مصر، فاشتهر من المؤرخين في العصر الفاطمي: أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي؛ اتصل بخدمة الخليفة العزيز، فولاه خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه: وتوفي سنة ٣٨٨هـ في أيام الحاكم بأمر الله. ومن مصنفاته كتاب الديارات، أورد فيه أخبارا طريفة عن أديرة العراق والجزيرة والشام ومصر، وما قيل في كل منها من الأشعار(٢). كما نبغ من المؤرخين في هذا العصر الأمير المختار عز الملك المعروف بالمسبحي الذي ولد بمصر سنة ٣٦٦هـ وتوفي سنة ٤٢٠هـ. وكان من جلساء الخليفة الحاكم بأمر الله وخاصته، وقد تولى في أيامه بعض المناصب الهامة، وشغف بكتابة التاريخ. وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى «تاريخ مصر» ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعون بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا. وقد نقل عن هذا الكتاب كل من المقريزي وأبي المحاسن.

ومن أعلام المؤرخين: أبو عبد الله القضاعي الذي ولد بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري؛ وتوفي بها سنة ٤٥٤هـ وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعي. وقد ولي القضاء وغيره من مهام الدولة في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وأوفده هذا الخليفة سفيرا إلى تيودورا إمبراطورة الدولة البيزنطية سنة ٤٤٧هـ ليحاول عقد صلح بينها وبين مصر، وله عدة مصنفات في الفقه والتاريخ، منها «مناقب الإمام الشافعي وأخباره»، وكتاب في خطط مصر سماه «المختار في

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، جـ١ ص١٩٧.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١ ص٤٢٦.

ذكر الخطط والآثار»، يتضمن تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره. وكان هذا الكتاب عونا للمقريزى على كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»(١).

ومن الكتاب والمؤرخين الذين ظهروا فى أواخر العصر الفاطمى أبو القاسم على بن منجب الصيرفى. وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه فى البلاغة والشعر، كما برع فى الخط، وتدرج فى بعض الوظائف حتى ولى ديوان الإنشاء للخليفة الآمر بأحكام الله، وظل فيه إلى سنة ٥٣٦هـ. ومن تصانيفه كتاب «قانون ديوان الرسائل» و «الإشارة إلى من نال الوزارة» الذى ألفه للمأمون البطائحى وزير الآمر، وتتبع فيه وزراء الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز حتى أيامه. وتوفى ابن الصيرفى فى عهد الخليفة الحافظ سنة ٥٤٢هـ(٢).

كذلك نبغ فى العصر الفاطمى بعض العلماء من أمثال أبى على محمد بن الحسن بن الهيثم، وأصله من البصرة، ثم أتى مصر بدعوة من الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية هامة فى توزيع مياه النيل. وكان ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة، وخاصة فى الطبيعيات والرياضيات. وقد ألف نحو مائتى كتاب فى الرياضة والطبيعة والفلسفة، ولم يزل مكبا على التأليف حتى توفى سنة ٤٣٠هـ(٣).

واشتهر من الأطباء والفلاسفة أبو الحسن على بن رضوان وهو مصرى المولد من الجيزة، وقد نشأ فقيرا معدما، وأصبح بفضل جده واجتهاده رئيس الأطباء فى البلاط الفاطمى. وتدل الكتب التى ألفها فى الطب على سعة فكره واطلاعه. كما أن له كتبا فى الفلسفة والمنطق وغيرهما من علوم الحكمة(٤). وكان على بن رضوان مجددا فى صناعته، فلم يعمد فى مؤلفاته إلى نقل وشرح كتب من كان قبله من الأطباء، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار، وظل طيلة حياته فى كفاح وعمل متصل إلى أن توفى فى حوالى سنة ٤٦٠هـ فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى(٥).

---

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ١ ص٢٠٢.

(٢) انظر: ياقوت، معجم الأدباء، جـ١٥، ص٧٩ - ٨٠، ابن ميسر: تاريخ مصر ص٨٠.

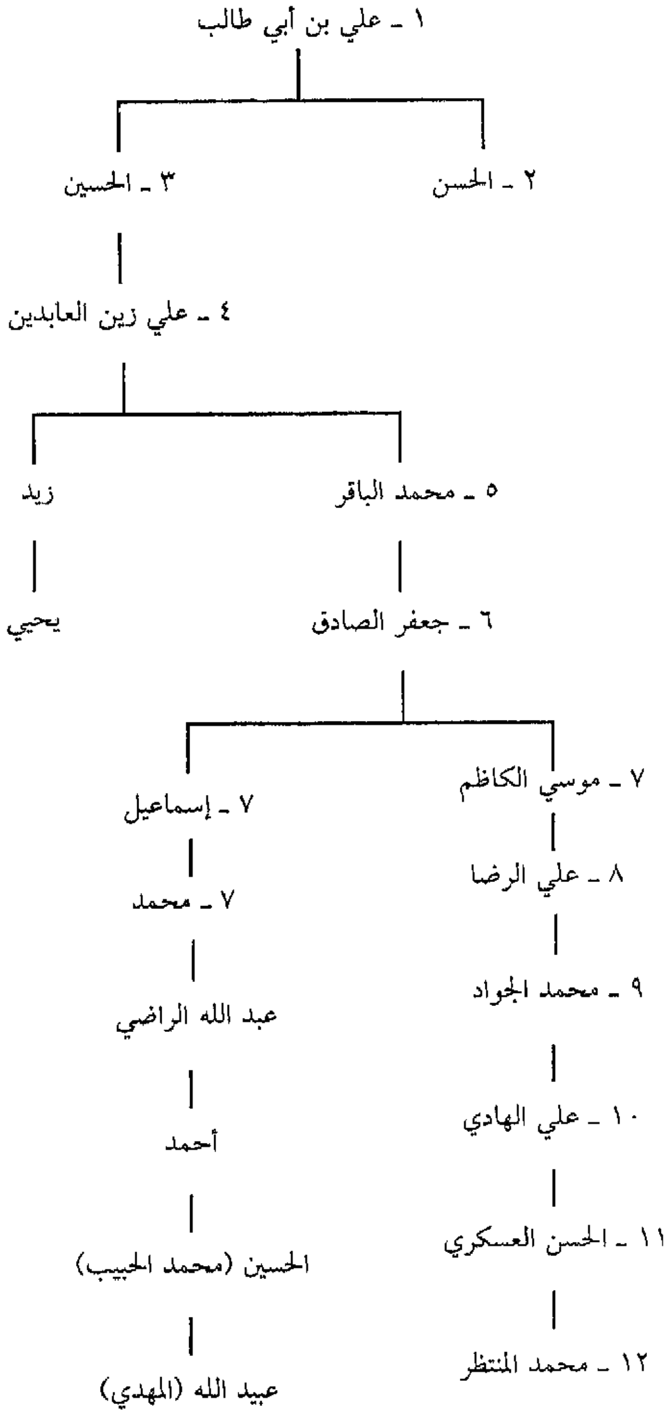
(٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام جـ١ ص٢٠٤.

(٤) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، جـ٢ ص١٠٥.

(٥) ابن القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص٤٤٣ - ٤٤٤.

وقصارى القول أن الحركة العلمية فى العصر الفاطمى، سارت بخطى واسعة نحو التقدم والارتقاء، فتفوقت على مثيلتها فى العهد الطولونى والإخشيدى، كما تميزت بنشاطها، فكان فى مصر طائفة من علماء الدعوة الفاطمية والمؤرخين والفلاسفة والأدباء أسهموا فى النهضة الثقافية التى تجلت فى ذلك العصر.

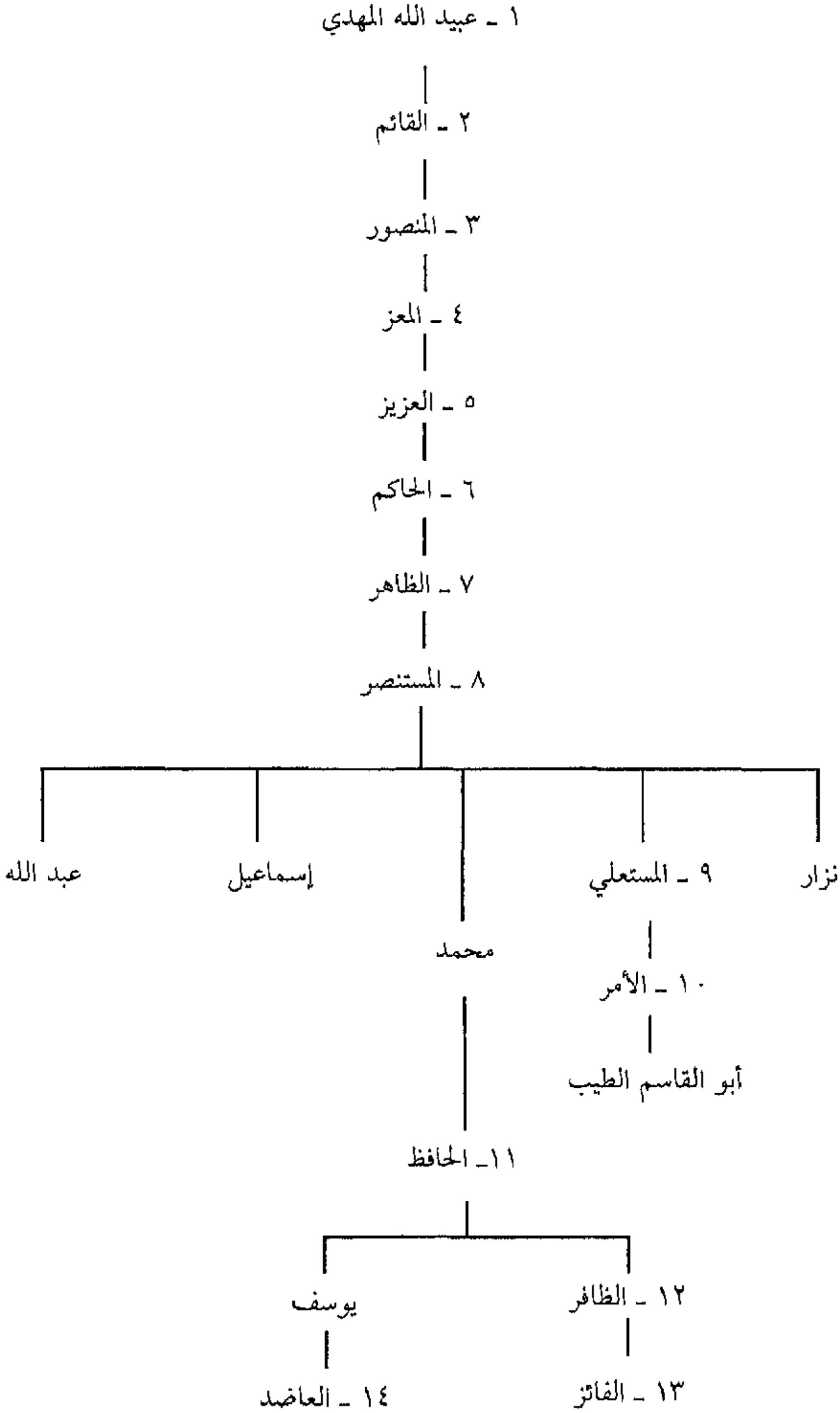
الإسماعيلية والاثنا عشرية :



الخلفاء الفاطميون

١ ـ عبيد الله المهدي	٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ (٩٠٩ ـ ٩٣٤م)
٢ ـ القائم (محمد أبو القاسم)	٣٢٢ ـ ٣٣٤هـ (٩٣٤ ـ ٩٤٥م)
٣ ـ المنصور (إسماعيل أبو طاهر)	٣٣٤ ـ ٣٤١هـ (٩٤٥ ـ ٩٥٢م)
٤ ـ المعز لدين الله (معد أبو تميم)	٣٤١ ـ ٣٦٥هـ (٩٥٢ ـ ٩٧٥م)
٥ ـ العزيز بالله (نزار أبو منصور)	٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ (٩٧٥ ـ ٩٩٦م)
٦ ـ الحاكم بأمر الله (المنصور أبو علي)	٣٨٦ ـ ٤١١هـ (٩٩٦ ـ ١٠٢٠م)
٧ ـ الظاهر لإعزاز دين الله (علي أبو الحسن)	٤١١ ـ ٤٢٧هـ (١٠٢٠ ـ ١٠٣٥م)
٨ ـ المستنصر بالله (معد أبو تميم)	٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ (١٠٣٥ ـ ١٠٩٤م)
٩ ـ المستعلي (أحمد أبو القاسم)	٤٨٧ ـ ٤٩٥هـ (١٠٩٤ ـ ١١٠١م)
١٠ ـ الآمر (المنصور أبو علي)	٤٩٥ ـ ٥٢٤هـ (١١٠١ ـ ١١٣٠م)
١١ ـ الحافظ (عبد المجيد أبو الميمون)	٥٢٤ ـ ٥٤٤هـ (١١٣٠ ـ ١١٤٩م)
١٢ ـ الظافر (إسماعيل أبو المنصور)	٥٤٤ ـ ٥٤٩هـ (١١٤٩ ـ ١١٥٤م)
١٣ ـ الفائز (عيسى أبو القاسم)	٥٤٩ ـ ٥٥٥هـ (١١٥٤ ـ ١١٦٠م)
١٤ ـ العاضد (عبد الله أبو محمد)	٥٥٥ ـ ٥٦٧هـ (١١٦٠ ـ ١١٧١م)

الخلفاء الفاطميون



مصادر القسم الأول

١- **ابن الأثير**: (ت ٦٣٠ هـ، ١٣٢٨م) على بن أحمد بن أبى الكرم .
«الكامل فى التاريخ». (١٢ جزءًا- القاهرة ١٠٣٣هـ)

٢- **أحمد أمين** .
«ظهر الإسلام» (الجزء الأول - القاهرة ١٩٤٥)

٣- **الأدفوى**: (ت ٧٤٨هـ) كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر بن على الأدفوى الشافعى.
«الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد».

٤- **ابن أبى أصيبعة** (ت ٦٦٧هـ، ١٢٧٠م) أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين.
«كتاب عيون الأنباء فى أخبار الأطباء» (جزءان - القاهرة ١٢٩٩-١٣٠٠م)

٥- **أوليرى دى ليسى**: O'Leary, (De Lacy)
.A Short History of the Fatimid Khalifate, London, 1923.

٦- **البغدادى**: (ت ٤٢٩ هـ، ١٠٣٧م) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر.
«الفرق بين الفرق» (مطبعة المعارف- القاهرة ١٣٢٨هـ، ١٩١٠م).

٧- **البكرى**: (ت ٤٨٧هـ، ١٠٦٤م) أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكرى.
«المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب» (طبعة دى سيلان D.Slan) باريس سنة ١٩١١)

٨- **حتى: فيليب** - Hitti Philip
History of Syria, London, 1951.

٩- **حسن إبراهيم حسن**
(أ) الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص (١٩٣٢م).

(ب) تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٥٩م)

(جـ) تاريخ الإسلام السياسى (الجزء الثالث - القاهرة - ١٩٤٦).

١٠- **حسن إبراهيم حسن وطه شرف.**

(أ) عبيد الله المهدى إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب. (القاهرة - ١٩٤٧م)

(ب) المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى مصر. (القاهرة - ١٩٤٨م)

١١- **حسن حبشى:**

(أ) الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٤٧م)

(ب) نور الدين والصليبيون (القاهرة ١٩٤٨م)

١٢- **الحمادى اليمانى**: محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى(من فقهاء السنة فى أواسط القرن الخامس الهجرى)

«كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة»

١٣- **ابن خلدون** : (ت ٨٠٨ هـ، ١٤٠٥ - ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد

«العبر وديوان المبتدأ والخبر» (٧ أجزاء - بولاق ١٢٨٤هـ)

١٤- **ابن خلكان**: (ت ٦٨١هـ، ١٢٧١م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى

«وفيات الأعيان» (جزاءن - بولاق - ١٢٨٣ هـ)

١٥- **ابن الداية**: (٣٣٠ هـ أو ٣٤٠هـ) أبو جعفر أحمد بن يوسف.

«سيرة أحمد بن طولون» - نشر فولرز ١٨٩٥م

١٦- **دحلان**: (ت ١٣٠٤هـ) أحمد زينى دحلان المكى.

«خلاصة الكلام فى أمراء البيت الحرام»

١٧- **راشد البراوى**:

«حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين» (القاهرة ١٩٤٨م)

١٨- **زكى محمد حسن:**
«كنوز الفاطميين» (القاهرة ١٩٣٧م).

١٩- **السلاوى:** أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى.
«الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»
(٤ أجزاء - القاهرة ١٣١٠ - ١٣١٢هـ).

٢٠- **ابن سعيد** : (ت ٦٧٣هـ، ١٢٧٥م) على بن موسى المغربى:
«المغرب فى حلى المغرب، والمشرق فى حلى المشرق» (ليدن سنة ١٨٩٨ - ١٨٩٩م)

٢١- **سيدة إسماعيل كاشف:**
(أ) «مصر فى فجر الإسلام» (القاهرة- ١٩٤٧م).
(ب) «مصر فى عصر الإخشيديين» (القاهرة ١٩٥٠م).

٢٢- **السيوطى**: (ت ٩١١هـ، ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين.
(أ) «تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة» (القاهرة - ١٣٥١هـ)
(ب) «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة» (جزءان القاهرة ١٣٢١هـ).

٢٣- **أبو شامة:** (ت ٦٦٥ هـ، ١٢٦٧ - ١٢٦٨م) عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبى شامة.
«كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين».

٢٤- **أبو شجاع** : (ت ٤٨٨هـ، ١٠٩٥م) محمد بن الحسين بن عبد الله بن إبراهيم الوزير ظهير الدين أبو شجاع.
«ذيل كتاب تجارب الأمم» (طبعة H.F. Amedroz).

٢٥- **ابن شداد** (ت ٦٣٢هـ، ١٢٣٤م) القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف ابن رافع بن تميم.
«النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية».

٢٦- **الشهرستانى** (٥٤٨هـ، ١١٥٣م) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم.
«الملل والنحل» (٥ أجزاء - القاهرة ١٣١٧هـ).

٢٧- **عبد المنعم ماجد**:
«نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر» (جزءان القاهرة ١٩٥٣م).

٢٨- **عبد القادر الأنصارى**: الشيخ زين الدين عبد القادر بن البدرى محمد بن إبراهيم الأنصارى(من علماء القرن العاشر الهجرى).
«درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة»
مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

٢٩- **ابن عذارى** (توفى فى أواخر القرن السابع الهجرى) أبو عبد الله محمد المراكشى.
«البيان المغرب فى أخبار المغرب» (٣ أجزاء نشر دوزى، باريس ١٩٣٠م).

٣٠- **عريب بن سعد القرطبى** (ت ٣٦٦هـ، ٩٧٦ - ٩٧٧م):
«صلة تاريخ القرطبى» (القاهرة ١٣٠٢هـ)

٣١- **عمارة اليمنى** (ت ٥٩٦هـ، ١١٧٤م) أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد الحكمى اليمنى الملقب بنجم الدين.
«تاريخ اليمن» (نشر Henri Cassels Kay).

٣٢- **ابن العميد** : (ت ٦٧٢هـ، ١٢٧٣م) الشيخ المكين جرجس ابن العميد
«تاريخ المسلمين» (ليدن - ١٦٢٥م).

٣٣- **الطبرى**: (ت ٣١٠هـ) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى.
«تاريخ الأمم والملوك» (٨ أجزاء - القاهرة ١٣٥٨هـ/ ١٩٢٩م).

٣٤- **طه شرف**:
«دولة النزارية أجداد أغاخان» (القاهرة ١٩٥٠م)

٣٥- **أبو الفدا**: (ت ٧٣٢ هـ، ١٣٣١م) إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه.
«المختصر فى أخبار البشر». (٤ أجزاء - القاهرة - ١٣٢٥هـ).

٣٦- **فييت : جاستون فييت** Wiet, G.

(أ) Histoire de La Nation Egyptienne,7 Vols., Paris, 1931-194

Vol. IV, 1939: L'Egypte Arabe (ed. by Hanoutau), 1932.

(ب) Précis de L'histoire d'Egypte T. II. (L'Egypte Musulmane).

٣٧- ابن القـــفطى: (ت ٦٤٦هـ، ١٣٤٨م) جـمـــال الدين على بـــن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب.

«إخبار العلماء بأخبار الحكماء» (القاهرة - ١٣٢٦ هـ).

٣٨- **ابن القلانسى**: (ت ٥٥٥ هـ، ١١٦٠ م) أبو على حمزة .

«ذيل تاريخ دمشق» (بيروت سنة ١٩٠٨م)

٣٩- **القلقشندى**: (ت ٨٢١ هـ، ١٤١٨م) أبو العباس أحمد

«صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» (١٤ جزءًا- القاهرة ١٩١٣-١٩١٧م).

٤٠- **الكرملى**: أنستاس مارى:

«النقود العربية وعلم النميات» (القاهرة - ١٩٣٩م).

٤١- **الكندى**: (ت ٣٥٠هـ، ٩٦١م) أبو عمر محمد بن يوسف

«كتاب الولاة وكتاب القضاة» (ليدن - ١٩٠٨م).

٤٤- **لينبول: ستانلى** Lane . Poole: Stanley.

(أ) A history of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.

(ب) Salah El Din and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, London, 1893.

٤٢- **متز : آدم** Mez. Adam

Die Renaissance des Islams.

نقله إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة بعنوان:

(الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) - جزءان - القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٤١).

٤٣- **أبو المحاسن**: (ت ٨٧٤ هـ ١٣٥٤م) جمال الدين يوسف بن تغربردى

«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» (نشر دار الكتب المصرية بالقاهرة).

٤٤- **محمد جمال الدين سرور**.

(أ) «النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب» (الطبعة الرابعة - القاهرة ١٩٦٤).

(ب) «النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق» (الطبعة الثالثة - القاهرة ١٩٦٤).

(جـ) «تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق» - (القاهرة ١٩٦٥م).

٤٥- **محمد كامل حسين**:

«أدبنا العربى فى عصرة الولاة» (القاهرة ١٩٦١).

٤٦- **المقريزى**: (٨٤٥ هـ، ١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على.

(أ) «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» (طبعة بولاق ١٢٧٠هـ).

(ب) «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا» (جمال الدين الشال. القاهرة ١٩٤٨) نشر دار الفكر العربى.

٤٧- **ابن مماتى**: (ت ٦٠٦هـ، ١٢٠٩م) القاضى الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد.

٤٨- **ابن منجب الصيرفى**: (ت ٥٤٢هـ، ١١٤٧م) زمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على.

«الإشارة إلى من نال الوزارة» (القاهرة ١٩٣٤م)

٤٩- **ابن ميسر** : (ت ٦٧٧هـ، ١٣٧٨م) محمد بن على بن يوسف بن جلب

«تاريخ مصر» (طبعة هنرى ماسيه Heuri Masaé القاهرة ١٩١٩م).

٥٠- **النعمان**: (٣٦٣، ٩٧٣م): أبو حنيفة المغربى.

«المجالس والمسايرات» (٣ أجزاء - مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة)

٥١- **النوبختى**: (ت ٢٠٢ هـ، ٩١٤م): أبو محمد الحسن بن موسى.
«كتاب فرق الشيعة» (إستانبول - ١٩٣٢م).

٥٢- **هبة الله الشيرازى**؛ (ت ٤٧٠هـ، ١٠٧٧م) المؤيد فى الدين هبة الله .
«سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة»
(نشر د. محمد كامل حسين- القاهرة ١٩٤٩م).

٥٣- **هيد**: Heyd, W.
Histoire du Commerce du Levant au Moyen - Age 2 vols- Leipzig, 1925.

٥٤- **ابن واصل**: (ت ٦٩٧هـ، ١٢٩٧ - ١٢٩٨م) جمال الدين محمد بن واصل.
«مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب».
(نشر جمال الدين الشيال - ١٩٥٣، ١٩٥٧م).

٥٦- **ياقوت**: (ت ٦٢٦ هـ، ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى.
(أ) «معجم البلدان» (١٠ أجزاء - القاهرة ١٩٠٦م).
(ب) «معجم الأدباء» (٢٠ جزءًا - طبعة أحمد فريد رفاعى ١٦٣٩ - ١٩٣٨).

٥٧- **يحى بن سعيد الأنطاكى**: (ت ٤٥٨ هـ، ١٠٦٦م).
صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» (جزءان - بيروت ١٩٠٩م).

٥٨- **اليمانى**: محمد بن محمد.
«سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدى من سلمية ووصوله إلى سجلماسة» (نشر إيفانوف. مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة - ديسمبر ١٩٣٦).

٥٩- **السجلات المستنصرية.**

«سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى دعاة اليمن وغيرهم».

(نشر وتحقيق دكتور عبد المنعم ماجد سنة ١٩٥٤).

٦٠- **مجموعة الوثائق الفاطمية.**

(جمعها وحققها دكتور جمال الدين الشيال- القاهرة ١٩٥٨م).

٦١- **تاريخ كامبردج العصور الوسطى**

Cambridge Mediaeval History Vol IV.

القسم الثانى

سياسة الفاطميين الخارجية

محتويات القسم الثاني

الباب السادس

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وبعد ؛ فهذا القسم يتناول سياسة الفاطميين الخارجية، يتجلى لنا من ثناياه تطلعهم إلى زعامة العالم الإسلامى، التى كان العباسيون يحتفظون بها رغم ضعف سلطتهم، ومن ثم وجهوا اهتمامهم إلى توسيع نطاق دعوتهم ومد نفوذهم إلى أراضى الدولة العباسية، فلما أصبحت القاهرة مقر خلافتهم تطلعوا إلى بسط سلطانهم على بلاد الحجاز ليكسبوا خلافتهم قوة أمام العالم الإسلامى؛ ذلك أن السيادة على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة صار ينظر إليها على أنها من مستلزمات الخلافة، وأن من يظفر بها يعتبر خليفة المسلمين الحقيقى.

وعلى الرغم من أن الفاطميين واجهوا منافسة العباسيين لهم فى بسط سيادتهم على البلاد المقدسة بالحجاز، فإنهم استطاعوا فى خلال الفترات التى استقر فيها نفوذهم بتلك البلاد، أن ينشروا فيها الأمن، كما أظهروا قدرتهم على درء الأخطار عنها، وتأمين الوافدين من المسلمين على أرواحهم وأموالهم.

وكانت بلاد البحرين من بين أقطار جزيرة العرب التى خضعت لسيادة الفاطميين فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى. وقد حرص أمراؤها من القرامطة على استمرار العلاقات الودية بينهم وبين الخلفاء الفاطميين بالمغرب. لكن صلة المودة بين الفاطميين والقرامطة ما لبثت أن تبدلت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى بسبب طموح أمير القرامطة الحسن بن أحمد إلى استعادة سلطتهم على بلاد الشام، وأدى ذلك إلى قيام العداء بين هذا الأمير وبين الفاطميين. ثم ضعف أمر القرامطة ببلاد البحرين بسبب الخلافات الداخلية بينهم حتى لم يبق لهم فى أواخر القرن الرابع إلا ولاية صغيرة على الشاطئ الشرقى للجزيرة العربية.

ومن ولايات الجزيرة العربية التى انتشرت فيها الدعوة الفاطمية : اليمامة وعمان. وقد تولى نشر هذه الدعوة باليمامة دعاة الإسماعيلية باليمن أثناء قيام دولة بنى الأخيضر العلوية بها. أما ولاية عمان، فإن بعض أمراء الصليحيين باليمن بعثوا إليها بالدعاة لنشر الدعوة الفاطمية، حتى أصبح بها عدد كبير من أنصار هذه الدعوة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى.

وكانت بلاد اليمن موطن الدعوة الفاطمية بجزيرة العرب فاتخذها دعاة الإسماعيلية منذ أواخر القرن الثالث الهجرى مقرا لنشر دعوتهم. وحرص هؤلاء الدعاة على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع الخلفاء الفاطميين، وظل النفوذ الفاطمى فى اليمن رغم ذلك، يتأرجح بين القوة والضعف حتى قام بأمر الدعوة الفاطمية أمراء الصليحيين باليمن؛ فبذل كل منهم قصارى جهده فى سبيل توثيق عرى الصداقة مع الخلفاء الفاطميين فى مصر، مما كان له أثر كبير فى احتفاظ الفاطميين بمركز ممتاز فى بلادهم، وبخاصة فى عهد السيدة الحرة الصليحية.

على أن الدعوة الفاطمية فى اليمن ما لبثت أن أخذت فى الضعف بعد وفاة هذه السيدة، إذ لم يكن هناك بين الصليحيين شخصية قوية تستطيع أن تخلفها وتسير سيرتها فى نشر تلك الدعوة، كما أن آل زريع بعدن الذين كانوا موالين للخلافة الفاطمية فى مصر لم يتيسر لهم الاستمرار فى الحكم فترة طويلة؛ فأخذت دولتهم فى الانحلال منذ منتصف القرن السادس الهجرى. وأصبح النفوذ الفاطمى فى بلاد اليمن مهددا بالزوال بعد أن ولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مقاليد الأمور فى مصر؛ إذ وجه اهتمامه إلى بسط سلطانه على تلك البلاد، واستطاع فى فترة قصيرة أن يقضى على نفوذ الفاطميين فيها.

وكانت الضرورة السياسية والحربية تقضى على الفاطميين بعد أن وطدوا سلطتهم فى مصر أن يولوا وجوههم شطر بلاد الشام؛ لكنهم رغم نجاحهم فى مد سلطانهم على هذه البلاد واجهوا عدة صعوبات، كان لها أثر بالغ فى عدم استقرار الحكم الفاطمى فيها؛ فإلى جانب استياء أهالى دمشق من سياسة الفاطميين القائمة على التعصب للمذهب الشيعى، قام قرامطة بلاد البحرين بدور هام فى مناهضة نفوذهم فى بلاد الشام، كما أن الحركات الاستقلالية التى تزعمها أمراء العرب فى هذه البلاد أدت إلى إضعاف سلطة الفاطميين.

وكان لتضاؤل سلطان الفاطميين السياسى فى شمال الشام وجنوبه أثر كبير فى إتاحة الفرصة أمام السلاجقة للظهور على مسرح السياسة فى هذه البلاد؛ فبذلوا جهدهم لبسط سيادتهم عليها. غير أن الفاطميين سرعان ما تأهبوا لصد غاراتهم وأصبحوا هم والسلاجقة فى أواخر القرن الخامس الهجرى يتقاسمون النفوذ فى بلاد الشام.

وكانت بلاد العراق محط أنظار الفاطميين على اعتبار أنها مقر الخلافة العباسية، لذلك عهد الفاطميون إلى دعاتهم بالرحيل إليها لنشر دعوتهم. وقد صادف هؤلاء الدعاة كثيرا من النجاح فى هذا السبيل، كما لقيت الدعوة الفاطمية فى بلاد الفرس تأييدا حتى أصبح بين صفوف جند بنى بويه من الديلم والأتراك عدد غير قليل يميل إلى الفاطميين. وكان ذلك مما مهد السبيل لنجاح البساسيرى فى إقامة الدعوة الفاطمية من منابر بغداد فى منتصف القرن الخامس الهجرى. غير أن هذه الدعوة لم يكتب لها البقاء فترة طويلة؛ فسرعان ما دخل السلاجقة بغداد وأعادوا الخطبة للخليفة العباسى القائم بأمر الله.

وكان السلاجقة يدركون الخطر الذى يتهددهم من وراء انتشار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشرق الإسلامى؛ ومن ثم وجهوا سياستهم بعد أن قبضوا على زمام الأمور فى بغداد إلى مناهضة هذا النفوذ، كما اضطهدوا الشيعيين، ووقفوا من دعاة الإسماعيلية الذين استفحل خطرهم فى بلاد الدولة العباسية موقفا ينطوى على الحزم والشدة. وكان لهذه السياسة أثرها فى وقف تيار الدعوة الفاطمية.

ولم تكن الظروف فى مصر مهيأة للإبقاء على هذه الدعوة؛ ففضلا عن انقسام الإسماعيلية إلى فرق وأحزاب فى أواخر القرن الخامس الهجرى، شغلت الحكومة الفاطمية بالقضاء على القلاقل التى أثارها أتباع النزارية بإيعاز من رؤساء دعوتهم فى فارس، كما انصرف فريق من وزراء العصر الفاطمى الأخير عن تأييد المذهب الإسماعيلى، بل هيأ بعضهم السبيل لرجوع المذهب السنى إلى مصر؛ فكان ذلك مما مهد الطريق لسقوط الفاطميين، واحتفظت الخلافة العباسية رغم ما أصابها من وهن وضعف بسيادتها على البلاد الإسلامية.

وكانت علاقات الفاطميين مع الأندلس يسودها التوتر منذ بداية العصر الفاطمى، فواجهت الخلافة الفاطمية فى إفريقية عداء عبد الرحمن الناصر بالأندلس. واتخذ هذا العداء مظهرا قويا فى عهد المعز وخلفائه.

أما عن موقف أمـراء بنى زيرى بالمغرب من الفاطميين بعد أن اتـخذوا مصر مقرا لخلافـتهم، فإنهم ظلوا موالين لهم؛ واستمر النفـوذ الفاطمى سائدا فى تلك البلاد حتى منتـصف القرن الخامس الهجرى، حيث أعلن المعـز بن باديس خروجه على طاعة الخليفـة المستنصر بالله، وأقام الدعوة للقائم بأمـر الله العباسى. وأصبح من المتعذر على الخـلافة الفاطمية الاحـتفاظ بنفوذها فى المغرب بسـبب الصعوبات التى واجهتها سواء فى مصر أو الشرق الإسلامى.

وكان الفـاطميون منذ أقامـوا دولتهم فى إفريقيـة يحرصون على الاحـتفاظ بسيادتهم عـلى جزيرة صقلية لاتخاذهـا قاعدة لأسطولهم فى البحـر المتوسط لصد الحملات التى قد يوجهها الروم على سواحل دولتهم؛ فاستمروا فى إرسال ولاتهم إليـها. لكن هؤلاء الولاة لـم تتح لهم الفرصـة للبـقاء طويلا فـى ولايتهم بسـبب المنازعات بين أهلها من المسلمين، فضلا عن خـروجهم على طاعتهم. كما أن هذه الجزيرة من ناحية أخرى لم تنعم بالاستقرار مـن جراء تهديد البيزنطيين لها. وأخذ النفوذ الفاطمى فى صقلية فى الضعف بعد أن انتقل المعز إلى مصر. وغدت علاقة الفاطميين بهذه الجـزيرة مقصورة على إرسال الولاة إليها لإدارة شئـونها. كما ساد الاضطراب الجزيرة منذ منتصف القرن الخامس الهجرى من جراء النزاع بين أمرائها المسلمين والحروب الداخلية مما مهد السبيل أمام النرمانديين للاستيلاء عليها.

كذلك كان للفاطميين علاقات مع الدولة البـيزنطية، اتسمت بالتوتر فى كثير من الأحيان. ويرجع السبب فى ذلك إلى تهديد البيزنطيين الحدود الشمالية للشام، واستـيلائهم على بعض المدن الشامـية. وظل النزاع قائمـا بين الدولتين الفاطمـية والبيزنطية حتى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله حيث عقدت معاهدة صداقة بين هاتين الدولتين، غير أن المعـاهدة لم تؤد إلى استمرار الوئام بين الفاطميـين والبيزنطيين، وصارت العلاقات بين الدولة الفاطمية فى عهد المستنصر، وبين الدولة البيزنطية لا تستقر على حـال، بل إن العداء بين الدولتين عاد سيرتـه الأولى فى أواخر العصر الفاطمى.

وكانت المدن الإيطالية تحرص على إنشاء علاقـات مع مصر والشام، فعملت مدينة بيـزا على توثيق صلة المودة مع الخلفاء الفاطمـيين، كما نمت العـلاقات بين

مـدينة جنوة وبين مصـر فى النصف الأخـير من القـرن الحادى عـشر الميـلادى. وكذلك الحـال بالنسبة للبندقيـة التى اهتمت بإقامـة علاقات ودية مع الفاطمـيين، وصارت سفنها تنقل من موانى مصر منتجات آسيا إلى أوربا.

* * *

وقد بَدأتُ القسم بدراسة الوسائل التى اتبعـها الفاطميون لنشر سلطانهم فى البلاد المقـدسة بالحـجاز، وبينت كيف ناهـضوا نفوذ العـباسيـين فى كل من مكة والمدينة، وأقاموا لهم الدعـوة فى مساجدها. ثم تحدثت عن عـوامل ضعف النفوذ الفاطمى بالحجاز.

كذلك تناولت بـالبحث قيـام دولة القرامطة ببـلاد البحرين، وولاء أمـرائها للفاطميين واتحادهم فى سياستهم العـدائية إزاء العباسيين، ثم تحدثت عن العوامل التى بدلت صلة المودة بين الفاطميين والقـرامطة فى أواخر القرن الرابع الهجرى، وما تبع ذلك من ضعف السيادة الفاطمية ببلاد البحرين.

ولما كانت بلاد اليمن من أهم مراكز الدعـوة الفاطمية بجزيرة العرب، لذلك وجهت عنايتى إلـى توضيح السيـاسة التى اتبعـها الخلفاء الفـاطميـون للإبقاء على نفوذهم بهـذه البلاد، كمـا بينت ما كان لتـوثيق عرى الصداقـة بين هؤلاء الخلفاء وبعض أمراء الـصليحيـين باليمن من أثر فـى احتفـاظ الفاطمـيين بمركـز ممتاز فى بلادهم.

وعُنيت أيضا ببحث سـياسة الفاطميـين فى بسط سلطانهم على بلاد الشام، وشرحت الصعـوبات التى واجهتهم فى مسـتهل عهدهم بتلك البلاد، كـما تحدثت عن النزاع بين السلاجقة والفاطمـيين على نشر نفوذهم فى الشام، وبينت أثره فى عـدم استـقرار الأمـور فى هذه البلاد، وضـعف الجبـهة الإسـلاميـة أمام الغـزو الصليبى.

كذلك تنـاولت بالبحث سيـاسة الفـاطميـين فى نشر دعوتهـم بمدن العراق؛ فكشفت النقاب عن العـوامل التى حملت الفاطميـين على إرسال دعاتهم إلى بلاد الشرق الإسـلامى والوسائل التى اتبعهـا هؤلاء الدعاة لجذب المسلمـين إلى الدعوة الفاطمية.

ولما كانت حركة البساسيرى فى العراق تُعد من ثمار الدعوة الفاطمية فى هذه البلاد، فضلا عن أنها من مظاهر نجاح سياسة الفاطميين الخارجية، لذلك اهتممت

بتوضيح الظروف التى هيأت السبيل لظهور البساسيرى والقيام بحركته، وبينت موقف الخلافة الفاطمية منه.

وكان زوال النفوذ الفاطمى ببلاد العراق من المسائل التى عنيت ببحثها، فوضحت الجهود التى بذلها السلاجقة للقضاء على حركة البساسيرى وإعادة الخطبة للخليفة العباسى، كما شرحت العوامل التى ساعدت على انحلال الدعوة الفاطمية فى أواخر القرن الخامس الهجرى.

ومن موضوعات السياسة الخارجية التى أوليتها اهتمامى : علاقات الفاطميين بالأندلس والمغرب؛ فبينت كيف واجهت الدولة الفاطمية عداء الخلافة الأموية بالأندلس، كما تحدثت عن موقف الزيريين فى بلاد المغرب من الفاطميين، وعوامل ضعف النفوذ الفاطمى فى تلك البلاد، وتتبعت إلى جانب ذلك علاقة الفاطميين بجزيرة صقلية منذ أن انتقلت إليهم السيادة على هذه الجزيرة فى أواخر القرن الثالث الهجرى إلى أن استولى عليها النرمانديون فى أواخر القرن الخامس الهجرى.

وكان للعلاقات بين الدولة الفاطمية، والدولة البيزنطية، والمدن الإيطالية نصيب وافر من عنايتى، فوضحت المظاهر السياسية للعلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين، كما وضحت مدى حرص المدن الإيطالية على توثيق علاقاتها مع مصر والشام فى العصر الفاطمى.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى لمتابعة البحث فى تاريخ الدول الإسلامية.

الباب الأول

الدعوة الفاطمية في بلاد الحجاز

تمهيد : بلاد الحجاز قبل أن يمتد إليها نفوذ الفاطميين

١ ـ السيادة الفاطمية فى البلاد المقدسة بالحجاز.

٢ ـ ضعف النفوذ الفاطمى بالحجاز.

تمهيد : بلاد الحجاز قبل أن يمتد إليها نفوذ الفاطميين :

كان العلويون فى بلاد الحجاز كثيرا ما يثيرون الاضطرابات ضد العباسيين، فلما قضى خلفاء العصر العباسى الأول على حركاتهم ضعف أمرهم واستكانوا، وظل ولاة بنى العباس يتولون الحكم فى بلاد الحجاز حتى شغل الخلفاء العباسيون بالفتن والثورات التى أثارها الأتراك فى أواخر القرن الثالث الهجرى، فاستغل هذه الفرصة بعض العلويين الطامحين إلى النفوذ والسلطان من بنى سليمان بن داود ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وعملوا على الاستقلال بإمارة مكة[١]. وسرعان ما تغلبوا عليها وأسسوا بها دولة السليمانيين وخلع أميرهم طاعة العباسيين وخطب لنفسة بالإمامة سنة ٣٠١ هـ فى خلافة المقتدر[٢]، وقال فى خطبة له بموسم الحج : «الحمد لله الذى أعاد الحق إلى نظامه، وأبرز زهر الإيمان من أكمامه، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه لابنى أعمامه صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وكف عنا ببركته أسباب المعتدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه إلى يوم الدين[٣]».

على أن دولة بنى سليمان بمكة لم تكن من القوة بحيث تستطيع حماية الحجاج وصد المغيرين عليها، فقد هددها القرامطة فى بلاد البحرين واستولوا عليها سنة ٣١٧ هـ، وأقاموا الخطبة لعبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى ببلاد المغرب،

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ ٤، ص ١١.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، جـ ٤، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(٣) ابن خلدون : جـ ٤، ص ٩٩.

وعلى الرغم من ذلك كله فلم ينقض على سيادة العباسيين على مكة إلا فترة قصيرة من الزمن، فقد شغل القرامطة عنها بالعمل على تحقيق أطماعهم فى بلاد الشرق مما ساعد على عودة نفوذ العباسيين إلى مكة. فأقيمت الخطبة فيها للراضى ابن المقتدر سنة ٣٢٧ هـ(١)، بل إن هذا الخليفة أسند ولاية مكة والمدينة إلى محمد ابن طغج الإخشيدى والى مصر من قبله، وأيّد ذلك أخوه المتقى من بعده، فضم الحجاز إلى محمد الإخشيد(٢)، وصارت تقام له الخطبة مع الخليفة العباسى على منابر مكة والمدينة.

وقد نوّه محمد الإخشيد بتقليده مكة والمدينة فى الكتاب الذى أرسله إلى رومانوس إمبراطور الروم. وكان هذا الإمبراطور قد بعث إليه كتابا قال فيه: أنه لم تكن عادته أن يكاتب إلا الخليفة والتمس تبادل الأسرى. فكتب إليه محمد الإخشيد كتابا أشار فيه إلى المكانة السامية التى يتمتع بها مدللا على ذلك بالبلاد التى فى حوزته، وبعد أن ذكر أن منها مصر وبلاد الشام، قال: «هذا ما نتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة والدلالات الظاهرة، فإنا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها وعظيم قدرها وما حدث من الفضل تُوفى على كل مملكة لأنها محج آدم ومحج إبراهيم وإرثه ومهاجره ومحج سائر الأنبياء وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام. ومنها مدينة رسول الله ﷺ المقدسة بتربته وأنها مهبط الوحى، وبيضة هذا الدين المستقيم الذى امتد ظله على البر والبحر والسهل والوَعر والشرق والغرب وصحارى العرب على بعد أطرافها وتنازح أقطارها وكثرة سكانها فى حاضرتها وباديتها، وعظمتها فى وفودها، وشدتها وصدق بأسها ونجدتها، وكبر أحلامها وبعد مراميها، وانعقاد النصر من عند الله براياتها، وإن الله تعالى أباد خضراء كسرى وشرد قيصر عن داره ومحل عزته ومجده بطائفة منها(٣)».

ظلت سيادة العباسيين قائمة بمكة بعد أن تقلد ولايتها الإخشيديون فى مصر، فلما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ شاركوهم هذه السيادة،

(١) ابن خلدون: جـ ٤، ص ١٠٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٥٣ - ٥٤، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جـ ٣، ص ٢٣.

(٣) القلقشندى: جـ ٧، ص ١٠ : ١٤.

فأقيمت الخطبة بمكة للمطيع العباسى مع معز الدولة بن بويه، ثم عمل البويهيون على ألا يكون للإخشيديين نفوذ فى الأراضى المقدسة ببلاد الحجاز، وقام الخلاف سنة ٣٤٢ هـ بين أمير الحج المصرى وأمير الحج العراقى على الخطبة لابن بويه أو ابن الإخشيد، وتطور النزاع إلى نشوب الحرب بين أنصار كل منهما، فلما انهزم المصريون أقيمت الخطبة لمعز الدولة بن بويه(١). على أن ذلك لم يقض نهائيا على نفوذ الإخشيديين بمكة، فقد ولى الخليفة المطيع كافور الإخشيدى بلاد الحجاز بالإضافة إلى مصر والشام، وصار يدعى له بمقتضى هذه التولية على منابر هذه البلاد مع الخليفة العباسى(٢). ثم دعى بعد وفاته للحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد(٣).

لم يكن اهتمام العباسيين ببسط سلطانهم على المدينة المنورة أقل من حرصهم على الاحتفاظ بسيادتهم على مكة. وكان العلويون قد اتخذوا المدينة مركزا لإثارة الفتن فى وجه الخلافة العباسية مما حمل بعض الخلفاء على إسناد ولايتها إلى وال مستقل عن والى الحجاز حتى يتفرغ للعمل على استقلال الأمور فيها والقضاء على ثورات العلويين، ولما تقلد الإخشيديون بلاد الحجاز دخلت المدينة فى حوزتهم، فأبقوا للعباسيين سيادتهم عليها.

كان يقيم بالمدينة بعض أفراد من بنى الحسين بن على بن أبى طالب، أخذوا يتحينون الفرص للاستقلال بولايتها كما فعل بنو سليمان بمكة، لكنهم لم تكن لديهم القوة التى تساعدهم على تحقيق أغراضهم، فلما قدم عليهم من مصر طاهر ابن مسلم(٤) من أحفاد الحسين ولوه أميرا عليهم، وما لبث طاهر أن استقل بإمارة المدينة سنة ٢٦٠ هـ(٥). ولم تقم الخلافة العباسية بأى محاولة للوقوف فى وجهه بسبب ما أصابها من ضعف.

---

(١) ابن خلدون : جـ ٤، ص ١٠٠، المقريزى : خطط جـ ١، ص ٢٣٠.
(٢) أبو الفداء : جـ ٣، ص ١٠٧.
(٣) أبو المحاسن : جـ ٤، ص ٩ ـ ١٠.
(٤) كان ابن مسلم يدبر أمر مصر أيام كافور واسمه محمد بن عبد الله بن طاهر بن يحيى المحدث بن مسلم بن جعفر بن عبيد الله بن على بن الحسين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب (ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص ٤٩).
(٥) ابن خلدون : جـ ٤، ص ١٢.

أ ـ السيادة الفاطمية فى البلاد المقدسة بالحجاز :

ظل العباسيون يتمتعون بالسيادة على كل من مكة والمدينة لا ينازعهم فيها منازع حتى أقام الفاطميون خلافتهم فى إفريقية وأخذوا يعملون على توسيع رقعة دولتهم وذلك باستيلائهم على مصر واالشام، فلما تم لهم فتح هذه البلاد وأصبحت القاهرة مقر خلافتهم تطلعوا إلى بسط نفوذهم على الأراضى المقدسة بالحجاز ليكسبوا خلافتهم قوة أمام العالم الإسلامى ويضعفوا من شأن الخلافة العباسية. ولم يدر بخاطر العباسيين بعد أن تقلدوا زمام الحكم أن الاحتفاظ بالسيادة على مكة والمدينة سيكون له أثر فى وثوق رعاياهم من المسلمين بأحقيتهم فى الخلافة، فلما طمع الفاطميون فى السيطرة على هاتين المدينتين، ظهرت من ثنايا النزاع بينهم وبين العباسيين على امتلاك الأراضى المقدسة بالحجاز نظرية جديدة تتضمن أن أمير المؤمنين الحقيقى هو من استطاع بسط نفوذه على الحرمين المكى والمدنى.

وكان العلويون فى هذا النزاع على الأراضى المقدسة هم الخصم الثالث الذى يأتى أخيرا فيفوز بالغنيمة، فاستقل أمراء الأشراف من بنى الحسن بمكة، كما كما استقل بالمدينة أمراء الأشراف من بنى الحسين وأصبح هؤلاء الأمراء سادة الحرمين(١).

بدأ اهتمام الفاطميين ببلاد الحجاز منذ خلافة المعز لدين الله الفاطمى. فقد رأى هذا الخليفة على أثر ما بلغه من وقوع نزاع بين بنى الحسن وبنى جعفر بن أبى طالب أن يعمل على حسم الخلاف بينهم، فأنفذ إليهم سرا مالا ورجالا سعوا بين هذين الفريقين حتى عقدوا بينهم صلحا فى المسجد الحرام، وقام رسل الخليفة الفاطمى بأداء دية قتلى بنى الحسن سنة ٣٤٨هـ مما كان له أحسن الأثر فى نفوسهم. ولما تم لجوهر الصقلى فتح مصر سنة ٣٥٨هـ، بادر حسن بن جعفر الحسنى فاستولى على مكة ودعا للمعز على منابرها، فبعث إليه المعز من المغرب بتقليده الحرم وأعماله(٢).

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، جـ ٢، ص ٥ ـ ٦.
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

كذلك أقيمت الخطبة للمعز بالمدينة المنورة وحذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة فى كل من مكة والمدينة(١)، وعمل المعز على تثبيت سلطته على هاتين المدينتين بالأموال التى صار يرسلها إليهما، فقد أنفذ سنة ٣٥٩ - كما قال المقريزى(٢) - « عسكرا وأحمال مال عدتها عشرون حملا للحرمين وعدة أحمال متاع» وبذلك تيسر له نشر نفوذ الفاطميين فى بلاد الحجاز.

ظلت الخطبة تقام للمعز فى كل من مكة والمدينة حتى توفى سنة ٣٦٥هـ وخلفه ابنه العزيز، فانقطعت الخطبة له فى بلاد الحجاز، فبعث إليها سنة ٣٦٧هـ بإدريس بن زيرى الصنهاجى أميرا على الحج، فاستولى على الحرمين وأقام له الخطبة(٣). على أن نفوذ الفاطميين رغم ذلك لم يكن مستقرا فى مكة والمدينة طوال عهد عبد العزيز، فقد دعا أمير حج العراق لعضد الدولة بن بويه، واضطر العزيز سنة ٣٨٠هـ إلى إرسال حملة إلى بلاد الحجاز ضيقت الحصار على أهلها، وانتهى الأمر بإعادة الخطبة للعزيز على منابر مكة والمدينة، وانقطعت الدعوة للعباسيين بهاتين المدينتين(٤).

ظل طاهر بن مسلم ـ الذى يعد أول أمير من بنى الحسين استقل بالمدينة ـ مواليا للفاطميين حتى توفى سنة ٣٨١ هـ، فخلفه فى إمارتها ابنه الحسن بن طاهر ويلقب مهنى(٥)، فسار على نهج أبيه فى اعترافه بسيادة الفاطميين على المدينة. أما إمارة مكة فكان يليها فى ذلك الوقت عيسى بن جعفر من بنى الحسن، ولما توفى سنة ٣٨٤ هـ خلفه أخوه أبو الفتح الحسن بن جعفر. وقد أقام كل منهما الخطبة للفاطميين اعترافا بما لهم من نفوذ على مكة.

وكان الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر فى بداية عهده مخلصا فى ولائه للفاطميين، فقد طلب منه الخليفة القادر بالله العباسى الدخول فى طاعته وأغراه بالمال والخلع التى بعثها إليه، كما وعده بالعمل على إبقاء الحكم فى مكة وراثيا

---

(١) عبد القادر الأنصارى : درر الفرائد المنظمة، ص ١٠١.
(٢) اتعاظ الحنفا : ص ١٧٢.
(٣) ابن خلدون : جـ ٤، ص ٢٠٣.
(٤) ابن خلدون : جـ ٤، ص ١٠١، عبد القادر الأنصارى : درر الفرائد المنظمة، ص ٢٠٣.
(٥) ابن خلدون : جـ ٤، ص ١٠٩.

لبنيه من بعده، لكنه رغم ذلك أبى تحقيق رغبة الخليفة العباسي وبعث إليه بأن الخطبة فى مكة تقام للخليفة الحاكم بأمر الله دون سواه[١]، كما أبقى للفاطميين سيادتهم على المدينة بأن سار إليها سنة ٣٩٠هـ وأزال عنها إمرة بنى مهنى حين بلغه طعنهم فى نسب الفاطميين، لكنه لم يحتفظ طويلا بإمارة المدينة، فقد استعادها بنو مهنى بعد عودته إلى مكة ودخلوا منذ ذلك الوقت فى طاعة الفاطميين.

على أن أبا الفتح أمير مكة لم يستمر على ولائه للخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى، فقد خرج عليه سنة ٤٠٠هـ، بعد أن أغراه الوزير أبو القاسم حسين بن على بن المغربى بانتحال لقب الخلافة ـ وكان هذا الوزير ناقما على الحاكم بأمر الله لغدره بأبيه وأعمامه ـ لذلك عوّل على إضعاف شأنه، ففر من مصر إلى حسان بن مفرج بن الجراح أمير طيئ بالرملة وحسّن له خلع طاعة الحاكم، فاستجاب له وعهد إليه بالتوجه إلى أبى الفتوح أمير مكة ليفسده على الحاكم ويدعوه إلى الخلافة[٢]، فلما قدم الوزير أبو القاسم بن المغربى مكة أطمع أبا الفتوح فى الرياسة وحرضه على طلب الخلافة كما حثه على الخروج إلى الرملة إجابة لرجاء حسان بن مفرج بن الجراح الذى سيكون خير عون له على تثبيت سلطته؛ فرحب أبو الفتوح بهذه الدعوة وأقام الخطبة لنفسه وتلقب بالراشد بالله، وأخذ ابن المغربى يدعو القبائل العربية من سليم وهلال وعوف بن عامر لمعاونة أبى الفتوح، ثم سار من مكة قاصدا الرملة وبصحبته أبو الفتوح والعرب الذين أجابوا دعوته. فلما اقترب أبو الفتوح من الرملة تلقاه حسان بن مفرج بن الجراح وأولاده وسائر وجوه العرب بالترحاب وترجلوا له وبايعوه بالخلافة ثم ساروا فى ركابه، ونزل أبو الفتوح فى دار حسان ونادى فى الناس بالأمان وأقيمت له الخطبة فى كثير من بلاد الشام[٣].

ولما وصل إلى الحاكم بأمر الله الفاطمى نبأ خروج أبى الفتوح عليه وانتحاله لقب الخلافة وانحياز حسان بن مفرج بن الجراح والوزير أبى القاسم بن المغربى

---

(١) عبد القادر الأنصارى : درر الفرائد المنظمة، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) المقريزى : خطط، جـ ٢، ص ١٥٧.

(٣) عبد القادر الأنصارى : درر الفرائد المنظمة، جـ ١، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

إليه استاء من ذلك وعول على إعادة نفوذه في بلاد الحجاز وإضعاف شأن أبى الفتوح، فكتب إلى أبى الطيب ابن عم أبى الفتوح بتوليته الحرمين وأنفذ له ولشيوخ بنى الحسن مالا لخذلان أبى الفتوح، كما تعهد بأن يدفع له خمسين ألف دينار عينا ولكل فرد من إخوته سوى الهدايا والثياب التى بعثها إليهم، فانصرفوا عن أبى الفتوح ودخلوا فى طاعة الحاكم.

كذلك عمل الخليفة الفاطمى على استمالة حسان وأبيه مفرج بن الجراح وغيرهما بالأموال التى بذلها لهم، فانحرفوا عن أبى الفتوح، ولما أحس أبو الفتوح بخذلان بنى الجراح إياه وعدولهم عن رأيهم فى العمل على تقوية نفوذه، ركب إلى الوزير أبى القاسم بن المغربى وقال له : «أنت أوقعتنى وأخرجتنى من بلدى وجعلتنى فى أيدى هؤلاء ينفقون سوقهم بى عند الحاكم ويبيعوننى بيعا بالدراهم، فيجب عليك أن تخلصنى كما أوقعتنى، وتسهل طرقى بالعودة إلى الحجاز، فإنى راض من الغنيمة بالإياب». ثم ذهب إلى مفرج بن الجراح وأخبره بخبر أولاده وموقفهم إزاءه وقال له : «أريد أن تبعث معى من يوصلنى إلى مكة ولا تحرجنى»، فبعث معه جماعة من طيئ ولم يزالوا معه حتى بلغ مكة سنة ٤٠٣، فتلقاه أتباعه، وكاتب الحاكم واعتذر إليه، فقبل عذره وعفا عنه وأعاده إلى إمارته بمكة[١]. وعمل أبو الفتوح منذ عودته إلى مكة على إقامة الدعوة للحاكم، كما نقش اسمه على السكة[٢].

لم يحاول الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر بعد عودته إلى إمارة مكة الخروج على طاعة الفاطميين بل احتفظ بسيادتهم فى هذا البلد المقدس، وصار يقيم الخطبة للحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى، فلما توفى هذا الخليفة خطب لابنه الظاهر، كما خطب من بعده للمستنصر سنة ٤٢٧هـ. وظل أبو الفتوح مواليا للفاطميين حتى توفى سنة ٤٣٠هـ، وخلفه ابنه شكر الذى تمكن من بسط نفوذه علىَ المدينة وأقام الدعوة للمستنصر فى الحرمين واستمر الحال على ذلك حتى توفى سنة ٤٥٣هـ[٣].

---

(١) ابن خلدون : جـ ٤، ص ٤٧٣. عبد القادر الأنصارى : درر الفوائد المنظمة، ص ٣٠٨.
(٢) المقريزى : خطط، جـ ٢، ص ٢٨٨.
(٣) دحلان : خلاصة الكلام فى أمراء البيت الحرام، ص ١٨. ابن خلدون : جـ ٤، ص ١٠٢.

لم ينجب شكر بن أبي الفتوح الحسني أولادا يتولون إمارة مكة من بعده، فزال بوفاته نفوذ بني سليمان بمكة وتقلد الحكم فيها رئيس الهواشم إذ ذاك محمد ابن جعفر بن أبي هاشم محمد الذي عظم ذكره بين بني قومه، فحارب بني سليمان بمكة سنة ٤٥٤هـ وأوقع بهم الهزيمة، وأخرجهم من الحجاز، فساروا إلى اليمن واستقل بإمارة مكة وأقام الخطبة للمستنصر بالله الفاطمي(١).

لم يعمل الأمير محمد بن جعفر على الاحتفاظ بسيادة الفاطميين على مكة، فبدأ عهده بإقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي، ثم ما لبث أن انحرف عنه وأمر بذكر اسم الخليفة القائم بأمر الله العباسي(٢). فلما علم بذلك المستنصر عهد إلى علي بن محمد الصليحي داعيه باليمن سنة ٤٥٥هـ بإرسال حملة إلى مكة لاستعادة نفوذه عليها وللقضاء على الدعوة العباسية فيها(٣). فسار الصليحي إلى مكة وعمل على استمالة أهلها إلى جانبه بما كان معه من الأموال(٤)، وتعاون مع أمير مكة في نشر الأمن والطمأنينة في هذا البلد المقدس؛ فطابت قلوب الناس ورخصت الأسعار، وكسا الصليحي البيت الحرام بثياب بيض(٥).

---

(١) ابن خلدون : جـ ٤، ص ١٢٢.
(٢) القلقشندي : صبح الأعشى، جـ ٤ ص ٢٧٠.
(٣) ابن خلدون : جـ ٤، ص ٢١٥.
(٤) Bulletin School of Oriental Studies (Letters of Al-Mustansir Billah, Part VII. 1934 p. 324)
(٥) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، أبو المحاسن : جـ ٥، ص ٧٢.

٢ ـ ضعف النفوذ الفاطمى بالحجاز

تأثرت السيادة الفاطمية على مكة بالأحداث الداخلية التى أصابت مصر فى عهد المستنصر بالله الفاطمى، ذلك أنه لما انقطع ما كان يرد إلى محمد بن جعفر من مصر من الأموال بسبب الشدة العظمى التى حلت بالبلاد المصرية وأصبح فى حاجة إلى المال، أخذ قناديل الكعبة وستورها وصفائح بابها والميزاب وصادر أموال أهل مكة وأمر بحذف اسم المستنصر من الخطبة، وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسى[١]، وبعث إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقى حاكم بغداد رسولا سنة ٤٦٢ هـ يخبره بإقامة الخطبة للخليفة العباسى وللسلطان بمكة وإسقاط اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة وتركه الأذان بحى على خير العمل. فبعث إليه السلطان ثلاثين ألف دينار وخُلَعا نفيسة وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار. وقال : «إذا فعل أمير المدينة مهنى كذلك أعطيته عشرين ألف دينار وكل سنة خمسة آلاف دينار[٢]».

على أنه يظهر لنا مما ذكره أبو المحاسن[٣] أن أمير مكة رغم قيامه بالدعوة للخليفة العباسى أبقى الأذان بحى على خير العمل وهو يعد من مظاهر المذهب الشيعى التى كانت سائدة إذ ذاك فى الأراضى الخاضعة لنفوذ الفاطميين. فقد أرسل إليه الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٦٤ هـ الشريف أبا طالب الحسن بمال وخُلع وطلب منه هذا الرسول أن يلغى الأذان الشيعى فى مكة، فناظره الأمير مناظرة طويلة وقال له : « هذا أذان أمير المؤمنين على بن أبى طالب، فقال له أخو الشريف أبو طالب : ما صح عنه، وإنما عبد الله بن عمر بن الخطاب روى أنه أذن به فى بعض أسفاره وما أنت وابن عمر، فأسقطه من الأذان».

كان الأمير محمد بن جعفر يتطلع إلى ضم المدينة المنورة إلى حوزته ليكون صاحب السيادة على الأراضى المقدسة ببلاد الحجاز، فلما أمن جانب الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى بعد أن أقام لهما الخطبة فى مكة، وشغل عنه الخليفة الفاطمى بالعمل على استقرار الأمور فى مصر، أعد جيشا

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان. القسم الثانى المجلد الأول ورقة ١٢١ ب.
(٢) ابن الأثير : جـ ١٠، ص ٢١، أبو المحاسن : جـ ٥ ص ٨٤.
(٣) النجوم الزاهرة : جـ ٥ ص ٨٩.

من الأتراك وزحف به إلى المدينة، فتغلب على بنى مهنى من بنى الحسين الذين كانت إليهم الرياسة بها وأخرجهم منها وأزال بذلك إمارتهم بالمدينة وجمع بين الحرمين[١].

ومما لا شك فيه أن الأمير محمد بن جعفر كان يرمى من وراء انحيازه إلى الخليفة العباسى أو الخليفة الفاطمى العمل على توطيد سلطانه فى بلاد الحجاز، فيقيم الدعوة للخليفة الذى يمده بالأموال، لذلك نراه بعد أن انقطع ما كان يصل إليه من المال على أثر وفاة الخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٦٧ هـ يبطل الخطبة للعباسيين ويقيمها للخليفة المستنصر بالله الفاطمى[٢]. فلما أرسل إليه المقتدى بأمر الله العباسى الأموال أحل اسمه فى الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمى. وظلت الخطبة تقام للعباسيين فى مكة والمدينة إلى أن توفى الخليفة المقتدى سنة ٤٨٧هـ[٣].

لم يعمل محمد بن جعفر أمير مكة طيلة عهد إمارته على تنظيم الأمور فى الأراضى المقدسة وإقرار الأمن بها على الرغم من المساعدات المالية التى كانت ترد إليه من الخليفة العباسى أحيانا ومن الخليفة الفاطمى أحيانا أخرى، بل أساء السيرة فيها وأصبح الحجاج فى أواخر أيامه غير آمنين على أنفسهم[٤].

كذلك لم يبد من هذا الأمير ما يشعر برغبته فى الاستقلال عن الخلافة العباسية أو الفاطمية، بل دان لكل منها بالطاعة فى فترات متقاربة حتى وصفه أبو المحاسن[٥] بأنه كان «متلونا تارة مع الخلفاء العباسيين وتارة مع المصريين (الفاطميين)».

ظفر العباسيون بحظ وافر من السيادة على مكة فى عهد إمارة محمد بن جعفر بخلاف الفاطميين الذين شغلوا إذ ذاك بالعمل على توطيد سلطتهم فى مصر عن الاحتفاظ بسيادتهم فى الأراضى المقدسة ببلاد الحجاز، وبذلك ظلت الدعوة العباسية قائمة فى مكة حتى توفى الأمير محمد بن جعفر سنة ٤٨٧ هـ، وخلفه

(١) االقلقشندى : صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٧٠.
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ٩٧.
(٣) ابن خلدون : جـ ٤، ص ١٠٣، القلقشندى : صبح الأعشى، جـ ٤، ص ٢٧.
(٤) ابن الأثير : جـ ١ ص ٨٣.
(٥) النجوم الزاهرة : جـ ٥ ص ١٤٠.

ابنه الأمير قاسم الذى حذا حذو أبيه فى إقامة الخطبة للعباسيين، وأرسل إليه الخليفة المستظهر وابنه المسترشد العباسى الخلع والأموال(١).

لم تنعم مكة فى عهد الأمير قاسم بالهدوء والاستقرار، بل كانت الأحوال فيها مضطربة طوال المدة التى قضاها أميرا عليها وتبلغ ثلاثين سنة(٢)، مما يثبت لنا عجز هذا الأمير عن إقرار الأمن والعمل على إصلاح شئون إمارته.

لما توفى الأمير قاسم بن محمد بن جعفر الحسنى سنة ٥١٨ هـ، وخلفه ابنه فليته، افتتح عهده بإقامة الخطبة للخليفة العباسى المسترشد، وعمل على نشر العدل بين أهالى إمارته مما كان له أحسن الأثر فى نفوسهم؛ فأثنوا عليه وتمتعوا فى عهده بالرخاء والطمأنينة، كما حرص هذا الأمير على إظهار ولائه للخليفة العباسى المسترشد حتى توفى سنة ٥٢٧ هـ، وولى إمارة مكة من بعده ابنه هاشم(٣)، فلم يعمل على استمرار ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة، بل أقام الخطبة للخليفة الحافظ الفاطمى، مما أثار السيدة الحرة الصليحية صاحبة اليمن - وكانت إذ ذاك تقيم الدعوة للإمام الطيب بن الخليفة الآمر الفاطمى - ولم تعترف بخلافة الحافظ الذى لم يكن يتمتع بصفة الإمامة التى يجب توافرها فى الخلفاء الفاطميين(٤)، فأرسلت إلى هاشم أمير مكة تتوعده إن لم يعمل على قطع الخطبة للحافظ، لكنها ما لبثت أن توفيت سنة ٥٣٢ هـ فكفاه الله شرها(٥).

على أن الدعوة لبنى العباس لم تقطع نهائيا فى عهد الأمير هاشم، بل أقيمت فى أيامه الخطبة للخليفة المقتفى. كما أن ابنه قاسم الذى آلت إليه إمارة

(١) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٢٠٥.

(٢) ابن خلدون : جـ ٤ ص ١٤٠.

(٣) راجع ما ورد عن ولاة مكة من الهواشم العلويين فى :
(Zambaur, Manuel de Généalogie et de Ghronologie pour L'Histoire de L'Islam p. 21.

(٤) كان الخليفة الآمر الفاطمى قد أنجب ولدا سماه أبا القاسم الطيب وجعله ولى عهده، فلما قتل الخليفة بعد ذلك ببضعة أشهر سنة ٥٢٤ هـ أخفى الأمير عبد المجيد بن محمد بن المستنصر الذى لقب بالحافظ لدين الله أمر الإمام الطيب، وبايعه الناس بولاية العهد على أن يكون كفيلا لطفل مرتقب؛ غير أن الوزير أبا على أحمد بن الأفضل ما لبث أن اعتقله، فظل فى سجنه إلى أن تآمر الإسماعيلية على اغتيال هذا الوزير فى المحرم سنة ٥٢٦ هـ، وأخرجوا الحافظ من سجنه.

(٥) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧١، ٧٤، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣٩، مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٨٨ - ٨٩.

مكة سنة ٥٤٩ هـ حرص على ذكر اسم الخليفة المستنجد بالله العباسى فى الخطبة وحاول فى نفس الوقت التقرب إلى الخلافة فى مصر، فأوفد الشاعر عمارة اليمنى برسالة إلى القاهرة سنة ٥٥٠ هـ ـ وكان الخليفة الفاطمى إذ ذاك الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزيك ـ فأدى عمارة الرسالة ونظم قصيدة فى مدح الخليفة والوزير، نوه فيها بقدومه سفيرا من مكة المكرمة إلى القاهرة. ومن هذه القصيدة نتقل الأبيات الآتية[١] :

الحمد للعيش بعد العزم والهمم حمدا يقوم بما أولت من النعم
قربن بُعد مزار العز من نظرى حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم وفدا إلى كعبة المعروف والكرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها بين النقيضين من عفو ومن نقم

لم يمكث عمارة اليمنى طويلا فى مصر بعد أن تلقاه كل من الخليفة والوزير الفاطمى بالعطف والقبول، فسرعان ما عاد إلى مكة ومنها توجه إلى زبيد[٢] فى صفر سنة ٥٥١ هـ، ثم رحل منها إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج وأوفده أمير الحرمين برسالة أخرى إلى الملك الصالح طلائع بن رزيك يعتذر فيها عن الأحداث التى ارتكبها جنده مع حجاج مصر والشام مع تعديهم عليهم وأخذهم أموالا منهم، فقدم عمارة للمرة الثانية إلى القاهرة حاملا رسالة أمير الحرمين واتخذ مصر موطنا له[٣]، وصار من مشاهير شعراء البلاط الفاطمى فى عهد الخليفتين الفائز والعاضد[٤].

على أن هاتين السفارتين اللتين أرسلهما أمير مكة إلى الخليفة الفاطمى الفائز ووزيره طلائع بن رزيك وإن دلت على حرص هذا الأمير على اكتساب رضاء الخلافة الفاطمية، فإنهما لم تؤديا إلى إحلال النفوذ الفاطمى محل النفوذ العباسى حتى توفى الأمير قاسم بن هاشم سنة ٥٥٦ هـ وولى بعده الأمير عيسى بن فليته

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٧٥ ـ ٤٧٦.
(٢) زبيد : مدينة من تهائم اليمن. القلقشندى. : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٩.
(٣) عمارة اليمنى : النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ص ٣١، ٤١ ـ ٤٢.
(٤) حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر (حاشية رقم ١ ص ١٧٤).

الذى ضعف فى عهده شأن الفاطميين فى مصر، وأخذت دولتهم بخطى واسعة نحو الزوال(١).

ومما لا شك فيه أن عدم استقرار الأمور فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى الذى تجلى فيه ازدياد نفوذ الوزراء واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء شجع الخلافة العباسية فى ذلك الوقت رغم ما كانت تعانيه من جراء ازدياد نفوذ السلاجقة على نشر نفوذهم فى كل من مكة والمدينة.

على أن الخلفاء الفاطميين ووزراءهم فى العصر الفاطمى الثانى لم ينصرفوا انصرافا تاما عن نشر الدعوة فى بلاد الحجاز، بل إنهم رغم انكماش دولتهم فى هذا العصر حتى لم يبق فى حوزتهم غير مصر، فإنهم احتفظوا ببعض النفوذ فى الجزيرة العربية، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الدعوة الشيعية التى استمرت دون توقف على يد الدعاة الفاطميين(٢).

وعلى الرغم من أن ولاة مكة والمدينة أقاموا فى فترات مختلفة الدعوة لبنى العباس، فإنهم لم ينحازوا إلى الخلفاء العباسيين فى مناهضة الخلافة الفاطمية بل حرصوا على إظهار ولائهم للخلفاء الفاطميين كلما أمكنتهم الفرص، وما ذلك إلا بتأثير الدعوة الشيعية التى بذل الدعاة الفاطميون فى نشرها عناية كبيرة، كما أن الخلفاء الفاطميين من ناحيتهم كانوا يبذلون قصارى جهدهم فى نشر الأمن والطمأنينة فى الأراضى المقدسة بالحجاز لتيسير سبل المعيشة على أهلها بما كانوا يرسلونه إليهم من الحبوب والأموال. لذلك لا نعجب إذا علمنا أن إقامة الخطبة للخلفاء الفاطميين لم تلق اعتراضا من هؤلاء الأهالى الذين عرفوا بميلهم إلى المذهب السنى، كما أن أمراءهم احتفظوا فى كل من مكة والمدينة بكثير من مظاهر المذهب الشيعى التى كانت سائدة فى مصر فى العصر الفاطمى، وفضلا عن ذلك فإن انتماء أمراء مكة والمدينة إلى البيت العلوى كان له أثر كبير فى حرص هؤلاء الأمراء على التقرب إلى الخلفاء الفاطميين واكتساب رضائهم رغم المحاولات التى بذلها الخلفاء العباسيون لاستمالتهم إليهم وصرفهم عن الخلافة الفاطمية فى مصر.

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٧١.

(٢) Stanley Lane - Poole. A History of Egypt in the middle ages pp. 117 - 118, 123.

وعلى الرغم من حرص الخلفاء العباسيين والفاطميين على بسط سيادتهم على الأراضى المقدسة بالحجاز، فإن التنافس بينهم لتحقيق هذه الغاية لم يقرن بمظاهر العنف، بل وجه كل منهم اهتمامه إلى إقامة الدعوة له فى تلك الأراضى بالطرق السلمية، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن العباسيين والفاطميين رأوا ألا يتخذوا من الأراضى المقدسة بالحجاز ميدانا لإظهار ما بينهم من عداوة وبغضاء.

وقد اقتصر اهتمام الخلفاء الفاطميين تحت تأثير الصعوبات التى واجهوها فى دولتهم على نشر سلطتهم الدينية فى بلاد الحجاز التى كانت تتمثل فى إقامة الخطبة لهم على منابرها. وكانوا يرجون من وراء تمتعهم بهذه السلطة توطيد أركان خلافتهم واستمالة العالم الإسلامى إلى جانبهم بعد أن أصبح المسلمون ينظرون نظرة إجلال وتقدير إلى الخلفاء الذين يحتفظون بسيادتهم على الأراضى المقدسة ببلاد الحجاز.

ولاشك أن حرص الفاطميين على نشر نفوذهم فى بلاد الحجاز ونجاحهم فى هذا السبيل وإن جر عليهم منافسة العباسيين لهم، فإنهم جنوا من ورائه احترام العالم الإسلامى وتقديره، فقد برهنوا على قدرتهم على درء الأخطار عن تلك البلاد بعد أن صدوا القرامطة عن مكة ووجهوا اهتمامهم إلى العمل على حماية الأراضى المقدسة وتأمين الوافدين إليها من المسلمين على أرواحهم وأموالهم.

ولم يكن لدى أمراء مكة والمدينة القوة التى تمكنهم من درء الأخطار عن بلاد الحجاز، كما أن موارد تلك البلاد كانت لا تكفى لسد حاجة أهلها؛ لذلك رأوا أنه من الخير لهم اكتساب صداقة الفاطميين والتقرب إليهم ما داموا يرعون حقوقهم فى الإمارة، ويمدونهم بما يحتاجون إليه من الأموال والغلال؛ غير أنه يؤخذ على هؤلاء الأمراء أنهم كانوا يؤثرون مصلحتهم الخاصة على مصلحة البلاد التى يتولون الإمارة عليها، فاستغلوا التنافس بين العباسيين والفاطميين على السيادة على بلاد الحجاز لإشباع مطامعهم وصاروا يقيمون الخطبة للخلفاء الذين يواصلون

إمدادهم بالأموال، ولا يعنون بإدخال ضروب الإصلاح فى بلادهم مما أدى إلى إضعاف شأنها وتأخيرها ماديا وعلميا؛ حتى أن المقدسى[١] لما زار بلاد الحجاز فى القرن الرابع الهجرى وصفها بالفقر وقلة العلم[٢]، كما أن الرحالة الفارسى ناصر خسرو لاحظ حين زيارته مكة فى القرن الخامس الهجرى قلة سكانها، وقدر عددهم بألفين، وقال إن فريقا من أهلها اضطروا إلى الرحيل عنها فرارا من المجاعات[٣].

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٠٣.
(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ص ٣١٣.
(٣) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

أمراء مكة الأشراف(١)

السليمانيون والهواشم

(من منتصف القرن الرابع إلى نهاية القرن السابع الهجري)

أبو جعفر بن محمد بن حسين بن محمد الثائر	٣٥٦ هـ
حسن بن جعفر الحسنى(٢)	٣٥٨ هـ
عيسى بن أبى محمد جعفر	٣٧٠ هـ
أبو الفتوح الحسن بن أبى محمد جعفر	٣٨٠ هـ
أبو الطيب داود بن عبد الرحمن بن عبد الله داود	٤٠١ هـ
أبو الفتوح الحسن (المرة الثانية)	٤٠٣ هـ
محمد شكر بن أبى الفتوح الحسن	٤٣٠ هـ
حمزة بن وحَّاش بن أبى الطيب داود	٤٥٣ هـ
أبو هاشم محمد محمد بن جعفر بن محمد (تاج المولى)	٤٦١ هـ
أبو فُليته القاسم بن محمد بن جعفر	٤٨٧ هـ
فليته بن القاسم بن محمد بن جعفر	٥١٨ هـ
هاشم بن فليته بن القاسم	٥٢٧ هـ
القاسم بن هاشم بن فليته	٥٤٩ هـ
عيسى بن فليته بن القاسم	٥٥٦ هـ
داود بن عيسى بن فليته	٥٧٠ هـ
مُكثِّر بن عيسى بن فليته	٥٧١ هـ
داود بن عيسى (المرة الثانية)	٥٧٢ هـ

(١) Zambaur, Manuel de Génèalogie et de Ghronologie pour L'Histoire de L'Islam p. 21)

(٢) دعا للمعز سنة ٣٥٨ هـ : انظر المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٤٦.

الباب الثانى

السيادة الفاطمية في بلاد البحرين

تمهيد : قيام دولة القرامطة فى بلاد البحرين.
موقف أمراء القرامطة من الخلفاء.

تمهيد : قيام دولة القرامطة ببلاد البحرين:

كان نفوذ العباسيين فى جزيرة العرب مهددا من ناحية القرامطة(١) الذين نجحوا فى اقتطاع بلاد البحرين حيث كان أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى(٢) أحد قوادهم يعمل على نشر دعوتهم بهذا الإقليم منذ سنة ٢٨٣ هـ. وقد وجدت تعاليمه مرعى خصيبا لدى الأهالى وعلى الأخص الأعراب الذين كانوا دائما على استعداد للانضمام إلى أى حركة ثورية ضد العرب أو غيرعم ما دامت تتيح لهم فرصة للسلب والنهب(٣).

وقد تمكن أبو سعيد الجنابى من الاستيلاء على مدينة هجر عاصمة بلاد البحرين بعد حصار دام سنتين واتخذ مدينة الأحساء(٤) عاصمة لدولة القرامطة الجديدة التى أسسها سنة ٢٨٦ هـ وكان لهذه الدولة شأن كبير فى جزيرة العرب.

---

(١) القرامطة : طائفة سياسية اتخذت الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها وسلاحا للوصول إلى ما تصبو إليه؛ وقد عرفت بذلك نسبة إلى أحد دعاتها حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط. ويقال أنه سمى قرمط لقصر قامته ورجليه.

النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ ٢٣ ورقة ٥٦.

ويرى Ivanow فى كتابه (The Rise of the Fatimids p. 69) أن «كرامته كلمة معروفة عند أهالى بلاد العراق الجنوبيسة لم تستعمل فى العربيـة معناها الفلاح أو القروى ثم عربـت إلى قرمط، وأن حمدان بن الأشعث عرف بهذا الاسم وسمى أتباعه باسمه».

(عبد العزيز الدورى : دراسات فى العصر العباسى الثانى ص ١٥٨).

(٢) الجنابى : نسبة إلى جنابة وهى بلدة على ساحل الخليج الفارسى.

ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٤٢ ـ ١٤٣)

(٣) De La cy O'Leary. Ashort History of the Fatimid Khalif ate

(٤) عرفت بهذا الاسم لما فيها من أحساء المياه فى الرمال ومراعى الإبل (ابن خلدون : جـ ٤ ص ٩١).

فقد استطاعت أن تبسط نفوذها على كثير من أرجائها، كما قامت بها حكومة ملكية وراثية فى بيت أبى سعيد يعاونها مجلس يتكون من اثنى عشر عضوا. وكان الحاكم هو القائد الأعلى للجيش وبيده كافة مقاليد الأمور، وله سلطة مطلقة. وكان العبيد يقومون بفلاحة أراضيها، أما سكانها من العرب فلم يكن لهم عمل سوى الخدمة فى الجيش(١).

وقد وضع أبو سعيد نظاما حربيا دقيقا يستطيع بمقتضاه إعداد جيش قوى من رعاياه فصار يجمع الأطفال فى دور خاصة وعين لهم قوما يشرفون على مصالحهم وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه، وأخذ يدربهم على ركوب الخيل واستخدام الأسلحة الحربية، فنشئوا نشأة عسكرية(٢).

كان أبو سعيد يطمع فى بسط سيادته على جزيرة العرب وسلخها عن الدولة العباسية، وقد أثارت مطامعه مخاوف الخليفة العباسى المعتضد فأرسل إليه جيشا بقيادة العباس بن عمرو الغنوى بعد أن ولاه على اليمامة والبحرين سنة ٢٨٩ هـ، فلقى هذا الجيش هزيمة فادحة ووقع العباس فى الأسر، وما لبث أن أطلق سعيد سراحه وطلب منه أن يبلغ المعتضد هذه الرسالة؛ ومما جاء فيها : «هذا بلد خارج عن يدك غلبت عليه وقمت به وكان فىَّ من الفضل ما آخذ به غيره، فما عرضت لما كان فى يدك، ولا هممت به، ولا أخفت لك سبيلا، ولا نلت أحدا من رعيتك بسوء؛ فتوجيهك إلىّ الجيوش لأى سبب؟ اعلم أنى لا أخرج عن هذا البلد ولا توصل إليه، وفى هذه العصابة التى معى روح، فاكفنى نفسك ولا تتعرض لما ليس لك فيه فائدة، ولا تصل إلى مرادك إلا ببلوغ القلوب الحناجر(٣)».

فلما وقف المعتضد على ما تضمنه حديث أبى سعيد قال : «صدق، ما أخذ شيئا كان فى أيدينا». ثم أطرق مفكرا وقال : «كذب عدو الله الكافر، المسلمون رعيتى حيث كانوا من بلاد الله، والله لئن طال بى العمر لأشخصن

(١) Encylopaedia of Religion & Ethics, Vol III p. 225

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٦.

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٨.

بنفسى إلى البصرة وجميع غلمانى، ولأوجهن إليه جيشا كثيفا فإن هزمه وجهت جيشا، فإن هزمه خرجت فى جميع قوادى وجيشى إليه يحكم الله بينى وبينه».

يتضح لنا من حديث الخليفة المعتضد أنه مدرك حقيقة الحال فى الدولة العباسية، وأن بعض ولاياتها ومن بينها بلاد البحرين خرجت عن سلطانه، وأن واجبه كخليفة أن يظل نفوذه سائدا فى جميع البلاد الإسلامية. وقد بلغ من حنق المعتضد على أبى سعيد ورغبته فى القضاء عليه أنه كان يذكره خلال مرضه ويتلهف ويقول : حسرة فى نفسى، كنت أحب أن أبلغها قبل موتى، والله لقد كنت وضعت عند نفسى أن أركب ثم أخرج نحو البحرين، ثم لا ألقى أحدا أطول من سيفى إلا ضربت عنقه، وإنى أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة[١].

استطاع أبو سعيد بإقراره النظام فى بلاد البحرين وتدريبه أهلها على الأعمال الحربية أن يقيم دولة موطدة الأركان فيها، امتد نفوذها على هجر والأحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين والطائف[٢]. ولو طالت حياته لتيسر له مد سلطانه على جزيرة العرب بأكملها، ولكنه اغتيل سنة ٣٠٢ هـ على يد خادم له كان قد أخذه من الجيش العباسى، فخلفه ابنه سعيد الذى كان يدبر أمور الدولة حتى ثار عليه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان وقتله وتقلد زمام الحكم فى دولة القرامطة.

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٩.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٢٧.

موقف أمراء القرامطة من الخلفاء الفاطميين

قامت العلاقات الودية بين القرامطة فى بلاد البحرين والفاطميين فى بلاد المغرب منذ أرسل عبيد الله المهدى إلى أبى طاهر سليمان أمير القرامطة كتابا بتوليته. وقد ترتب على ذلك اتحادهم فى سياستهم العدائية إزاء العباسيين، فطلب أبو القاسم بن المهدى سنة ٣٠٦ هـ من أبى طاهر أن يحضر إلى مصر على رأس حملة ليعاونه على فتحها. لكن الجيش العباسى بقيادة مؤنس الخادم ما لبث أن أوقع الهزيمة بجيش أبى القاسم قبل أن تصل إليه النجدة من أبى طاهر[١].

كان أبو طاهر رجلا طموحا إلى المجد والعظمة، فقضى السنوات الأولى من حكمه ينظم شئون دولته ويعد العدة للسيطرة على جزيرة العرب، كما وجه سياسته إلى تأييد عبيد الله المهدى فى عدائه للعباسيين[٢] فعمل على إشغالهم فى المشرق بحملاته التى وجهها إلى بلادهم حتى يتيح للمهدى توطيد نفوذه فى المغرب، فزحف على البصرة والكوفة، وبعد أن غنم منها مغانم كثيرة عاد إلى هجر(٣)، وفى سنة ٣١٦ هـ تقدم أبو طاهر إلى بغداد وكادت تقع فى يده لولا دهاء مؤنس الخادم قائد الخليفة المقتدر الذى بعث بزواريق ملأى بفاكهة مسمومة، فلماأكل منها جند القرامطة مات منهم عدد كبير، وارتد جيش أبى طاهر بعد أن تكبد خسائر فادحة[٤]، لكن هذه الهزيمة لم تفت فى عضده، فقام فى العام التالى بحملة اضطرب من أجلها العالم الإسلامى؛ ذلك أنه أغار على مكة فى ذى الحجة سنة ٣١٧ هـ (يناير ٩٣٠م) فى عدد قليل، إذ كان معه ستمائة فارس وتسعمائة راجل، ونهب هو وأصحابه الحجاج وقتلوهم فى المسجد الحرام، وقلع باب البيت وقبة زمزم والحجر الأسود، وأخذ كسوة الكعبة ففرقها بين أصحابه، ونهب دور أهل مكة، وأقام الخطبة فى مكة لعبيد الله المهدى بدلاً من الخليفة العباسى المقتدر ثم عاد إلى الأحساء حاملا معه الحجر الأسود[٥].

---

(١) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٨٨ ـ ٨٩.
(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى جـ ٣ ص ٣٣٩.
(٣) جـ ٨ ص ٤٥ و٤٩.
(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٤٢.
(٥) ابن الأثير : جـ ٨ ص ٨١ وعبد القادر الأنصارى : درر الفرائد المنظمة جـ ١ ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

لم يقم أبو طاهر بهذه الفعلة الشنعاء ـ كما زعم أوليرى[١] ـ بناء على تعاليم سرية أرسلت إليه من القيروان الغرض منها الانتقام من أهل مكة لأنهم لم يخطبوا لعبيد الله المهدى، ودليلنا على ذلك أن اهتمام هذا الخليفة بإقامة الخطبة له لم يتضح إلا بعد أن فتح أبو طاهر مكة، كما أن عبيد الله المهدى أظهر استياءه من الأحداث التى ارتكبها أبو طاهر فى هذا البلد المقدس وكتب إليه ما نصه[٢] : «والعجب من كتب إلينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر . . . وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك، فلعنك الله ثم لعنك والسلام على من سلم المؤمنون من لسانه ويده وفعل فى يومه ما عمل فيه حساب غده»[٣]، فبعث إليه أبو طاهر ردا على كتابه وعده فيه بأنه سيعمل على إعادة الحجر الأسود إلى بيت الله الحرام[٤].

لم يكتف أبو طاهر بمهاجمة مكة وإقامة الخطبة فيها للخليفة الفاطمى بل بسط سلطانه عليها وفرض على الحجاج سنة ٣٢٣ هـ إتاوة يؤدونها إليه مقابل حمايتهم والمحافظة على أرواحهم[٥]. وبذلك أصبحت الخلافة العباسية عاجزة عن حماية رعاياها من المسلمين وتأمين طريقهم إلى بلاد الحجاز. ولا شك أن ظهورها بهذا المظهر يضعف هيبتها أمام العالم الإسلامى، وهو ما كان يرجوه ويعمل من أجله أبو طاهر ليمهد السبيل أمام أنصاره الفاطميين، ولا غرو فقد أعلن فى إحدى قصائده ولاءه للمهدى وأنه عول على القضاء على العباسيين وإعادة النفوذ إلى العلويين[٦].

---

(١) A Short History of the Fatimid Khalifate. p. 86

(٢) عبد القادر الأنصارى : درر الفرائد المنظمة جـ ١ ص ١٩٦.

(٣) يرى أوليرى فى كتابه A Short History of the Fatimid Khalifate. p. 85 أن عبيد الله المهدى أرسل هذا الخطاب لأبى طاهر لينفى عن نفسه أية مسئولية من جراء استحواذ القرامطة على الحجر الأسود وليظهر بمظهر المدافع عن شعائر الإسلام حتى يكتسب تقدير العالم الإسلامى.

(٤) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٨٩.

(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٤٤.

(٦) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى جـ ٣ ص ٣٣٩.

أغركم منى رجوعى إلى هجر فعما قليل سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المريخ من أرض بابل وقارنه كيْوان فالحذر الحذر
فمن مُبلغ أهل العراق رسالة بأنى أنا الموهوب فى البدو والحضر

ومنها

فيا ويلهم من وقعة بعد وقعة تساقون سوق الشاة للذبح والبقر
سأصرف خيلى نحو مصر وبرقة إلى قيروان الترك والروم والخزر

ومنها

أكيلهم بالسيف حتى أبيدهم فلا أبق منهم نسل أنثى ولا ذكر
أنا الداع للمهدى لا شك غيره أنا الصارم الضرغام والفارس الذكر(١)

* * *

حرص القرامطة طوال النصف الأول من القرن الرابع الهجرى على الاحتفاظ بعلاقتهم الودية مع الفاطميين ببلاد المغرب، كما سمحوا لهم بالتدخل فى تعيين أمرائهم، ذلك أنه لما توفى أبو طاهر سنة ٣٣٢ هـ عارض بعض رجال دولته فى تولية أخيه الأكبر أحمد بن أبى سعيد الحسن ـ وكان أبو طاهر قد أوصى أن يخلفه فى الحكم ـ ومالوا إلى تولية سابور بن أبى طاهر وكاتبوا الخليفة الفاطمى القائم فى ذلك، فجاءهم كتابه بولاية أحمد وأن يكون سابور ولى عهده(٢)؛ فنفذت رغبته وتقلد أحمد زمام الحكم فى دولة القرامطة فى بلاد البحرين وتلقب بأبى المنصور، وحذا حذو أخيه فى ولائه للفاطميين؛ فأعاد الحجر الأسود من الأحساء إلى مكانه بالكعبة سنة ٢٣٩ هـ إجابة لطلب المنصور الفاطمى بعد أن ذهبت مجهودات الخلافة العباسية مع أبى طاهر بشأن استرداده هباء، فقد رفض رده مقابل خمسين ألف دينار من الذهب(٣)، وفى هذا دليل واضح على مدى خضوع القرامطة فى بلاد البحرين لسلطان الفاطميين.

(١) أبو المحاسن :النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٢٥، ٢٢٦.
(٢) ذكر De Goeje فى كتابه Memoire sur Les Carmathes du Bahrain p. 146 أن المنصور بن القائم هو الذى أصدر قرار تعيين أحمد بن الحسن بدلا من سابور.
(٣) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٨٩ ـ ٩٠.

ومما لا شك فيه أن قيام دولة القرامطة فى بلاد البحرين أثار فى وجه الخلافة العباسية كثيرا من المتاعب والمشاكل بجانب ما كانت تعانيه من ازدياد نفوذ الأتراك واستبداد البويهيين بالسلطة فى بغداد، وقد أدى انشغالها بصد غارات القرامطة عن أراضيها إلى ازدياد قوة الفاطميين فى بلاد المغرب، كما مهد السبيل لفتح مصر، فقد كانت غارات قرامطة البحرين على أراضى الدولة العباسية بالمشرق تتفق دائما مع الحملات التى وجهها عبيد الله المهدى إلى مصر(١).

وكان لاتحاد القرامطة مع الفاطميين فى نشر آراء المذهب الإسماعيلى أكبر الأثر فى صعود نجم العلويين فى القرن الرابع الهجرى على حين بدأ أمر العباسيين فى الضعف، فبسط الفاطميون الذين يمثلون الخلافة العلوية سلطانهم على مصر وبلاد الشام وكثير من أرجاء جزيرة العرب. وكانت كل هذه البلاد تدين بالطاعة للعباسيين.

لم تتمتع دولة القرامطة فى بلاد البحرين بالهدوء والاستقرار فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى، فقد حدث نزاع بين أفراد أسرة أبى طاهر على العرش، فقبض سابور بن أبى طاهر على عمه أحمد بن أبى سعيد الملقب بأبى المنصور سنة ٣٥٨ هـ ـ وكان إذ ذاك يلى الحكم فى دولة القرامطة ـ غير أنه ما لبث أن خرج من اعتقاله وقتل سابور ونفى إخوته وأشياعه إلى جزيرة أوال(٢)، وانقسم القرامطة بسبب ذلك إلى فريقين : أحدهما بزعامة بيت أبى طاهر، وثانيهما بزعامة بيت أحمد بن أبى سعيد وعلى رأسه ابنه الحسن الملقب بالأعصم الذى آلت إليه إمارة بلاد البحرين بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٩ هـ(٣).

اتبع الحسن بن أحمد سياسة جديدة إزاء الفاطميين تخالف سياسة من سبقه من أمراء القرامطة الذين كانوا يحرصون على استمرار العلاقات الودية بينهم وبين الخلفاء الفاطميين فى بلاد المغرب ويسمحون لهم بالتدخل فى تعيين أمرائهم؛

(١) De Goej. Mémoire sur Les carmathes du Bahrain et Les Fatimides p. 69

(٢) جزيرة بناحية البحرين : ياقوت، معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٦٥.

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى جـ ٣ ص ٣٤٥.

فانتهز فرصة الخلاف الذى وقع بين أفراد أسرته بسبب التنافس على تقلد إمارة القرامطة وأبعد إخوة سابور بن أبى طاهر وأشياعهم - وهم الفريق الذى عرف بولائه للفاطميين - إلى جزيرة أوال[١]، حتى بلغ ما اجتمع بها منهم نحوا من ثلاثمائة، كما لم يعترض أثناء وجوده بمكة على إقامة الخطبة للخليفة العباسى المطيع[٢]، مما يدلنا على انحرافه عنهم. ولم يلبث أن أصبح محاربا لهم، بل راغبا رغبة أكيدة فى القضاء عليهم؛ ذلك أنه بعد أن تم للجيش الفاطمى بقيادة جعفر بن فلاح الكتامى فتح دمشق سنة ٣٥٩ هـ طالب الحسن بن أحمد بالإتاوة التى كان يدفعها الإخشيديون للقرامطة[٣] فرفض القائد الفاطمى أداءها إليه، فأدى ذلك إلى عداء سافر بين الحسن بن أحمد القرمطى والفاطميين. ويعتقد جاستون فييت[٤] أن قطع الإتاوة كان عذرا وهميا لقطع العلاقات بين القرامطة والفاطميين؛ ويقول إنه من المحتمل أن يكون ذلك راجعا إلى أن الفاطميين الذين ملكوا بلادا غنية أرادوا القضاء على القرامطة حتى لا يذيعوا بين الناس أن الفاطميين من نسلهم، وحتى لا يطمعوا فى سلب ما استحوذ عليه الفاطميون.

رأى الفاطميون - بعد أن تبدلت صلة المودة بينهم وبين قرامطة بلاد البحرين بتأثير السياسة التى سار عليها الحسن بن أحمد - أن يعملوا على إضعاف شأنهم بإثارة النزاع بينهم؛ فأرسل المعز لدين الله الفاطمى إلى أبى طاهر وبنيه الذين أبعدوا إلى جزيرة أوال يخبرهم بأحقية ولد أبى طاهر فى إمارة القرامطة. فلما علم بذلك الحسن بن أحمد، أمر بحذف اسم المعز من الخطبة فى بلاد البحرين وإقامة الدعوة للخليفة العباسى المطيع[٥].

---

(١) أوال : جزيرة بناحية بلاد البحرين. ياقوت، معجم البلدان. جـ ١ ص ٣٦٥.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر. جـ١ ص ٣٦٥.

(٣) أغار القرامطة على بلاد الشام سنة ٣٥٧ هـ. وعجز الإخشيد عن صدهم، واضطر الحسن بن عبد الله بن طغج الإخشيد والى هذه البلاد إلى الاتفاق معهم على أن يؤدى إليهم إتاوة سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار. (المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٤٧ - ٢٤٨)

(٤) Histoire de La Nation Egyptienne, Vol IV p. 101 - 102

(٥) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٩٠.

وكان الحسن بن أحمد يرى ضرورة استعادة سلطة القرامطة على بلاد الشام، فبعث إلى كل من الخليفة العباسى وأمير بنى بويه ببغداد أن يمداه بالأموال والرجال لمعاونته على محاربة الفاطميين. واستطاع الحسن بن أحمد بفضل ما وصل إليه من الإمداد أن يزحف إلى بلاد الشام؛ فاستولى على دمشق سنة ٣٦٠هـ. وما زال يواصل فتوحه حتى تمكن من بسط سلطانه على كثير من مدن الشام. ولم يكتف بذلك، بل ولّى وجهه شطر مصر حتى لا يعاود الفاطميون مهاجمته من هذه الناحية، لكنه فشل فى المحاولتين اللتين قام بهما للاستيلاء على البلاد المصرية : الأولى فى ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ، والثانية فى سنة ٣٦٣ هـ. واضطر بعد عجزه عن الاستيلاء على القاهرة إلى التقهقر بجيوشه إلى دمشق، ثم رحل مع بعض رجاله إلى الأحساء[(١)] وأخذ الفاطميون يعملون على استرداد بلاد الشام ـ على ما سيأتى ـ .

* * *

قامت الخلافات الداخلية بين قرامطة بلاد البحرين بعد وفاة الحسن بن أحمد سنة ٣٦٧ هـ، كما أنهم أنكروا سياسته العدائية إزاء الفاطميين ومبايعته الخليفة العباسى، وعمل أتباع أبى طاهر على إقصاء ولد أبى سعيد عن الإمارة، ثم استقر الرأى على أن يتولى الحكم فى بلاد البحرين اثنان من سادتهم، وهما جعفر وإسحق[(٢)]؛ فسارا على السياسة التى اتبعها أمراء القرامطة قبل تولية الحسن بن أحمد من إقامة الدعوة الفاطمية ومحاربة بنى العباس[(٣)].

عاد قرامطة بلاد البحرين بعد وفاة الحسن بن أحمد إلى القيام بحملات على أراضى الدولة العباسية، فأغاروا على الكوفة سنة ٣٧٥ هـ وأدى ذلك إلى انزعاج أهلها لما عرف به القرامطة من شدة البأس وقوة الشكيمة حتى هابهم الناس، فبعث إليهم صمصام الدولة أمير بنى بويه جيشا أوقع بهم الهزيمة على نهر

---

(١) انظر المقريزى : اتعاظ الحنفاء. ص ٢٥٠، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٢١١.

(٢) ذكر (ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٢٨) أنه تولى أمر القرامطة بعد وفاة الحسن بن أحمد ستة نفر اشتركوا جميعا فى الحكم وسموا السادة.

(٣) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٩١.

(٤) ابن الأثير : جـ ٩ ص ١٤ ـ ١٥.

الفرات وتعقبهم إلى القادسية[١]، وبذلك تيسر للبويهيين إخراجهم نهائيا من بلاد العراق.

* * *

ضعف أمر القرامطة منذ أواخر القرن الرابع الهجرى حتى لم يبق لهم إلا ولاية صغيرة على الشاطئ الشرقى للجزيرة العربية لا تستطيع قطع الطريق على الحجاج، ولكن كان لها على باب البصرة ديوان صغير لأخذ الضرائب[٢].

كذلك أدى التنافس على الرياسة بين كل من جعفر وإسحق إلى التعجيل باضمحلال دولتهم فى بلاد البحرين وزوالها فى نهاية القرن الرابع الهجرى؛ يقول ابن خلدون(٢) : «وافترق أمرهم وتلاشت دعوتهم إلى أن استولى الأصغر بن أبى الحسن الثعلبى سنة ٣٩٨ هـ عليهم وملك الأحساء من أيديهم وأذهب دولتهم وخطب للطائع واستقرت الدولة له ولبنيه».

كان يقيم ببلاد البحرين بجانب القرامطة كثير من قبائل العرب ومن أشهرهم بنو ثعلب وبن عقيل وبنو سليم، وكثيرا ما استنجد بهم القرامطة على أعدائهم واستعانوا بهم فى حروبهم، وقد حدثت بينهم وبين هؤلاء العرب عدة منازعات أدت فى بعض الأحيان إلى اشتعال نار الحرب بين الفريقين.

كان بنو ثعلب أكثر العرب المقيمين ببلاد البحرين عددا، وأظهرهم عزة، فاستولى زعيمهم الأصغر بن أبى الحسن الثعلبى على تلك البلاد بعد أن انحل أمر القرامطة وانقرض الملك من أسرة الجنابى، ولكن الأمور لم تستقر فى بلاد البحرين بسبب المنازعات التى قامت بين القبائل العربية، فقد استعان بنو ثعلب ببنى عقيل على بنى سليم وطردوهم من تلك البلاد، فساروا إلى مصر ومنها رحلوا إلى إفريقية ثم حدث خلاف بين بنى ثعلب وبنى عقيل انتهى الأمر فيه بخروج بنى عقيل إلى العراق فأقاموا لهم دولة بإقليم الجزيرة.

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص ١٣٤، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، جـ ٢ ص ٥٦.

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٩١.

وقد نجح الأصغر زعيم بنى ثعلب فى جعل الحكم وراثيا فى بنيه من بعده ببلاد البحرين، فظلوا يتولون الأمور فيها حتى ضعف أمرهم وانقرضوا وخلفهم فى حكم هذه البلاد بنو عقيل الذين عادوا إلى ديارهم، بعد أن تغلب عليهم السلاجقة فى الجزيرة[١]. وقد ذكر أبو سعيد صاحب كتاب المغرب فى حلى المغرب أنه سأل أهل البحرين الذين قابلهم بالمدينة المنورة سنة ٦٥١ هـ عن بلادهم، فقالوا: الملك فيها لبنى عامر بن عوف بن عامر بن عقيل، أما بنو ثعلب فأصبحوا من جملة رعاياهم.

(١) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٩١ ـ ٩٢.

الباب الثالث

السيادة الفاطمية فى اليمامة وعمان

(أ) اليمـامة

(ب) عمـان.

(أ) **اليمامة :** كانت[1] اليمامة من بين ولايات جزيرة العرب التى تدين بالطاعة للعباسيين حتى منتصف القرن الثالث الهجرى حيث استولى عليها فى أيام المستعين بالله العباسى محمد الأخيضر بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، واتخذ الخضرمة حاضرة له(٢). فأقام باليمامة دولة علوية عرفت باسم دولة بنى الأخيضر، استقل بها عن الخلافة العباسية التى بدأت مظاهر الضعف والانحلال تظهر عليها منذ ذلك الوقت بسبب ازدياد نفوذ الأتراك واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء.

لم يلق محمد الأخيضر عناءً كبيرا فى إقامة دولته باليمامة، واستطاع أن يوطد نفوذه فيها ويجعل الحكم وراثيا فى أبنائه من بعده، وكان له من الأولاد محمد وإبراهيم وعبد الله ويوسف، ولما توفى خلفه يوسف الذى أشرك معه ابنه إسماعيل فى إدارة شئون اليمامة طيلة حياته، ثم انفرد إسماعيل بولاية اليمامة بعد وفاة أبيه.

وقد وجه كل من رستم بن الحسين بن حوشب وعلى بن فضل وهما من دعاة الإسماعيلية فى اليمن أنظارهما إلى اليمامة بسبب قيام دولة بنى الأخيضر العلوية بها، واعتقد أن أهليها سيرحبون بالدعوة الفاطمية، لذلك بعثا إليها بالدعاة

(١) يحدها من جهة الشرق بلاد البحرين ومن الغرب أطراف اليمن والحجاز. ومن الجنوب نجران، ومن الشمال نجد والحجاز. (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٥٨).

(٢) ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ص ٤١.

لنشر المذهب الإسماعيلى[١]، كما بعثا دعاة آخرين لنفس هذا الغرض إلى بلاد البحرين والسند والهند ومصر والمغرب[٢].

لم يزل بنو الأخيضر يتولون الملك باليمامة حتى طمع قرامطة بلاد البحرين فى بسط سلطانهم على جزيرة العرب، فتغلبوا على اليمامة فى أوائل القرن الرابع الهجرى، كما أخضعوا مكة وعمان لسلطانهم، وبذلك زالت دولة بنى الأخيضر[٣].

على أن نفوذ القرامطة فى اليمامة ما لبث أن ضعف بعد زوال دولتهم فى بلاد البحرين، ولم يبذل خلفاء بنى العباس أى محاولة لاستعادة سلطانهم عليها، فاستقل بإدارتها زعماء العرب المقيمون بها وعلى الأخص من قيس عيلان[٤].

(ب) عمان : كانت عمان من بين الولايات الإسلامية بجزيرة العرب التى تدين بالطاعة للعباسيين فى أواخر القرن الثالث الهجرى. وقد تزعم الحكم فيها فى عهد الخليفة المعتضد بنو شامة بن لؤى بن غالب، ففتح محمد بن القاسم الشامى عمان بمعاونة هذا الخليفة ثم وليها من قبله، وأقام الخطبة فيها لبنى العباس، ونجح فى جعل الحكم وراثيا فى أبنائه من بعده. على أن الضعف والانحلال ما لبث أن أصاب إمارتهم بسبب الخلاف الذى قام بينهم سنة ٣٠٥ هـ، فلحق بعضهم بالقرامطة فى بلاد البحرين وظل الاضطراب سائدا فى ولايتهم حتى تغلب عليها سنة ٣١٧ أبو طاهر القرمطى، وخطب بها لعبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى ببلاد المغرب[٥]، وبذلك دخلت عمان فى حوزة دولة القرامطة ببلاد البحرين وصار ولاتها يعينون من قبلها.

---

(١) عرف بذلك نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وكان أتباعه يعرفون بالإسماعيلية وهم فرقة من الشيعة تعتقد أن الإمامة انتقلت بعد النبى ﷺ إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه، ثم إلى ابنه الحسن ثم إلى أخيه الحسين ثم تنقلت فى بنى الحسين إلى جعفر الصادق، ويدعون أن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل ثم تنقلت فى بنيه (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ١١٩ ـ ١٢٠).

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٨.

(٣) ابن خلدون جـ ٤ ص ٩٨ ـ ٩٩.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٦.

(٥) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٩٣.

لم يكن نفوذ القرامطة موطدا فى عمان، فقد استقل بالحكم فيها يوسف ابن وجيه، وحاول توسيع رقعة إمارته، فسار على رأس حملة بحرية يريد البصرة، وكاد يستولى عليها لولا ما حل بسفنه من جراء الحريق الذى دبره بعض أعوان بنى البريدى الذين استقلوا بالبصرة والأهواز وواسط فى عهد الخليفة المتقى. ومضى يوسف بن وجيه صاحب عمان هاربا فى أوائل سنة ٣٣٢[١]. ولم يتمتع طويلا بالحكم بعد هذه الهزيمة، فقد ثار فى وجهه مولاه نافع وتغلب عليه ثم تقلد زمام الأمور بدلا منه، ودخل فى طاعة معز الدولة بن بويه وخطب له على المنابر وضرب اسمه على الدينار والدرهم[٢].

انتهز القرامطة فرصة عدم استقرار الأمور فى عمان فتغلبوا عليها سنة ٣٥٤هـ وهرب نافع منها بعد أن وثب به أهل عمان، لكنهم لم يستأثروا بالنفوذ فيها، فقد استقر رأى أهلها على أن يولوا عليهم عبد الوهاب بن أحمد بن مروان، فولى إمارة عمان بعد أن كان ممتنعا عن تقلدها، واتخذ على بن أحمد كاتبا ـ وكان يكتب للقرامطة من قبل.

بدأ الأمير عبد الوهاب عمله بمنح الجند أرزاقهم، وكانوا طائفتين إحداهما من البيض والثانية من الزنج، فلما فرغ كاتبه على بن أحمد من توزيع المرتبات على البيض قال للزنج ـ وكانوا ستة آلاف رجل ـ إن الأمير عبد الوهاب أمر لكم بنصف ما وزع على البيض، فامتعضوا لذلك وثاروا ضده، لكنه ما لبث أن استمالهم إليه بقوله : «هل لكم أن تبايعونى فأعطيكم مثل سائر الأجناد؟» فأجابوه إلى ذلك وبايعوه؛ فسواهم فى العطاء مع البيض مما أدى إلى تذمر البيض وقيام الحرب بينهم وبين الزنج. فلما كانت الغلبة للزنج هدأت الفتنة فى عمان واستقر على بن أحمد فى إمارتها بعد عزل الأمير عبد الوهاب[٣].

رأى معز الدولة بن بويه أن الفرصة سانحة له للاستيلاء على عمان بعد ما وصل إليه من أنباء الفتن والاضطرابات التى ثارت فيها، فسار من واسط إلى الأبلة

---

(١) ابن الأثير : جـ ٨ ص ١٣٠.

(٢) ابن الأثير : جـ ٨ ص ١٨٦.

(٣) ابن الأثير : جـ ٨ ص ١٨٦ ـ ١٨٧، ابن خلدون : جـ ٤ ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤.

وهناك أعد حملة بحرية لفتحها سنة ٣٥٥ هـ، وأسند قيادتها إلى أبى الفتوح محمد ابن العباس، وطلب من عضد الدولة بفارس أن يمده بالعساكر فوافاهم المدد بسيراف[١]، ثم سارت المراكب حاملة الجند إلى عمان، فتغلبوا عليها وأقيمت الخطبة فيها لمعز الدولة؛ وتولى حكمها أبو الفرج بن العباس نائبا عنه[٢].

لما توفى معز الدولة غادر عمان إلى بغداد نائبه أبو الفرج بن العباس، وبعث إلى عضد الدولة يطلب منه أن يتسلمها، فتولى أمرها عمر بن نهبان الطائى، وأقام الدعوة لعضد الدولة؛ غير أن الزنج ما لبثوا أن تغلبوا على عمان، وقتلوا ابن نهبان وولوا عليهم رجلا يعرف بابن حلاج؛ فلما علم بذلك عضد الدولة أرسل إليهم جيشا بقيادة أبى حرب طغان، ودارت بينه وبين الزنج معركة حامية بصحار - قصبة عمان - انتهى الأمر فيها باستيلاء أبى حرب على هذه البلدة وانهزم أهلها سنة ٣٦٢هـ.

على أن نفوذ عضد الدولة لم يتوطد رغم ذلك فى عمان، فقد اجتمع بجبالها كثير من الخوارج وولوا ورد بن زياد أميرا عليهم، كما جعلوا حفص بن راشد خليفة لهم، واشتدت شوكتهم، فبعث إليهم عضد الدولة حملة بقيادة المطهر ابن عبد الله الذى تمكن - بعد أن نزلت جنوده بأرض عمان - من التغلب على الثائرين وأسر كثيرا من رؤسائهم. وظل يتتبعهم حتى أوقع بهم وقعة أتت على بقاياهم واضطر خليفتهم إلى مغادرة عمان والإقامة ببلاد اليمن، وبذلك استقرت الأمور لعضد الدولة بعمان ودانت له بلادها بالطاعة[٣].

كان بنو مكرم من وجوه عمان الذين استعان بهم البويهيون فى إدارة شئون دولتهم، وتولى بعضهم الإمارة فى عمان وأقاموا الخطبة لبنى العباس. ولما ضعفت دولة بنى بويه ببغداد استبد بنو مكرم بالسلطة فى عمان وتوارثوا الحكم فيها. وكان منهم مؤيد الدولة أبو القاسم على بن ناصر الدولة الحسين بن مكرم الذى ولى

(١) سيراف : تقع على ساحل الخليج الفارسى (ياقوت : معجم البلدان).
(٢) ابن خلدون : جـ ٣ ص ٤٢٥، جـ ٤ ص ٤٤٣ ، ٤٥٠.
(٣) ابن الأثير : جـ ٨ ص ٢١٣ - ٢١٤، ابن خلدون : جـ ٤ ص ٤٥٠.

الإمارة سنة ٤١٨ هـ واستطاع بحسن إدارته، وجوده وكرمه أن يجعل الحكم وراثيا فى أبنائه من بعده[١].

ولما توفى الأمير أبو القاسم سنة ٤٢٧ هـ خلفه ابنه أبو الجيش، فاستغل ضعفه قائد جنده على بن هطال، واستأثر بكثير من النفوذ وأوقع الفرقة بينه وبين أخيه المهذب الذى انتهى أمره باعتقاله وقتله؛ ثم توفى بعد ذلك بقليل أبو الجيش؛ فحاول على بن هطال أن يولى أخاه أبا محمد، فأخفته أمه حتى لا تتيح له فرصة التخلص منه، وطلبت إليه أن يتولى بنفسه إدارة عمان، فرحب بذلك؛ غير أنه ما لبث أن استبد بالسلطة وصادر التجار واستولى على كثير من أموال الأهالى.

ولما وصل إلى أبى كاليجار أمير بنى بويه فى العراق ما قام به على بن هطال من الأعمال التى سببت تذمر أهالى عمان، عول على إقصائه عن الإمارة، وأمر وزير العدل أبا منصور أن يكاتب المرتضى الذى كان نائبا لأبى القاسم بن مكرم بجبال عمان ويطلب إليه محاربة ابن هطال، كما جهز العساكر من البصرة لمساعدته؛ فسافر المرتضى إلى عمان وحاصرها وتمكن من الاستيلاء على أكبر أعمالها ودس لابن هطال من اغتاله؛ ثم بعث الوزير العادل أبو منصور رسولا من قبله إلى عمان ولى أبا محمد بن مكرم الإمارة سنة ٤٣١ هـ[٢].

على أن أسرة بنى مكرم ما لبثت أن ضعفت وزال ملكها بعمان وتولى أبو المظفر بن أبى كاليجار البويهى إمارة هذه البلاد، لكنه عجز عن إدارة شئونها بنفسه واستأثر بالسلطة خادم له، وأساء التصرف فى الأموال مما أثار كراهة الأهالى وتذمرهم. ولما وقف ابن راشد ـ وكان من زعماء الخوارج المقيمين بجبال عمان ـ على ما وصلت إليه الحال فى البلاد من جراء ضعف الأمير أبى المظفر واستبداد خادمه بالأمور دونه، دعا أتباعه وسار على رأسهم لمحاربة أبى المظفر؛ غير أن الهزيمة حلت بابن راشد والخوارج، فعادوا إلى محل إقامتهم. وأخذ ابن راشد يعد العدة ويحشد الجموع للتخلص من إمارة أبى المظفر. ولما تهيأ لمحاربته سار إليه وأعانه أهل البلاد بسبب كراهيتهم للديلم. وبذلك تيسر له الانتصار على أبى

---

(١) ابن خلدون : جـ ٨ ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٢) ابن الأثير : جـ ٩ ص ١٦١ ـ ١٦٢.

المظفر سنة ٤٤٢ هـ، وقبض على زمام الأمور فى البلاد، فبدأ حكمه بالعمل على إقامة العدل، كما أسقط المكوس على جباية عشر ما يرد إلى الأهالى، وأمر بذكر اسمه فى الخطبة وتلقب بالراشد بالله(١).

لم تستقر الأمور فى عمان بعد أن ولى حكمها الخوارج، كما تفككت عرى وحدتها، فقامت فى بعض بلادها الواقعة على الخليج العباسى إمارة مستقلة تقلد زمام الحكم فيها زكريا بن عبد الملك الأزدى سنة ٤٤٨ هـ، وكان الخوارج يدينون لأسرته بالطاعة(٢). ومن ذلك يتبين انحلال النفوذ العباسى فى عمان وعجز بنى بويه عن الاحتفاظ بسيادتهم على هذه الإمارة، كما أن السلاجقة الذين استبدوا بالسلطة فى بغداد فى منتصف القرن الخامس الهجرى شغلوا عنها بالعمل على توطيد نفوذهم فى العراق ومد سلطانهم على بلاد المشرق.

كانت الدولة الفاطمية فى مصر تراقب الاضطراب السائد فى عمان وتحرص على الإبقاء على دعوتها التى قام دعاتها بنشرها فى هذا القطر منذ أواخر القرن الثالث الهجرى، فلما وصل إلى المستنصر بالله الفاطمى ضعف النفوذ العباسى فى عمان وثورة رجالها ضد الهيئة الحاكمة فيها، بعث إلى المكرم أحمد الذى ولى الملك فى اليمن بعد وفاة أبيه على بن محمد الصليحى خطابا فى ربيع الثانى سنة ٤٦٩ هـ طلب إليه فيه القيام بإدارة شئون ولاية عمان والعمل على استتباب الأمن فيها رغم أنها لا تدخل فى نطاق دولته(٣).

وفيما يلى بعض ما جاء فيه(٤) : «من عبد الله ووليه معد أبى تميم، الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، إلى الملك الأجل، والأوحد، المنصور العادل المكرم، عمدة الخلافة . . عظيم العرب، سلطان أمير المؤمنين . . . أبى الحسن أحمد. . . ، أما بعد : فإن أمير المؤمنين لما يعلمه من خلوص طاعتك وضميرك، بحسن الطريقة فى سياستك وتدبيرك . . . ، وإن آثارك فيما إليك من الأعمال

(١) ابن الأثير : جـ ٩ ص ١٦١ ـ ١٦٢.

(٢) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٩٣.

(٣) Bulletin School of Oriental Studies (Letters of Al-Mustansir Billah) 1934, Vol VII. Part 2. p. 322.

(٤) السجلات المستنصرية رقم ٥٤ ص ١٧٦ ـ ١٧٩.

مـأثورة، ومـقـامـاتك فى نصـرة الدين والإصـابة بالدعـوة العلوية مـعـروفـة مشـهورة. . ، ولقد جـدد السيد الأجل، أمير الجيوش سيف الإسـلام، ناصر الإمام، أبو النجـم المستنصرى . . فى هذا الحـين ذكرك بالحضـرة، وشيّـد مالك لديهـا من الاصـطفـاء والأثرة . . . ، ولما انتـهى إلى حـضـرة أمير المؤمنين حـال (مدينة عمـان) وما جرى فيها من الغـلاء والفساد . . . ، والمروق عن أحـكام الملة الدينيـة. . ، وقد كـان غدق أمـر الحرم المحـروس وأعمـاله بولايتك، ووكله إلى تدبيرك وسـياستك، بحـكم كون الأعمال الـيمنية والحـجازية واحدة فى الاهـتمام بأحوالها، ولقـرب أعمالك من أعمالها . . . ، رأى أمير المؤمنين . . . ، أن يضيف إلى ذلك ومـا يجـرى فى نظرك ولايـة مدينـة عمـان، لكونهـا أيضـا لأعـمـالك مجاورة. . ، وخذ كافة الرجـال والمستـخـدمين بوظـائف الخدمة، والمسـارعة إلى كل مهمة، وصيانة الأعمال الدانية والقـاصـية، وتشـبيت قانون الخدمة، فإن أمير المؤمنين باسط يدك فى جـميـعهم لتثبـيت من ترتضى طـريقته، وتسـتبدل من ترى الصواب الاستبدال به، وأمير المؤمنين يشعـرك ما طالع به حضرة الأمير مستخلص الدولة العلوية وعدتها : عبد الله بن على العلوى المستقر بالأحساء. . ، وأنه اعتمد إقامـة الدعـوة العلوية، وناضل كافـة الأعداء من الخـوارج. . ، وأصاب بالدعـوة المستنصـرية فى أرجائها. . ، واقتضى ذلك نـفوذ السجل من حضرة أمـير المؤمنين مضمنا إحماد خدمته. . ».

وكـانت بلاد اليمـن إذ ذاك تبعث إلى عـمـان والهند بالدعـاة لنشر الدعـوة الفاطمية، كـما أنه كان بهذين القطرين أنصار كثيـرون يؤيدون المذهب الإسماعيلى الذى تحرص الدولة الفاطمية على نشره، فلما ورد إلى المستنصر عدة خطابات منهم تتضـمن وفاة دعاته ورغبـتهم فى أن يزود بلادهم بدعاة غـيرهم، بعث إلى المكرم أحمـد كتابـا فى ربيع الأول سنة ٤٧٦ هـ أخبره بمـوافقتـه على تعيين مرزبان بن إسحق داعيا بالهند، وإسماعيل بن إبراهيم بن جابر داعيا بعمان.

ويتجلى لنا حـرص الخليفة الفـاطمى على تعيين الدعـاة بهذين القطرين من قوله[1] : «. . فأمـا ما ذكـرته من أمر الدعـوة الهادية بالهـند وجزائرها، وعُـمان

(١) السجلات المستنصرية : رقم ٦٣، ص ٢٠٥.

وعملها، وفقد المتولين لها . . . ووردت مكاتبات إلى أمير المؤمنين من هناك يلتمسون استخدام من يجمع شملهم ويشفقون به ـ بعد من فقدوه ـ ميلهم، وسؤالك تقليد الرئيس : مرزبان بن إسحق بن مرزبان الهند وجزائرها، وإسماعيل ابن إبراهيم بن جابر عمان وعملها، لما وصفته من ديانتهما وحميد أثرهما ومذهبهما؛ فقد وقف أمير المؤمنين على ما شرحته، وتقدم بإصدار ملطفين عن حضرته إلى المذكورين بتقليدهما، من مجلس السيد الأجل، أمير الجيوش، وجميع ذلك واصل بإذن الله بوصول هذه الإجابة . . ».

كما أرسل المستنصر فى أواخر سنة ٤٨١ هـ خطابا إلى السيدة الحرة التى آل إليها الملك ببلاد اليمن أخبرها بموافقته على تعيين أحمد بن مرزبان داعيا بالهند بعد وفاة والده، وأبدى ارتياحه لاختيارها حمزة بن سبط حميد الدين ليقوم بمعاونة الداعى أحمد فى نشر الدعوة الفاطمية ببلاد الهند ونوّه المستنصر فى خطابه بثقته فى المجهودات التى تقوم بها السيدة الحرة فى سبيل نشر الدعوة له فى كل من بلاد اليمن وعمان والهند[1].

ومما ورد فيه[2] : «من عبد الله ووليه : معد أبى تميم الإمام المستنصر بالله، أمير المؤمنين إلى الحرة الملكة. السيدة. السديدة. المخلصة . . ولية أمير المؤمنين . . أدام الله تمكينها ونعمتها . . أما بعد : فإنه عرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك المضمن وفاة داعيه بالهند : غرس الدين، ولى أمير المؤمنين، مزربان، وأنه خلف ولدين ذوى دين وتقية واستصلاح للخدمة. وأن المومأ إليه منهما أحمد الأكبر لتمييزه وحميد طريقته . . ، ثم شفعت ذلك بما اعتمده إسماعيل ابن إبراهيم الداعى بعمان من التخلى عن الخدمة . . ، وأن سبط حميد الدين خلف ولدا يسمى حمزة يصلح للاستخدام عوض المذكور . . وأحمد الله تنبهك على هذه المصالح وتفقدك أحوال الدعوة والدعاة فى (تلك) الأطراف والنواحى . . وأوعز أمير المؤمنين إلى فتاه السيد الأجل، أمير جيوشه . . بإصدار التقليدين عن مجلس نظره باسم كل من الداعيين المذكورين . . ، وأنت قد جعل إليك أمير

(١) (B. S. O. S.), 1934. Vol. VII Part 2, p. 321, 324

(٢) السجلات المستنصرية : رقم ٥٠ ص ١٦٧ ـ ١٦٩.

المؤمنين النظر فى تلك البلاد والأعمال ومراعاة دعاتها وانتظام حال الدعوة فيها..».

يتضح لنا مما تقدم إلى أى حد عنيت الخلافة الفاطمية بنشر دعوتها فى عمان وكيف أصبح لهذه الدعوة أنصار كثيرون بتلك الولاية. ولا شك أن الدولة الفاطمية كانت ترمى من وراء بث الدعوة بعمان إلى تحقيق سياستها فى بسط سلطانها على أقطار جزيرة العرب ليتيسر لها بذلك إضعاف الخلافة العباسية والقضاء عليها.

الباب الرابع

النفوذ الفاطمى فى بلاد اليمن

تمهيد : بلاد اليمن في أواخر عهد ولاة العباسيين.

١ ـ جهود دعاة الإسماعيلية في نشر الدعوة الفاطمية باليمن.

٢ ـ موقف أمراء الصليحيين من الخلفاء الفاطميين.

تمهيد : بلاد اليمن في أواخر عهد ولاة العباسيين

دخلت بلاد اليمن فى حوزة العباسيين بعد أن انتقلت إليهم الخلافة وصار الولاة يتعاقبون عليها من قبلهم، واتخذوا صنعاء حاضرة لهم؛ غير أن الأمور لم تستقر استقرارا تاما فى هذه البلاد؛ فلما بلغ المأمون اضطراب الأمن فيها وذيوع الدعوة الشيعية بين أهلها، عول على أن يختار لولايتها رجلا يستطيع أن يقضى على عوامل الفساد فيها؛ فأشار عليه الحسن بن سهل بأن يسند إلى محمد بن إبراهيم الزيادى ولاية اليمن؛ فولاه عليها سنة ٢٠٣ هـ، ولم يمض عام واحد على هذا الوالى حتى اختط مدينة زبيد واتخذها حاضرة له[١]، وأخذ منذ ذلك الوقت يوطد نفوذه فى جميع أرجاء بلاد اليمن؛ فدخلت فى طاعته حضرموت والشحر وديار كندة ولحج والتهايم[٢]؛ وما زال نفوذه فى ازدياد حتى أصبح فى مقام الملوك المستقلين، لكنه مع ذلك احتفظ بولائه للخلافة العباسية وصار يقيم الخطبة لبنى العباس ويرسل إليهم الخراج والهدايا كل عام[٣].

نجح محمد بن إبراهيم الزيادى فى جعل ولاية اليمن وراثية فى أبنائه تدين بالطاعة للعباسيين، فلما توفى سنة ٢٤٥ هـ خلفه ابنه إبراهيم، ثم تولى بعده ابنه زياد؛ غير أن هذا الوالى لم يمكث طويلا فى الحكم وأعقبه فى ولاية اليمن ابنه أبو الجيش إسحق، فظل يلى أمورها حتى بلغ الثمانين من عمره.

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٣.

(٢) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٢١٢.

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤.

أخذت الدولة الزيادية فى بلاد اليمن فى الانحلال، فى أواخر عهد الأمير أبى الجيش إبراهيم، فخرج بصنعاء أسعد بن أبى يعفر، وثار بصعدة يحيى بن القاسم الرسى الملقب بالهادى[١]، وكان يدعو للزيدية - أتباع زيد بن على زين العابدين - ؛ ولما عظم نفوذه وكثر أنصاره زحف على صنعاء، فاستولى عليها من يد أسعد بن يعفر، غير أن بنى أسعد ما لبثوا أن استردوها منه، فعاد إلى صعدة وأسس فيها دولة بنى الرسى. وهكذا أصبح فى بلاد اليمن ثلاث دويلات : إحداها فى زبيد، والثانية فى صنعاء، والثالثة فى صعدة[٢].

(١) ورد نسبه فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٣٨ على الوجه الآتى :

يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن على بن أبى طالب

Kay, Yamen, Its Early Mediaeval History p. 242..

(٢) صعدة : بلدة على ستين فرسخا من صنعاء «القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٢».

ا - جهود دعاة الإسماعيلية فى نشر الدعوة الفاطمية باليمن :

كان لضعف الدولة الزيادية أثر كبير فى نجاح الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن، ففى الوقت الذى تفككت فيه عرى وحدة هذه الدولة بعث محمد الحبيب إمام الإسماعيلية بسلمية[١] كلا من على بن الفضل اليمانى وأبى القاسم رستم الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى إلى تلك البلاد لينشر الدعوة للمهدى من آل محمد، فلما وصلا إلى اليمن سنة ٢٦٨ هـ [٢] أخذا فى بث دعوتهما. ثم بنى ابن حوشب حصنا بجبل لاعة وأعد جيشا زحف به على صنعاء وأخرج منها بنى يعفر، كما بعث الدعاة إلى جميع أرجاء اليمن فنشروا الدعوة الإسماعيلية بين أهلها، وتمكن بمعاونتهم من التغلب على كثير من بلادها[٣].

لما رأى ابن حوشب الذى عرف بمنصور اليمن أن دعوته إلى المهدى لقيت قبولا لدى كثير من أهالى بلاد اليمن كتب إلى محمد الحبيب وابنه عبيد الله بسلمية يخبرهما بما فتح من البلاد، كما بعث إليهما بالأموال والهدايا، فسرهما ذلك[٤].

على أن محمد الحبيب لم يكتف بنجاح تلك الدعوة فى بلاد اليمن بل حرص أيضا على نشرها فى بلاد المغرب، فأرسل أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا المعروف بالشيعى إلى ابن حوشب وأمره بالدخول فى طاعته والاقتداء بسيرته، على أن يرحل بعد ذلك إلى المغرب لينشر بها الدعوة الإسماعيلية. فقدم أبو عبد الله علَى ابن حوشب وصار من كبار أصحابه، ولما اتصل بابن حوشب نبأ وفاة الداعيين أبى سفيان والحلوانى فى بلاد المغرب، عهد إلى أبى عبد الله الشيعى بالقيام بالدعوة إلى المهدى فى تلك البلاد، فخرج أبو عبد الله إلى مكة ثم رحل منها قاصدا بلاد المغرب، وأخذ ينشر بين أهلها الدعوة الإسماعيلية ويتحدث إليهم عن قرب ظهور المهدى من آل على بن أبى طالب، وظل أبو عبد الله مواليا للإمام محمد الحبيب يرسل إليه رسله وهداياه[٥].

---

(١) بلدة من أعمال حماة وكانت تعد من أعمال حمص. ياقوت : معجم البلدان.
(٢) Kay, Yamen, Its Early Mediaeval History p. 225
(٣) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٣٠ - ٣١، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٧ - ٦٨.
(٤) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٧ - ٢٨.
(٥) ابن الأثير : جـ ٨ ص ١٠ - ١١، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٨ - ٦٩، ٧٤ - ٧٧.

كان محمد الحبيب قد عهد لابنه عبيد الله بالإمامة من بعده وقال له : «إنك ستهاجر بعدى هجرة وتلقى محنا شديدة»، فلما توفى خلفه فى إمامة الإسماعيلية، فواصل القيام بنشر الدعوة لنفسه، وبذل الأموال الكثيرة فى سبيل نجاحها.

كان دعاة الإسماعيلية فى اليمن إذ ذاك يعتقدون أن دولة المهدى ستظهر فى بلادهم، كما حرص رؤساؤهم على أن يكون قيامها فى أيديهم، وكذلك كانت الحال بالنسبة لدعاة الإسماعيلية فى بلاد المغرب، فكانوا يرجون قدوم المهدى إليهم لإقامة دولته المنشودة. فأرسل كبيرهم أبو عبد الله الشيعى إلى عبيد الله وهو بسلمية وفدا من رجال كتامة يدعوه للقدوم إلى بلاد المغرب. يقول المقريزى(١) : «وسير أبو عبد الله إلى عبيد الله بن محمد رجالا من كتامة ليخبروه بما فتح له وأنه ينتظره، فوافوا عبيد الله بسلمية من أرض حمص».

كان الخليفة المكتفى العباسى فى ذلك الوقت قد وصله خبر ذيوع الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن والمغرب فعهد إلى بعض رجاله بتعقب حركات عبيد الله والقبض عليه(٢)، فخرج عبيد الله هاربا من سلمية بعد مقابلته وفد كتامة ووقوفه على مدى نجاح دعوته فى بلاد المغرب، وأخبر بعض أتباعه أنه سيقصد اليمن. يقول جعفر الحاجب الذى صحبه عند رحيله من سلمية «وأمرنا المهدى بالأخذ فى أهبة السفر والخروج معه وأظهر لنا أنه يريد اليمن»(٣).

على أن عبيد الله المهدى لم يكن راغبا رغبة أكيدة فى إقامة دولته ببلاد اليمن، بل أزمع الرحيل إلى بلاد المغرب منذ خرج من سلمية تلبية للدعوة التى وجهها إليه داعيته أبو عبد الله الشيعى. يؤيد ذلك ما قاله ابن الأثير(٤) : «وشاع خبره عند الناس أيام المكتفى، فطلب وهرب هو وولده أبو القاسم نزار، وخرج معه خاصته ومواليه يريد المغرب». وفضلا عن ذلك فإن عبيد الله المهدى كان حريصا على تحقيق رغبة أبيه فى إقامة دولته بالمغرب؛ فقال له حين بلغه نجاح

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ٢ ص ١١.
(٢) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٣٣.
(٣) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٠ «مجلة الآداب ديسمبر ١٩٣٦».
(٤) الكامل فى التاريخ : جـ ٨ ص ١٢.

ابن حوشب فى نشر الدعوة إلى المهدى فى اليمن : «هذه دولتك قد قامت، لكن لا أحب ظهورها إلا من المغرب[١]».

ومما لا شك فيه أن عبيد الله المهدى كان يحرص ألا يقع فى قبضة العباسيين الذين بثوا رجالهم لاستقصاء أخباره، لذلك عول على إخفاء حقيقة الجهة التى سيقصدها، وقال لبعض أتباعه إنه سيذهب إلى اليمن رغبة منه فى ألا تصل أخبار هربه إلى العباسيين الذين كانوا إذ ذاك يبذلون قصارى جهدهم للقضاء عليه.

أما ما ذكره ابن خلدون[٢] والمقريزى[٣] عن توجه عبيد الله المهدى إلى المغرب وعدوله عن إقامة دولته فى بلاد اليمن بسبب ما بلغه عن انحراف على ابن الفضل عن الدعوة الإسماعيلية وإساءته السيرة فى بلاد اليمن بما نشره من آراء أفسدت عقول فريق من أهلها، فلا يستند إلى أدلة صحيحة، لأن المتتبع لرحلة المهدى من سلمية إلى مصر، ثم إلى بلاد المغرب يتضح له أنه لم يفكر فى الذهاب إلى بلاد اليمن، كما أن مناهضة على بن الفضل للدعوة الإسماعيلية لم تظهر إلا بعد أن استقر الأمر لعبيد الله المهدى فى بلاد المغرب، ولو أن عبيد الله المهدى كان حريصا على إقامة دولته فى بلاد اليمن لما ثناه عن ذلك خروج على بن الفضل على دعوته لأن داعيه ابن حوشب ظل مواليا له وصار له أنصار كثيرون بين أهالى بلاد اليمن يرحبون بقدوم المهدى إليهم ويعتقدون بصحة إمامته، فإذا ما قصد بلادهم دخل الجميع فى طاعته والتفوا حوله.

كان عبيد الله المهدى يصحب عند خروجه من سلمية داعى دعاته فيروز، فلما وصل إلى مصر وشرع فى الرحيل منها إلى المغرب شق ذلك على فيروز، وتخلف عن السير معه، ومضى إلى اليمن حيث استقبله ابن حوشب بمظاهر الحفاوة والاحترام، لما كان يتمتع به من مكانة خاصة عند المهدى. وقد تحدث فيروز عن مهمته فى بلاد اليمن؛ فقال : إن الإمام بعث به مشرفا عليه إلى أن يقوم من المغرب بجنده إلى مصر ويكتب إليه ليمده بالعساكر من أهل اليمن[٤].

(١) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ٤٢.
(٢) جـ ٤ ص ٦٩.
(٣) اتعاظ الحنفا ص ٦.
(٤) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب «مجلة كلية الآداب ـ ديسمبر ١٩٣٦» ص ١١٤ ـ ١١٥.

على أن ابن حوشب ما لبث أن وقف على الأسباب التى حملت فيروز على القدوم إلى اليمن حين وصله كتاب من المهدى مقرونا بكتاب الداعى أبى على - صهر فيروز - الذى كان إذ ذاك يقوم بنشر الدعوة الفاطمية فى مصر. وقد تضمن هذان الكتابان كيف انصرف فيروز عن المهدى ورحل إلى اليمن مغاضبا له. وكان المهدى يخشى عاقبة خروج فيروز عليه، لذلك أمر ابن حوشب فى كتابه بالعمل على التخلص منه.

لما وصل فيروز ما تضمنه الكتاب الذى بعثه المهدى إلى ابن حوشب ولى هاربا. ولم يزل ابن حوشب يتابع البحث عنه حتى بلغه خبر اتصاله بعلى بن الفضل، وأنه فتنه عن الدعوة الإسماعيلية ودعاه إلى نفسه، فخرج إليهما وحاربهما مدة طويلة[1].

كانت الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن فى حاجة إلى توحيد جهود كل من ابن حوشب وعلى بن الفضل فى سبيل نشرها، لكن على بن الفضل لم يتعاون مع ابن حوشب تعاونا صادقا لتحقيق هذه الغاية، بل كثيرا ما استقل عنه فى نشر تلك الدعوة.

كذلك لم يكن على بن الفضل مخلصا فى ولائه لعبيد الله المهدى، فوقع تحت تأثير فيروز الذى أغراه بقبول دعوته، كما طمع فى الاستقلال ببلاد اليمن بعد أن استقرت له الأمور فى كثير من أرجائها، وخلع طاعة عبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى فى بلاد المغرب، فبعث إليه ابن حوشب رسالة يعاتبه فيها ويذكره بما كان من رعاية محمد الحبيب لهما، وقيامه بأمرهما وقال له : «كيف تخلع طاعة من لم تنل خيرا إلا به، وتترك الدعاء له؟ أوما تذكر ما بينك وبينه من المواثيق والعهود[2]»؛ فلم يعبأ ابن الفضل بقوله وكتب إليه : «إنما هذه الدنيا شاة ومن ظفر بها افترسها[3]».

لم يكتف ابن الفضل بخروجه على عبيد الله المهدى. بل ثار أيضا على ابن حوشب طمعا فى استخلاص بلاد اليمن لنفسه، فأعد جيشا كبيرا لمحاربته؛ ودار بين الفريقين قتال عنيف. ولما اشتدت وطأته على ابن حوشب، أرسل إلى على

(١) اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٥.
(٢) ابن المؤيد اليمنى : أنباء الزمن فى أخبار اليمن ورقة ٣١.
(٣) الحمادى اليمنى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٣.

ابن الفضل فى طلب الصلح، فاشترط أن يبعث إليه أحد أبنائه ليكون ذلك دليلا على دخوله فى طاعته. فأجابه ابن حوشب إلى طلبه وأرسل إليه ولده، فأبقاه ابن الفضل عنده سنة ثم رده إليه(١).

لم يؤد هذا الصلح إلى عودة الوفاق بين ابن حوشب وعلى بن الفضل سيرته الأولى، بل ظل كل منهما يعمل مستقلا عن الآخر، مما ساعد على إضعاف الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن، كما أن عبيد الله المهدى رغم حرصه على بسط سيادته على تلك البلاد لم يوجه اهتمامه إلى وضع حد لهذا النزاع الذى قام بين ابن حوشب وعلى بن الفضل، بل تركهما وشأنهما. ولعل انشغاله بتوطيد دعائم خلافته فى بلاد المغرب هو الذى حمله على الانصراف عنهما.

ظل ابن حوشب حريصا على ولائه لعبيد الله المهدى حتى توفى سنة ٣٠٢هـ. أما على بن الفضل فإنه منذ خلع طاعة عبيد الله المهدى لم يعدل عن خطته فى العمل على الاستئثار بالنفوذ فى بلاد اليمن مما أثار ضده السنيين وأنصار المهدى، ولم يتمكن فى النهاية من التغلب على هذين الفريقين والانفراد بالزعامة فى بلاد اليمن؛ وبذلك لم تتحقق مطامعه، بل فشل فى تكوين حزب قوى يكون عونا له على نشر دعوته. فلما توفى سنة ٣٠٣ هـ لم يجد ابنه الذى ولى الأمور من بعده أنصارا أقوياء يدرءون عنه خطر السنيين فى بلاد اليمن، فتعرض لهجومهم، ووقع إخوته أسرى فى أيديهم، وما زالوا يتتبعون أعوانه حتى قضوا عليهم(٢).

ظل للدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن أنصار كثيرون بفضل ما بذله ابن حوشب من مجهود فى سبيل نشرها، وبلغ من اهتمامه بأمرها أن أوصى قبيل وفاته سنة ٣٠٢ هـ كلا من ابنه أبى الحسن وتابعه عبد الله بن عباس الشاورى بأن يستمرا فى إقامة الدعوة لعبيد الله المهدى وأهل بيته؛ وقال فى وصيته: «قد أوصيتكما بمبدأ الأمر فاحتفظاه ولا تقطعا دعوة بنى عبيد . . فنحن غرس من غرسهم، ولولا ناموسهم وما دعونا به إليهم ما صار إلينا من الملك ما قد نلناه، ولا تم لنا فى الرياسة حال، فعليكما بمكاتبة القائم منهم واستيراد الأمر منهم،

(١) الحمادى اليمانى: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) الحمادى اليمانى: أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٦ ـ ٣٩.

وأوصيكما بطاعة المهدى . . . حتى يرد أمره بولاية أحدكما ويكون كل واحد منكما عونا لصاحبه[(١)]».

كان عبد الله بن عباس الشاورى يطمع فى الاستقلال بأمر الدعوة فى بلاد اليمن، فكتب إلى عبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى ببلاد المغرب يخبره بوفاة ابن حوشب، كما أبلغه أنه يقوم بأمر الدعوة له، وسأله الولاية وعزل ولد ابن حوشب[(٢)]. ولما كان أبو الحسن ولد ابن حوشب يرى أحقيته فى أن يخلف أباه فى القيام بأمر تلك الدعوة، لذلك رحل إلى بلاد المغرب، حيث قابل المهدى وطلب منه أن يقلده محل أبيه، ورجاه ألا ينزع هذا الأمر من إخوته؛ غير أن المهدى لم يجبه إلى طلبه لأنه أقر قبيل قدومه عليه عبد الله بن عباس الشاورى فى القيام بأمر دعوته، فعاد أبو الحسن إلى بلاد اليمن دون أن تتحقق رغبته[(٣)].

وليس من شك فى أن عبيد الله المهدى أثبت بتدخله فى تولية عبد الله ابن عباس الشاورى أمر الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن وإقصائه أولاد ابن حوشب عنها ما كان يتمتع به من نفوذ فى بلاد اليمن، كما أنه حرص على اختيار من يثق به ليكون عونا له على نشر دعوته فى تلك البلاد، وخاصة بعد أن ضعف أمرها من جراء النزاع الذى قام بين كل من على بن الفضل وابن حوشب.

على أن تولية عبد الله بن عباس الشاورى أمر الدعوة الفاطمية فى اليمن لم تلق ارتياحا من نفس أبى الحسن ولد ابن حوشب على الرغم مما أظهره ابن عباس الشاورى من شعور طيب نحوه ونحو أخويه جعفر وأبى الفضل وإكرامه إياهم وترحيبه بمقابلتهم فى أى وقت شاءوا دون أن يعترضهم حجابه[(٤)].

وقد أدى حرمان أبى الحسن من رياسة الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن إلى إضماره السوء والعداوة لابن عباس الشاورى الذى قبح رأيه وزجره وقال له: «أنت تعلم أنه غرس أبينا وأنه لا يقدم علينا سوانا فى هذا الأمر» فأجابه بقوله:

---

(١) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٣٩..

(٢) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول عن كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ١٥٠.

(٣) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠

(٤) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك وطبقات الموالى والملوك ص ١٥١.

«والله لا تركته يتنعم في ملك عني به غيره، ونحن أحق به منه». فقال له أخوه جعفر : « إن أمرنا إذن يتلاشى ويزول ملكنا وتفترق هذه الدعوة ويذهب الناموس الذي نمسناه[١] على الناس، فلا تحدث نفسك بهلاكه فنهلك»، فلم يلتفت أبو الحسن إلى قول أخيه جعفر وعول على التخلص من ابن عباس، وما لبث أن قتله غدرا وولي الأمر من بعده[٢].

لم يعمل أبو الحسن بعد أن تقلد ما كان يليه أبوه ابن حوشب على نشر الدعوة الفاطمية، بل انقلب معاديا لها، حريصا على القضاء عليها بعد أن كان من أنصارها، فارتد عن المذهب الإسماعيلي واعتنق مذهب أهل السنة، وجمع العشائر وأشهدهم أنه رجع عما كان عليه أبوه، فأحبه الناس ودانوا له بالطاعة»[٣].

كان لخروج أبي الحسن على الدعوة الفاطمية أسوأ الأثر في نفس أخيه جعفر الذي عارضه في سياسته وقبح رأيه وقال له : «قطعت يدك بيدك»، فلم يكترث بقوله، وخرج جعفر من بلاد اليمن مغاضبا له وقصد بلاد المغرب رغبة منه في الاتصال بعبيد الله المهدي وإخباره بمناهضة أخيه للدعوة الفاطمية، فوجده قد توفي وخلفه ابنه القائم سنة ٣٢٢ هـ، فأقام عنده.

مضى أبو الحسن في سياسته التي اختطها لنفسه والتي كان من أثرها أن فرقت بينه وبين أخيه جعفر، دون أن ينظر إلى عاقبتها الوخيمة عليه؛ فأخذ يتتبع أنصار أبيه من الإسماعيلية تتبعا مقرونا بالشدة والعسف، أدى إلى تفرقهم وقتل الكثيرين منهم؛ غير أن بعض الإسماعيلية في اليمن استطاعوا النجاة من اضطهاده كما حرصوا على كتمان أمرهم حتى لا يتعرضوا لإيذائه وولوا عليهم رجلا منهم ـ وكان لا ينقطع عن مكاتبة الخليفة الفاطمي ببلاد المغرب ـ [٤] مما يثبت لنا أن الدعوة الفاطمية لم يقض عليها في بلاد اليمن، وأنه لم يزل لها أنصار يرجون سيادتها على الرغم مما لاقوه من عنت واضطهاد.

---

(١) نمس السر : كتمه، ونمس بين القوم : أفسد وأغرى (حسن إبراهيم وطه شرف : كتاب عبيد الله المهدي حاشية رقم ٢ ص ٢٣٨).

(٢) الحمادي اليماني : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠.

(٣) البهاء الجندي : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك في الطبقات الموالي والملوك ص ١٥١.

(٤) الحمادي اليماني : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤٠.

لم يجن أبو الحسن ثمرة مناهضة الدعوة الإسماعيلية وخروجه على طاعة الخلافة الفاطمية، فإنه فضلا عن انقسام أهل بيته وما ترتب عليه من انصراف كثير من أنصاره عنه، لم يلق من أنصاره الجدد من السنيين تأييدا يكون عونا على نجاح هذا الانقلاب الذى أحدثه، بل شكوا فى إخلاصه رغم ارتداده عن المذهب الإسماعيلى، وتآمره عليه، وقتلوه، وتتبع السنيون من أهالى بلاد اليمن الغربية أولاده وحريمه، فقتلوا الصغير منهم والكبير وسبوا حريمهم، وبذلك قضوا على أسرة ابن حوشب(١).

لما توفى أبو الحسن، طمع إبراهيم بن عبد الحميد الشيعى ـ وكان من كبار الإسماعيلية فى بلاد اليمن ـ فى أن يتقلد ما كان يليه من البلاد، فأعلن ارتداده عن المذهب الإسماعيلى وأقام الخطبة لبنى العباس(٢). ولم يزل يتتبع الإسماعيلية ويقتلهم حتى قضى على الكثير منهم، وما لبث أن اجتمع شمل الفريق الذى نجا من هذا الاضطهاد بناحية جبل مسور جنوبى صنعاء تحت زعامة ابن الطفيل(٣). ولما وصل إلى إبراهيم بن عبد الحميد الشيعى نبأ تزعمه الإسماعيلية باليمن خرج إليه وقتله، فتفرق من بقى من أصحابه وقصدت جماعة منهم نواحى عمان(٤).

اتخذت طائفة الإسماعيلية باليمن بعد وفاة ابن الطفيل، ابن رحيم رئيسا لها ويعرف أيضا بابن جفتم(٥)، وكان كثير التنقل، لا يستقر فى موضع واحد خوفا من تعقب السنيين له ـ ولم يصرفه ذلك عن مكاتبة الخليفة المعز لدين الله الفاطمى منذ قدم من بلاد المغرب إلى مصر، واتخذ القاهرة حاضرة له، وأظهر له فى كتبه دخوله فى طاعته، كما حرص على أن ينهى إليه وإلى الخليفة العزيز بالله الفاطمى من بعده أخبار أهل اليمن(٦). ولم يزل على ولائه لهذا الخليفة حتى شعر بدنو أجله، فاستخلف على أتباعه من الإسماعيلية رجلا منهم يقال له يوسف بن الأسد(٧).

---

(١) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤١.
(٢) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ١٥٢.
(٣) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٢٤.
(٤) الحمادى اليمنى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤١.
(٥) الديبع الشيبانى : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ١٦.
(٦) الحمادى اليمانى : أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٤١ ـ ٤٢.
(٧) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ١٥٢.

لم يكن دعاة الإسماعيلية فى بلاد اليمن هم الذين أقاموا الدعوة وحدهم للخليفة العزيز بالله الفاطمى، بل أقامها أيضا أمير صنعاء عبد الله بن قحطان بن أبى يعفر سنة ٣٧٩ هـ . وكان أمراء بنى يعفر قد استعادوا هذه المدينة بعد وفاة على بن الفضل سنة ٣٠٣ هـ، وضموا إلى حوزتهم بعض البلاد المجاورة لها، وأقاموا فيها الخطبة للخليفة العباسى، فلما استقرت الأمور لعبد الله بن قحطان فى صنعاء، تجهز لفتح تهامة وأوقع الهزيمة بأميرها أبى الجيش إسحق بن إبراهيم بن زياد، ثم دخل زبيد حاضرة بنى زياد واستولى عليها وأمر بقطع الخطبة للخليفة العباسى فى جميع البلاد التى تحت سيطرته وإقامتها للخليفة العزيز بالله الفاطمى، واستمر الحال على ذلك حتى توفى سنة ٣٨٧ هـ (١).

وهكذا أتيح للدعوة الفاطمية أن تستعيد مكانتها فى بلاد اليمن بعد أن لاقى دعاتها كثيرا من العنت والاضطهاد على يد السنيين، كما أخذت الدعوة العباسية فى تلك البلاد فى الضعف والانحلال تبعا لنشاط دعاة الإسماعيلية وانصراف أمراء اليمن ـ الذين كانوا يدينون بالطاعة لبنى العباس ـ إلى التنافس والتنافر فيما بينهم مما أدى ببعضهم إلى إحلال اسم الخليفة الفاطمى فى الخطبة محل الخليفة العباسى. وليس من شك فى أن هذا العمل مهد السبيل لازدياد النفوذ الفاطمى ببلاد اليمن.

كان دعاة الإسماعيلية فى بلاد اليمن لا يألون جهدا فى القيام بنشر الدعوة للخلفاء الفاطميين، فظل يوسف بن الأسد يدعو سرا للخليفة الحاكم بأمر الله حتى توفى، فخلفه داع جرىء يدعى عامر بن عبد الله الزواحى ـ كان كثير المال والجاه، وقد استغل ماله ونفوذه فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية، واستمال عددا كبيرا من أهالى اليمن إلى المذهب الإسماعيلى، وظل يدعو للفاطميين طيلة عهد الحاكم والظاهر وأوائل أيام المستنصر(٢). ولما حضرته الوفاة استخلف على بن محمد الصليحى(٣). الذى نشأ فقيها صالحا، وصار دليلا لحاج اليمن عدة سنين، وما لبث أن عظمت شهرته وذاع بين الناس أنه سيمتلك اليمن بأكمله. ولما حج

---

(١) الديبع الشيبانى : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ١٧.

(٢) البهاء الجندى : أخبار القرامطة باليمن المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك ص ١٥٢.

(٣) عرف بالصليحى نسبة إلى الإصلاح من بلاد حراز باليمن. العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٢٤.

سنة ٤٢٨ هـ، اجتمع بفريق من قومه همدان ودعاهم إلى نصرته ومؤازرته في دعوته، فأجابوه وبايعوه، وكانوا ستين رجلا من رجالات عشيرته[١].

وجه علي بن محمد الصليحي اهتمامه بعد عودته من بلاد الحجاز إلى اليمن سنة ٤٢٩ هـ إلى إحياء الدعوة الإسماعيلية القديمة التي قلده عامر بن عبد الله الزواحي زمامها، فأخذ في إظهارها واتخذ حصن مسار بجبل حراز مقرا له وما زال يستميل الناس حتى اجتمع إليه من سنحان وهمدان وحمير خلق كثير[٢].

لم تكن الأمور ممهدة لعلي بن محمد الصليحي ليقوم بنشر دعوته في جميع أرجاء اليمن؛ فعلى الرغم من زوال دولة بني زياد سنة ٤٠٦هـ، فقد ورث ملكهم مواليهم الذين ساروا على سياستهم في إقامة الخطبة لبني العباس، وكان من بين هؤلاء الموالي نجاح الذي تمكن من إقامة دولة سنية في زبيد خلفت دولة بني زياد. وقد تمتع نجاح بكثير من مظاهر الاستقلال في دولته، فصار يركب بالمظلة كغيره من السلاطين ويسك العملة باسمه. وبلغ من ازدياد نفوذه أن فوض إليه الخليفة العباسي تقليد القضاء لمن هو أهل له، كما عهد إليه بالنظر في شئون البلاد اليمنية ولقبه بالمؤيد نصر الدين[٣].

كانت دولة نجاح السنية تعمل على قمع أي محاولة يقوم بها دعاة الإسماعيلية لنشر دعوتهم في بلاد اليمن، لهذا لم يستطع علي بن الصليحي رغم تأييده خلافة المستنصر بالله الفاطمي أن يجهر بالدعوة له، يقول بامخرمة[٤]: «وكان الصليحي يدعو للمستنصر بن معد بن الظاهر العبيدي سرا ويخاف نجاحا».

وقد عمد الصليحي إلى مداراة نجاح وأظهر له أنه يدين بالطاعة له كما أخذ يتودد إليه ليأمن جانبه، ثم دبّر مؤامرة للتخلص منه؛ فأهدى إليه جارية سنة ٤٥٢هـ، دسّت له السم فمات[٥]، وخلفه من أولاده سعيد الأحول وجياش؛ غير أنهما لم يستطيعا أن يقفا في وجه الصليحي طويلا وهربا إلى دهلك[٦]، وبذلك قضى الصليحي على دولة نجاح وضم زبيد إلى حوزته.

(١) عمارة اليمني : تاريخ اليمن ص ١٨.
(٢) العرشي : بلوغ المرام في شرح مسك الختام ص ٢٤.
(٣) عمارة اليمني : تاريخ اليمن ص ١١ - ١٢، ابن المجاور : تاريخ ابن المجاور ورقة ٨٦.
(٤) المختار في تاريخ ثغر عدن ورقة ١٢٧.
(٥) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٢١٤. O. Leaiy De Lacy. A Short History of the Fatimid Khalifate p. 202
(٦) المقريزي : خطط جـ ٢ ص ١٧٢. دهلك : جزيرة في بحر اليمن (ياقوت : معجم البلدان).

٣ ـ موقف أمراء الصليحيين من الخلفاء الفاطميين

لما قوى أمر على بن محمد الصليحى وتوطد نفوذه فى بلاد اليمن التى استولى عليها، كتب إلى المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٥٣ هـ يستأذنه فى إظهار دعوته، كما بعث إليه هدية ثمينة، تشمل سبعين سيفا، مقابضها من عقيق، وخمسة أثواب وشى وفصوص عقيق ومسك وعنبر، فقبل المستنصر هديته وأمر له برايات، كتب عليها الألقاب وعهد إليه بالولاية، وأذن له فى نشر الدعوة[١].

علت مكانة الصليحى فى بلاد اليمن بفضل تأييد المستنصر له، وأخذ يوجه اهتمامه إلى توسيع رقعة بلاده، فسار إلى التهائم فافتتحها، ولم تمض سنة ٤٥٥ هـ إلا وقد بسط سلطانه على بلاد اليمن واتخذ صنعاء مقرا له[٢]. وفى ذلك يقول العرشى[٣] : «ولم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع لعلى بن محمد الصليحى، فإنه استولى على اليمن، سهله وجبله، وشماله وجنوبه، وغربه وشرقه، فى المدة اليسيرة، وقهر ملوكه».

استطاع الصليحى بعد أن اتسعت رقعة دولته وقضى على مناوئيه أن يعيد للدعوة الإسماعيلية مكانتها فى بلاد اليمن. وكانت قد وهنت بعد وفاة ابن حوشب وانقسام أبنائه على أنفسهم ـ وصارت الخطبة تقام على منابر تلك البلاد للمستنصر والصليحى وزوجته السيدة أسماء بنت شهاب، وزال بذلك نفوذ العباسيين فى بلاد اليمن[٤].

لما استقرت الأمور للصليحى فى صنعاء دعا إليه أمراء اليمن الذين أزال ملكهم وأسكنهم معه وولى صهره أسعد بن شهاب زبيد وأعمالها تهامة ـ وكان قد أقسم ألا يوليها إلا من قدم إليه مائة ألف دينار ـ ثم ندم على يمينه، فلما حملت إليه زوجته أسماء هذا المبلغ ليوافق على تعيين أخيها أسعد، قال لها الصليحى : يامولاتنا : أنَّى لك هذا؟ قالت هو من عند الله : «إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»؛ فتبسم وهو موقن أنه من خزانته. وبعد أن أعيد إليه المبلغ؛

---

(١) الديبع الشيبانى : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢١.

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٨.

(٣) بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٢٥.

(٤) بامخرمة : المختار من ثغر عدن ورقة ١٣٩ ـ ١٤٠.

قال : هذه بضاعتنا ردت إلينا. فقالت : ونمير أهلنا ونحفظ أخانا». فأقر الصليحي أسعد بن شهاب على ولاية زبيد سنة ٤٥٦ هـ . وكان حسن السيرة، فلم يسئ إلى رعاياه وعلى الأخص السنيين، وبلغ من تسامحه معهم أن أجاز لهم إظهار مذاهبهم(١).

كان الصليحي يحكم بلاد اليمن على اعتبار أنه نائب عن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي؛ وحرص هو وخلفاؤه من بعده على إظهار ولائهم للأئمة الفاطميين في مصر. وقد تبودلت بين الصليحي والمستنصر بالله الفاطمي عدة مراسلات تبين لنا ما كان بينهما من صلة وثيقة؛ ففي شهر صفر سنة ٤٥٢ هـ أرسل المستنصر إلى الصليحي خطابا أخبره فيه بمولد ابنه أحمد الملقب بأبي القاسم وطلب منه إذاعة هذا النبأ في جميع أنحاء دولته(٢)، كما بعث إليه خطابا آخر في رمضان سنة ٤٥٥هـ(٣) وصف فيه ثورة ابن باديس بإفريقية وكيف تمكن من القضاء عليها وأعاد بلادها إلى حوزته. ويتبين لنا من هذا الخطاب الأخير مدى اهتمام المستنصر بإخبار الصليحي نائبه وداعيته في بلاد اليمن بالأحداث التي تقع في دولته.

كان المستنصر يثق بالصليحي ويطمئن إليه في نشر دعوته ليس فقط في بلاد اليمن، بل أيضا في بلاد الحجاز، فعهد إليه بإقرار الأمور في مكة وأبدى له في رسالة بعثها إليه سنة ٤٥٦ هـ ارتياحه للخدمات الجليلة التي قام بها في سبيل إقامة الدعوة له وتوطيد نفوذه في بلاد اليمن والحجاز، وأنعم عليه بلقب عمدة الخلافة(٤).

كان الصليحي يريد السفر إلى مصر ليحظى بمقابلة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي؛ فبعث إليه رسالة مع مبعوثه لمك بن مالك ليأذن له بالقدوم عليه فأذن له الخليفة في خطاب أرسله إليه في جماد آخر سنة ٤٥٩هـ (٥) غير أن الصليحي رأى أن يذهب أولا إلى مكة لأداء فريضة الحج، واستخلف ابنه المكرم أحمد بصنعاء واستصحب معه أمراء اليمن خوفا من تآمرهم على ولده وإقصائه عن الملك، كما

---

(١) عمارة اليمني : تاريخ اليمن ص ١٩.

(٢) (حسين الهمداني) (B. O. S.), Vol VII Part 2, 1934, Letters of Al. Mustansir p. 313

(٣) (B. O. S.), Vol VII Part 2, 1934, p. 312 - 313

(٤) (B. O. S.), Vol VII Part 2, 1934, p. 312.

(٥) (B. O. S.), Vol VII Part 2, 1934, p. 309.

أخذ بصحبته زوجته أسماء بنت شهاب وبعض أفراد أسرته. وبينما هو فى طريقه إلى مكة اغتاله سعيد الأحول بن نجاح فى أواخر سنة ٤٥٩هـ[١].

ولى المكرم أحمد الملك بعد وفاة أبيه علي بن محمد الصليحى وبعث إليه الخليفة المستنصر بالله رسالة فى شهر شعبان سنة ٤٦٠ هـ عبر فيها عن أسفه لوفاة والده وعهد إليه بشئون الدعوة[٢].

عوّل المكرم بعد أن تقلد زمام الأمور فى بلاد اليمن على التخلص من سعيد الأحول بن نجاح الذى كان إذ ذاك قد استولى على زبيد، فسار على رأس جيش كبير. ولم تزل المعركة دائرة بين الفريقين حتى هرب سعيد ومن معه إلى دهلك. واستعاد بذلك المكرم سلطانه على زبيد وولى عليها خاله أسعد بن شهاب. على أن بنى نجاح ما لبثوا أن عادوا إلى زبيد فأوقع بهم المكرم الهزيمة وأخرجهم منها وقتل سعيد بن نجاح، وبعد أن تغلب المكرم على الصعوبات التى واجهته، أمر بضرب الدينار الملكى ونقش عليه هذه العبارة : «الملك السيد المكرم عظيم العرب سلطان أمير المؤمنين»[٣].

لما وصل إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى نبأ الهزيمة التى حلت بسعيد الأحول بن نجاح وقتله، أرسل إلى المكرم خطابا نوه فيه عن سروره لهزيمة العدو وأخذه الثأر لأبيه، وقال له : «فلله درك أيها الأجل، لقد زكى غرسك وطاب، وحق أمل أمير المؤمنين فى تقديم قدمك وما خاب، فاعلم أنك خليفته فى بلاد اليمن وعماده، وعدته وسناده، وقر عينا بما أعطاك الله من الرتبة السنية والدرجة العلية». وأبلغه فى نهاية خطابه أنه أنعم عليه بلقب أمير الأمراء[٤].

لم يكن لدى المكرم الصفات التى تؤهله ليخلف أباه فى إدارة شئون بلاد اليمن، لذلك نراه بعد أن استعاد زبيد من سعيد الأحول وعاد إلى صنعاء يقلد زوجته السيدة الحرة بنت أحمد بن محمد بن جعفر بن موسى الصليحى زمام

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٢٢، ابن المؤيد : أنباء الزمن فى أخبار اليمن ص ٤٠ . .

(٢) (B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 319

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٤) انظر السجلات المستنصرية رقم ٦٠ ص ١٩٦ ـ ١٩٩.

(B. O. S.)1934 , Vol VII Part 2, p. 323

الأمور فى اليمن، ويعهد إليها بالقيام بأمر الدعوة الإسماعيلية، أما هو فقد انصرف إلى التمتع بملاذ الحياة(١).

على أن المكرم رغم ذلك حرص على توطيد علاقته بالمستنصر بالله الفاطمى. فظل مواليا له، وعبر عن ذلك فى كتبه التى بعثها إليه، كما أشار أن الخليفة الفاطمى لم يهمل شأنه وأولى زوجته السيدة الحرة كل ثقته لإخلاصها للدعوة الإسماعيلية وظلت كتبه لا تنقطع عنهما، فبعث إلى المكرم كتابا فى ٢٩ من ذى القعدة سنة ٤٧٠ هـ يتضمن وصفا للمركز السامى الذى تقلده بدر الجمالى فى دولته والخدمات العظيمة التى أداها له باعتباره إماما، وكيف وطد نفوذ خلافته، فقال : «وقد نشر الله تعالى به دعوة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت رميما، ونضّر به خلافة أمير المؤمنين بعد أن أصبحت هشيما، لم يكن لأمير المؤمنين بد من أن يرقيه فى الرفع والإعلاء فوق الفراقد، ويحله منه محل الوالد، ويجعل له مقام الملك وينزله فى عقد خلافة الإمامة مكان السلك، فنص عليه فى كفالة قضاة المسلمين وهداية دعاة المؤمنين، نص حق ونقلها منه إلى مستحق إذا كان مبرزا فى ميدانها، ناطقا بلسانها عالما بأحكامها . .»، وطلب المستنصر من المكرم فى نهاية كتابه أن يطيع أوامر بدر وإرشاداته، فقال : «فول وجهك نحو هذا السيد الأجل واجعله قبلة دينك فى مصادرك ومواردك، وارجع إليه فيما عراك من مشكلات الدين، واشتبه عليك من فتاوى المؤمنين، ليرسل إليك من علمه شهابا قبسا، ويضرب لك فى بحر ما اشتبه عليك طريقا يبسا . .، واعلم أن الدولة الفاطمية بخدمته وجده واجتهاده أطلع الله شمسها فأصبحت من سماء العز فى الكبد، وشق فى نصرتها غياهب الظلمات بعد ضعف الناصر وقلة العدد . .»(٢).

ومما لا شك فيه أن بدر الجمالى الذى قلده الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وزارة السيف والقلم كان يتمتع إذ ذاك بنفوذ كبير فى مصر، فقد عهد إليه الخليفة إدارة كافة شئون دولته وزاد فى ألقابه : «السيد الأجل، أمير الجيوش. كامل قضاة المسلمين. هادى دعاة المؤمنين»، ومن ثم صارت كلمته نافذة على القضاة والدعاة وسائر موظفى الدولة(٣). ولما كانت سلطة بدر الجمالى قد امتدت تبعا لذلك إلى

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) انظر السجلات المستنصرية رقم ٦٠ ص ١٩٦ ـ ١٩٩ . (B. O. S.)1934 , Vol VII Part 2, p. 323

(٣) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٨٢.

الولايات الخاضعة لنفوذ الخلافة الفاطمية، لذلك رأى المستنصر أن يبعث إلى القائمين بأمر الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن يخبرهم بتقلد بدر الجمالى زمام دعوته. فأرسل إلى السيدة الحرة خطابا أشاد فيه بذكر هذا الوزير وقال : «فهو خليفتنا وباب دعوتنا، الحال منا محلا لم يحله أحد قبله، القائم من أمورنا مقام الأساس لمشكلات الالتباس، وهو عليك شفيق ولمصالح حالكم فى كل طريق»، وختم خطابه بقوله : «فاعلمى ذلك وسارعى إليه إن شاء الله تعالى»[١].

كان المكرم قبل وفاته قد أوصى أن يخلفه فى الدعوة ابن عمه أبو حمير سبأ ابن أحمد المظفر بن على الصليحى، فلما توفى سنة ٤٨٤ هـ، أرسلت السيدة الحرة خطابا إلى المستنصر بالله الفاطمى تخبره بوفاة زوجها المكرم وترجوه أن يوافق على تعيين ابنها عبد المستنصر مكانه ـ وكان لا يزال طفلا ـ فأقر الخليفة تعيينه خلفا لأبيه وعهد إليه بالقيام بشئون الدعوة، وأمر أن تعنون جميع المراسلات الصادرة منه إلى بلاد اليمن باسم عبد المستنصر[٢]، كما أرسل خطابات أخرى مع رسوله عضد الدين أبى الحسن جوهر المستنصرى، إحداها إلى السيدة الحرة يعزيها فى وفاة زوجها المكرم ويثنى على وفائها للدعوة.

على أن تولية عبد المستنصر أمر الدعوة لم تلق قبولا لدى أمراء اليمن بسبب صغر سنه، يؤيد ذلك هذا الخطاب الذى أرسله الخليفة الفاطمى إلى عبد المستنصر وقد وصفه فيه بأنه «سليل الدعوة ونجلها» ونوه بما لأسلافه من فضل السابقة فى التعلق بها وحسن الأثر فى نشرها، وقال إنه قلده « الدعوة الهادية فى سائر أعمال اليمن وما يليها سهلا ووعرا وبرا وبحرا»، وتحدث فى نهاية خطابه عما وصله عن اعتراض البعض على تقليده الدعوة بسبب صغر سنه، بقوله : «وبعد هذا، فقد كان أمير المؤمنين عرف بما أمده الله به من التأييد الخفى، والنظر الألمعى، أنه إذا شوهد ما خلص إليه من شريف هذا الاهتمام والتقديم والكمال والإنعام .. سترمقك العيون وتجول فى عظم ما خُصصت به الظنون، إذا وليت هذا الأمر العالى قدره وأنت فى سن الصبا، فأنكر أمير المؤمنين ذلك عليهم ... ووجّد

(١) (B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 312

(٢) (B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 366

على من ظن ذلك موجدته على من قدح فى الدين . . . ، لأن الله تعالى فوض إلى أمير المؤمنين الخلافة وسنه دون الثمان سنين، وقد جاز هذا فى الإمامة وهى الدرجة التى تلى النبوة، فكيف الدعوة التى لأمير المؤمنين أن يتصرف فيها على اختياره ويفوضها إلى من يرتضيه ويختاره[١] . . ».

كان الخليفة المستنصر بالله الفاطمى يحرص على استقرار الأمور فى بلاد اليمن ليضمن بذلك الاحتفاظ بسيادته على تلك البلاد؛ فلما قام النزاع بين الداعى أبى حمير سبأ بن أحمد الصليحى وأبى ربيع سليمان بن الأمير الزواحى على أثر تولية عبد المستنصر رئاسة الدعوة بعث رسالة إلى السيدة الحرة قال فيها إنه ينظر إلى هذا النزاع بشىء من القلق وطلب إليها أن تسعى فى الصلح بينهما.

كذلك أرسل المستنصر كتابا فى ربيع الأول سنة ٤٨٠ هـ إلى الصليحيين وآل الزواحى رجاهم فيه أن ينهوا ما بينهم من خلاف وأن يطيعوا السيدة الحرة وابنها عبد المستنصر، وناشدهم مناشدة قوية لكى يتحدوا فى سبيل نشر الدعوة، وعبر فى خطابه عن ارتياحه للخدمات التى قام بها كل من الصليحى والمكرم والسيدة الحرة لنجاح دعوته[٢].

وقد جاء فيه[٣] : «من عبد الله ووليه، معد أبى تميم، الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى كافة السلاطين الصليحيين والزواحيين، والمشايخ الحجازيين، وطوائف الميامين . . أما بعد، فإن الله شرف أمير المؤمنين بفضل الخلافة على بريته، وأناف به محل الدعوة الهادية ومرتبته . . ولما عرف أمير المؤمنين ما كان منكم من النصرة من حميد المساعى ومأثور مواقفكم من حماية الدعوة . . ، شكر لكم هذه المناقب . . ، وأمير المؤمنين يأمركم بالجرى على هذه السنن. وأن تعتمدوا الائتلاف، والتحذير من عواقب المقاطعة والاختلاف (وأمير المؤمنين) يفرض عليكم التدين بطاعة داعيكم الملك الأوحد، المنصور، العادل، المكرم، عمدة الخلافة . . سلطان أمير المؤمنين وعميد جيوشه عبد المستنصر . . . ، ويأمر أن

(١) انظر السجلات المستنصرية رقم ٣٧ ص ١٢٢ ـ ١٢٨.

(٢) (B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 318 - 319

(٣) السجلات المستنصرية : رقم ٣٨ ص ١٢٨ ـ ١٣٤.

تعتمدوا الجد والتشمير فى متابعته ومناصرته . . . والجهاد تحت رايته . . . ، وأن تخلصوا النيات فى موافقة وطاعة والدته الحرة، الملكة، السيدة السديدة، . . ولية أمير المؤمنين وكافلة أوليائه الميامين . . التى استكفاها أمير المؤمنين فى تدبير أمره.

لقيت الدعوة التى وجهها المستنصر إلى آل الصليحى وآل الزواحى لفض النزاع بينهم قبولا. وقد وافته بهذا النبأ السيدة الحرة فى خطاب أرسلته إليه، فبعث إليها الخليفة ردا أعلن فيه سروره لزوال الخلاف الذى قام بين سبأ بن أحمد الصليحى وسليمان بن الأمير الزواحى وعقد الصلح بينهما[١].

لم يعمر عبد المستنصر طويلا، فقد وافته المنية وقام بعد وفاته نزاع بين الداعى سبأ بن أحمد المظفر وبين السيدة الحرة بسبب طموحه إلى الاستحواذ على رياسة الدعوة وحكم بلاد اليمن ورغبته فى التزوج منها، لكن السيدة الحرة كرهت ذلك وأنكرته، وتهيأ كل منهما للقتال. وبعد أن دارت الحرب بينهما أياما أرسل سليمان بن عامر الزواحى إلى الداعى سبأ بن أحمد يقول له : «والله لا أجبتك إلى مرادك إلا بأمر المستنصر بالله[٢]». فبعث سبأ بن أحمد إلى المستنصر بالله رسولين هما : القاضى حسين بن إسماعيل الأصبهانى وأبو عبد الله الطيب ومعهما رسالة يرجو فيها الخليفة أن يطلب من السيدة الحرة التزوج منه[٣]. فكتب إليها المستنصر خطابا أمرها فيه بالتزوج من الداعى سبأ بن أحمد، وسير إليها أستاذا من قبله يلقب بيمين الدعوة ليتحدث معها فى هذا الشأن[٤].

لما حظى رسول المستنصر بمقابلة السيدة الحرة وقف بين وزرائها وكتابها ورجال دولتها وقال موجها الكلام إليها : «أمير المؤمنين يرد السلام على الحرة الملكة السيدة الرضية الزكية، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، ذخيرة الدين، عصمة المسترشدين، كهف المستنجدين، ولية أمير المؤمنين، وكافلة أوليائه الميامين، ويقول فيها : «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله

(١) (B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 321
(٢) الديبع الشيبانى : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٥.
(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٣٢.
(٤) ابن المؤيد اليمنى : أنباء الزمن فى أخبار اليمن ص ٤٣.

أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا». وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعى الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة، أمير الأمراء أبى حمير سبأ بن أحمد بن المظفر على الصليحى على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عينا وخمسون ألفا أصنافا من تحف وألطاف وطيب وكساوى. فقالت السيدة الحرة «أما كتاب مولاى فأقول فيه إنى ألقى كتاب كريم **﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين﴾** : **﴿يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى. ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون﴾**، وأما أنت يا ابن الأصبهانى[١] فوالله ما جئت إلى مولانا بنبأ يقين. ولقد حرفتم القول عن موضعه وسولت لكم أنفسكم أمرا، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون[٢]». ثم تقدم إليها وزيرها زريع بن أبى الفتح والقاضى الحسين بن إسماعيل الأصبهانى وبعض رجال دولتها وأخذوا يحسنون لها التزوج من الداعى سبأ بن أحمد، وما زالوا يلحون عليها فى الرجاء حتى قبلت عقد الزواج تحقيقا لرغبة الخليفة[٣].

يتبين لنا من تدخل المستنصر بالله الفاطمى فى مسألة زواج الداعى سبأ بن أحمد من السيدة الحرة إلى أى حد علت مكانة هذا الخليفة بين أمراء اليمن ودعاتها حتى أصبحت كلمته نافذة عليهم، ليس فقط فى المسائل السياسية والدينية بل فى المسائل الخاصة. وقد سبق له أن أبدى رغبته فى وضع حد للنزاع بين آل الصليحى وآل الزواحى، وها هو يأمر السيدة الحرة بالتزوج من الداعى سبأ بن أحمد. ولا شك أنه كان يرجو من وراء هذا الزواج توثيق الصلة بين أمراء اليمن ودعاتها وعدم إثارة عوامل الخلاف بينهم حتى لا تتعرض الدعوة للضعف من جراء تفرق كلمتهم وانشغالهم بالمنازعات التى قد تؤدى فى النهاية إلى زوال نفوذهم.

على أن السيدة الحرة لم تمكن زوجها الداعى سبأ بن أحمد من السيطرة على شئون بلاد اليمن، بل استحوذت عليها واستأثرت بالسلطة دونه، وظلت موالية للمستنصر وآل بيته، وتوثقت عرى الصداقة بينها وبينهم، وأكبر دليل على ذلك

(١) وهو أحد الرسولين اللذين بعثهما الداعى سبأ بن احمد إلى الخليفة المستنصر.

(٢) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٣٢ ـ ٣٣.

(٣) الديبع الشيبانى : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٥.

الرسائل التى تبودلت بين السيدة الحرة والمستنصر، وبينها وبين والدة هذا الخليفة وأخته مما يثبت لنا ثقتهم بقدرتها على إقرار الأمور فى بلاد اليمن وإذاعة الدعوة بين ربوعها. بل بلغ من ثقة المستنصر بكفايتها للقيام بشئون الدعوة الفاطمية أن عهد إليها أمر تنظيمها فى بلاد الهند وعمان. كما أجاز لها أن تعين من يقع اختيارها عليه من الدعاة لنشر الدعوة فى تلك البلاد(١).

لم يكن لمظاهر الضعف التى أصابت الخلافة الفاطمية فى أواخر عهد المستنصر أى أثر فى بلاد اليمن، فظلت السيدة الحرة مخلصة فى ولائها لهذا الخليفة رغم ما بلغها عن تقلص نفوذه.

لما توفى المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٨٧ هـ وخلفه ابنه أبو القاسم أحمد الملقب بالمستعلى بالله أيدت السيدة الحرة خلافته، كما أيدها دعاة اليمن رغم أن الإسماعيلية فى مصر لم يجمعوا على أحقيته فى تقلد عرش الخلافة بعد أبيه، ذلك أن الأفضل بن بدر الدين الجمالى وزير المستنصر أقدم بعد وفاة هذا الخليفة على إقصاء ابنه نزار ولى عهده وأكبر أبنائه عن الخلافة، وبايع أخاه الصغير أبا القاسم أحمد بعد أن اجتمع بالأمراء وخوفهم مما يصيبهم من نزار إذا ما ولى الحكم فى الدولة الفاطمية، وقد ترتب على إقصاء نزار عن الخلافة رغم أحقيته لها خروج أهالى الإسكندرية على طاعة الخليفة الجديد وانحيازهم إلى نزار. غير أن الأفضل ما لبث أن تمكن من القضاء عليه وعلى من آزره فى ثورته(٢).

أرسل المستعلى إلى السيدة الحرة رسالة مؤرخة فى ٨ صفر سنة ٤٨٩هـ تضمنت وصفا لثورة نزار وتغلب وزيره الأفضل بن بدر الدين الجمالى عليها نهائيا(٣). ومما ورد فيها(٤) : «من عبد الله ووليه أحمد أبى القاسم الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين ابن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى الحرة، الملكة، السيدة، السديدة، ولية أمير المؤمنين. قد علمت ما كان صدر إليك من حضرة أمير المؤمنين

(١) (B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 321
(٢) ابن ميسر : تاريخ ص ٣٥ - ٣٧.
(٣) (B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 218
(٤) السجلات المستنصرية رقم ٤٣ ص ١٤٥ - ١٥١.

عندما أصاره الله تعالى إليه من إرث خلافته. وذلك بالنص الذى كان من مولانا الإمام المستنصر بالله . . وإن البيعة انتظمت لأمير المؤمنين على أجمل القضايا والأسباب، ودخل الناس فيها من كل باب، بحسن سياسة فتاه وخليله، السيد، الأجل، الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين . . وكان الأمراء إخوة أمير المؤمنين أول من دخل فى البيعة مسارعا وانقاد لأحكامها طائعا . . ، ومن جملتهم نزار وهو الأخ الأكبر سنا . . ، ثم إن الشيطان استزله واستغواه، ففارق جناب أمير المؤمنين . . ، وسار منه متوغلا فى القفار، راكبا الأخطار، حتى وصل إلى الإسكندرية، وفيها أفتكين ـ أحد مماليك السيد الأجل، أمير الجيوش . . ، فقابل هذا العبد العاق . . نعمَ مواليه بالكفر، وأظهر ما كان كامنا فى نفسه من الخيانة والغدر، ووافق نزارا على ما سعى إليه من الفساد . . فتقدم أمير المؤمنين إلى فتاه الأمين . . بأن يكاتبهم معذرا وزاجرا . . ،وهم على غُلوائهم متمادون . . إلى أن حملهم العدوان على البروز عن الإسكندرية فيمن انضم إليهم من لفيف من الأجناد وطوائف العربان والمغاربة والسودان . . . ، وأمير المؤمنين يمده بصائب الآراء . . ، فصدمهم صدمة تزعزع منها أركان الجبال، وأحل بجمعهم قوارع الشتات والنكال . . ، ولما يسر الله تعالى مفتتح هذا النصر أذن أمير المؤمنين لفتاه السيد الأجل باتباعهم . . ، فتوجه يقتص آثارهم، وحمى بين الفريقين وطيس الهيجاء . . ، وكان المخاذيل فى هذه النوبة قد تجمعوا من كل فج وواد، فزادت عدتهم على ثلاثين ألف فارس وراجل، فرمى الله جمعهم بالحتف العاجل . . ، وطار نزار وأفتكين على رسمهما فى الفرار . . ، وكان الفتح فى هذه الوقعة مثل ما تقدمه بحملات واصلها السيد الأجل بنفسه وغلمانه . . ، فلم تزل السيوف تتحكم فيهم إلى أن سترتهم الظلماء، وقتل وأسر منهم ألوف كثيرة . . ، وتوجه نحوهم . . حتى نزل على البلدة . . فحصرها برا وبحرا . . وحضر شهر الصوم، فأخّر مناجزتهم حفظا لحرمة الشهر الشريف، . . فلما انقضى (هذا الشهر) ولم تنقض غوايتهم وبغيهم . . رماهم بحجارة المنجنيقات . . فلم تمض إلا أيام حتى تداعى الحصن من سائر أركانه، فتهاوت الرجال مستأمنين، وبالعفو لائذين، فخرج (أفتكين) بغير عهد ولا عقد يتعلق به، ووقف بين يدى مولاه ملتحفا ثوب الذل والهوان . . ، فأضرب عنه

صفحا . . ، وتوفر على المهم من الحوطة على نزار وحفظ الثغر من عوادى النهب والأضرار . . » .

كذلك حاولت والدة الخليفة المستعلى جذب الدعاة فى اليمن إليه فبعثت إلى السيدة الحرة رسالة، تحدثت فيها عن عهد المستنصر لولدها أبى القاسم أحمد وثورة نزار وأفتكين بالإسكندرية على خلافته[١]. وقد جاء فيها[٢] :

«من السيدة الملكة المحترمة الكريمة . . ، والدة الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين ابن الإمام المستنصر بالله . . ، إلى الحرة الملكة، السيدة، السديدة . . ، وقد اشتهر بين كافة المؤمنين، وأولياء الدين، ورعايا الدولة أجمعين، أن الإمام المستنصر بالله . . كان يشير (بالإمامة) إلى ولده الإمام المستعلى بالله، ثم أفصح . . وأنه تولى بنفسه الشريفة الكريمة توفيقه وتفهيمه، واختصه دون الأولياء بمزية ألفه وأنسه، ثم انتقل إلى دار الكرامة، ومحل الإقامة، بعد أن أظهر النص عليه، وأعلن بنقل الأمر إليه . . ، وجعل خليله ووزيره، السيد الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام . وليا أعلى الله همته فى ارتياد الصلاح واغتنامه . . ، ومدبرا جرى به أمر المملكة على اطراده وانتظامه، فقام لأمير المؤمنين بأمر البيعة أحسن قيام . . ، وكان أول داخل فيها الأمراء إخوة أمير المؤمنين تسليما لحقه وإذعانا، وعلما بأن الله تعالى يفيض شعار الإمامة على من يرتضيه، ومن جملتهم نزار أخوه الأكبر سنا، فإنه عرف الحق فعاهد وبايع . ثم أدركه الحسد . . . فانسل ذليلا تحت جنح الليل . . ، ومضى إلى الإسكندرية وبها أفتكين، واجتمعا معا على الفتنة . . ، واستغويا طوائف من المنافقين، وكان أمير المؤمنين بما آتاه الله تعالى من شرف العلم، وحبب إليه من الفضل والحلم، موعزا إلى فتاه وخليله السيد الأجل الأفضل، بمواصلتهم بالمكاتبات المشتملة على الإنذار والإعذار . . ، وهم متمادون على غلوائهم فى البغى والعناد . . ، فعند ذلك أذن له مولانا فى لقائهم . . » .

لم يتأثر دعاة الإسماعيلية فى بلاد اليمن بهذا النزاع الذى حدث فى مصر حول الخلافة والذى ترتب عليه ظهور فرقتين، عرفت الأولى بالنزارية، وكانت

(١) (B. O. S.), Vol VII Part 2, p. 218

(٢) السجلات المستنصرية رقم ٣٥ ص ١٠٩ ـ ١١٧ .

تدعى أن المستنصر أوصى لابنه الأكبر نزار بالخلافة من بعده. أما الفرقة الثانية فادعت أنه أوصى بها لابنه المستعلى. وقد انحاز دعاة الإسماعيلية فى اليمن إلى هذه الفرقة وظلوا على ولائهم للخليفة المستعلى.

كذلك لم تلق فرقة النزارية التى اتخذت من بلاد المشرق مركزا لها بزعامة الحسن بن الصباح[1] ـ الذى مال إلى القول بإمامة نزار وأنكر إمامة المستعلى ـ أنصارا فى بلاد اليمن، بل لقد أصبح اسم نزار مبغضا عند أهالى هذه البلاد كما هى الحال عند غالبية الإسماعيلية فى مصر.

كان النزارية فى مصر لا يعترفون بإمامة المستعلى ويعملون على التخلص منه ومن وزيره الأفضل. ولم يمتد نشاطهم إلى البلاد الواقعة فى دائرة النفوذ الفاطمى؛ أما فرقة المستعلية التى اتخذت مصر مقرا لها فنشطت فى بث الدعوة لإمامة المستعلى وظهر أثر نشاطها جليا فى بلاد اليمن حيث قام الدعاة بنشر الدعوة لهذا الخليفة، ولم تر السيدة الحرة ـ التى كانت تتمتع إذ ذاك بنفوذ كبير فى بلاد اليمن ـ فى الخلاف الذى ظهر بين الإسماعيلية فى مصر عقب وفاة المستنصر بشأن أحقية المستعلى فى الإمامة ما يجعلها تتخذ لنفسها سياسة مستقلة عن الدولة الفاطمية، بل دخلت فى طاعة هذا الخليفة بعد أن وقفت على عوامل ثورة نزار ونجاح الأفضل بن بدر الجمالى فى القضاء عليها.

ولاشك أن تأييد السيدة الحرة ودعاتها للخليفة المستعلى ساعد على عدم تسرب النزارية إلى بلاد اليمن، وبذلك لم تتفرق كلمة الإسماعيلية فى تلك البلاد كما تفرقت فى مصر.

ظلت السيدة الحرة تعمل جاهدة على شد أزر الدعوة الفاطمية فى اليمن، فلما مات زوجها الداعى سبأ بن أحمد سنة ٤٩٢هـ. ولّت المفضل بن أبى البركات ابن الوليد الحميرى داعيا مكانه[2]، كما عهدت إليه بمعاونتها فى القيام بأمور الدولة. وقد ثار فى عهده جماعة من الفقهاء بحصن التعكر[3] وبايعوا رجلا منهم يعرف بإبراهيم بن زيدان على الدعوة الإسماعيلية وانحازت إليهم قبيلة

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٦٥.

(٢) الديبع الشيبانى : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٥.

(٣) قلعة باليمن من مخلاف جعفر مطلة على ذى جبلة (ياقوت : معجم البلدان).

خولان، غير أن المفضل ما لبث أن حاصرهم وانتهى الأمر بالقضاء على ثورتهم[١].

كان من أثر انضمام الخولانيين إلى الخارجين على الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن سنة ٥٠٤ هـ وقيام النزاع بينهم وبين السيدة الحرة أن وجهت الخلافة الفاطمية بالقاهرة اهتمامها إلى معاونة السيدة الحرة، فأوفد إليها الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى الداعى على بن إبراهيم بن نجيب الدولة سنة ٥١٣ هـ ليكون عونا لها ضد أعدائها ومنافسيها[٢] ـ وكان ذا دراية كبيرة بمذهب الشيعة ـ فلما وصل إلى جزيرة دهلك فى طريقه إلى بلاد اليمن، قابله أحد الدعاة وأدلى إليه بأخبار تلك البلاد وأحوال أهاليها وتواريخ ميلادهم وأسمائهم وما يميزهم من علامات، فكان إذا ما تحدث معهم عن غوامض الأشياء التى تتصل بهم اعتقدوا أنه يعلم الغيب[٣].

اشترك ابن نجيب الدولة مع السيدة الحرة فى إدارة اليمن. وصار من كبار الدعاة فى تلك البلاد، كما ظل مخلصا للسيدة الحرة ومنفذا فى الوقت نفسه لسياسة الخليفة الفاطمى بالقاهرة، وبذل جهدا مشكورا فى العمل على استقرار الأمور فى بلاد اليمن. ولما ولى المأمون البطائحى الوزارة فى مصر فى عهد الخليفة الآمر، أمده بالمال والرجال ليضعف من شوكة أمراء اليمن الذين حاولوا الاستقلال ببعض البلاد[٤].

أثارت الحملات التى شنها ابن نجيب الدولة على بعض أمراء اليمن والتى انتهى الأمر فيها بهزيمتهم حقدهم عليه، وصاروا ينتهزون الفرص للتخلص منه، فلما بعث المأمون البطائحى وزير الخليفة الآمر الفاطمى رسولا من قبله إلى اليمن سنة ٥٢٠ هـ لم يحفل به ابن نجيب الدولة وعول على الغض من شأنه، فاستغل أعداؤه من الأمراء والدعاة موقفه العدائى من رسول الوزير الفاطمى للانتقام منه، فاستمالوا هذا الرسول إليهم بالهدايا وانضموا إليه فى عدائه لابن نجيب الدولة،

---

(١) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٢١٦ ـ ٢٢٢.

(٢) Enc of Islam, V 4, p 517

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٢.

(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٣، ٤٤. الديبع الشيبانى : قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون ورقة ٢٧.

فأوعز إليهم بتدبير أمرين للتخلص منه : أمـا عن أولهما فقال : «اكتبوا على يدى إلى مـولانا الآمـر كتبـا تذكـرون فيـهـا أنه دعاكـم إلى نزار وراودكم على ذلك فامتنعتم»، وقال عن ثانيهـما : «اضربوا سكة نزارية وأنا أوصلها إلى مولانا الآمر بأحكام الله»، فأجابوه إلى طلبه، وبعث بكتبهم وبالسكة إلى الخليفة الآمر[١].

ولما وصل إلى الآمر الفاطمى الكتب والسكة وفيها ما يدل على انصراف ابن نجيب الدولة عن الدعوة له وانحـيازه إلى طائفة النزارية [٢] عهد إلى الأمير الموفق ابن الخياط بالقـبض عليه وإرساله إلى مصـر؛ فقدم ابن الخياط على السـيدة الحرة وطلب منها أن تسلم إليه ابن نجيب الدولة تحقيقًـا لرغبة الخليفة فامتنعت أول الأمر وقالت له : «أنت حامل كتاب مولانا فـخذ جوابه»، وبعثت إلى الآمر بأحكام الله هدية وكتابًا مع رسولهـا محمد بن الأزدى شفعت فيـه لابن نجيب الدولة، غير أن شفاعـة السيدة الحرة لم تصل إلى مسـامع الخليفة الفاطمى، فقـد أحاط أعداء ابن نجيب الدولة[٣] به واعـتقلوه وأرسلوه إلى مـصر، وأخـروا رسول السـيدة الحـرة

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٦.

(٢) كان للنزارية أتباع فى مـصر لا يعترفون بإمامـة الآمر ويثيرون القلاقل ضده بإيعـاز من رؤساء دعوتهم فى قلعة الموت الذين كانوا يمدونهم بالمال؛ فرأى الخليفة الفاطمى أن يرسل إلى زعيمهم الحسن بن الصباح كتابا يفند فيه حـجج فرقته التى تقول بأحـقية نزار فى الإمامة ودعا إلى قـصره قبل أن يرسل كتابه، الفـقهاء من الإسماعـيلية الإمامية وقـال لهم وزيره المأمون البطائحى : مالكم من الحجة فى الرد على هؤلاء الخارجين على الإسماعـيلية، فقال كل منهم : لم يكن لنزار إمـامة، ومن اعتقد هذا فـقد خرج عن المذهب وضل ووجب قتله».

وكانت أخت نزار إذ ذاك تجلس فى قـاعة صغيـرة بجانب الإيوان بالقصـر وعلى الباب ستر؛ فلمـا فرغ فقـهاء الإسماعـيلية من الإدلاء برأيهم فى أقوال الخارجـين على الخليفة قـالت : «اشهدوا على يا جمـاعة الحاضرين وبلغوا عنى جماعة المسلمين أن أخى شقيقى نزارا لم يكن له إمامة وإننى (برية) من إمامته جاحدة لها لاعنة لمن يعتقدها..».

ولما نفض المجلس، عهد المأمون البطائحى إلى ابن الصيرفى بكتابة رسالة لابن الصباح يدحض فيها آراء النزارية فى الإمامة، غـير أن هذه الرسالة لم يتح لها أن تصل إلى يد ابن الصباح لعـدول رسل الخليفة عن مواصلة السفـر بسبب الأنباء التى وصلت إلى مصـر عن ازدياد نفوذ طائفة النزارية ببلاد المشـرق، واتصالها بأتباعها فى مصـر لتدبير مؤامرة لقتل الآمر ووزيره المأمون. لذلك لا نعجب إذا رأينا الآمـر يتتبع حركاتهم فى جميع البـلاد الخاضعة لنفوذه ويعمل على التـخلص ممن تحوم الشبهات حول انحـيازه إليهم، لكنه رغم اتخاذه الحيطة لدرء خطرهم عنه اغتاله فريق منهم.

ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٦٥ ـ ٦٨ ، المقريزى، خطط جـ ١ ص ٤٠٧.

(٣) ابن المؤيد : أنباء الزمن فى تاريخ اليمن ص ٤٧.

خمسـة عشر يومًا حتى لايعلم الخليفة بحقيقة موقف ابن نجيب الدولة منه. ولم يكتفوا بذلك، بل أوعزوا إلى ربان المركب الذى أبحر عليه هذا الرسول أن يغرقه فى الماء، فلبى رغبتهم ومات محمد بن الأزدى غريقًا قبل أن يواصل سفره إلى مصر. فجزعت السيدة الحرة على وفاته، كما أسفت على فقدان ابن نجيب الدولة - وكان نصيرًا لها ومن أكابر دعاة اليمن - وقد قتل بأمر الخليفة الآمر، على أثر قدومه إلى القاهرة سنة ٥٢١هـ[١]، فأقامت مكانه الداعى إبراهيم بن الحسن الحامدى[٢].

كانت السيدة الحرة على اتصال وثيق بالخليفة الآمر، فتبودلت بينهما الكتب والرسل، وقد أظهرت ولاءها لهذا الخليفة، فاعترفت بإمامته كما اعترفت من قبل بإمامة أبيه، وأقامت الدعوة لهما مما ساعد على احتفاظ الفاطميين بسيادتهم على بلاد اليمن.

وكان الخليفة الآمر ينظر إلى السيدة الحرة نظرة تقدير وإجلال ويرى أنها من خيرة أعوانه بعد أن تبين له إخلاصها فى نشر دعوته؛ لذلك حرص على أن تظل موالية لأبنائه من بعده، فلما رزق ابنه أبا القاسم الطيب فى ربيع الأول سنة ٥٢٤هـ وجعله ولى عهده، كتب إلى السيدة الحرة يبشرها بمولد ولده الإمام أبى القاسم الطيب ويعرفها أنه ولى عهده ويأمرها أن تذيع هذا الخبر بين أهالى بلاد اليمن[٣]؛ وفيما يلى نص السجل الذى أرسله الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى إلى الملكة الحرة الصليحية فى هذا الشأن[٤] (بسم الله الرحمن الرحيم): من عبد الله ووليه المنصور أبى على الآمر بأحكام أمير المؤمنين إلى الحرة الملكة السيدة

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٧، ٤٨، ابن ميسر تاريخ مصر ص ٧٠.

(٢) Kay, Yaman, Its Farly Mediaeval History p. 298

(٣) ذكر (ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧٢) كيف احتفل الخليفة الآمر بإعلان البشرى بولاية ابنه أبى القاسم الطيب وتوليته الإمامة من بعده فقال : «زينت مصر والقاهرة وعملت الملاهى فى الأسواق وبأبواب القصور، ولبست العساكر وزينت القصور، وأخرج الآمر من خزائنه وذخائره قماشا ومصاغا ما بين آلات وأوانى ذهب وفضة فزين بها وعلق على الإيوان جميعه بالستور والسلاح، فأقام الحال كذلك أربعة عشر يوما وأحضر الكبش الذى يذبح فى العقيقة وعليه جل ديباج وقلائد فضة وذبح بحضرة الآمر وأحضر المولود، فشرف قاضى القضاة ابن ميسر بحمله ونثرت الدنانير على رؤوس الناس وعملت الأسمطة، وكتب إلى الفيوم والشرقية والقليوبية بإحضار الفواكه، فأحضرت وملئ القصر من الفواكه وغيرها وامتلأ الجو بدخان العود والعنبر».

(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٠٠، ١٠١.

الرضية الطاهرة الزكية، وحيدة الزمن وسيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، خاصة الإمام، ذخيرة الدين، عمدة المؤمنين، كهف المستنجدين، عصمة المسترشدين وولية أمير المؤمنين وكافلة أوليائه الميامين أدام الله تمكينها ونعمتها وأحسن توفيقها ومعونتها سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد الله الذى لا إله إلا هو ويسأله أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين (ﷺ) وعلى آله الطاهرين الأئمة المهتدين وسلم تسليمًا، أما بعد، فإن نعم الله عند أمير المؤمنين لايحصى لها عد، ولاتقف عند أمد ولا حد، ولاتنتهى إلى الإحاطة بها الظنون لكونها كالسحاب الذى كلما انقضى أعقبه سحاب، فهى كالشمس الساطعة الإشراق الدائمة الانتظام والاتساق، والغيوث المتتابعة الاتصال الموالية بالغدو والآصال، ومن أشرفها لديه قدرًا وأعظمها صيتًا وذكرًا، وأسناها جلالا وفخرًا الموهبة بما جدده الآن بأن رزقه مولودًا زكيا مرضيًّا برًا تقيًا، وذلك فى الليلة المصبحة بيوم الأحد الرابع من شهر ربيع الأول سنة ٥٢٤هـ؛ ارتاحت إلى طيب ذكره أسرة المنابر وتطلعت إلى مواهبه آمال كل باد وحاضر، وأضاءت بأنوار عزته وبهجة طلعته ظلم الدياجر، وانتظمت به الدولة الزاهرة الفاطمية عقود المفاصل والمفاخر، استخرجه من سلالة النبوة كما يستخرج النور من النور، ومنح المؤمنين منه بما قدح زناد السرور، وسماه الطيب لطيب عنصره، وكناه أبا القاسم كنية جده نبى الهدى المستخرج جوهره من جوهره؛ وأمير المؤمنين يشكر الله تعالى على مامن به من إطلاعه كوكبًا منيرًا فى سماء دولته وشهابًا مضيئًا فى فلك جلالته ورفعته، شكرًا يقضى باستدامة نعمته . . ويسأله أن يبلغه فيه كنه الآمال ويصل به حبل الإمامة ما اتصلت الأيام بالليالى، ويجعله عصمة للمسترشدين وحجة على الجاحدين وعونا للمستجيبين وسعادة للعارفين، لتنال الدنيا بسعادته أوفى حظوظها وقسمها . . ولمكانك من حضرة أمير المؤمنين المكين ومحلك الذى امتنع عن المماثل والقرين، أبشرك هذه البشرى الجليل قدرها، العظيم فخرها، المنتشر صيتها وذكرها، لتأخذى من المسرة بها بأوفى نصيب وتذيعيها فيمن قبلك من الأولياء والمستجيبين إذاعة يتساوى فى المعرفة بها كل بعيد منها وقريب، لينتظم بها عقد السرور، فاعلمى هذا واعملى به إن شاء الله تعالى وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وعلى آله والأئمة الطاهرين وسلم وشرف وكرم إلى يوم الدين».

لما قتل الخليفة الآمر في أواخر سنة ٥٢٤ هـ، انتقلت السلطة إلى الأمير عبد المجيد بن محمد بن المستنصر فأخفى أمر الإمام الطيب وبايعه الناس بولاية العهد على أن يكون كفيلا لحمل منتظر(١)، ولقب الحافظ لدين الله، لكن سرعان ما حيل بينه وبين التصرف فى شئون الدولة، فقد سجنه الوزير أبو على أحمد بن الأفضل، وظل فى سجنه إلى أن قتل هذا الوزير، فأعاده رجال الدولة وليا للعهد(٢)، ثم استقرت له الخلافة وقرئ فى ٣ ربيع الآخر سنة ٥٢٦ هـ سجل بإمامته، وأمر بأن يدعى له على المنابر بهذه العبارة : اللهم صل على الذى شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره وأقررت به الإسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبى ميمون وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين(٣)».

لم تنظر السيدة الحرة إلى الوسيلة التى اتبعها الخليفة الحافظ للوصول إلى عرش الخلافة بعين الرضا، فقد اعتبرت إمامته باطلة على الرغم من الكتب التى أرسلها إليها؛ فقد بعث إليها على أثر توليته الحكم سجلا بدأه بعبارة «من ولى عهد أمير المؤمنين»، ثم أرسل إليها سجلا آخر فى السنة التالية مبتدئا بعبارة «من أمير المؤمنين» وقد حاول الحافظ فى كتبه التى بعثها إلى السيدة الحرة أن يستميلها إليه، لكنه أخفق فى ذلك لأنها كانت على علم بمولد الإمام الطيب، وأخذت على نفسها العهد بنشر الدعوة له؛ ولهذا تخلت عن الدعوة للخليفة الحافظ وقالت : «حسب بنى الصليحى ما علموه من أمر مولانا الإمام الطيب»(٤).

ظلت السيدة الحرة تعمل جاهدة على أن يكون للدعوة الطيبية فى بلاد اليمن النفوذ الأسمى، وامتد نشاطها فى سبيل الإبقاء على تلك الدعوة إلى بلاد

---

(١) يتضح مما أورده كل من ابن ميسر «تاريخ مصر ص ٧٤»، وأبو المحاسن «النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٤٠ - ٢٤١» أن الآمر لما مات ترك إحدى نسائه حاملا، فأقيم الحافظ وليا للعهد وكفيلا لطفل مرتقب.

(٢) المقريزى : خطط، جـ ٢ ص ٣٥٧.

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧٤ - ٧٥.

(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٠٢.

الحجاز، ذلك أنها حين وصل إليها أن أمير مكة هاشم بن فليته بن القاسم[١] (٥٢٧ ـ ٥٤٩هـ) يقيم الخطبة للخليفة الحافظ بعثت إليه تتوعده إن لم يعمل على قطع الخطبة لهذا الخليفة[٢]؛ ولا شك أنها كانت تأمل من وراء ذلك أن يحذو الأمير حذوها في إقامة الدعوة للإمام الطيب.

لقى عدم اعتراف السيدة الحرة بإمامة الخليفة الحافظ ارتياحا من فرقة المستعلية بمصر التى ترى وجوب انحصار الإمامة فى أولاد المستعلى، بل إن هذه الفرقة نظرت إلى السيدة الحرة على أنها الممثلة الحقيقية للمذهب الإسماعيلى فى بلاد اليمن.

على أن الخليفة الحافظ لم يفقد الأمل فى نشر الدعوة له فى بعض مدن اليمن؛ فقد استعان بآل زريع بعدن فى بث دعوته. وكان لجدهم عباس بن المكرم[٣] مآثر طيبة فى نشر الدعوة للمستنصر بالله الفاطمى مع الداعى على بن محمد الصليحى ثم مع ابنه أحمد المكرم[٤].

وولى العباس بن المكرم وأخوه مسعود ولاية عدن من قبل السيدة الحرة، وظلا يحملان إليها كل سنة مائة ألف دينار، ولما توفى العباس انتقل عمله إلى ابنه زريع، وخلف مسعود ابنه أبو الغارات. وقد خرج كل من زريع وأبو الغارات على طاعة السيدة الحرة، فحاربهما وزيرها المفضل بن أبى البركات، ثم تصالحا معه على أن يؤديا للسيدة الحرة نصف خراج عدن؛ غير أن هذا الصلح لم يدم طويلا. وظل آل زريع يناضلون السيدة الحرة حتى تخلصوا من نفوذها فى عدن[٥].

عنى دعاة آل زريع بإقامة الدعوة للخليفة الحافظ، كما حرص هذا الخليفة على تقليدهم أمر دعوته، فبعث فى سنة ٥٣٥ هـ رسالة مع أحد رسله تتضمن

(١) صحح هذا الاسم طبقا لما أورده Zambaur, Manuel de- Généalogie et de Chronologie pour L, Histoire de L,Islam p. 21

(٢) ابن خلدون جـ ٤ ص ١٠٤.

(٣) كان بنو معن بن زائدة قد ملكوا عدن أيام الخليفة المأمون العباسى ورفضوا الدخول فى طاعة بنى زياد بزبيد واكتفوا بإقامة الخطبة للخليفة العباسى، ولما استولى الداعى على بن محمد الصليحى على بلاد اليمن رعى لهم حق العروبة وأبقاها فى أيديهم، وقرر عليهم ضريبة سنوية، ولم يزالوا بها حتى أخرجهم منها ابنه المكرم أحمد وولى عليها العباس ومسعود ابنى المكرم الهمدانى.

تاريخ ابن المجاور : القسم الأول ورقة ٩٩، العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٢٧.

(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ٤٨، تاريخ ابن المجاور : القسم الأول ورقة ٩٨.

(٥) تاريخ ابن المجاور : القسم الأول ورقة ٩٩.

تقليد على بن سبأ بن أبى السعود بن زريع الدعوة، ولما علم الرسول أن هذا الرجل قد توفى قلدها أخاه محمد بن سبأ[١]، ولقب بالداعى المعظم المتوج المكنى بسيف أمير المؤمنين[٢]. وقد بلغ من اهتمام الخليفة الحافظ بإقامة الدعوة له أن أرسل فى سنة ٥٣٩هـ رسولا من قبله إلى بلاد اليمن يدعى أحمد بن على بن إبراهيم بن الزبير الغسانى الأسوانى ليقوم بنشر دعوته[٣].

كان من أثر قيام السيدة الحرة بالدعوة للإمام الطيب دون الخليفة الحافظ وانفراد آل زريع بالدعوة لهذا الخليفة أن انقسمت إسماعيلية اليمن تبعا لذلك إلى طائفتين : إحداهما تؤيد الدعوة الطيبية وعلى رأسها السيدة الحرة، والأخرى تناصر الخليفة الحافظ يتزعمها آل زريع.

على أن الدعوة الطيبية ما لبثت أن ضعف أمرها بعد وفاة السيدة الحرة سنة ٥٢٢هـ. ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه لم يكن هناك بين الصليحيين شخصية قوية تستطيع أن تخلف هذه السيدة وتسير سيرتها فى نشر الدعوة للإمام الطيب؛ فقد زال ملكهم وآلت الحصون والذخائر والأموال التى كانت تحت السيدة الحرة إلى منصور بن المفضل بن أبى البركات الذى عجز عن الاحتفاظ بما انتقل إليه من ملك.

تطلع آل زريع بعد أن توفيت السيدة الحرة إلى بسط سلطانهم على قلاع الصليحيين الذين زالت دولتهم؛ فاستغل الداعى محمد بن سبأ الزريعى ضعف المنصور بن المفضل بن أبى البركات الذى آلت إليه هذه القلاع وابتاعها منه بمائة ألف دينار فى سنة ٥٤٧ هـ[٤]. فقوى نفوذهم تبعا لذلك، وظلوا موالين للخلافة الفاطمية فى مصر، يؤدون إليها فى كل سنة مبلغا معينا من المال للإنفاق منه على المذهب الإسماعيلى[٥].

(١) ابن المؤيد اليمنى : أنباء الزمن فى تاريخ اليمن ص ٤٧.
(٢) ابن خلدون : جـ ٤ ص ٢١٩.
(٣) الإدفوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ص ٥.
(٤) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٧٤.
(٥) تاريخ ابن المجاور : القسم الثانى ورقة ١٠٣.

أخذت دولة بني زريع بعدن في الانحلال بعد وفاة محمد بن سبأ الزريعي سنة ٥٤٨؛ وتجلى ضعفها في عهد ابنه عمران الذى استعان بياسر بن بلال فى تدبير أمور دولته، واستمر على ولائه للفاطميين إلى أن توفى سنة ٥٦٠ هـ، فاستأثر ياسر بالسلطة(١) وزال بذلك ملك بنى زريع.

* * *

زوال النفوذ الفاطمى فى اليمن : أصبح النفوذ الفاطمى فى بلاد اليمن مهددا بالزوال منذ ولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مقاليد الأمور فى مصر بعد قضائه على الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ، فقد طمع فى بسط سلطانه على البلاد التى كانت تحت السيادة الفاطمية وولى وجهه فى بادئ الأمر نحو اليمن(٢)، فبعث إليها أخاه الأمير شمس الدولة توران شاه على رأس حملة سنة ٥٦٩هـ، ولما وصل توران شاه إلى تلك البلاد بدأ عمله بالقضاء على دولة بنى مهدى بزبيد التى كانت تناصر الفاطميين بمصر(٣)، فقبض على أميرها عبد النبى بن مهدى لقطعه الخطبة العباسية واستولى على زبيد، ثم فتح صنعاء وسار إلى عدن حيث أوقع الهزيمة بواليها ياسر بن بلال وضمها إلى حوزته. ولما فرغ من أمرها عاد إلى زبيد وامتلك قلعة تعز ـ وهى من أحصن القلاع ـ . ولم يزل يتقدم فى فتوحه حتى بسط سلطانه على معظم بلاد اليمن(٤) وتلقب بالملك المعظم، وخطب له بذلك بعد الخليفة المستضيء بأمر الله العباسى فى جميع البلاد التى فتحها(٥) وولى سيف الدولة مبارك بن منقذ على زبيد، وعز الدين عثمان بن الزنجبيلى على عدن، كما عين فى كل قلعة من قلاع اليمن التى دخلت فى حوزته نائبا من أصحابه(٦)، ثم عاد إلى مصر سنة ٥٧١هـ(٧).

وهكذا قضى على الدعوة الفاطمية ببلاد اليمن، كما زال نفوذ الفاطميين منها، وانتقلت السيادة فى تلك البلاد إلى الأيوبيين الذى حرصوا على إظهار ولائهم للخلفاء العباسيين وأقاموا الخطبة لهم فى جميع البلاد التى تحت سيطرتهم.

---

(١) ابن خلدون : جـ ٣ ص ٢٤٩.

(٢) ذكر المقريزى «السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ القسم الأول ص ٥٢، ٥٣» أنه من الأسباب التى حملت صلاح الدين على فتح بلاد اليمن رغبته فى إقامة دولة بها يلجأ إليها إذا ما حاول نور الدين محمود أن ينزع منه مصر.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٦٩.

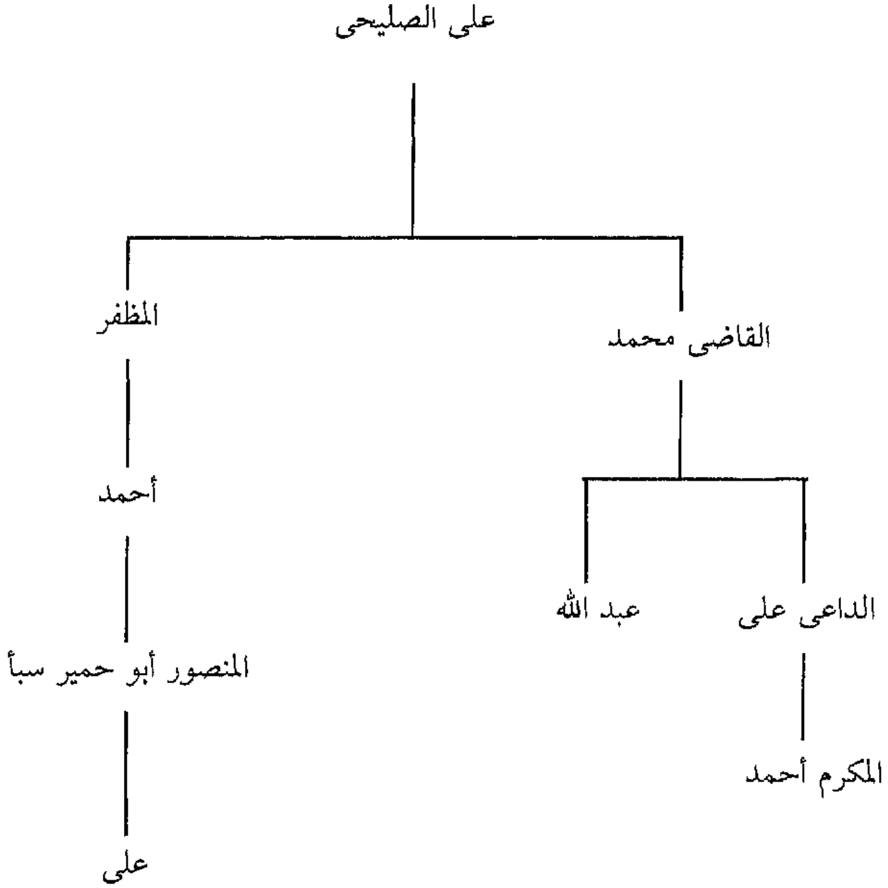
(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ١١ ص ١٤٨ ـ ١٤٩، المقريزى خطط جـ ٢ ص ١٧٣.

(٥) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ القسم الأول ص ٥٣.

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ١١ ص ١٤٩.

(٧) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٤١.

أسرة الصليحي ببلاد اليمن(١)



(١) Kay, Yaman, Its Early Mediaeveal History p. 304

الباب الخامس

سياسة الفاطميين فى بسط سلطانهم على بلاد الشام

تمهيد : الحياة السياسية فى بلاد الشام قبيل الفتح الفاطمى.

١ – الفتح الفاطمى لبلاد الشام.

٢ – الصعوبات التى واجهت الفاطميين فى بلاد الشام من ناحيتى القرامطة وأفتكين التركى.

٣ – موقف أمراء العرب بالشام من الفاطميين.

(أ) بنو الجراح فى فلسطين.

(ب) الحمدانيون والمرداسيون فى شمال الشام.

٤ – ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام فى أواخر القرن الخامس الهجرى.

تمهيد: الحالة السياسية فى بلاد الشام قبيل الفتح الفاطمى:

حرص الأخشيديون أثناء ولايتهم على مصر على توطيد نفوذهم بولاية الشام التى تقلدوا حكمها؛ فلما علم محمد بن طغج الإخشيدى أن محمد بن رائق الخزرى، أمير الأمراء فى بغداد يطمع فى ولاية الشام، كتب إلى نائبه ببغداد يطلب إليه أن يستطلع رأي الخليفة فى هذا الأمر. غير أن الخليفة العباسى لم يكن إذ ذاك لديه من النفوذ بحيث يستطيع أن يتخذ قراراً يلزم أحد الفريقين باتباعه، لذلك استقر رأي الإخشيد على إعداد العدة لمحاربة محمد بن رائق[1] ، فخرج على رأس جيشه فى أوائل سنة ٣٢٨ هـ، ودارت بينه وبين ابن رائق معركة فى العريش؛ فمضى ابن رائق منهزمًا إلى الرملة، ثم عقد الصلح بين الفريقين واتفقا على أن تكون طبرية وما فى شمالها من البلاد لمحمد بن رائق[2] .

على أن ابن رائق ما لبث أن نقض هذا الصلح، وقصد الرملة فى طريقه إلى مصر. واستؤنف القتال بينه وبين الإخشيد، فلحقت الهزيمة فى بداية الأمر بالإخشيد عند العريش، ثم أرسل الإخشيد جيشًا لمطاردة ابن رائق؛ غير أنه لم يتمكن من إحراز النصر عليه. ورأي محمد بن رائق رغم ذلك أن يسعى لمصالحته[3]. وانتهى النزاع بينهما بعقد الصلح على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالى الرملة، وعلى أن يدفع الإخشيد إليه جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار[4] . ومن المحتمل أن الإخشيد اضطر إلى قبول الصلح على

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٩ .

(٢) سيدة كاشف: مصر فى عهد الإخشيديين. ص ٨٢ - ٨٣ .

(٣) انظر : مصر فى عهد الإخشيديين. ص ٨٣ .

(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ١ . ص ٣٢٩ .

هذه الصورة رغم ما أحرزه من نصر خشية أن تواصل الخلافة العباسية الحملات عليه، ورغبة لإعداد نفسه لدرء الخطر الفاطمى الذى كان يهدده من ناحية حدود مصر الغربية[١] .

استطاع الإخشيدى أن يعيد بلاد الشام إلى حوزته من غير حرب بعد وفاة ابن رائق؛ وبذلك استقر حكمه فى هذه البلاد وأصبح من القوة بحيث استطاع أن يحصل على تقليد فى بداية سنة ٣٣٣ هـ من الخليفة المتقى بولاية مصر وحق توريث إمارتها لأبنائه من بعده، كما أخذ تقليدًا من الخليفة المستكفى فى جمادى الآخرة من هذه السنة، أقره فيه على ولاية مصر والشام[١٢] .

لم يحتفظ الإخشيد فترة طويلة بسلطانه على جميع بلاد الشام،ويرجع السبب فى ذلك إلى تطلع الحمدانيين[٣] إلى انتزاع هذه البلاد من أيدى الإخشيديين. فلما أسندت ولاية حلب إلى أبى الفتح عثمان بن سعيد الكلابى حقد عليه أهل بيته من الكلابيين وراسلوا سيف الدولة بن حمدان ليسلموا إليه حلب. وكان سيف الدولة قد طلب من أخيه ناصر الدولة أن يوليه إحدى الولايات، فقال له ناصر الدولة: الشام أمامك وما فيه أحد يمنعك منه. فلما وقف

(١) حسن إبراهيم: كتاب تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣ ص ٦٨ .

(٢) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٢٩٢، سيدة الكاشف: مصر فى عصر الأخشيديين ص ٨٦ .

(٣) ينسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب وموطنها ديار ربيعة فى الجزيرة بالقرب من سنجار ونصيبين. وكان لحمدان ستة أولاد هم : إبراهيم والحسين ونصر أبو السرايا وأبو الهيجاء عبد الله، وأبو العلاء سعيد، وداود. وقد ظهر نفوذ الحمدانيين فى الموصل منذ أن تقلد ولايتها عبد الله بن حمدان من قبل الخليفة المكتفى سنة ٢٩٢ هـ، (ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص ١٧٥). ولما ولى المقتدر الخلافة أقره واليًا عليها، فظل يلى أمورها حتى سنة ٣١٧هـ حيث اشترك فى المؤامرة التى دبرت لخلع المقتدر، فكان مصيره القتل (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٢ ص ٢٢٣).

على أن الخليفة المقتدر رغم ذلك حرص على الاستعانة بالحمدانيين وعلى الأخص فى إقليم الجزيرة لاعتقاده أنهم يستطيعون إخماد حركات القبائل المتنافرة بهذا الإقليم، فأسند إلى الحسن بن عبد الله بن حمدان ولاية الموصل وقد استطاع هذا الأمير أن يحتفظ بنفوذه فى الموصل منذ سنة ٣١٧هـ، كما تمكن من بسط سلطانه على جميع أرجاء ديار بكر وديار ربيعة (ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٨ ص ٦٧، ٦٨).

ولما استولى البريديون على بغداد ونهبوا دار الخلافة اضطر الخليفة المتقى إلى الهرب منها وسار مع فريق من جيشه إلى الموصل، فقضى بها ما يقرب من أربعة أشهر، ثم عاد إلى بغداد فى شوال سنة ٣٣٠هـ، وعلا منذ ذلك الوقت شأن بنى حمدان، فخلع المتقى على الحسن بن عبد الله ولقبه ناصر الدولة كما خلع على أخيه على بن عبد الله ولقبه سيف الدولة (مسكويه: تجارب الأمم، جـ٢، ص ٢٨).

سيف الدولة على الخلاف القائم بين الكلابيين وأيقن من عجز أبى الفتح والى حلب عن مقاومته، سار فى جيشه الصغير قاصداً حلب، فقابله إخوة أبى الفتح الكلابى عند نهر الفرات وأعلنوا ولاءهم له، كما أن أبا الفتح نفسه ما لبث أن لقى سيف الدولة ودخل فى طاعته[1] ؛ وبذلك تيسر لسيف الدولة الاستيلاء على حلب وأصبح أميراً عليها منذ سنة ٣٣٣هـ، وبدأ عمله بإقامة الخطبة للخليفة العباسى المستكفى ولأخيه ناصر الدولة ولنفسه.

لما وصل إلى محمد بن طغج الإخشيد نبأ دخول سيف الدولة حلب وإقامته الخطبة للخليفة العباسى، كتب إلى الخليفة بذلك، فأرسل إليه وإلى ابنه أونوجور خلعاً دليلا على تأييده له. على أن سيف الدولة ما لبث أن كشف عن نواياه بعد أن استقرت له الأمور فى حلب، فسار إلى حمص يريد دمشق ولما بلغ الإخشيد أن سيف الدولة عزم على بسط سلطانه على دمشق، أرسل إلى الشام جيشاً التقى بسيف الدولة عند بلدة الرستن[2] ، فكان النصر حليف الحمدانيين، وتقهقر الجيش الإخشيدى إلى دمشق، ثم خرج منها قاصداً الرملة فى طريق عودته إلى مصر، وسار سيف الدولة فى أثر الجند المصريين يريد دمشق، وكتب إلى أهلها كتاباً، قرئ على منبر المسجد الأموى[3] . وقد تضمن هذا الكتاب حرصه على صيانة أرواحهم والمحافظة على أموالهم.

استقر رأي محمد بن طغج الإخشيد بعد أن وصلته نسخة من كتاب سيف الدولة على أن يسير بنفسه لمحاربته، فاستخلف على مصر ابنه أونوجور وسار على رأس جيش كبير إلى دمشق، والتقى الفريقان فى قنسرين، وكان النصر فى البداية حليف سيف الدولة، غير أن هذا النصر ما لبث أن انقلب إلى هزيمة، فدخل الإخشيد حلب حاضرة الحمدانيين واسترد دمشق.

وعلى الرغم من انتصار الإخشيد، فإنه رأي أن يصالح الحمدانيين، وتم الصلح بين الأميرين فى ربيع الأول سنة ٣٣٤ هـ، على أن يكون لسيف الدولة

(١) ابن العديم الحلبى، زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ص ٣٦٥ - ٣٦٧ .

(٢) تقع على نهر العاصى الذى يمر بالقرب من حماه.

(٣) ابن سعيد : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٤١ - ٤٢، سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين. ص ٣٥٠ .

حلب وما يليها من بلاد الشام شمالا، وأن يكون للإخشيد دمشق وأعمالها، كما تضمن الصلح أن يدفع الإخشيد لسيف الدولة جزية سنوية[١] .

ومن المرجح أن الإخشيد سعى إلى عقد الصلح مع سيف الدولة لأنه كان يعتقد أن انتصاره عليه لم يكن حاسمًا وأن الحرب بينهما ستظل قائمة إلى أن يتم النصر لسيف الدولة، كما أنه كان على يقين من أن النزاع بينه وبين الحمدانيين على الشام سينتهي بانتصارهم عليه، لأن هذا الإقليم يعد المجال الحيوى لاتساع سلطانهم، وفضلا عن ذلك فإن الإخشيد كان يرمى من إبرام الصلح مع سيف الدولة على هذه الصورة أن يبقى الدولة الحمدانية حصنًا منيعًا بينه وبين البيزنطيين يكفيه مؤونة التعرض لهجومهم من وقت لآخر[٢] .

لما خلت دمشق من حامية قوية ترد غارة الحمدانيين على أثر وفاة محمد بن طغج الإخشيد وعودة جنده من الشام إلى مصر، انتهز هذه الفرصة سيف الدولة الحمدانى واتجه إليها بجيشه، فسقطت فى يده بعد أن استسلم إليه حاكمها الإخشيدى، ولم يكتف بذلك، بل عمد إلى مطالبة أهلها بودائع الإخشيد، فكاتبوا كافورًا يستدعونه من مصر، فجاءهم بصحبة سيده أونوجور[٣] ، ثم دار القتال بين الفريقين، فكان النصر حليف المصريين وتقهقر سيف الدولة إلى دمشق فحمص حيث أعاد تنظيم صفوفه، وجمع جيشًا كبيرًا من الأعراب هاجم به الجنود المصريين شمالى دمشق؛ فلحقت به الهزيمة وطارده الإخشيديون إلى حلب، فهرب إلى الرقة، ثم بدأت المفاوضات بين الحمدانيين والإخشيديين، وانتهت إلى عقد معاهدة الصلح بنفس الشروط التى كانت بين محمد الإخشيد وسيف الدولة[٤] ما عدا الجزية، فإن الإخشيديين لم يقبلوا دفعها[٥] وكان من نتائج هذا الصلح أن ساد الصفاء بين الحمدانيين والإخشيديين[٦] .

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧ ص ٢٧٨، ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣ ص ٢١١.

(٣) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ، جـ٨ ص ١٥١، ابن العديم: زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ص ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٣ ص ٣٩١ - ٣٩٢ .

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

(٦) سيده كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين، ص ٣٥٤ .

لم يكن الحمدانيون هم الذين حاولوا وحدهم إضعاف نفوذ الإخشيديين فى بلاد الشام، بل تعرضت هذه البلاد أيضًا لغارات قرامطة بلاد البحرين[١] ، فقامت فى عهد أميرهم أحمد بن أبى سعيد(٣٣٣- ٣٥٩هـ) حملتان لغزو بلاد الشام: الأولى فى سنة ٣٥٣هـ[٢] وتعرف بحملة طبرية، وقد تمكنت هذه الحملة بمعاونة الحمدانيين من إحراز النصر على الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد الذى كان يلى هذه البلاد من قبل الإخشيديين[٣] . أما الحملة الثانية، فأغارت على بلاد الشام سنة ٣٥٧ هـ وعجز الإخشيديون عن صدها، فسقطت الرملة فى أيدى القرامطة، واضطر الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد إلى الاتفاق معهم على أن يدفع لهم ثلاثمائة ألف دينار كل سنة[٤] ، وبذلك امتد نفوذ دولة القرامطة إلى بلاد الشام فى أواخر عهد الإخشيديين.

(١) أسس أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى دولة القرامطة ببلاد البحرين سنة ٢٨٦. وقد استطاعت هذه الدولة أن تبسط نفوذها على كثير من أرجاء جزيرة العرب، كما قامت بها حكومة ملكية وراثية فى بيت أبى سعيد (راجع كتاب النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب للمؤلف، ص ٢١ - ٣٩).

(٢) المقريزى ؛ خطط، جـ١ ص ٣٢٩ .

(٣) حسن إبراهيم، طه شرف: كتاب المعز لدين الله الفاطمى، ص ١٠٠ .

(٤) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

De Coeje: Les carmathes du Bahrian P. 186 .

ا - الفتح الفاطمى لبلاد الشام

حرص الفاطميون منذ أقاموا خلافتهم فى بلاد المغرب فى أواخر القرن الثالث الهجرى على تقويض دعائم الخلافة العباسية وانتزاع زعامة الإسلام منها؛ فأسند المعز لدين الله الفاطمى إلى قائده جوهر الصقلى قيادة الحملة التى أرسلها إلى مصر سنة ٣٥٨هـ وقد تكللت مجهودات جوهر الصقلى فى فتح مصر بالنجاح، فأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمى على منابرها بدلا من الخليفة العباسى، وأصبحت القاهرة بعد أن اتخذها المعز لدين الله حاضرة لخلافته سنة ٣٦٣ مركزاً للدعوة الشيعية التى ظل العباسيون يقاومونها زهاء قرنين.

كانت الضرورة السياسية والحربية تقضى على الفاطميين بعد أن تم لهم فتح مصر أن يولوا وجوههم شطر الشام. ولم تخف عن جوهر الصقلى تلك الحقيقة، فعمل على فتح هذه البلاد رغبة فى تأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقى والوقوف فى وجه الروم والقرامطة.

وقد تضمن كتاب الأمان الذى أعلنه جوهر للمصريين (فى شعبان سنة ٣٥٨هـ) إشارة ظاهرة إلى خطر القرامطة الذين اجتاحوا بلاد الشام وأوقعوا الهزيمة بقوات الإخشيديين سنة ٣٥٧هـ، وأخذوا يهددون مصر؛ فجاء فيه[1] : «وهو أنه - صلوات الله عليه- لم يكن إخراجه العساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم». كما ورد فى هذا الأمان أيضًا: « ولكم على أمان الله التام العام، الدائم المتصل الشامل الكامل، المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم... وعلى أن لا يعترض عليكم معترض، ولا يتجنى عليكم متجن، ولا يتعقب عليكم متعقب، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ويذب عنكم ويمنع منكم، فلا يتعرض إلى أذاكم ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم».

لما تم لجوهر الصقلى فتح مصر وأيقن أن النفوذ الفاطمى قد توطد فيها، أرسل حملة إلى فلسطين أسند قيادتها إلى جعفر بن فلاح الكتامى فى أواخر سنة ٣٥٩هـ[2] ، فرأى الإخشيديون فى الشام بعد أن وصلت إليهم أنباء هذه الحملة أن

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٤٨، ١٥١ - ١٥٢ .

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٦٨ .

يعدوا أنفسهم لصدها، فخرج الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد- الذى كان يلى بلاد الشام إذ ذاك- من مدينة دمشق قاصداً الرملة واستخلف شمولا الأخشيدى على دمشق؛ على أن هذا الوالى لم يكن مخلصا للحسن بن عبيد الله، فتقاعد عن نصرته.

لما وصل جعفر بن فلاح إلى الرملة، دعا ولاة الشام إلى طاعة المعز لدين الله الخليفة الفاطمى ببلاد المغرب، فأجاب دعوته فريق منهم. أما الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد، فإنه استنجد بعماله على دمشق وطبرية فلم يسارع أحد منهم إلى نجدته، وانتهت الحرب التى دارت بين جعفر بن فلاح والحسن بن عبيد الله فى الرملة بهزيمة الحسن وأسره مع كثير من جنده[1] ؛ ثم سيق إلى الفسطاط حيث أرسل إلى بلاد المغرب؛ فظل بها حتى توفى سنة ٣٧١ هـ فى خلافة العزيز بالله.

استأنف جعفر بن فلاح السير إلى طبرية بعد انتصاره فى الرملة فبنى قصراً على الجسر الذى يشرف على المدينة ليحارب فاتك - غلام ملهم- وكان يلى أمورها من قبل كافور الإحشيدى، فخافه كل من فاتك وملهم ولم يتعرضا له؛ وبذلك تيسر لجعفر دخول طبرية دون أن يلقى مقاومة تذكر من أهلها.

لما وصل إلى أهل دمشق نبأ استيلاء جعفر على طبرية خشوا بأسه، وأرسلوا إليه جماعة من كبار رجالهم، يطلبون الأمان، لكنه لم يحسن استقبالهم، فعادوا إلى دمشق، ودارت رحى الحرب بين جنود جعفر وأهالى هذه المدينة فى أواخر سنة ٣٥٩هـ. وعلى الرغم من أن أهالى دمشق استطاعوا بمعاونة جند الإخشيديين الوقوف بضعة أيام فى وجه جعفر بن فلاح وجنده من المغاربة والقبائل العربية بالشام التى انضمت إليه، فإن الهزيمة لحقت بهم واستولى جعفر على دمشق[2] .

لما رأى أهالى دمشق ما حل بجندهم من الهزيمة وعجزهم عن الوقوف فى وجه الفاطميين، ندبوا بعض رجالاتهم لمقابلة جعفر، وطلبوا إليه إصلاح حال مدينتهم، وإعادتها إلى ما كانت عليه، فقبض عليهم بعض جنده من المغاربة وسلبوهم ثيابهم، وكان لهذا العمل أسوأ الأثر فى نفوس أهالى دمشق.

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٧١، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسى جـ٣ ص ٢٥٤ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا، ص ١٧٣ - ١٧٥.

على أن جعفر لم يلبث أن أخمد هذه الفتنة واضطر أهالى دمشق إلى مقابلته لطلب الأمان، وما زالوا يتضرعون إليه حتى قال: ما أعفو عنكم حتى تخرجوا إلى ومعكم نساؤكم مكشوفات الشعور، فيتمرغن فى التراب بين يدى لطلب العفو»، قالوا له: «نفعل ما يقول القائد»، وأخذوا يلحون عليه بالرجاء لعله يعفو عنهم. فهدأت ثائرته وانبسط معهم فى الكلام، واستقر الرأى بينه وبينهم على أن يصلى هو ورجاله يوم الجمعة في مسجد دمشق، فدخل المسجد هو وأصحابه، وأقيمت فى هذا اليوم الخطبة للخليفة الفاطمى المعز لدين الله، وحذف اسم الخليفة العباسى المطيع. وكان ذلك فى المحرم سنة ٣٦٠هـ[١] .

لم تكد تستقر الأمور في دمشق حتى عاد جند جعفر إلى العبث بالنظام فانتهكوا حرمة بعض المنازل وسلبوا ما فيها. وكان ذلك مما حمل أهل دمشق على مقاتلتهم، واضطر شيوخ هذه المدينة إلى مقابلة جعفر لطلب الأمان من جديد، فقال لهم: « دخل رجال أمير المؤمنين للصلاة فقتلتموهم»، ثم هددهم باستعمال العنف، فأخذوا يهدئون من روعه حتى وعدهم بالعفو إذا دفعوا دية من من قتل من جنوده، فأجابوه إلى طلبه وقدموا له الأموال الكثيرة.

لما رأي جعفر بن فلاح أنه لن يستطيع توطيد سلطان الفاطميين فى دمشق إلا بالقضاء على زعماء الفتنة من أهلها، أرسل جنده فى طلبهم، وعندما تمكنوا من القبض عليهم، أمر جعفر بضرب أعناقهم. وكان من بينهم إسحق بن عصودا، ولم ينج منهم إلا أبو القاسم بن أبى يعلى العباسى ومحمد بن عصودا. وقد حاول ابن أبى يعلى الهرب من بغداد، فقبض عليه عند تدمر، وسيق إلى جعفر ابن فلاح حيث شهر به ثم أرسل إلى مصر. أما محمد بن عصودا وظالم بن موهوب العقيلى والى حوران من قبل الإخشيديين فلحقا بالقرامطة فى الأحساء[٢].

على الرغم من أن جعفر بن فلاح حالفه النصر فى بلاد الشام، فإن سياسة العنف التى اتبعها فى دمشق وإساءة جنده معاملة الأهلين. واستهتارهم بأرواحهم، أثارت سخط الناس عليه، فدبر أهل دمشق المؤمرات لإقصاء هذا القائد والقضاء عليه والتخلص من حكم الفاطميين الذين يخالفونهم فى المذهب الدينى.

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٧٦ .

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٧٦ - ١٧٧.

لم يؤد استيلاء قوات جعفر بن فلاح على دمشق إلى بسط سلطان الفاطميين على جميع أرجاء بلاد الشام. فكان هناك الحمدانيون فى حلب - وقد لجأ إليهم كثير من أنصار الإخشيديين - كما أن الروم كانوا يهددون من حين لآخر المدن الشمالية والساحلية ببلاد الشام، كذلك كان لقرامطة بلاد البحرين بعض النفوذ فى هذه البلاد منذ أغاروا عليها سنة ٣٥٧ هـ.

على أن الحمدانيين لم يكونوا فى ذلك الوقت من القوة بحيث يستطيعون مناوأة الفاطميين والوقوف فى وجههم، فقد أخذت دولتهم فى الضعف منذ وفاة سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ[1] . أما الروم. فقد تكفل الحمدانيون فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى بصد غاراتهم، ولولا الجهود التى بذلوها فى هذا السبيل لاستولوا على بلاد الشام فى غفلة العباسيين.

ولما اعتلى نقفور فوكاس (Nicephorus Phocas) عرش الدولة البيزنطية (٩٦٣ - ٩٦٩م) تقدم الروم إلى حدود سوريا الشمالية، فاستولى جيشه سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) على أنطاكية التى كان يطمح إليها منذ زمن طويل لأنها كانت مدينة البطارقة والقديسين. لذلك اعتبرت منافسة لبيزنطة من الناحية الدينية. وبعد احتلال أنطاكية بمدة وجيزة حاصر قائد نقفور مدينة حلب واضطر قرعويه الذى كان إذ ذاك قد ثار على سعد الدولة بن سيف الدولة الحمدانى إلى عقد صلح مهين مع البيزنطيين[1] سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠م).

رأي جعفر بن فلاح بعد أن استقرت له الأمور ببلاد الشام، أن استيلاء الروم على أنطاكية يهدد الحكم الفاطمى فى هذه البلاد، ومن ثم أخذ فى تجهيز جيش كبير ضم إليه جنودًا من أعمال دمشق وفلسطين؛ وصار يرسل الحملة بعد الحملة إلى أنطاكية لإجلاء الروم عنها، لكن هذه الحملات منيت بالفشل[2] .

. كذلك واجه جعفر بن فلاح خطر قرامطة بلاد البحرين الذى يعد من أشد الأخطار التى هددت الحكم الفاطمى فى بلاد الشام. وكان هؤلاء القرامطة يرمون

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص ٢١٣ .

(٢) Hitti. History of the Arabs p. 460.

(٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

إلى بسط نفوذهم على هذه البلاد، وتجلت أطماعهم فيها فى عهد أميرهم أحمد ابن أبى سعيد حيث فرضوا منذ سنة ٣٥٧ هـ على الإخشيديين الذين كانوا يلون بعض مدن الشام إتاوة يؤدونها إلى حكومتهم كل سنة[١]. وإذا أمعنا النظر فى الظروف التى فرضت فيها هذه الإتاوة لاتضح لنا مدى حرص القرامطة على الاحتفاظ بسيادتهم على بلاد الشام.

(١) المقريزى. اتعاظ الحنفا، ص ٢٤٧ .

٣ ـ الصعوبات التى واجهت الفاطميين فى بلاد الشام من ناحيتى القرامطة وأفتكين التركى

(أ) **قرامطة بلاد البحرين**: بدأ النزاع بين قرامطة بلاد البحرين والفاطميين منذ استولى الجيش الفاطمى بقيادة جعفر بن فلاح على دمشق، فقد طالب الحسن ابن أحمد بن أبى سعيد الملقب بالأعصم الذى ولى إمارة القرامطة سنة ٢٥٩هـ بالإتاوة التى كان يدفعها الإخشيديون لحكومته. لكن جعفر بن فلاح رفض أداء هذه الإتاوة إليه(١). وكان لهذه السياسة أسوأ الأثر فى نفس الحسن بن أحمد الذى رأى أن سيادة دولته قد قضى عليها الفاطميون، هذا بالإضافة إلى حرمان حكومته من ضريبة كبيرة كانت تؤدى إليها؛ ومن ثم بدأ يناصبهم العداء، واتبع سياسة جديدة إزاء الفاطميين تخالف سياسة من سبقه من أمراء القرامطة.

استقر رأى الحسن بن أحمد على أن يعد نفسه لمحاربة القوات الفاطمية ببلاد الشام وإجلائها عن هذه البلاد، فبعث إلى المطيع العباسى وعز الدولة بختيار أمير بنى بويه فى العراق سنة ٣٦٠هـ، يطلب منهما أن يمداه بالمال والرجال ليتسنى له استرداد بلاد الشام ومصر من الفاطميين على أن يتولى حكم هذه البلاد من قبل العباسيين(٢).

ولما كان البويهيون يستأثرون إذ ذاك بالسلطة فى بغداد دون الخليفة العباسى، لذلك رأوا فى امتداد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الشام ما يعرض سلطانهم فى العراق للضعف والزوال، ومن ثم رحب عز الدولة بختيار بمد القرامطة بالسلاح والمال لمعاونتهم على الوقوف فى وجه الفاطميين، فأرسل إليهم ـ كما قال ابن القلانسى(٣) ـ «ألف ألف درهم، وألف جوشن، وألف سيف، وألف رمح، وألف قوس، وألف جعبة، وقال: إذا وصل الحسن أبو على الجنابى إلى الكوفة حمل إليه جميع ذلك».

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٤ ص٩٠.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جـ٤ ص٧٤.
(٣) ذيل تاريخ دمشق، ص١.

كذلك طلب عز الدولة بختيار إلى الحمدانيين بالموصل إمداد الحسن بن أحمد زعيم القرامطة بالأموال؛ فلقى هذا الطلب قبولا منهم رغبة فى وقف الزحف الفاطمى. وبلغ من اهتمام عز الدولة بختيار بمد يد المساعدة إلى القرامطة أن أرسل إلى أبى تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان، يطلب منه أن يؤدى إلى الحسن بن أحمد مبلغا قدره أربعمائة ألف درهم. وفى ذلك يقول النويرى[١]: «وكتب له على أبى تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان بأربعمائة ألف درهم، فرحل الحسن (ابن أحمد) من الكوفة حتى أتى الرحبة، وعليها أبو تغلب بن حمدان، فحمل إليه المال المسبب له، وحمل إليه العلوفة».

لم تقتصر معاونة أبى تغلب بن ناصر الدولة للحسن بن أحمد على مده بالأموال، بل أمده أيضا بقوة من الرجال قوامها الإخشيدية الذين وفدوا إليه فرارا مما لحق بهم فى مصر وفلسطين على يد جند الفاطميين من المغاربة[٢]. وكان لانضواء فريق من العقيليين بزعامة ظالم بن موهوب تحت لواء الحسن بن أحمد أثر كبير فى ازدياد قواته وإحرازه النصر على خصمه[٣].

لما أتم الحسن بن أحمد إعداد جيشه، وسار متجها إلى دمشق سنة ٣٦٠هـ ليقضى على نفوذ الفاطميين فى بلاد الشام، وكان جنوده يحملون الأعلام السود وقد كتب عليها اسم المطيع عبد الكريم، وتحته «السادة الراجعون إلى الحق[٤]» مما يثبت لنا انحيار القرامطة إلى العباسيين وانصرافهم عن الدعوة الإسماعيلية التى كانت من أهم دعائم دولتهم فى بلاد البحرين.

أما جعفر بن فلاح فإنه بعث فى طلب الحملة التى أرسلها إلى أنطاكية لإجلاء الروم عنها[٥]، وأخذ فى التأهب لصد قوات الحسن بن أحمد، لكنه رغم ذلك لم يكن يتوقع أن يهاجمه القرامطة بقوات ضخمة، وسرعان ما اشتبكت هذه القوات مع جعفر بن فلاح فى ناحية الدكة على مقربة من دمشق، حيث دارت

---

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ١٣ ورقة ٩٠.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٧٨.

(٣) حسن إبراهيم وطه شرف: كتاب المعز لدين الله، ص١٠٩.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤ ص٧٤.

(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص١٧٨.

معركـة انتهى الأمر فيهـا بهزيمة جعفـر وقتله هو وكثيـر من أتباعه سنة ٣٦٠هـ. وبذلك تمكن الحسن بن أحمد من الاستيلاء على دمشق.

على أن هذه الهـزيمة التى حلت بالجـيش الفاطمى فى بلاد الشـام، ترجع على الأغلب إلى عدم إعداد جـعفر بن فلاح القوات الكافيـة لصد القرامطة الذين عولوا على غـزو هذه البلاد لاستـعادة سلطانهم عليهـا. وكان يحسن بجعـفر بن فلاح أن يبـعث إلى جوهر الصقلى فـى مصر ليـرسل إليه نجدة تعـاونه فى توطيد الحكم الفاطمى ببلاد الشام. يقول المقريزى(١): «فلما صارت الشام له (لجعفر بن فلاح) شـمخت نفسـه عن مكاتبة جوهـر، فأنفذ كـتبه من دمـشق إلى المعز وهو بالمغرب سرا من جوهر، يذكر فيهـا طاعته، ويقع فى جوهر، ويصف ما فتح الله للمعز على يده، فغضب المعز لذلك، ورد كتبه كما هى مختومة. وكتب إليه: قد أخطأت الرأى لنفسك نحن قد أنفذناك مع قائدنا جـوهر، فاكتب إليه، فما وصل منك إلينا على يده قرأناه ولا تتجاوز بعـد، فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذى أردته، وإن كنت أهله عندنا، ولكنا نسـتفسد جـوهرا مع طاعته لنا. فـزاد غضب جعفر بن فلاح، وانكشف ذلك لجوهر، فلم يبعث ابن فلاح لجوهر بشىء من أمره إلى أن قدم عليه الحسن بن أحمد القرمطى».

رأى الحسن بن أحمد بعد أن دخلت قواته بلاد الشام أن ينهج سياسة تنطوى على الرغبة فى التودد إلى أهالى هذه البلاد واكـتساب ولائهم، فأمن أهالى دمشق بعد أن تم له فتحها، كما أقام الدعوة فى مساجدها للخليفة العباسى، وأمر بحذف اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة. وقد لقى عمله هذا ترحيبا من أهالى هذه المدينة، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنهم كـانوا من السنيين المتطرفين فى عدائهم للشـيعة والعلويين.

واصل الحسن بن أحمـد سيره إلى الرملة بعد فـتحه دمشق ليـقضى على ما بقى للفـاطميـين من سلطان ببلاد الشـام، وكان يلى هذه المدينة سـعادة بن حـيان المغربى؛ فلمـا علم بمسير القرامطة إليـها اضطر إلى الرحيل عنها والفـرار إلى يافا فتمهد بذلك السبيل لدخولهم الرملة(٢)، وأصبحت معظم بلاد الشام فى يدهم،

(١) خطط، جـ١ ص٣٧٨.

(٢) اتعاظ الحنفا، ص١٧٩.

وأقيمت فيها الدعوة للخليفة العباسي، يقول المقريزي: «وأقام القرامطة الدعوة للمطيع بالله العباسي في كل بلد فتحوه وسودوا أعلامهم، وأظهروا أنهم كأمراء النواحي الذين من قبل الخليفة العباسي».

ولما تم للحسن بن أحمد الاستيلاء على كثير من مدن الشام، زحفت جيوشه إلى مصر في أواخر سنة ٣٦٠هـ، فهاجمت مدينة القلزم وتمكنت من دخولها وأسر واليها الإخشيدي عبد العزيز بن يوسف، ولم تلبث أن تابعت سيرها في الأراضي المصرية في أوائل سنة ٣٦١هـ، فاستولت على عين شمس، ثم تقدمت إلى القاهرة.

تأهب القائد الفاطمي جوهر الصقلي لصد زحف القرامطة منذ أزمعوا المسير إلى مصر، فأعد جيشا قوامه المغاربة والمصريون، كما حصن القاهرة بخندق عظيم حفره حولها[١]. فلما هدد القرامطة هذه المدينة في ربيع الأول سنة ٣٦١هـ، أبدى الجنود المصريون الذين انضموا إلى جيش جوهر شجاعة فائقة استرعت انتباه المؤرخين[٢]، فتمكنوا من الوقوف في وجههم، وتقهقر الحسن بن أحمد بجنده ورحل إلى الأحساء[٣]، وقد علق المقريزي[٤] على هذه الهزيمة التي حلت بالقرامطة بقوله: «ولم يتفق على القرامطة منذ ابتداء أمرهم كسرة أقبح من هذه الكسرة، وفيها فارقهم من كان قد اجتمع إليهم من الكافورية والإخشيدية، فقبض جوهر على نحو الألف منهم».

ظل القرامطة قوة يخشى بأسها رغم انسحاب قواتهم في مصر في ربيع الأول سنة ٣٦١هـ وقد انتهز جوهر الصقلي فرصة رحيل الحسن بن أحمد إلى الأحساء، فأنفذ جيشا إلى يافا تمكن من إعادتها إلى حوزة الفاطميين. على أن الحسن بن أحمد ما لبث بعد عودته إلى دمشق أن وجه اهتمامه إلى استرداد نفوذه ببلاد الشام، ثم أخذ في التأهب للمسير إلى مصر، فأعد حملة بحرية أرسلها إلى تنيس وسواحل مصر، كما جهز جيشا ضم إليه عددا كبيرا من العرب[٥].

(١) المقريزي: خطط، جـ٢ ص١٣٧ ـ ١٣٨.
(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages.p.107.
(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ص٢٥.
(٤) خطط: جـ١، ص١٣٨.
(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ص٢٥٠.

لما قدم المعز لدين الله الفاطمى من المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢هـ واتخذ القاهرة حاضرة لخلافته، وجه سياسته إلى مناهضة نفوذ القرامطة حتى يتيسر له توطيد أركان دولته فى مصر والشام، فرأى أن يبعث إلى الحسن بن أحمد بكتاب قبل أن يشتبك معه فى الحرب لعله ينجح فى إثارة الساخطين من القرامطة عليه، وحمله على العدول عن موقفه العدائى من الفاطميين.

وقد أشار المعز فى هذا الكتاب[1] إلى ما عرف عن القرامطة من حرص على التودد إلى الفاطميين، كما أخذعلى الحسن بن أحمد خروجه على هذه السياسة التى اتبعها أسلافه من أمراء القرامطة ببلاد البحرين، فقال: «فأما أنت الغادر الخائن، الناكث البائن، عن هدى آبائه وأجداده، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده، والموقد لنار الفتنة، والخارج عن الجماعة والسنة، فلم أغفل أمرك، ولا خفى عنى خبرك. أما كان لك بجدك أبى سعيد أسوة، وبعمل أبى طاهر قدوة ؟. أما نظرت فى كتبهم وأخبارهم، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم؟ أكنت غائبا عن ديارهم وما كان من آثارهم؟ ألم تعلم أنهم كانوا عبادا لنا أولى بأس وعزم شديد وأمر رشيد وفعل حميد، يفيض إليهم موادنا، وينشر عليهم بركاتنا، حتى ظهروا على الأعمال ودان لهم كل أمير ووال، ولقبوا بالسادة فسادوا، منحة منا واسما من أسمائنا، فعلت أسماؤهم واستعلت هممهم، واشتد عزمهم، فسارت إليهم وفود الآفاق وامتدت نحوهم الأحداق، وخضعت لهيبتهم الأعناق، وخيف منهم الفساد والعناد، وأن يكونوا لبنى العباس أضداد؛ فعبئت الجيوش وسار إليهم كل خميس بالرجال المنتخبة، والعدد المهذبة، والعساكر الموكبة، فلم يلقهم جيش إلا كسروه، ولا رئيس إلا أسروه، ولا عسكر إلا كسروه، وألحاظنا ترمقهم، ونصرنا يلحقهم، كما قال الله عز وجل (إنَّا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا)، (وإن جندنا لهم الغالبون)، (وإن حزبنا لهم المنصورون).

«فلم يزل ذلك دأبهم، وعين الله ترمقهم، إلى أن اختار لهم ما اختاروه من نقلهم من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن نعيم يزول إلى نعيم لا يزول، فعاشوا محمودين، وانتقلوا مفقودين، إلى روح وريحان وجنات النعيم، فطوبى لهم وحسن مآب».

---

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص٢٥٨ ـ ٢٦٥.

وقد وضح المعز أيضـا فى كتابه مدى انتشـار الدعوة الفاطمية فى كـثير من أرجاء العالم الإسلامـى، وعاب على الحسن بن أحمد انصرافه عـنها؛ فقال «ومع هذا، فما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم إلا ولنا فـيه حجج ودعاة يدعون إلينا، ويدلون علينا، ويأخـذون بيعـتنا، ويذكرون رجـعتنا، وينشـرون علمنا، وينذرون بأسنا، ويبـشرون بأيامنا، بتـصاريف اللغـات واختلاف الألسن، وفـى كل جزيرة وإقليم رجـال منهم يفقـهون، وعـنهم يأخذون؛ وهو قـول الله عز وجل: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم). وأنت عارف بذلك، فيا أيها الناكث الحانث ما الذى أرداك وصـدك؟ أشىء شككت فيه، أم أمر استربت به، أم كنت خليا من الحكمة، وخارجا عن الكلمـة، فأزالك وصدك، وعن السبيل ردك؟. إن هى إلا فـتنة لكم ومتـاع إلى حـين. وأيم الله لقـد كان الأعلى لجـدك، والأرفع لقدرك، والأفضل لمجدك، والأوسع لوفدك، والأنضر لعودك، والأحسن لعذرك، الكشف عن أحـوال سلفك. وإن خفـيت عليك، والقفـو لآثارهم، وإن عمـيت لديك، لتجرى على سننهم وتدخل فى زمرهم، وتسلك فى مذهبهم».

كذلك أظهر المعز فى كـتابه استياءه من إقامة الحـسن بن أحمد الدعوة لبنى العبـاس، مع ما أصـابها من وهن وضـعف. فقـال: «..لم تقنع فى انتكاسك، وترديتك فى ارتـكاسك، وارتبـاكك وانعكاسك، مـن خـلافك الآباء ومـشـيك القهقرى، والنكوص على الأعقاب، والتـسمى بالألقاب. بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، وعصيانك مولاك، وجحدك ولاءك، حتى انقلبت على الأدبار، وتحملت عظيم الأوزار، لتقيم دعوة قد درست، ودولة قد طمست.إنك لمن الغابرين، وإنك لفى ضلال مبين. أم تريد أن ترد القرون السالفة، والأشخاص الغابرة. أما علمت أن المطيع آخر ولد العـباس، وآخر المتـاريس فى الناس، أم تراهم (كأنهم أعـجاز نخل خاوية، فهل ترى لهم من باقية) خـتم والله الحساب. وطوى الكتاب. وعاد الأمر إلـى أهله. والزمان إلى أوله. وأزفت الآزفـة، ووقعت الواقـعة، وقـرعت القـارعـة، وطلعت الشـمس من مـغـربها، والآيـة من وطنهـا. وجىء بالملائكة والنبـيين، وخـسر هنالـك المبطلون، هنالك الولاية لله الحق. والملك لله الواحـد القهار، فله الأمر من قبل ومن بعد».

لم يفت المعز فى كتابه أن يلوم الحسن بن أحمد على حشده القوات لغزو بلاد الشام، وقتله جعفر بن فلاح قائد الجيش الفاطمى وكثيرا من جنده. كما عدد له الأحداث التى ارتكبها أثناء هجومه على هذه البلاد من استباحته الأموال وسبيه النساء. فقال: «ثم لم يكفك ذلك ـ مع بلائك وطول شقائك ـ حتى جمعت أرجاسك وأنجاسك، وحشدت أوباشك وأقلاسك[1]، وسرت قاصدا إلى دمشق وبها جعفر بن فلاح فى فئة قليلة من كتامة وزويلة، فقتلته وقتلتهم جرأة على الله وردا لأمره ـ واستبحت أموالهم، وسبيت نساءهم وليس بينك ولا بينهم ترة ولا ثأر، ولا حقد ولا أضرار، فعل بنى الأصفر والترك والخزر. ثم سرت أمامك ولم ترجع، وأقمت على كفرك ولم تقلع، حتى أتيت الرملة وفيها سعادة بن حيان فى زمرة قليلة وفرقة يسيرة، فاعتزل عنك إلى يافا، مستكفيا شرك، وتاركا حربك. فلم تزل ماكثا على نكثك باكرا وصابحا. وغاديا ورائحا. تقعد لهم بكل مقعد، وتأخذ عليهم بكل مرصد، وتقصدهم بكل مقصد، كأنهم ترك وروم وخزر. لا ينهاك عن سفك الدماء دين ولا يردعك عهد ولا يقين».

وفى نهاية الكتاب عرض المعز على الحسن بن أحمد ثلاث خصال ليختار منها واحدة يعمل على تحقيقها، وهدده بسوء العاقبة. فقال: «ونحن معرضون ثلاث خصال والرابعة أردى لك. وأشقى لبالك. وما أحسبك تحصل إلا عليها ـ فاختر: إما قدت نفسك لجعفر بن فلاح وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجال سعادة بن حيان. ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة من عقال ناقة وخطام بعير ـ وهى أسهل ما يرد عليك ـ وإما أن تردهم أحياء فى صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم ـ ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار ـ وإما سرت ومن معك بغير ذمام ولا أمان فأحكم فيك وفيهم بما حكمت، وأجريكم على إحدى ثلاث: إما قصاص، وإما منا بعد، وإما فداء؛ فعسى أن يكون تمحيصا لذنوبك وإقالة لعثرتك؛ وإن أبيت إلا فعل اللعين: (فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين). اخرج منها فما يكون لك أن تنكب فيها، وقيل اخسئوا فيها ولا تكلمون، فما أنت إلا كشجرة

(١) ما خرج من الحلق وملأ الفم (حاشية رقم ٣، ص٣١٤ ـ كتاب المعز لدين الله).

خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. فلا سماء تظلك ولا أرض تقلك، ولا ليل يجنك، ولا نهار يكنك، ولا علم يسترك ولا فئة تنصرك».

لم يعدل الحسن بن أحمد ـ بعد أن وصله كتاب المعز ـ عن سياسته التى تنطوى على مناهضة النفوذ الفاطمى، بل أظهر عدم اكتراثه بتهديد المعز له، وأساء فى رده؛ فكتب إليه: «وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون إليك على أثره؛السلام[1]». ثم زحف إلى مصر سنة ٣٦٣هـ (٩٧٤م) وتوغلت جنوده فى الأراضى المصرية، كما تقدمت القوة الرئيسية نحو القاهرة وعسكرت بالقرب من الخندق الذى حفره جوهر، ولما علم المعز بنبأ وصوله هاله كثرة قواته، فأشار عليه أهل الرأى من نصحائه بالسعى فى تفريق كلمتهم، فعمد إلى استمالة حسان بن الجراح الطائى رئيس جند العرب الذين يعدون أقوى عناصر جيش الحسن بن أحمد. واتفق معه على أن يدفع إليه مائة ألف دينار على أن يتظاهر بالهزيمة أمام جند الفاطميين[2]. وكان هذا المبلغ كافيا لحمل بنى طيئ على الانصراف عن حليفهم الحسن بن أحمد؛ فلما دارت الحرب بين الفريقين، تقهقر حسان بن الجراح أمام قوات المعز، فأدى ذلك إلى هزيمة الحسن بن أحمد وارتداده إلى الشام[3]؛ وأسر الفاطميون نحو ألف وخمسمائة من القرامطة.

وقد رأى المعز رغم نجاح قواته فى صد هجمات القرامطة عن مصر أن ينفذ حملته بقيادة أبى محمود بن جعفر بن فلاح لمطاردة جيش القرامطة فى الشام، حتى لا يعاود المسير إلى مصر؛ فلحقت بهم فى أذرعات[4]. أما الحسن بن أحمد فإنه بعد أن وصل إلى دمشق، ترك بها أبا المنجا القرمطى واليا عليها من قبله ورحل مع بعض رجاله إلى الأحساء[5].

اتجهت سياسة المعز بعد أن عجز الحسن بن أحمد عن الاستيلاء على مدينة القاهرة للمرة الثانية واضطراره إلى التقهقر بجيوشه إلى القضاء على ما بقى

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٨ ص٢١١.
(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ. جـ٨، ص٢١١.
(٣) النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٣. ورقة ٩٧.
(٤) أذرعات: مدينة بأطراف الشام قبل الحجاز.
(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص٢١١.

للقرامطة من نفوذ ببلاد الشام؛ وتحقيقا لهذا الغرض، رأى أن يستعين ببنى الجراح من بنى طيئ على استرداد هذه البلاد، كما قرب إليه ظالم بن موهوب العقيلى بعد انصرافه عن تأييد الحسن بن أحمد، وأسند إليه ولاية دمشق (رمضان سنة ٣٦٣هـ)؛ فقبض على واليها أبى المنجا القرمطى وعلى كثير من أتباعه القرامطة، وبذلك تم استعادة سلطان الفاطميين على بلاد الشام[١].

لم تستقر الأمور فى دمشق بتقلد ظالم بن موهوب العقيلى ولايتها؛ فقد أرسل المعز جيشا من المغاربة بقيادة أبى محمود بن جعفر ليعاونه فى المحافظة على الأمن، ولصد القرامطة إذا ما حاولوا العودة إلى بلاد الشام، ولكن هؤلاء المغاربة ما لبثوا أن انصرفوا إلى العبث والفساد وقطع الطريق مما أدى إلى تذمر أهالى دمشق واشتباكهم مع جند الفاطميين فى بعض المعارك. ولا شك أن هذه الأحداث تعد من أكبر الصعاب التى واجهت ظالم بن موهوب، فاضطر إلى الخروج بنفسه لإخماد حركات المغاربة. يقول ابن القلانسى[٢]: «فلما شاهد (ظالم بن موهوب) انهزام الناس والمغاربة فى أثرهم، استدعى رمحه وعبر الجسر ومعه فرقة من أصحابه وحمل على أوائل المغاربة، فردهم عن أحداث البلد». على أن ظالم بن موهوب لم يحظ برضاء أى فريق من الفريقين المتنازعين بدمشق، وما لبث أن عزل فى ربيع الآخر سنة ٣٦٤هـ وخلفه جيش بن الصمصامة الذى اشترك مع ابن أخته القائد أبى محمود بن جعفر فى إدارة أمور دمشق[٣].

لم تتمتع دمشق طويلا بالهدوء مما ساعد على عدم استقرار الحكم الفاطمى فيها، فقامت الفتنة من جديد بين أهالى هذه المدينة وجند المغاربة ونتج عنها إثارة الاضطراب بين الناس، وتخريب المنازل وإغلاق الطرق ووقف حركة البيع والشراء، كما توفى كثير من الفقراء على قارعة الطريق بسبب الجوع والبرد.

لما وصل إلى المعز لدين الله نبأ الاضطراب الذى حدث بدمشق، ثبت لديه أن هناك صعوبات تواجه حكمه فى بلاد الشام، ومن ثم عول على إقرار النظام

---

(١) ابن خلدون: جـ٤، ص٩٠.

(٢) ذيل تاريخ دمشق: ص١٠٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٨ ص٢١١ ـ ٢١٢.

فيها، فبعث فى طلب ريان الخادم واليه على طرابلس وعهد إليه بدراسة الحالة فى دمشق، وقمع الفتن التى ثارت بين أهالى هذه المدينة وبين جند المغاربة، كما قلده ولايتها بعد عزل القائد أبى محمود بن جعفر الذى سار فى جماعة قليلة من العسكر إلى الرملة[1]. وقد بذل ريان الخادم جهده فى تهدئة الحالة فى دمشق والتوفيق بين أهلها وجند المغاربة.

(ب) **حركة أفتكين التركى**: أدت الاضطرابات التى سادت مدينة دمشق فى أواخر عهد المعز إلى إضعاف الحكم الفاطمى فيها. وقد مهدت هذه الحالة السبيل لدخول فريق من الأتراك بزعامة أفتكين[2] بلاد الشام واستقرارهم بها. وبذلك واجه الفاطميون عنصرا جديدا لعب دورا هاما فى مناهضة نفوذهم فى هذه البلاد.

سار أفتكين التركى من بغداد قاصدا بلاد الشام مع فريق من جنده بعد انهزامه فى المعركة التى دارت بين الأتراك والديلم، فخرج إليه ظالم بن موهوب العقيلى من بعلبك ليحول دون تقدمه فى هذه البلاد، وأرسل إلى القائد أبى محمود بن جعفر أمير دمشق يخبره بقدوم أفتكين التركى وأنه يزمع السير إلى دمشق لإقامة الخطبة للخليفة العباسى، وحذره منه؛ فأنفذ إليه جيشا ليعاونه فى محاربته.

على أن أفتكين ما لبث أن استنجد بالحمدانيين فى حلب، فأمده سعد الدولة أبو المعالى بن سيف الدولة الحمدانى (٣٥٦ - ٣٧١هـ) بجند كثير،واستقبله فى حمص بالحفاوة والتكريم؛ واضطر ظالم بن موهوب إلى العودة إلى بعلبك دون أن يشترك فى حرب.

وقد انتهز بعض العناصر الثائرة بدمشق فرصة قدوم أفتكين إلى بلاد الشام، فبعثوا يستدعونه من حمص ووعدوه بمعاونته فى إخراج الحامية الفاطمية فى دمشق؛ كما أن شيوخ هذه المدينة وأشرافها رحبوا بقدوم أفتكين حين بلغهم أنه فى

---

(١) ابن الأثير، جـ٨ ص٢١٢.

(٢) بدأ أفتكين (أبو منصور التركى الشرابى) عهده فى خدمة معز الدولة أحمد بن بويه، وما زال يترقى فى المناصب حتى ولى قيادة جند الأتراك فى بغداد فى أيام عز الدولة بختيار أمير بنى بويه بالعراق (٣٥٦ - ٣٦٧هـ). المقريزى: خطط، جـ١، ص٩.

طريقه إليها، وخرجوا لمقابلته، وطلبوا منه أن يتولى الحكم في بلدهم لينقذهم من الفاطميين الذين يخالفونهم في المذهب الديني؛ فأظهر استعداده لإجابة طلبهم؛ وتعهد له شيوخ دمشق بمعاونته وأن يكونوا في طاعته. أما أفتكين فتعهد بحمايتهم وكف الأذى عنهم، ثم دخل دمشق في شعبان سنة ٣٦٤هـ وأخرج منها واليها ريان الخادم، وأمر بذكر اسم الخليفة العباسي الطائع في الخطبة بدلا من المعز لدين الله الفاطمي[١].

رأى أفتكين رغم نجاحه في الاستيلاء على دمشق وقضائه على نفوذ الفاطميين فيها أن يستميل المعز لدين الله لاعتقاده أن قواته ستعاود الهجوم على بلاد الشام لتوطيد سلطانه عليها؛ فكتب إليه رسالة على سبيل التمويه والانقياد له والطاعة لأوامره؛ فبعث إليه المعز يدعوه للحضور إليه ليخلع عليه ويقره على ولايته؛ لكن أفتكين لم يجبه إلى طلبه لعدم وثوقه بما وعد به[٢]، خشية تعرضه لمكيدة يدبرها الخليفة الفاطمي، وخاصة أنه حارب ولاة الفاطميين في حمص وانتصر عليهم، كما طرد واليهم على دمشق.

لم يكتف أفتكين باستيلائه على دمشق، بل رأى أن يبسط نفوذه على مدن الشام، فاتجه إلى صيدا حيث اشتبك مع واليها من قبل المعز في معركة انتهى الأمر فيها بهزيمة هذا الوالي، ثم قصد عكا، ومنها توجه إلى طبرية وعاد إلى دمشق بعد تغلبه على قوات الفاطميين بهذه المدن.

لما فرغ العزيز بالله الفاطمي من توطيد سلطته بمصر بعد أن آلت إليه الخلافة في ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ، وجه اهتمامه إلى استرداد بلاد الشام، واستشار وزيره يعقوب بن كلس فيما يفعل لتحقيق هذه الغاية. فأشار عليه بأن يعهد إلى جوهر الصقلي بقيادة جيش يزحف به إلى دمشق. فلما علم أفتكين بمسيره خشي من الأخطار التي قد تحدق بأهل دمشق من جراء هجوم الجيش الفاطمي على بلدهم. فاجتمع بهم وأظهر لهم استعداده للرحيل عن دمشق حتى لا يلحقهم أي أذى بسببه. فأكدوا له حرصهم على التمسك ببقائه معهم بقولهم: «لا نمكنك من

(١) ابن الأثير: جـ٨، ص٢١٧ ـ ٢١٨.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص١٢.

فراقنا ونحن نبذل الأموال فى هواك وننصرك»، فعدل أفتكين عن مغادرة دمشق وأعد العدة لمواجهة قوات الفاطميين؛ فلما وصل جوهر إلى دمشق على رأس هذه القوات فى ذى القعدة سنة ٣٦٥هـ، حاصر المدينة، وأبدى أفتكين شجاعة فائقة فى محاربته؛ غير أن جند الفاطميين من المغاربة ظلوا فترة طويلة يحاصرون دمشق مما أدى إلى تذمر أهلها، فأشاروا على أفتكين بمكاتبة الحسن بن أحمد زعيم القرامطة ببلاد البحرين. فكتب إليه يستنجده، فسار إليه من الأحساء(١).

رأى جوهر الصقلى بعد أن وصله خبر قدوم القرامطة أنه لا قبل له بمواجهة عدوين، لذلك اضطر إلى رفع الحصار عن دمشق وقصد الرملة؛ غير أنه لم يكد يصل إليها حتى سار فى أثره الحسن بن أحمد وأفتكين. وكان ذلك مما حمله على الرحيل إلى عسقلان. ولما اشتدت به الحال وندر وصول الأقوات والمؤن إليه، أرسل إلى أفتكين يطلب منه المهادنة، كما أبدى رغبته فى مقابلته، فرحب بلقائه. ولما اجتمع به جوهر قال له «قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الإسلام وحرمة الدين، وقد طالت هذه الفتنة وأريقت فيها الدماء ونهبت الأموال ونحن المؤاخذون بها عند الله تعالى، وقد دعوتك إلى الصلح والطاعة والموافقة، وبذلت لك الرغائب فأبيت إلا القبول ممن يشب نار الفتنة، فراقب الله تعالى وراجع نفسك، وغلب رأيك على هوى غيرك» فأجابه أفتكين بقوله: «أنا والله واثق لك فى صحة الرأى والمشورة منك، لكنى غير متمكن مما تدعوننى إليه بسبب القرمطى الذى أحوجتنى أنت إلى مداراته والقبول منه(٢)».

ظل جوهر يلح على أفتكين فى طلب الصلح، حتى أجابه إلى طلبه على أن يؤدى إليه مالا معينا، ويخرج من تحت سيفه ورمح الحسن بن أحمد، فمر جوهر من تحتهما وهما معلقان على باب عسقلان وسار قاصدا القاهرة(٣)، وهو على يقين من أنه قد تعرض للإهانة والمذلة بسبب هذا الصلح الذى سعى إليه مضطرا. وكان يأمل أن تتاح له الفرصة ليعود مرة ثانية إلى بلاد الشام فيقضى على أفتكين وحلفائه القرامطة.

---

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص٢١٨.
(٢) ابن الأثير: جـ٨، ص٢١٨.
(٣) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص١٧، المقريزى خطط جـ٢، ص١٠.

لما وصل جوهر إلى مصر أوضح للخليفة العـزيز حقيقة الحال فى بلاد الشام وما أصـاب سلطان الفاطمـيين فيـها من ضعف وانحـلال، فاسـتقر رأى الخليـفة الفاطمى على الخـروج بنفسه لاستـعادة نفوذه على هذه البـلاد، وسار على رأس جيش كبير، وجعل جوهر على مقدمته(١).

أعد كل من أفتكين والحسن بن أحمد القـرمطى العدة لمواجهة زحف الجيش الفاطمى على بلاد الشام، فحـشدا جموعا كثيرة من العـرب وغيرهم. وعادا إلى الرملة حيث دار القتال بين الفريقين فى المحرم سنة ٣٦٧هـ. وقد شاهد العزيز فى هذه الحرب من شجاعـة أفتكين ما أعجبه، فأرسل إليه يدعـوه إلى طاعته، ويعده بأن يقلده الولايات ويجعله مقـدم عسكره ومستشاره فى دولتـه، كما طلب منه أن يحضر لمقابلته، فقال أفتـكين لرسول العزيز: «قل لأمير المؤمنين لو قدَّم هذا القول لسـارعت وأطعت، وأما الآن فـلا يمكن إلا ما ترى». ثم واصل السـير لمحـاربة الفاطمـيين، فـأوقع العزيز الهـزيمة بقواته، ومـضى أفتكين هاربا، ثـم سيق إلى القاهرة مع بعض أنصاره من الأتراك حـيث عفا عنه الخليفة وعامله معـاملة قوامها العطف والرعاية، وخصص له دارا لإقامته(٢).

أما الحسن بن أحـمد، فإنه سار منهـزما إلى طبرية(٣) حيث لحـق به رسول العزيز الذى دعاه إلى مـقابلة الخليفة ووعده بأنه سيكون مـوضع رعايته. فلم تلق هذه الدعوة قبولا منه(٤) ثم رحل إلى الأحساء مع أنصاره من القرامطة بعد أن اتفق معه العزيز على أن يدفع له تعويضا سنويا قدره عشرون ألف دينار طيلة حياته(٥).

وهكذا فشلت الحـركة التى أثارها أفتـكين التركى فى بلاد الشام، كـما زال نفوذ القرامطة فى هذه البلاد واضطروا إلى الجلاء عنهـا، مما سهل على الفاطميين استعادة دمشق إلى حوزتهم.

---

(١) ابن الأثير: جـ٨، ص٢١٩.
(٢) المقريزى: خطط، جـ٢، ص١٠.
(٣) ابن خلدون: جـ٤، ص٩١.
(٤) ابن الأثير: جـ٨، ص٢١٩.
(٥) Gaston Wiet, Histoire se La Nation Eoyyptienne. Vol. 4. P. 181-182Æ

٣ـ موقف أمراء العرب بالشام من الفاطميين

(أ) بنو الجراح فى فلسطين :

حاول بنو طيئ بفلسطين فى أواخر القرن الرابع الهجرى تكوين دولة لهم والاستقلال عن الخلافة الفاطمية، فثار بالرملة سنة ٣٨٨هـ زعيمهم مفرج بن دغفل بن الجراح، فأرسل برجوان الوصى على الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى إلى فلسطين حملة بقيادة جيش بن الصمصامة، فسار إلى الرملة واستولى عليها وأخضع ثوارها، وطارد مفرج بن الجراح وقواته حتى طلب الأمان والصلح، فعفا عنه وأمنه(١)، ثم عادت الفتنة بفلسطين سنة ٤٠٠هـ عندما نقم الحاكم بأمر الله على آل المغربى بمصر، ففر الوزير أبو القاسم حسن على بن المغربى(٢) إلى حسان ابن مفرج بن دغفل بن الجراح أمير طيئ بالرملة، وحسن له خلع طاعة الحاكم، فزحف حسان إلى الرملة واستولى عليها وقتل واليها من قبل الفاطميين وعاث فيها فسادا.

اتفق بنو الجراح سنة ٤٠١هـ على استدعاء أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى أمير مكة ليبايعوه بالخلافة(٣)، فأوفدوا إليه الوزير أبا القاسم بن المغربى ليغريه بالخروج على الحاكم بأمر الله(٤)، فلما قدم هذا الوزير مكة، أطمع أميرها أبا الفتوح فى الرياسة وحرضه على طلب الخلافة، كما حثه على الخروج إلى الرملة إجابة لرجاء حسان بن مفرج بن الجراح الذى سيكون خير عون له على تثبيت سلطته، فرحب الأمير أبو الفتوح بهذه الدعوة وأقام الخطبة لنفسه وتلقب بالراشد بالله، ثم سار من مكة قاصدا الرملة وبصحبته أبو القاسم بن المغربى وبعض أنصاره من القبائل العربية، فلما اقترب من الرملة تلقاه حسان بن مفرج بن الجراح وأولاده وسائر وجوه العرب بالترحاب وترجلوا له وبايعوه بالخلافة، ونزل أبو الفتوح فى دار حسان ونادى فى الناس بالأمان، وأقيمت له الخطبة فى كثير من بلاد الشام(٥).

---

(١) ابن الأثير: جـ٩، ص٤١.

(٢) كان هذا الوزير ناقما على الحاكم بأمر الله لغدره بأبيه وأعمامه.

راجع: كتاب النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب (للمؤلف)، ص١٧.

(٣) ابن خلدون: جـ٤، ص٥٧.

(٤) المقريزى: خطط، جـ٢ ص١٥٧، ٢٨٧.

(٥) عبد القادر الأنصارى: درر الفرائد المنظمة، جـ١ ص١٠٧ ـ ٢٠٨.

لما وصل إلى الحاكم بأمر الله نبأ خروج أبي الفتوح أمير مكة عليه ومبايعة بني الجراح له بالخلافة، بعث حملة إلى فلسطين للقضاء على هذه الحركة؛ غير أن هذه الحملة حلت بها الهزيمة واستفحل نفوذ بني الجراح، وبسطوا سلطانهم على جنوب بلاد الشام؛ فعمد الخليفة الحاكم بأمر الله إلى استمالة حسان وأبيه مفرج وغيرهم من بني طيئ بالأموال التي بذلها لهم؛ فانحرف بنو الجراح عن الأمير أبي الفتوح بعد أن بايعوه بالخلافة. ولما أحس أبو الفتوح بخذلانهم إياه وعدولهم عن رأيهم في العمل على تقوية نفوذه، ذهب إلى مفرج بن الجراح وأخبره بانصراف أولاده عن تأييده. وقال له: «أريد أن تبعث معي من يوصلني إلى مكة ولا تحرجني». فبعث معه جماعة من بني طيئ؛ ولم يزالوا معه حتى بلغ مكة سنة ٤٠٣هـ، فتلقاه أتباعه، وكاتب الحاكم واعتذر إليه؛ فقبل عذره وعفا عنه، وأعاده إلى إمارته بمكة(١). وعمل الأمير أبو الفتوح منذ عودته إلى مكة على إقامة الدعوة للحاكم بأمر الله، كما نقش اسمه على السكة(٢).

ظل بنو الجراح متغلبين على بعض نواحي جنوب بلاد الشام حتى سنة ٤٠٤هـ. ولم يتوان الفاطميون عن قتالهم خلال تلك الفترة، فجهز الخليفة الحاكم العساكر إلى الشام بقيادة علي بن جعفر بن فلاح، فقصد الرملة وهزم حسان بن مفرج وقومه الطائيين واستولى على أموالهم وذخائرهم ثم سار إلى دمشق، فاستولى عليها وتولى إمارتها(٣).

ضعف شأن بني الجراح بفلسطين بعد الهزيمة التي حلت بهم في أواخر عهد الحاكم بأمر الله، واستعاد الفاطميون نفوذهم بهذا الإقليم، وظل الحال على ذلك حتى ولي الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الخلافة، فحاول حسان بن الجراح استرداد سلطانه بالرملة، وما لبث أن حشد جموعه وهاجمها ونهبها ولم تقف أطماعه عند هذا الحد بل عمل على الاستقلال بفلسطين، وتحقيقا لهذه الغاية عقد اتفاقا سنة ٤١٥هـ مع صالح بن مرداس أمير بني كلاب وسنان بن عليان أمير الكلبيين

---

(١) ابن خلدون: جـ٤، ص٤٧٣، عبد القادر الأنصاري: درر الفرائد المنظمة، ص٢٠٨.

(٢) المقريزي: خطط، جـ٢، ص٢٢٨.

راجع كتاب النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب (للمؤلف) ص١٧ - ٢١.

(٣) ابن الأثير: جـ١، ص٤٣، ابن خلدون، جـ٤ ص٥٧.

يتضمن أن تتحد قواهم جميعا لإخراج الفاطميين من بلاد الشام وتقسيمها بينهم على أن يكون من حلب إلى عانة على نهر الفرات لصالح بن مرداس، ومن الرملة إلى حدود مصر لحسان أمير الطائيين، ودمشق وما يحيط بها لسنان بن عليان وعشيرته[١]. وقد أطلع هؤلاء الأمراء الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى على هذا الاتفاق وطلبوا معونته لكنه لم يجب طلبهم[٢].

لما رأى الخليفة الظاهر الفاطمى الخطر الذى يهدد سلطان الفاطميين ببلاد الشام من جراء ذلك الاتفاق الذى عقده بعض زعماء العرب، جهز جيشا سنة ٤٢٠هـ لمحاربة هذه القوى المتحالفة، وأسند قيادته لأنوشتكين الدزبرى[٣]. وقد تمكن القائد الفاطمى من إلحاق الهزيمة بقوات حلف عرب الشام عند طبرية، وقتل صالح بن مرداس، وهرب حسان بن الجراح الطائى إلى الإمبراطور البيزنطى ليحتمى فى بلاطه، وبهذا النصر استرد الفاطميون البقاع الجنوبية والوسطى من سورية، أما حلب فظلت بيد نصر بن صالح بن مرداس الذى تلقب بشبل الدولة[٤].

(ب) الحمدانيون والمرداسيون فى شمال الشام :

كذلك واجه الفاطميون عدة صعوبات فى سبيل بسط سيادتهم على شمال بلاد الشام حيث أقام الحمدانيون دولتهم فى حلب. وكان هؤلاء الحمدانيون يخشون ازدياد نفوذ الفاطميين السياسى، فلما دعاهم جعفر بن فلاح ـ بعد أن تم له فتح دمشق ـ إلى إقامة الخطبة للخليفة الفاطمى على منابر بلادهم، وهددهم بالاستيلاء على حلب، أثار هذا التهديد سخطهم، وعملوا على مساعدة القرامطة ليقضوا على نفوذ الفاطميين ببلاد الشام[٥].

على أن الحمدانيين لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون الوقوف فى وجه الفاطميين، ففى عهد سعد الدولة بن سيف الدولة (٣٥٦ ـ ٣٨١هـ)، بدأ الضعف

---

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكى: صلة التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، جـ٢، ص٢٤٤ ـ ٢٤٥.

(٢) Gaston Wiet. Histoire de La Nation Egyptienne. Vol 4. P. 216-217.Æ

(٣) ابن الأثير: جـ٩، ص١٢٨.

(٤) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ص٢٤٨: تاريخ ابن الوردى، جـ١ ص٣٢٣ ـ ٣٢٤.

(٥) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص٣٥٨.

يظهر فى الدولة الحمدانية فى حلب، فثار عليه قرعويه - أحد أتباع أبيه - واستولى على حلب، وحال دون دخوله إليها، فقصد سعد الدولة حمص وآثر البقاء بها وانحاز إلى جانب الفاطميين وأقام الخطبة للمعز لدين الله الفاطمى[١]. ثم وجه اهتمامه إلى استرداد حلب، فسار إليها على رأس جيش من العرب من بنى كلاب وغيرهم وتمكن من استعادة سلطانه عليها بعد أن ظل يحاصرها أربعة أشهر، وأسند ولاية حمص إلى غلامه بكجور التركى سنة ٣٦٦هـ[٢].

على أن سعد الدولة لم يتمتع بالطمأنينة، فشغل بمحاربة بكجور الذى كتب إلى العزيز بالله الفاطمى يطلب إليه أن يوليه دمشق، ويـنجده بقوة يستعين بها فى الاستيلاء على حلب، فأجاب الخليفة الفاطمى طلبه سنة ٣٧٣هـ، وسار بكجور إلى هذه المدينة وحاصرها، لكنه اضطر إلى الارتداد عنها أمام قوات الروم التى استعان بها سعد الدولة الحمدانى، وعاد إلى دمشق ليتولى إمارتها. غير أنه عامل أهلها معاملة تنطوى على العنف والشدة مما جعلهم يتذمرون من حكمه، كما أضمر له الوزير الفاطمي يعقوب بن كلس العداء لتنكيله بأتباعه؛ فصار يحول دون تحقيق رغباته، ثم أشار على العزيز بعزله، فأجاب طلبه بعد أن بلغه سوء سيرته فى دمشق، ورحل بكجور إلى الرقة (على نهر الفرات) حيث طلب من سعد الدولة الحمدانى أن يعيده إلى ولاية حمص، فلم يظفر منه بشىء[٣].

ظل بكجور أثناء إقامته بالرقة يواصل جهوده للاستيلاء على حلب؛ فراسل جماعة من مماليك سعد الدولة الحمدانى، واستمالهم إليه، فأظهروا له ترحيبهم بقدومه إلى حلب، كما أخبروه بأن سعد الدولة منشغل بملذاته عن تدبير شئون دولته؛ فعزم بكجور على انتهاز هذه الفرصة لتحقيق أطماعه، ورأى أن يستعين بالفاطميين لعله يظفر بتأييدهم؛ فأرسل إلى العزيز بالله يطمعه فى حلب ويقول له: «إنها دهليز العراق، ومتى أخذت كان ما بعدها أسهل منها»، كما طلب منه أن ينفذ إليه نجدة من جنده؛ فعمل العزيز على تلبية طلبه[٤]. وأرسل إلى واليه بطرابلس بأن يكون على أهبة الاستعداد للمسير إليه لمساعدته[٥].

---

(١) ابن الأثير، جـ٨ ص١٩٧ - ٢٠٢.

(٢) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٧ - ٢٨.

(٣) ابن الأثير: جـ٩، ص١٩ - ٢٠، ٢٩.

(٤) ابن الأثير: جـ٩، ص٢٩.

(٥) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، جـ١ ص٣٣ - ٣٤.

لما علم سعد الدولة الحمدانى بوصول بكجور إلى حلب، بعث إلى باسيل الثانى إمبراطور الروم، يخبره بخروج بكجور عليه ويطلب منه النجدة. فأرسل باسيل إلى واليه بأنطاكية يأمره بمعاونته(١)، وقامت الحرب بين بكجور يعاونه المغاربة والعرب من بنى كلاب، ولم يجن ثمرة هذه الحرب غير الفاطميين والروم.

استقر رأى سعد الدولة الحمدانى بعد وقوفه على ما أصاب دولته من جراء المنازعات الداخلية على إزالة عوامل الخلاف بين جند الحمدانيين وتوحيد صفوفهم؛ فكتب إلى غلامه بكجور التركى بأن يمتنع عن مناوأته، ويعده بإقطاعه الأراضى الممتدة بين حمص والرقة، لكنه أبى إلا القتال؛ فدارت الحرب بينهما سنة ٣٨١هـ، وحلت به الهزيمة وقتل؛ واستولى سعد الدولة على أمواله(٢).

لم تكن علاقة سعد الدولة الحمدانى بالخليفة العزيز بالله الفاطمى على شىء من الصفاء، فقد أساء سعد الدولة معاملة رسول هذا الخليفة - حين قدم إليه حاملا رسالة منه يحذره فيها من إلحاق الأذى بأبناء بكجور - وقال له: عد إلى صاحبك وقل له: لست ممن تخفى أخبارك عنه وتمويهاتك عليه، وما بك حاجة إلى تجهيز العساكر إلى، فإنى سائر إليك ليكون اللقاء قريبا منك، وخبرى يأتيك من الرملة(٣)». ولم يمض على ذلك غير قليل حتى توفى سعد الدولة سنة ٣٨١هـ وخلفه ابنه سعيد الدولة أبو الفضائل - وكان قد عهد إليه قبل وفاته وأوصى لؤلؤا الخادم به(٤).

حاول الفاطميون الاستيلاء على حلب فى أيام سعيد الدولة، فأسند الخليفة العزيز ولاية الشام إلى منجوتكين التركى، وعهد إليه بقيادة الجيش الذى أعده لفتح حلب؛ فسار منجوتكين إلى دمشق سنة ٣٨٣هـ، وبعد أن نظم شئونها خرج منها إلى حلب(٥).

---

(١) Combridge Mediaeval History. Vol, 4 p. 147

(٢) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، جـ١ ص٣٨.

(٣) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، جـ١، ص٣٨ - ٣٩.

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص٢١٦ - ٢١٧.

(٥) ابن الأثير: جـ٩، ص٣١.

ولما علم سعيد الدولة بزحف الجند الفاطمى على الشام بقيادة منجوتكين، استنجد بإمبراطور الروم باسيل الثانى، فأرسل هذا الإمبراطور إلى قائده بأنطاكية يأمره بمحاربة الفاطميين وردهم عن حلب، وعلى الرغم من انتصار منجوتكين على الروم فإنه لم يتمكن من دخول حلب، بل ارتد إلى دمشق بسبب نفاد الأقوات؛ غير أن الخليفة العزيز ما لبث أن أمره بالسير إلى حلب وأرسل الجيوش لحصارها من جديد، كما أنفذ الأقوات إلى طرابلس(١).

رأى سعيد الدولة أبو الفضائل ولؤلؤ الخادم بعد أن اشتد الحصار عليهما بحلب أن يرسلا للمرة الثانية إلى إمبراطور الروم يطلبان منه النجدة، كما خوفاه من سقوط حلب فى يد الفاطميين بقولهما: «متى أخذت حلب، أخذت أنطاكية، ومتى أخذت أنطاكية، أخذت قسطنطينية(٢)»؛ فسار باسيل الثانى بنفسه إلى بلاد الشام ونزل على حصن شيزر على مقربة من حماه، فاستولى عليه، ثم سار إلى حمس ففتحها عنوة، وتابع سيره إلى طرابلس، فحاصرها. ولما تعذر عليه فتحها رحل عائدا إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية(٣).

عجز الفاطميون فى عهد الخليفة العزيز بالله عن الاستيلاء على حلب؛ ذلك أن إمبراطور الروم حين سار بقواته تلبية لدعوة سعيد الدولة أبى الفضائل الحمدانى، أرسل لؤلؤ الخادم إلى منجوتكين القائد الفاطمى، يحذره من زحف الروم على شمال الشام بقوله: «إن الإسلام جامع بينى وبينك وأنا ناصح لكم، وقد وافاكم ملك الروم بجنوده، فخذوا لأنفسكم»؛ فعدل منجوتكين عن مهاجمة حلب وعاد إلى دمشق(٤).

لما وقف العزيز على مدى تقدم الروم فى بلاد الشام، وبلغه عودة منجوتكين منهزما إلى دمشق، عظم ذلك عليه، واستقر رأيه على أن يسير بنفسه لفتح حلب وصد قوات الروم، فجهز حملة برية، كما أمر وزيره عيسى بن نسطورس بإنشاء

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص١٢٠.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص١١٩ - ١٢٠.
(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ١٦٦، أبو المحاسن، جـ٤، ص١٢٠ - ١٢١.
Cambridge Mediaeval History, Vol., 4. P. 147Æ
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص١٢٠.

لما علم سعد الدولة الحمدانى بوصول بكجور إلى حلب، بعث إلى باسيل الثانى إمبراطور الروم، يخبره بخروج بكجور عليه ويطلب منه النجدة. فأرسل باسيل إلى واليه بأنطاكية يأمره بمعاونته[1]، وقامت الحرب بين بكجور يعاونه المغاربة والعرب من بنى كلاب، ولم يجن ثمرة هذه الحرب غير الفاطميين والروم.

استقر رأى سعد الدولة الحمدانى بعد وقوفه على ما أصاب دولته من جراء المنازعات الداخلية على إزالة عوامل الخلاف بين جند الحمدانيين وتوحيد صفوفهم؛ فكتب إلى غلامه بكجور التركى بأن يمتنع عن مناوأته، ويعده بإقطاعه الأراضى الممتدة بين حمص والرقة، لكنه أبى إلا القتال؛ فدارت الحرب بينهما سنة ٣٨١هـ، وحلت به الهزيمة وقتل؛ واستولى سعد الدولة على أمواله[2].

لم تكن علاقة سعد الدولة الحمدانى بالخليفة العزيز بالله الفاطمى على شيء من الصفاء، فقد أساء سعد الدولة معاملة رسول هذا الخليفة ـ حين قدم إليه حاملا رسالة منه يحذره فيها من إلحاق الأذى بأبناء بكجور ـ وقال له: عد إلى صاحبك وقل له: لست ممن تخفى أخبارك عنه وتمويهاتك عليه، وما بك حاجة إلى تجهيز العساكر إلى، فإنى سائر إليك ليكون اللقاء قريبا منك، وخبرى يأتيك من الرملة[3]». ولم يمض على ذلك غير قليل حتى توفى سعد الدولة سنة ٣٨١هـ وخلفه ابنه سعيد الدولة أبو الفضائل ـ وكان قد عهد إليه قبل وفاته وأوصى لؤلؤا الخادم به[4].

حاول الفاطميون الاستيلاء على حلب فى أيام سعيد الدولة، فأسند الخليفة العزيز ولاية الشام إلى منجوتكين التركى، وعهد إليه بقيادة الجيش الذى أعده لفتح حلب؛ فسار منجوتكين إلى دمشق سنة ٣٨٣هـ، وبعد أن نظم شئونها خرج منها إلى حلب[5].

---

(١) Combridge Mediaeval History. Vol. 4 p. 147

(٢) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، جـ١ ص٣٨.

(٣) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، جـ١، ص٣٨ ـ ٣٩.

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص٢١٦ ـ ٢١٧.

(٥) ابن الأثير: جـ٩، ص٣١.

ولما علم سعيد الدولة بزحف الجند الفاطمى على الشام بقيادة منجوتكين، استنجد بإمبراطور الروم باسيل الثانى، فأرسل هذا الإمبراطور إلى قائده بأنطاكية يأمره بمحاربة الفاطميين وردهم عن حلب، وعلى الرغم من انتصار منجوتكين على الروم فإنه لم يتمكن من دخول حلب، بل ارتد إلى دمشق بسبب نفاد الأقوات؛ غير أن الخليفة العزيز ما لبث أن أمره بالسير إلى حلب وأرسل الجيوش لحصارها من جديد، كما أنفذ الأقوات إلى طرابلس(١).

رأى سعيد الدولة أبو الفضائل ولؤلؤ الخادم بعد أن اشتد الحصار عليهما بحلب أن يرسلا للمرة الثانية إلى إمبراطور الروم يطلبان منه النجدة، كما خوفاه من سقوط حلب فى يد الفاطميين بقولهما: «متى أخذت حلب، أخذت أنطاكية، ومتى أخذت أنطاكية، أخذت قسطنطينية(٢)»؛ فسار باسيل الثانى بنفسه إلى بلاد الشام ونزل على حصن شيزر على مقربة من حماه، فاستولى عليه، ثم سار إلى حمص ففتحها عنوة، وتابع سيره إلى طرابلس، فحاصرها. ولما تعذر عليه فتحها رحل عائدا إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية(٣).

عجز الفاطميون فى عهد الخليفة العزيز بالله عن الاستيلاء على حلب؛ ذلك أن إمبراطور الروم حين سار بقواته تلبية لدعوة سعيد الدولة أبى الفضائل الحمدانى، أرسل لؤلؤ الخادم إلى منجوتكين القائد الفاطمى، يحذره من زحف الروم على شمال الشام بقوله: «إن الإسلام جامع بينى وبينك وأنا ناصح لكم، وقد وافاكم ملك الروم بجنوده، فخذوا لأنفسكم»؛ فعدل منجوتكين عن مهاجمة حلب وعاد إلى دمشق(٤).

لما وقف العزيز على مدى تقدم الروم فى بلاد الشام، وبلغه عودة منجوتكين منهزما إلى دمشق، عظم ذلك عليه، واستقر رأيه على أن يسير بنفسه لفتح حلب وصد قوات الروم، فجهز حملة برية، كما أمر وزيره عيسى بن نسطورس بإنشاء

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص١٢٠.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص١١٩ ـ ١٢٠.

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ١٦٦، أبو المحاسن، جـ٤، ص١٢٠ ـ ١٢١.
Cambridge Mediaeval History, Vol., 4. P. 147Æ

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص١٢٠.

أسطول يسير بحرا إلى طرابلس. ولم يكد يتم إعداد هذا الأسطول حتى اشتعلت فيه النيران فى ميناء المقس، وأحرقت منه ستة عشر مركبا. وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى نفوس المصريين والمغاربة؛ فثاروا ببعض تجار الروم الذين وفدوا إلى البلاد المصرية قبل ذلك بقليل وقتلوا فريقا كبيرا منهم حين ثبت لديهم أنهم دبروا مؤامرة إحراقه. وما لبث العزيز أن قضى على الاضطرابات التى حدثت بالقاهرة بسبب إحراق الأسطول، وأشار على عيسى بن نسطورس بإنشاء أسطول آخر، فلبى هذا الوزير رغبته، وشرع فى جمع الأخشاب، وأمر الصناع بالإسراع فى إنجازه. ولما تم بناؤه، أبحر إلى أنطرطوس(٢) لنجدة القائد الفاطمى منجوتكين؛ غير أن معظم سفنه لم تلبث أن تحطمت بالقرب من طرابلس على أثر هبوب عاصفة عليها؛ وأسر الروم بعض رجال الأسطول المصرى(٣). أما الحملة البرية، فخرج على رأسها الخليفة العزيز إلى بلبيس فى طريقه إلى بلاد الشام، لكن المرض اشتد عليه فجأة، فتخلف بها وتوفى سنة ٣٨٦هـ(٤).

على الرغم من أن سعيد الدولة أبا الفضائل الحمدانى قد نجح فى إبعاد خطر الغزو الفاطمى عن بلاده فى عهد العزيز بالله، فإن الأمورلم تستقر له فى حلب، فقد واجه منافسة مولاه لؤلؤ الذى طمع فى الاستئثار بحكم حلب وقتله، وانتزع الولاية لنفسه من ولديه أبى الحسن على وأبى المعالى شريف وحكم باسمهما. ولم تقف أطماع لؤلؤ عند هذا الحد، بل عمل على نقل الحكم إلى أسرته، فأرسل ولدى سعيد الدولة مع سائر أفراد البيت الحمدانى إلى القاهرة(٥). وأخذ يتقرب إلى الفاطميين ليتقى خصومتهم، فأمر بحذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة، وأعلن طاعته للخليفة الحاكم بأمر الله، وأقام الدعوة له فترة من الوقت(٦).

---

(١) ابن الأثير: جـ٩، ص٣١.

(٢) من أعمال طرابلس بلبنان وتقع على ساحل البحر.

(٣) تاريخ يحيى بن سعد الأنطاكى، ص١٧٨، المقريزى: خطط، جـ٢، ص١٩٥ ـ ١٩٦.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤ ص١٢٢.

(٥) المكين بن العميد: تاريخ المسلمين، ص٢٥٦.

(٦) ابن خلدون: العبر، جـ٤ ص٢٧١.

لما توفى لؤلؤ سنة ٣٩٩هـ، خلفه ابنه منصور، فاعترف بسلطان الخليفة الحاكم بأمر الله، وأقام الدعوة بحلب سنة ٤٠٢هـ، ولقبه هذا الخليفة مرتضى الدولة[١]؛ وبذلك امتد نفوذ الفاطميين إلى حلب مما مهد لهم أمر القضاء على سلطة الحمدانيين فيها[٢].

لم يتمتع منصور بن لؤلؤ طويلا بإمارة حلب، فقد عمل أهالى هذه المدينة على التخلص منه لكثرة عسفه بهم، كما قامت الحرب بينه وبين بنى كلاب. وكان قد وعدهم بتوزيع بعض الإقطاعات عليهم، لكنه ماطلهم ولم يف بوعوده لهم. ولما عجز منصور عن الاحتفاظ بسلطانه فى حلب رحل عنها إلى أنطاكية، فسهل بذلك على نواب الحاكم دخول حلب والاستيلاء عليها؛ وظلوا يتناوبون الحكم فيها حتى أسند هذا الخليفة ولايتها سنة ٤٠٧هـ إلى أمير من بنى حمدان يدعى عزيز الملك فاتك، ولقبه أمير الأمراء[٣]، فظل يلى أمورها حتى توفى الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ، وخلفه ابنه الظاهر، فاستأثر فى عهده بالحكم فى حلب؛ غير أنه لم يلبث أن قتل على يد غلام له يسمى بدر الذى استولى على حلب ثم سلمها فيما بعد إلى الخليفة الظاهر؛ وبذلك زال سلطان الحمدانيين فى الشام.

لم يتيسر للفاطميين توطيد سلطانهم فى حلب فى عهد الخليفة الظاهر، فقد ظهر مناوئ جديد لهم، وهو صالح بن مرداس أمير بنى كلاب الذى تمكن من الاستيلاء على هذه المدينة سنة ٤١٤هـ من يد حكامها الفاطميين، كما دخل قلعتها بعد حصار طويل[٤]؛ وظل يتولى حكمها حتى سنة ٤٢٠هـ حيث أعد له الخليفة الظاهر جيشا كبيرا لقتاله وقتال بعض أمراء العرب بالشام الذين تحالفوا معه ضد الفاطميين على اقتسام بلاد الشام فيما بينهم. وقد تمكن الجيش الفاطمى من التغلب على قوات هؤلاء الحلفاء فى معركة دارت بالقرب من طبرية، قتل فيها صالح بن مرداس[٥]؛ وبذلك أتيح للفاطميين استعادة نفوذهم فى حلب على أن

(١) ابن الأثير: جـ١، ص٧٨. ابن العديم الحلبى: زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ص٢٢٧.
(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص٢١٧.
(٣) ابن الأثير: جـ٩، ص٧٩.
(٤) ابن الأثير: جـ٩، ص٧٩.
(٥) Hitti, History of Syria P. 580.

هذا النفوذ لم يكن مستقرا بسبب تطلع المرداسيين إلى استرداد هذه المدينة. وقد تجلت مطامعهم فى ولايتها فيما قام به نصربن صالح بن مرداس الذى جمع قواته وهاجم حلب واستولى عليها من يد الفاطميين، واتخذ لنفسه لقب شبل الدولة[١]، وما زال نصر يحكم حلب إلى أن ولى الخلافة المستنصر بالله الفاطمى، فعهد إلى القائد التركى أنوشتكين الدزبرى بالزحف إلى حلب واستردادها، فسار إليها سنة ٤١٩هـ والتقى بنصر عند بلدة حماه، وأوقع به الهزيمة وقتله، وتقلد ولاية حلب بدلا منه، وظل يلى أمورها إلى أن توفى سنة ٤٣٣[٢].

كان ثمال بن صالح بن مرداس بالرحبة إذ ذاك. ولما بلغه اضطراب الأمور فى حلب، عول على الخروج إليها، ثم حاصرها واستولى عليها سنة ٤٣٤هـ وتقلد زمام الحكم فيها؛ غير أنه لم يتمتع بالهدوء والاستقرار، فقد زحف إليه الجنود من مصر بقيادة أبى عبد الله ناصر الدولة بن حمدان سنة ٤٤٠هـ، فخرج إليهم ثمال وقاتلهم واضطروا إلى العودة إلى مصر[٣].

لم تزل الجنود المصرية تولى زحفها على حلب وتضيق عليها الحصار حتى سئم ثمال بن صالح إمارتها وعجز عن القيام بشئونها، وبعث إلى المستنصر بمصر يطلب الصلح، فصالحه على أن ينزل عن حلب، وعهد الخليفة الفاطمى إلى مكين الدولة الحسن بن ملهم بولاية حلب سنة ٤٤٩هـ[٤].

لم يكد يمضى عامان على تقلد ابن ملهم ولاية حلب حتى ثار عليه أهلها وبعثوا فى طلب محمود بن نصر بن صالح بن مرداس، فقدم عليهم فى منتصف سنة ٤٥٢هـ، واشترك معهم فى محاصرة ابن ملهم. ولما علم بذلك المستنصر، أرسل إليه نجدة تحت قيادة ناصر الدولة الحسين بن حسن بن حمدان والى دمشق، فدارت بينه وبين محمود بن نصر بن صالح بن مرداس عدة معارك انتهت بانهزامه واستعادة محمود ولاية حلب، وعاد ابن ملهم وابن حمدان إلى مصر[٥].

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ٤، ص٢٧٢.
(٢) ابن الأثير: جـ٩ ص٧٩.
(٣) ابن الأثير: جـ٩، ص٧٩ ـ ٨٠، ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٢٧٣.
(٤) ابن الأثير: جـ٩ ص٩٠.
(٥) ابن خلدون: العبر، جـ٤ ص٢٧٣ ـ ٢٧٤.

على الرغم من أن أمراء بنى مرداس قد بذلوا جهدا كبيرا فى سبيل الاحتفاظ بولاية حلب، فإنهم عجزوا عن توطيد نفوذهم فيها لأنهم كانوا مهددين من ناحية الخلافة الفاطمية(١)، كما أنه كان لضعفهم أثر كبير فى عدم استقرار الأمور فى ولايتهم وعلى الأخص منذ بداية النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى. وقد عجلت هذه الحالة بزوال حكم المرداسيين فى حلب بعد أن ظلوا يحكمونها ما يقرب من ستين عاما.

على أن الفاطميين وإن كانوا قد نجحوا فى بسط سيادتهم على حلب بعد أن زالت سلطة الحمدانيين فيها، فإنه لم يتيسر لهم ضمها إلى حوزتهم بعد أن حكمها أمراء من بنى مرداس، بل ظلوا فى نزاع مع هؤلاء الأمراء دون أن يتمكنوا من القضاء على سلطتهم.

وقد تعرضت حلب فى أواخر القرن الخامس الهجرى لهجوم السلاجقة وبعض أمراء العرب؛ فسار إليها شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلى صاحب الموصل وحاصر قلعتها واستولى عليها من ولاتها المرداسيين سنة ٤٧٣هـ(٢)، ثم أرسل إلى ملكشاه سلطان السلاجقة ليقره على نيابة حلب على أن يؤدى إليه مبلغا معينا من المال، فأجاب السلطان طلبه(٣)؛ وبذلك قضى على سلطان المرداسيين.

---

(١) Lammens, La Syrie, Précis Historique Tome I. P. 154.

(٢) ابن الأثير: جـ١ ص٣٩.

(٣) المكين بن العميد: تاريخ المسلمين، ص٢٨٠ ـ ٢٨٢.

ابن خلدون: العبر، جـ٤ ص٢٧٥.

٤ ـ ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام فى أواخر القرن الخامس الهجرى

كان نفوذ الفاطميين فى بلاد الشام مرتبطا بقوتهم العسكرية؛ فإذا ما ضعفت قواتهم هناك، قام الأمراء المحليون بالعمل على توطيد استقلالهم الذاتى كما فعل بنو الجراح بفلسطين وبنو مرداس فى حلب. وقد وجهت الخلافة الفاطمية عنايتها إلى القضاء على مناوأة هؤلاء الأمراء والعمل على توطيد سلطانها ببلاد الشام. وليس من شك فى أن الاضطرابات التى أثارها بنو الجراح فى فلسطين وعدم استقرار الأمور فى حلب فى عهد بنى مرداس، أتاح كل ذلك الفرصة أمام السلاجقة(١) ليظهروا على مسرح السياسة فى بلاد الشام ويقضوا على النفوذ الفاطمى فيها.

أخذ نفوذ السلاجقة فى الازدياد منذ عهد طغرلبك الذى تمكن من جمع صفوفهم وبسط سلطانهم على جهات واسعة من الدولة الإسلامية شملت مرو ونيسابور وكرمان وأذربيجان وجرجان وطبرستان.

كذلك عمل طغرلبك على توثيق الروابط بين السلاجقة والخليفة العباسى القائم بأمر الله؛ فلما استنجد به هذا الخليفة لينقذه من فتنة أبى الحارث أرسلان البساسيرى، أجاب طلبه، فسار إلى بغداد وقضى على هذه الفتنة وأعاد إقامة الخطبة للخليفة العباسى سنة ٤٥١هـ؛ غير أنه لم يلبث أن استأثر بالسلطة دونه، وسار على هذه السياسة من جاء بعده من سلاطين السلاجقة.

وجه السلاجقة اهتمامهم بعد أن استأثروا بالنفوذ فى العراق إلى استعادة ما فقدته الدولة العباسية من البلاد، فأرسل ألب أرسلان سنة ٤٦٢هـ إلى محمود بن صالح بن مرداس أمير حلب، يطلب منه إقامة الدعوة للخليفة العباسى بدلا من

---

(١) يرجع أصل السلاجقة إلى إحدى قبائل الغز التركية، وكانوا قوما من البدو يسكنون إقليم تركستان، وقد قرب ملك هذا الإقليم جدهم سلجوق إليه، فظل فى خدمته حتى وصل إليه نبأ تدبيره مؤامرة للتخلص منه. فهاجر مع قبيلته إلى بخارى، حيث دخل هو وأتباعه فى الإسلام على مبادئ المذهب السنى وأصبحوا من المتحمسين له.

المكين بن العميد: تاريخ المسلمين، ص٢٦٧، المقريزى. السلوك لمعرفة دول الملوك. جـ١، القسم الأول، ص٣٠ ـ ٣١.

الخليفة الفاطمى، فأجابه إلى طلبه. ثم سار بنفسه إلى حلب فى العام التالى وحاصرها شهرا، فخرج إليه أميرها فأكرمه وأعاده إلى ولايته[١]؛ واضطر ألب أرسلان إلى العودة إلى بلاده حين وصله أن الروم اخترقوا بلاد أرمينية يريدون خراسان، وفى سنة ٤٦٥هـ، عهد السلطان ملكشاه إلى أتسز التركمانى بالاستيلاء على بلاد الشام، ففتح الرملة وبيت المقدس، ثم يمم السير إلى دمشق؛ غير أن جيوش الفاطميين سرعان ماردته على أعقابه[٢]، لكنه لم يلبث بعد ذلك أن عول على محاصرتها سنة ٤٦٧هـ، وأخذ يشدد عليها الحصار حتى تمكن من فتحها، ثم حذف اسم المستنصر بالله الفاطمى من الخطبة، وأحل محله اسم الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله[٣]، كما منع الأذان بحى على خير العمل. وكان لعمله هذا أحسن الأثر فى نفوس أهالى دمشق[٤].

ولما استقر الأمر للقائد التركمانى أتسز فى بلاد الشام خشى أن يعاود الفاطميون مهاجمته؛ فجهز جيشا من التركمان والعرب والترك وسار قاصدا مصر سنة ٤٦٩هـ بعد أن أغراه بفتحها ابن بلدكوز الذى احتمى به على أثر قدوم بدر الجمالى إلى مصر، وأهدى إليه بعض التحف التى استولى عليها أبوه من خزائن المستنصر بالله الفاطمى[٥].

وقد توغل أتسز بقواته فى البلاد المصرية دون أن يصادف مقاومة تذكر، وعسكر خمسين يوما فى الدلتا بدلا من أن يسير إلى القاهرة، وأساء أصحابه معاملة الأهالى وأخذوا أموالهم فأرسل رؤساء القرى المصرية إلى الخليفة المستنصر بالله يشكون إليه ما نزل بهم[٦].

لم يكن بدر الجمالى فى الوقت الذى زحف فيه أتسز على مصر مستعدا لمواجهة حملته لانشغاله بإخماد بعض الثورات فى بلاد الصعيد؛ فجند جميع

---

(١) ابن الأثير: جـ١، ص٢٢.

(٢) ابن الأثير: جـ١، ٢٣.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Age. P. 161.

(٤) ابن خلدون: جـ٤، ٦٥. Hiti, History of syris pp. 588-589.

(٥) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٢٤.

(٦) ابن الأثير: جـ١٠، ص٢٦.

الرجال القادرين على حمل السلاح، ودعا ثلاثة آلاف حاج كانوا متأهبين للسفر إلى بلاد الحجاز لمعاونته فى قتال السلاجقة. فأجابوا دعوته وتخلفوا عن السفر، وأصبح جيش بدر الجمالى يضم كثيرا من العرب وأهالى البلاد. ولما دار القتال بين الفريقين استطاع بدر الجمالى بمهارته أن يستميل إلى جانبه فريقا من السلاجقة، كما فعل المعز من قبل مع القرامطة؛ وكان ذلك مما عجل الهزيمة بجيشهم، وفر أتسز إلى غزة وأقام بالرملة حتى لحق به من بقى من عسكره، ثم رحل إلى دمشق[١].

أعلنت بعض المدن الرئيسية فى بلاد الشام على أثر تلك الهزيمة التى لحقت بأتسز ولاءها من جديد للخلافة الفاطمية. وقد شجع ذلك بدر الجمالى على العمل لاستعادة سلطان الفاطميين بتلك البلاد، فأنفذ جيشا بقيادة نصر الدولة إلى دمشق، فحاصرها حصارا شديدا حتى اضطر أتسز إلى طلب النجدة من تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان ـ وكان إذ ذاك يحاصر حلب ـ فسار تتش إلى دمشق. ولم يكد يقترب منها حتى رحل عنها عسكر مصر[٢].

ولما تقابل تتش مع أتسز عند سور دمشق، أنكر عليه تأخره فى الخروج للقائه، ثم ما لبث أن قبض عليه وقتله، واستولى على دمشق سنة ٤٧١هـ، وأحسن معاملة أهلها[٣]. وصار يتولى بمفرده جميع الأمور فى بلاد الشام؛ غير أن الحالة لم تستقر له طويلا بتلك البلاد، فحاول بدر الجمالى أن يسترد دمشق سنة ٤٧٨هـ، فسار إليها على رأس حملة، وحاصرها حصارا شديدا، كما دار بينه وبين صاحبها تاج الدولة تتش قتال؛ غير أنه لم يتمكن من التغلب عليه، ورحل عائدا إلى مصر[٤]. وما زال بدر الجمالى يوجه اهتمامه إلى استعادة النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام حتى تمكن سنة ٤٨٢هـ من الاستيلاء على معظم بلاد الشام الساحلية. على أن الفاطميين لم يتمكنوا من الاحتفاظ بسيطرتهم على هذه المدن بسبب تطلع السلاجقة إلى بسط سلطانهم عليها. ففى سنة ٤٨٥هـ أمر السلطان

(١) ابن الأثير: جـ١، ص٣٥ ـ ٣٦؛ ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٣٥.
(٢) ابن الأثير: جـ١٠، ص٣٨؛ أبو الفداء. المختصر فى أخبار البشر، جـ٢، ص١٩٤.
(٣) ابن الأثير: جـ١، ٣٨.
(٤) ابن الأثير، جـ١، ص٤٩.

ملكشاه نوابه بحلب والرها بالسير مع قواتهم لمعاونة أخيه تاج الدولة تتش فى الاستيلاء على ما للخليفة المستنصر بالله الفاطمى من بلاد بساحل الشام؛ فساروا لنجدته، واستطاع تتش بمساعدتهم أن يستولى على حمص وقلعتى عرفة وأفامية[١] (Apamea)

على الرغم من أن تاج الدولة تتش قد بسط سلطانه عى معظم بلاد الشام فإنه لم يوجه جهوده للعمل على توطيد نفوذه بهذه البلاد ـ مع أن الظروف كانت مهيأة له وخاصة من ناحية الفاطميين الذين حال ضعفهم بسبب المنازعات الداخلية دون نجاحهم فى استرداد سيادتهم على بلاد الشام التى كانت فى حوزتهم ـ، فقد امتدت أطماع تتش إلى بلاد الجزيرة وفارس وتغلب على كثير منها مما أدى إلى قيام الخلاف بينه وبين ابن أخيه بركياروق سنة ٤٨٦هـ. وقد تطور هذا الخلاف إلى نشوب الحرب بين تتش وقوات بركياروق، انتهى الأمر فيها بهزيمة تتش وقتله سنة ٤٨٨هـ[٢].

اقتسم بلاد الشام بعد مقتل تتش ابناه رضوان ودقاق؛ فاستقل الأول بولاية حلب، وانفرد الثانى بدمشق، لكنهما لم يكونا على وفاق، فقد دب الخلاف والتنافس بينهما، فسار رضوان إلى دمشق طمعا فى الاستيلاء عليها لكنه عجز عن مهاجمتها لحصانتها ومناعتها، كما لم يتمكن من الاستيلاء على بيت المقدس. أما دقاق فإنه رأى أن يسير إلى حلب لمحاصرة أخيه ردا على فعله. والتقى الفريقان بقنسرين حيث دارت معركة هزم فيها دقاق الذى ما لبث أن اتفق مع أخيه رضوان سنة ٤٨٩هـ على أن تقام الخطبة باسميهما فى دمشق[٣].

أما عن الحالة الداخلية فى مصر، فلم تكن إذ ذاك مستقرة؛ فقد اضطربت فيها الأمور بعد تولية المستعلى الخلافة، ويرجع ذلك إلى ما قام به الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى من إقصاء نزار بن المستنصر عن الخلافة رغم أحقيته لها؛ فخرج أهالى الإسكندرية على طاعة الخليفة الفاطمى الجديد وانحازوا إلى نزار بعد أن قدم

---

(١) ابن الأثير: جـ١، ص٧٠، أبو الفداء. المختصر فى أخبار البشر، جـ٢ ص٦٧ أفامية: كورة من كور حمص، تقع إلى الشمال من حماه وجنوب معرة النعمان.

(٢) ابن الأثير، جـ١، ٨٥.

(٣) ابن الأثير: جـ١، ص٩٣. أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، جـ٢، ص٢٠٩ ـ ٢١٠.

إليهم وبايعوه بالخلافة، غير أن الأفضل بن بدر الجمالى ما لبث أن تمكن من القضاء عليه وعلى من آزره فى ثورته فى أواخر سنة ٤٨٨هـ[١].

على الرغم من أن الحكومة الفاطمية فى مصر فى أوائل عهد المستعلى بالله شغلت بضبط الأمور فى البلاد عن مواصلة جهودها لاسترداد نفوذها فى بلاد الشام، فإن الخلاف بين نواب السلاجقة فى هذه البلاد وحالة الضعف التى تجلت فى أيامهم، لم يكن كل ذلك خافيا عنها؛ فرأى الفاطميون أن ينتهزوا هذه الفرصة ليحاولوا من جديد، إعادة سيطرتهم على ما فقدوه من مدن الشام؛ فسار الأفضل ابن بدر الجمالى سنة ٤٨٩هـ على رأس حملة إلى بيت المقدس ـ وكان يلى هذه المدينة إذ ذاك إيلغازى وسقمان ابنا الأمير أرتق ـ، فالتمس منهما تسليمه القدس من غير حرب، فلم يجيباه إلى طلبه[٢]. فحاصر المدينة ونصب على أسوارها المجانيق، واضطر أهل القدس إلى طلب الأمان، فأمنهم وفتحوا له أحد أبوابها؛ وبذلك تمكن الأفضل من دخولها والاستيلاء عليها، ورأى كل من سقمان وأخيه إيلغازى أن يرحلا عنها، فمضى الأول إلى الرها. أما الثانى فسار إلى بغداد[٣].

أدى النزاع بين الفاطميين والسلاجقة على نشر نفوذهم فى بلاد الشام إلى عدم استقرار الأمور فى هذه البلاد وضعف الجبهة الإسلامية أمام الغزو الصليبى؛ فقد زحف الصليبيون على أنطاكية بقيادة بوهمند النرمندى فى أواخر القرن الخامس الهجرى، ورأوا أن يستغلوا الفرقة بين الأمراء المسلمين فى بلاد الشام، فأرسلوا إلى أميرى حلب ودمشق يطلبون منهما عدم التعرض لهم، كما ادعوا بأنهم لا يقصدون غير البلاد التى كانت بيد الروم[٤]. ولما وقف رضوان أمير حلب على رغبة الصليبيين فى إثارة النزاع بين القوى الإسلامية ليتيسر لهم تحقيق غرضهم، سارع إلى نجدة أمير أنطاكية وانضم إليه سقمان بن أرتق وقوات من شيزر[٥] وحماه وحمص. غير أن المحاولات التى بذلها أمراء المسلمين ببلاد الشام لإنقاذ أنطاكية باءت بالفشل وسقطت المدينة فى يد الصليبيين سنة ٤٩١هـ[٦] (٣ يونيه ١٠٩٨م).

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص٢٥ ـ ٢٧، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص١٤٤ ـ ١٤٥.
(٢) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ١٣٥.
(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص١٥٩.
(٤) ابن الأثير: جـ١، ص٩٥.
(٥) تقع على مقربة من معرة النعمان شمال حماه.
(٦) أبو الفداء: المختصر من أخبار البشر، جـ٢، ص٢١٠.

لما وصل إلى الحكومة الفاطمية فى مصر نبأ هجوم الصليبيين على أنطاكية، رأت أن تبذل جهدها لمنع زحفهم على بيت المقدس، فأنفذ الوزير الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٨) سفارة إلى الصليبيين للتفاوض فى عقد اتفاق معهم يتضمن أن ينفردوا بأنطاكية وأن تستقل مصر ببيت المقدس على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين وتكون لهم الحرية فى أداء شعائرهم الدينية على ألا تزيد مدة إقامتهم بها عن شهر واحد وألا يدخلوها بسيوفهم[١].

لم تؤد سفارة الأفضل بن بدر الجمالى إلى الصليبيين، إلى عدولهم عن تحقيق سياستهم فى الاستيلاء على بيت المقدس، بل كان من أثرها أن وقف الصليبيون على مدى الخلاف السائد بين الفاطميين ونواب السلاجقة ببلاد الشام؛ ومن ثم استقر رأيهم بعد استيلائهم على أنطاكية على إرسال حملة لفتح بيت المقدس. وقد استولى الصليبيون أثناء سيرهم إلى هذه المدينة على معرة النعمان[٢]، كما عمل أمير شيزر على تأمين طريقهم وتزويدهم بما يحتاجون إليه درءا لخطرهم[٣].

كانت بيت المقدس فى الوقت الذى تقدم فيه الصليبيون لمهاجمتها خاضعة للفاطميين، ويلى حكمها نائب من قبلهم يدعى افتخار الدولة[٤]؛ فلما شرع الصليبيون فى فتح هذه المدينة لقوا مقاومة فى بادئ الأمر من الحامية الإسلامية. غير أن جودفروى قائد الحملة الصليبية ما لبث أن عثر على منفذ للمدينة لم يهتم المسلمون بتحصينه، فدخل منه مع بعض أتباعه من الفدائيين، وبذلك تيسر لهم فتح أبوابها، فاضطر المسلمون إلى الاعتصام بالمسجد الأقصى، فتعقبهم الصليبيون ونكلوا بهم، ولم يجد حاكمها الفاطمى افتخار الدولة بدا من الاستسلام، وتعهد هو وقواته للصليبيين بالرحيل عنها إلى مصر[٥].

لم يقف الفاطميون إزاء هجوم الصليبيين على بلاد الشام وزحفهم على بيت المقدس مكتوفى اليدين وخاصة بعد أن وصلهم خبر دخولهم هذه المدينة

---

(١) Guillaume de Tyre (B. Hist Occ. Crois,) T I P. 191 et Seq
راجع كتاب، الحرب الصليبية الأولى لحسن حبشى، ص٥٣ - ٥٤.
(٢) ابن الأثير: جـ١ ص٩٦.
(٣) حسن حبشى: الحرب الصليبية الأولى، ص٧٤.
(٤) ابن الأثير: جـ١، ص٩٨.
(٥) ابن الأثير: جـ١، ص٩٨. حسن حبشى. الحرب الصليبية الأولى، ص٨٣ - ٨٥.

واستيلائهم عليها، ومحاولتهم أخذ ما تبقى لهم من المدن الساحلية، وعجز أمراء السلاجقة عن الوقوف فى وجوههم. فأعدوا حملة فى رمضان سنة ٤٩٢هـ لاسترداد بيت المقدس. وخرج الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة المستعلى بالله على رأس الجيش الفاطمى، وأقام هذا الوزير بعسقلان فى انتظار النجدات التى وعده بها العرب[١]، وأرسل إلى الصليبيين ينكر عليهم ما فعلوه ويتهددهم[٢]. على أن القوات الفاطمية ما لبثت أن فوجئت بهجوم الصليبيين، واشتبك الفريقان فى عدة معارك انتهت بهزيمة الجند الفاطمى وتراجعهم تدريجيا، وعاد الأفضل مع خواصه إلى مصر[٣].

تجلى ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام على أثر النجاح الذى أحرزه الصليبيون فى زحفهم على هذه البلاد وتأسيسهم إمارتى أنطاكية وبيت المقدس، وقد ظهرت بوادر هذا الضعف منذ حاول السلاجقة إقصاء الفاطميين عن بلاد الشام.

على أن السلاجقة وإن كانوا قد أحرزوا بعض النجاح فى بسط سيطرتهم على بعض مدن الشام التى كانت فى حوزة الفاطميين، فإن الخلاف الذى قام بين نوابهم أضعف من سلطتهم، كما أن التنافس بينهم وبين الفاطميين على امتلاك بلاد الشام كان من أكبر العوامل التى عاونت الصليبيين على الاستقرار فى هذه البلاد[٤].

ومما لا شك فيه أن الخلافة الفاطمية فى أواخر القرن الخامس الهجرى لم تكن فى حالة تساعدها على استعادة مكانتها فى بلاد الشام، فقد أصبحت مصر من الضعف بسبب ما سادها من الاضطرابات، وما منيت به من منازعات بين طائفتى النزارية[٥] والمستعلية بحيث تعذر عليها الاحتفاظ بما تبقى لها من سلطان على بلاد الشام، يؤيد ذلك ما قاله المقريزى[٦] عن الخليفة المستعلى بالله الفاطمى (٤٨٧ ـ ٤٩٥هـ) «وفى أيامه اختلت الدولة وانقطعت الدعوة من أكثر مدن الشام فإنها صارت بين الأتراك والفرنج».

(١) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٧، أبو المحاسن. النجوم الزاهرة جـ١، ص١٥٠.
(٢) ابن الأثير، جـ١٠، ص٩٩.
(٣) المقريزى: خطط، جـ١، ص٣٥٦، أبو المحاسن. النجوم الزاهرة، جـ٥، ص١٤٩.
(٤) Gaston Wiet, Précis de L'Histiore de L'Egypte Vol. II. P. 186.
(٥) كانت النزارية تدعى أن المستنصر بالله الفاطمى أوصى لابنه الأكبر نزار بالخلافة من بعده. أما المستعلية، فادعت أنه أوصى بها لابنه أبى القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى بالله (ابن ميسر، تاريخ مصر، ص٣٥ ـ ٣٧).
(٦) خطط، جـ١ ص٣٥٦ ـ ٣٥٧.

الباب السادس

الدولة الفاطمية فى بلاد العراق

١ - سياسة الفاطميين فى نشر دعوتهم بمدن العراق إلى أوائل القرن الخامس الهجرى.

٢- حركة البساسيرى فى بلاد العراق.

٣- زوال النفوذ الفاطمى ببلاد العراق بعد دخول السلاجقة بغداد.

١ - سياسة الفاطميين فى نشر دعوتهم بمدن العراق إلى أوائل القرن الخامس الهجرى

كان لظهور القرامطة فى بلاد العراق السفلى والتشابه بين دعوتهم ودعوة الإسماعيلية أكبر الأثر فى جذب كثير من أهالى الولايات العباسية إلى اعتناق المذهب الإسماعيلى[١]؛ فصارت بلاد السواد[٢] تموج بأتباع أئمة الإسماعيلية الذين اتخذوا سلمية[٣] دار هجرة منذ عهد الخليفة المأمون العباسى، كما أصبح لهم أنصار فى بغداد نفسها، بل إن عبيد الله (المهدى) اتخذ دعاة له بهذه المدينة كانوا يمدونه بأخبار العباسيين. وقد استطاع بفضل دعاته المقيمين ببغداد وبلاد الشام التغلب على الصعوبات التى تعرض لها فى طريقه من سلمية إلى بلاد المغرب[٤].

قام دعاة الفاطميين فى بغداد، بعد أن استقرت الخلافة لعبيد الله المهدى فى المغرب بنشاط كبير فى نشر دعوتهم؛ وليس أدل على ذلك من اتجاه ميول بعض كبار رجال الدولة العباسية إلى ما ادعاه الفاطميون من حق فى الخلافة والاعتراف

(١) عرف بذلك نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق. وكان أتباعه يعرفون بالإسماعيلية وهم فرقة من الشيعة تعتقد أن الإمامة انتقلت بعد النبى ﷺ إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه؛ ثم إلى ابنه الحسن، ثم إلى أخيه الحسين، ثم تنقلت فى بنى الحسين إلى جعفر الصادق. ويدعون أن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل ثم تنقلت فى بنيه. (القلقشندى. صبح الأعشى. جـ١ . ص ١١٥ - ١٢٠).

(٢) السواد يراد به رستاق العراق وضياعها التى افتتحها المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وقد سمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار.

(ياقوت . معجم البلدان. جـ٣ . ص ١٥٩).

(٣) بلدة من ناحية البرية من أعمال حماه (ياقوت معجم البلدان، جـ٥، ص ١٩٣).

(٤) حسن إبراهيم وطه شرف. كتاب «عبيد الله المهدى» ص ١٢٥ - ١٢٨، ٣٠٧ .

بإمامة المهدى، فذكر مسكويه[1] أن يوسف بن أبى الساج - أحد قواد العباسيين فى عهد الخليفة المقتدر- أخبر كاتبه محمد بن خلف أنه متى جمع خراج واسط والكوفة وسقى الفرات عن سنة ٣١٤ هـ، شق عصا طاعة الخليفة العباسى وأظهر الدعوة للمهدى. ثم دعا الناس إلى الدخول فيما دخل فيه، وسار إلى بغداد؛ فكتب محمد بن خلف بذلك كله إلى نصر الحاجب، فأوصله إلى مسامع الخليفة العباسى».

على أنه يستدل مما أورده ابن الأثير [2] عن اتصال القائد العباسى يوسف بن أبى الساج بالفاطميين أن كاتبه محمد بن خلف هو الذى اتهمه بذلك طمعًا فى تقلد الوزارة؛ فقال: « إن محمد بن خلف النيرمانى عظم شأنه وكثر ماله فحدث نفسه بوزارة الخليفة، فكتب إلى نصر الحاجب يخطب الوزارة ويسعى بابن أبى الساج ويقول له إنه قرمطى يعتقد إمامة العلوى الذى بإفريقية وإننى ناظرته على ذلك فلم يرجع عنه، وأنه لا يسير إلى قتال أبى طاهر القرمطى وإنما يأخذ المال بهذا السبب ويقوى به على قصد حضرة السلطان وإزالة الخلافة عن بنى العباس».

وعلى الرغم من أنه ليس فيما ذكره كل من مسكويه وابن الأثير عن موقف يوسف بن أبى الساج إزاء الفاطميين ما يدل على محاولته الخروج على طاعة الخليفة العباسى، فإن هذا الأمر لا يمنعنا من أن نرجع ميله إلى الدخول فى دعوة عبيد الله المهدى، وإن كانت الفرصة لم تحن بعد لتحقيق هذه الرغبة. ويؤيد ذلك ما أشار إليه المقريزى[3]، من أن يوسف بن أبى الساج، بعث إلى عبيد الله المهدى رسالة يعترف فيها بإمامته ويعلن استعداده لمعاونته [4].

كذلك بلغ من نفوذ دعاة الفاطميين فى ذلك العهد أن نجحوا فى جذب كثيرين من أهالى العراق إلى اعتناق المذهب الإسماعيلى؛ ويتضح لنا ذلك من هذا الحديث الذى دار بين على بن عيسى وزير الخليفة العباسى المقتدر بالله وبين أحد الإسماعيلية من أهل العراق. يقول ابن الأثير[5]: «جاء إنسان إلى على بن عيسى

(١) تجارب الأمم. جـ١، ص ١٦٧ - ١٦٨، حسن إبراهيم. الفاطميون فى مصر، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٢) الكامل فى التاريخ، جـ٣ ص ٥٤ .

(٣) المقفى الكبير. ورقة ٢٢٣ ب.

(٤) حسن إبراهيم. الفاطميون فى مصر، ص ٥٤ .

(٥) الكامل فى التاريخ . جـ٨، ص ٧٤ .

وأخبره أن في جيرانه رجلا من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر[١] بالأخبار، فأحضره وسأله واعترف؛ وقال : ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندى أنه على الحق وأنت وصاحبك؛ (أى الوزير والخليفة) كفار، تأخذون ما ليس لكم، ولابد لله من حجة في أرضه؛ وإمامنا المهدى فلان بن فلان بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب، ولسنا كالرافضة والإثنا عشرية الذين يقولون بجهلهم أن لهم إمامًا ينتظرونه ويكذب بعضهم البعض. . » فقال له على ابن عيسى: قد خالطت عسكرنا وعرفتهم. فمن فيهم على مذهبك؟ فقال: «وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع منى أننى أسلم قومًا مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم لا أفعل ذلك. . ».

كان لضعف سلطة الخلفاء العباسيين الذى تجلى منذ بداية القرن الرابع الهجرى بسبب استفحال نفوذ القواد الأتراك واستقلال الأمراء بولاياتهم، واستبداد البويهيين [٢] بأمور الخلافة أثره في تشجيع الفاطميين على إرسال دعاتهم

(١) تقلد أبو طاهر سليمان الجنابى زمام الحكم في دولة القرامطة ببلاد البحرين سنة ٣٠٥ هـ. وكان طموحًا إلى المجد والعظمة؛ فقضى السنوات الأولى من حكمه ينظم شئون دولته؛ ويعد العدة للسيطرة على جزيرة العرب . وقد تجلى في عهده قيام العلاقات الودية بين القرامطة والفاطميين ببلاد العرب واتحادهم في سياستهم العدائية إزاء العباسيين.
(راجع كتاب النفوذ الفاطمى في جزيرة العرب ص (٣٤ - ٣٥).

(٢) أشتهر من بين أهالى بلاد الديلم البويهيون. وكانوا جنودًا مغامرين من أصل فارسى، وقد رفعوا أنفسهم بالدهاء والمكر، وكانوا لا يترددون ولا يخجلون من ترك خدمة قائد إلى خدمة آخر يدفع لهم أجرًا أكثر من الأول؛ فارتقى على بن بويه وأخوه الحسن إلى مرتبة الأمراء في جيش «ماكان» الديلمى؛ ولما لحقت به الهزيمة؛ انتقلا إلى خدمة مرادويج بن زياد الديلمى؛ فولى على بن بويه بلاد الكرج (إلى الجنوب الشرقى من همذان).

على أن الجو لم يصف لعلى بن بويه؛ فقد عول مرادويج على طرده من بلاد الكرج وأرسل جيشًا كبيرًا لإخراجه منها. فسار إلى أرجان (إحدى كور فارس) واحتلها سنة ٣٢١ هـ؛ ثم دخل شيراز في العام التالى وتمكن أخوه أحمد بن بويه من احتلال كرمان. لما توفى مرادويج سنة ٣٢٣ هـ؛ احتل البويهيون أصفهان والرى واستمروا في توسعهم نحو الغرب، فدخل أحمد بن بويه الأهواز سنة ٣٢٦ هـ واحتفظ بها رغم المقاومة التى لاقاها؛ واستطاع أخوه على بن بويه إخضاع بلاد فارس، وأرسل إلى الخليفة الراضى اعترافه بسلطته في فارس. فبعث إليه بالخلع مع أحد رسله وأمره ألا يسلمها إليه إلا بعد أن يرسل ثمانمائة مليون درهم إلى بغداد ويتعهد بأن يؤدى إليه مثلها سنويًا؛ لكن على بن بويه احتال على الرسول حتى أخذ منه الخلع، ثم امتنع عن دفع هذا المبلغ.

لم يكن على بن بويه هو الذى ارتفع شأنه دون غيره من البويهيين، بل استولى أخوه الحسن على بلاد العراق العجمى: ودعا قواد بغداد أخاه الثالث أحمد بن بويه إلى المسير إليهم حين ساءت الحالة في عهد الخليفة المستكفى. فوصل بغداد في ١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ. فقابله الخليفة واحتفى به ومنحه إمرة الأمراء، وبايعه أحمد بالخلافة؛ ولكى يظهر هذا الخليفة تأييده لبنى بويه منح زعماءهم الألقاب؛ فلقب عليا عماد الدولة، ولقب الحسن ركن الدولة؛ ولقب أحمد الذى أصبح مطلق التصرف في العراق معز الدولة.

مسكويه . تجارب الأمم، جـ١، ص ٢٩٦ - ٣٠٢ .
حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام السياسى جـ٣، ص ٩٩ - ١٠١ .
الدورى. العصور العباسية المتأخرة ص ٢٤٤ - ٢٤٧ .

إلى بلاد الدولة العباسية لنشر الدعوة لهم، كما حفزهم إلى العمل على تقويض دعائم الخلافة العباسية وانتزاع زعامة الإسلام منها.

وقد كشف المعز لدين الله الفاطمى عن سياسته التى ترمى إلى بسط سلطانه على بلاد المشرق فى خطبة ألقاها على رؤساء كتامة بمدينة المنصورية [١]، «. . . رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم، وإنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا فيما لابد لى منه من دنياكم وبما خصنى الله به من إمامتكم، وإنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب، أجيب عنها بخطى[٢]».

كذلك عبر المعز قبيل وفاته سنة ٣٦٥ هـ عن أمله فى فتح العراق فى الحديث الذى دار بينه وبين رسول الإمبراطور البيزنطى الذى قدم إلى القاهرة لزيارته. وقد خاطبه المعز بقوله: «أتذكر إذ أتيتنى رسولا وأنا بالمهدية فقلت لك لتدخلن على وأنا بمصر مالكا لها، قال: نعم. قال: وأنا أقول لك لتدخلن على بغداد وأنا خليفة[٣]».

رأى الفاطميون أنه لن يتيسر لهم نشر نفوذهم فى بلاد المشرق إلا بفتح مصر لتوسطها العالم الإسلامى، فضلاً عن قربها من المشرق الذى حرص المعز على إخضاعه؛ لذلك وجه الفاطميون أنظارهم إليها لانتزاعها من الدولة العباسية، واستطاعوا أن يبسطوا سلطانهم عليها سنة ٣٥٨ هـ، وأقيمت للخليفة الفاطمى الخطبة على منابرها.

ولما أيقن الفاطميون أن دعاتهم فى بلاد المشرق قد نجحوا فى صرف كثير من المسلمين عن تأييد العباسيين، شرعوا فى مواصلة جهودهم لبسط سيادتهم على أراضى الدولة العباسية؛ فتخطى النفوذ الفاطمى فى عهد المعز الحدود المصرية إلى بلاد الشام؛ لكنه لم يكن مستقراً فيها، بينما نراه ينمو ويزداد فى جزيرة العرب

(١) أسس الخليفة المنصور الفاطمى مدينة المنصورية سنة ٣٣٧ هـ فى الموضع الذى دارت فيه الواقعة بينه وبين أبى يزيد مخلد بن كيداد على مقربة من القيروان واتخذها حاضرة له.
(راجع كتاب: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبى عبد البكرى ص ٢٥).

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ: جـ ٨، ص ٢٢٠.

بفضل الدعاية الفاطمية التى وجدت من تلقاء نفسها مرعى خصيبًا فى تلك البلاد؛ فأقيمت الخطبة فى مكة والمدينة لكثير من الخلفاء الفاطميين، كما انتشر نفوذهم فى بلاد اليمن وذاعت دعوتهم فى كثير من بلادها؛ وبذلك تضاءل سلطان الدولة العباسية الروحى فى جزيرة العرب كما تضاءل سلطانهم فى بلاد الشام من قبل.

كانت بلاد العراق محط أنظار الفاطميين وعلى الأخص بعد أن استبد البويهيون بالسلطة فى بغداد سنة ٣٣٤ هـ. وقضوا على نفوذ الخلفاء العباسيين، بل شاركوهم فى مظاهر سيادتهم الدينية والسياسية.

أقام البويهيون على أثر دخولهم بغداد إمارة وراثية. وكانوا يعتنقون المذهب الشيعى على مبادئ الزيدية التى أدخلها بلاد الديلم حسن بن على الزيدى[1] . ومن ثم صاروا لا يعترفون بحق العباسيين فى السيادة على جميع العالم الإسلامى[2] ، وإنما اعتبروهم مغتصبين للخلافة من أصحابها العلويين[3] .

وقد تأثر البويهيون إلى حد كبير بالدعاية الفاطمية فى بلاد المشرق؛ فلما قبضوا على زمام السلطة فى بغداد وضعف تبعًا لذلك مركز الخليفة فكروا فى القضاء على الخلافة السنية وإقامة خلافة شيعية مكانها، وحاول معز الدولة بن بويه (٣٣٤ - ٣٥٦ هـ) إخراج هذه الفكرة إلى حيز العمل وذلك بنقل الخلافة العباسية إلى أحد العلويين، ولكن خواصه حذروه من سخط الناس ومخالفتهم لأن عامتهم فى الأقطار الإسلامية اعتادوا الدعوة العباسية، وأطاعوا العباسيين طاعة لله ورسوله[4].

---

(١) نشر حسن بن على الزيدى الإسلام بين أهالى الديلم وطبرستان فى أوائل القرن الرابع الهجرى، وقضى على الوثنية والمجوسية التى كانت منتشرة بينهم، واستطاع أن يستميلهم إلى جانبه، وظلوا مخلصين له طيلة حياته؛ كذلك نجح حسن بن على الزيدى فى القضاء على النظام الإقطاعى الذى كان سائدًا فى بلاد الديلم، وظلت طبرستان بيد أسرته حتى سنة ٣١٤ هـ حين فتح مرادويج بن زيار الديلمى هذا الإقليم.
(الدورى: العصور العباسية المتأخرة، ص ٧٢ - ٧٣).

(٢) Arnold, The Cailphate p. 61.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ ٨، ص ١٤٩ .

(٤) الدورى: العصور العباسية المتأخرة، ص ٢٤٨ .

وقد وضح ابن الأثير[١] تلك المحاولة التى شرع معز الدولة فى تنفيذها ثم لم يلبث أن عدل عنها بقوله: « لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوى أو لغيره من العلويين، فكلهم أشار بذلك ما عدا بعض خواصه، فإنه قال: «ليس هذا برأى. فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه».

عدل معز الدولة بن بويه عن عزمه لما قد يتعرض له سلطانه من خطر بسبب وجود خلافة علوية يطيعها الجند من الديلم ويكونون أداة فى يد الخليفة يستغلها لمصلحته متى شاء [٢]، وفضل أن يستبد بالسلطة فى ظل خليفة عباسى ضعيف على أن يكون تابعًا لخليفة يعترف بإمامته، كما أن أمراء بنى بويه[٣] الذين خلفوه وأصبحوا مطلقى التصرف فى العراق حذوا حذوه. فلم يقدموا على تحويل الخلافة إلى أحد العلويين، لكنهم ظلوا على اتصال بالفاطميين، فسمحوا لدعاتهم بنشر عقائد مذهبهم فى بلاد العراق وغيرها من البلاد التى كانت خاضعة لنفوذ بنى بويه [٤].

كان البويهيون رغم حرصهم على الاحتفاظ بنفوذهم السياسى يؤثرون الفاطميين على العباسيين من الناحية المذهبية، فتبودلت الرسائل الودية بين العزيز بالله الفاطمى وعضد الدولة بن ركن الدولة (٣٦٧ - ٣٧٢ هـ) فاعترف هذا الأمير بإمامة الخليفة الفاطمى، كما كان لغارات البيزنطيين المتكررة على الأراضى المتاخمة لحدود كل من الدولتين العباسية والفاطمية أثر كبير فى تقريب مسافة الخلف بينهما

---

(١) الكامل فى التاريخ جـ٨، ص ١٤٩ .

(٢) مسكويه: تجارب الأمم، جـ٢، ص ٨٧ .

Noeldeke, Sketches From Eastern History P. 88 .

(٣) نقف مما ورد فى كتاب «سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة» أن من بين ألقاب بنى بويه، شاهنشاه المعظم ملك الملوك، سلطان الدولة، معز أمير المؤمنين ويمين خليفة الله، كما لقبوا أحيانًا بلقب أمير الأمراء.

أما Stanlely Lane - Poole فى كتابه Muhammadan Dynasties p. (140) فيذكر أن أمراء بنى بويه لم يتخذوا لأنفسهم لقب سلطان على السكة، وإنما استعملوا لقب أمير وملك.

(راجع حاشية رقم ٥، كتاب : تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣ ص ١٠١ - ١٠٢).

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣ ص ١٠٢ - ١٠٣ .

وتعاونهما على إيقاف هذا العدو المشترك عند حده؛ ويتبين لنا ذلك من الكتاب الذى بعثه العزيز مع أحد رسله إلى عضد الدولة سنة ٣٦٩ هـ، وقد جاء فيه [١] «. . إن رسولك وصل إلى حضرة أمير المؤمنين مع الرسول المنفذ إليك، فأدى ما تحمله من إخلاصك فى ولاء أمير المؤمنين ومودتك ومعرفتك بحق إمامته، ومحبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين؛ فسر أمير المؤمنين بما سمعه عنك ووافق ما كان يتوسمه فيك، وأنك لا تعدل عن الحق. . . وقد علمت ما جرى على ثغور المسلمين من المشركين، وخراب الشام وضعف أهله، وغلاء الأسعار. ولولا ذلك لتوجه أمير المؤمنين بنفسه إلى الثغور، وسوف يقدم إلى الحيرة، وكتابه يقدم عليك عن قريب، فتأهب إلى الجهاد فى سبيل الله».

ومما هو جدير بالذكر أن رسول العزيز بالله الفاطمى لما وصل إلى بغداد استقبل استقبالا حافلا، فقد اصطفت الجند على جانبى الطريق، وأخذ القواد وكبار رجال الدولة أماكنهم كل على حسب مكانته، على حين جلس الخليفة الطائع وراء الستر، حتى إذا ما رفع هذا الستر رأي الحاضرون الخليفة جالسًا على عرش مرتفع ويحيط به مئات الحراس ممتشقين سيوفهم، مرتدين أبهى حللهم، وأمام الخليفة مصحف عثمان، وعلى كتفيه بردة الرسول ﷺ، وبيده قضيب الملك، وتقدم عضد الدولة البويهى وقبل الأرض. هنا سأل رسول الخليفة الفاطمى- وقد أخذت الدهشة منه كل مأخذ - من هذا الذى تسجد له وتقبل الأرض بين يديه؟ أهو الإله العظيم، فأجابه عضد الدولة: إنه خليفة الله وظله على الأرض[٢].

لما وصل كتاب العزيز إلى عضد الدولة، أرسل إليه ردًا، أقره فيه على انتمائه لأهل بيت رسول الله وأظهر استعداده لتنفيذ أوامره[٣] . وقد علق أبو المحاسن [٤] على هذا الكتاب الذى أرسله عضد الدولة البويهى إلى الخليفة العزيز

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٢٧ - ٢٧١ . Arnold, the Caliphate p. 66 - 67.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ١٢٥ .

(٤) النجوم الزاهرة: جـ٤، ص ٢٥ .

بقوله: « وأنا أتعجب من كون عضد الدولة كان إليه أمر الخليفة العباسى ونهيه، ويقع فى مثل هذا لخلفاء مصر؛ وقد علم كل أحد ما كان بين بنى العباس وخلفاء مصر من الشنآن. وما أظن عضد الدولة كتب له ذلك إلا عجزًا عن مقاومته، فإنه قرأ كتابه فى حضرة الخليفة الطائع، وأجاب بذلك أيضًا بعلمه، فهذا من العجب».

على أن هذه السياسة التى كانت تنطوى على التودد بين الخليفة الفاطمى وعضد الدولة البويهى ما لبثت أن تبدلت فى أواخر عهد هذا الأمير، بل نراه يجهز قواته لغزو مصر واستردادها من الفاطميين بعد أن اتضح له خطر الدولة الفاطمية على سلطان بنى بويه؛ فقد ذكر أبو منصور عبد القاهر البغدادى فى كتابه الفرق بين الفرق[١] أن عضد الدولة تأهب للسير إلى مصر وانتزاعها من أيدى الباطنية، وكتب على أعلامه: «بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين، الطائع لله أمير المؤمنين، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين..». لكن هذه المحاولة لم تتم بسبب وفاة عضد الدولة. وقد قيل إن ما قام به هذا الأمير كان نتيجة لشكه فى نسب الفاطميين، ذلك أنه دعا العلويين ببغداد، وقال لهم؛ «إن الخليفة بمصر يدعى أنه علوى، فأنكروا انتسابه إليهم؛ فبعث إلى العزيز رسولا يقول له: نريد أن نعرف ممن أنت؛ فعظم ذلك على الخليفة الفاطمى وأزمع رسول عضد الدولة على العودة إلى بغداد، وبينما هو فى طريقه إليها قتل بطرابلس[٢] ».

على الرغم من أن البويهيين لم يعملوا على مناصرة الفاطميين فى بداية عهدهم بالعراق، فإنهم ظلوا طوال حكمهم يشجعون المذهب الشيعى الذى يدينون به وقربوا إليهم أتباع هذا المذهب ليستعينوا بهم على تحقيق سياستهم فى العراق، بل عرفوا بتعصبهم للشيعة مما أدى إلى قيام الثورات من حين إلى حين بين الشيعيين والسنيين فى بغداد. وليس أدل على ذلك مما قام به بهاء الدولة بن عضد الدولة (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ)، فقد تعصب لأهل الشيعة فى بغداد حين وطدوا عزمهم على

---

(١) ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ٣٦ .

مناصرة الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى بمصر سنة ٣٩٨ هـ، وصاحوا: يا حاكم، يا منصور. وكان لتحيز هذا الأمير لهم أثر سيىء فى نفس القادر بالله العباسى (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) فأمد السنيين بفريق من حرسه حتى يستطيعوا الوقوف فى وجههم، ومن ثم دارت رحى الحرب بين الفريقين. وانتهى الأمر بهزيمة أهل الشيعة [1] .

لم يدخر الفاطميون جهدًا فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية فى بلاد العراق؛ فأقيمت الدعوة للخليفة العزيز سنة ٣٨٢ هـ فى الموصل على يد أميرها أبى الدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد العقيلى[2] ، كذلك نجح الحاكم بأمر الله الفاطمى فى استمالة قرواش بن المقلد الملقب بمعتمد الدولة - أمير بنى عقيل[3] - الذى آلت إليه السيادة فى الموصل؛ فخرج على طاعة الخليفة العباسى القادر بالله سنة ٤٠١ هـ، وقام بنشر الدعوة الفاطمية فى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، كما أحل اسم الحاكم بأمر الله فى الخطبة محل الخليفة العباسى.

يقول أبو المحاسن[4] عن إقامة الخطبة فى الموصل للحاكم بأمر الله «أحضر (معتمد الدولة) الخطيب يوم الجمعة رابع المحرم (سنة ٤٠١ هـ) وخلع عليه قباء دبيقيا وعمامة صفراء وسراويل ديباج أحمر وخفين أحمرين، وقلده سيفًا وأعطاه نسخة ما يخطب به» وإليك بعض ما ورد فى هذه الخطبة[5] :« ... اللهم وصل

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء، ص ٢٧٤.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص ٢٠١.

(٣) كان بنو عقيل من القبائل العربية (بنو كلاب وبنو نمير وبنو خفاجة) يقيمون بين الجزيرة والشام، ولما أسس الحمدانيون دولتهم فى الموصل، صاروا من رعاياهم، يؤدون إليهم الإتاوة ويخرجون معهم فى الحرب. على أن بنى عقيل سرعان ما تطلعوا إلى امتلاك البلاد بعد أن تطرق الضعف إلى دولة بنى حمدان، فاستولى أميرهم أبو الدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد على نصيبين سنة ٣٧٩ هـ، ثم سار إلى الموصل وضمها إلى حوزته فى السنة التالية، وأقره بهاء الدولة بن بويه عليها. لكنه لم يتمتع بولايتها طويلاً، فقذ عزله البويهيون سنة ٣٨٢. ولما توفى أبو الدرداء سنة ٣٨٦ هـ، استعاد أخوه المقلد ولاية الموصل وأسس بها دولة العقيليين التى ظلت قائمة حتى سنة ٤٨٩ هـ.

ابن الأثير : جـ ٩، ص ٢٦، ابن خلدون : العبر، جـ ٤، ٢٥٤ - ٢٥٦.

(٤) النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ٢٢٤.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة، جـ٣، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

على وليك الأزهر، وصديقك الأكبر، على بن أبى طالب أبى الخلفاء الراشدين المهديين، اللهم وصل على السبطين الطاهرين الحسن والحسين، وعلى الأئمة الأبرار والصفوة الأخيار، من أقام وظهر، ومن خاف فاستتر. اللهم وصل على الإمام المهدى بك، والذى بلغ بأمرك وأظهر حجتك ونهض بالعدل فى بلادك. اللهم وصل على القائم بأمرك والمنصور بنصرك، اللذين بذلا نفوسهما فى رضائك، وجاهدا أعداءك. اللهم وصل على المعز لدينك، المجاهد فى سبيلك. . . اللهم وصل على العزيز بك الذى مهدت به البلاد وهديت به العباد. اللهم واجعل نوامى صلواتك وزواكى بركاتك، على سيدنا ومولانا إمام الزمان وحصن الإيمان وصاحب الدعوة العلوية، عبدك ووليك المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الراشدين. اللهم وفقنا لطاعته، واجمعنا على كلمته ودعوته، اللهم وأعنه على ما وليته، واحفظه فيما استرعيته. . وانصر جيوشه وأعل أعلامه فى مشارق الأرض ومغاربها، إنك على كل شيء قدير».

استاء الخليفة القادر بالله العباسى حين بلغه نبأ ذيوع الدعوة الفاطمية فى بعض بلاده، وأنفذ القاضى أبا بكر الباقلانى إلى الأمير بهاء الدولة ليخبره بالخطر الذى يهدد دولته من ناحية الفاطميين، ويطلب منه العمل على مناهضة نفوذهم[1]؛ فعدل بهاء الدولة عن تأييد الحاكم بأمر الله إجابة لرغبة الخليفة العباسى، وأرسل جيشًا إلى ابن المقلد اضطره وقف الدعوة للحاكم فى بلاده وإقامة الخطبة للقادر بالله[2] .

كذلك رأى الخليفة القادر بالله العباسى بعد أن تجلى له نجاح الدعوة الفاطمية فى بعض بلاد العراق أن يلجأ فى محاربة الفاطميين إلى سلاح التشهير بسمعتهم فى العالم الإسلامى، لعله يصل من وراء ذلك إلى القضاء على نفوذهم؛ فعقد اجتماعًا دعا إليه الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة، وأصدروا فى شهر ربيع الثانى سنة ٤٠٢ هـ محضرًا يتضمن الطعن فى نسب الفاطميين

(١) ابن خلدون. العبر، جـ٢، ص ٤٤٢.
(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩ ، ص ٧٦ - ٧٧.

خلفاء مصر وفى شرعية إمامتهم، وأنهم ليسوا من آل البيت، وقرئت نسخ من هذا المحضر فى بغداد. وكان من بين الموقعين عليه الشريف الرضى وأخوه المرتضى، وفريق من أكابر العلويين. وكان مما ورد فيه: (. . فشهدوا جميعًا أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم. . هو ومن تقدمه من سفلة الأرجاس الأنجاس، أدعياء، خوارج، لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب، وأن ذلك باطل وزور، وأنهم لا يعلمون أن أحدًا من الطالبيين توقف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء. وقد كان هذا الإنكار شائعًا بالحرمين فى أول أمرهم بالمغرب. أن هذا الناجم بمصر هو وسلفه. . قد عطلوا الحدود، وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء ولعنوا السلف وادعوا الربوبية[(١)] ».

على أنه يتضح لنا مما ورد فى كل من ابن الأثير[(٢)] والمقريزى[(٣)] أن الشريف الرضى الموسوى العلوى امتنع عن توقيع هذا المحضر، يؤيد هذا القول تلك القصيدة التى نظمها وأثبت فيها صحة نسب الفاطميين، غير أن هذه القصيدة لم ترد فى ديوان شعره خوفًا من الخليفة العباسى القادر بالله وإرضاء لأبيه.

وإليك بعض أبياتها:

ما مقامى على الهوان وعندى ... مِقْولٌ صارم وأنف حمىٌّ

ألبسُ الذلَّ فى بلاد الأعادى ... وبمصر الخليفة العلوى

من أبوه أبى ومولاه مولا ... ى إذا ضامنى البعيد القصىُّ

لفَّ عرقى بعرقه سيِّدا النا ... س جميعًا : محمدٌ وعلىّ

إن ذلى بذلك الحىِّ عزٌّ ... وأوامى بذلك الرَّبْع رى

* * *

أثارت هذه الأبيات غضب الخليفة القادر بالله؛ فبعث إلى الشريف أبى أحمد الموسوى والد الشريف الرضى يعاتبه على ما جاء فى قصيدة ابنه، بقوله: «قد

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ٨.

(٣) اتعاظ الحنفا، ص ٥٠، ٤٣ - ٤٤ .

عرفت منزلتك منا وما لا تزال عليه من الاعتداد بك فى الدولة من مواقف محمودة، ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاها، ويكون ولدك على ما يضادها»، فاستدعى أبو أحمد ابنه، وقال له: « اكتب خطك إلى الخليفة باعتذار واذكر فيه أن نسب المصرى مدخول، وأنه مدَّع فى نسبه» فقال الشريف الرضى: لا أفعل؛ فقال أبوه: أتكذبنى فى قولى، فقال الشريف الرضى: ما أكذبك ولكنى أخاف من المصرى، ومن الدعاة التى له فى البلاد؛ فقال أبوه: أتخاف ممن هو بعيد عنك وتراقبه وتسخط ممن هو قريب وأنت بمرأى منه ومسمع، وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك.

لم يقف تيار الدعوة الفاطمية فى بلاد العراق رغم ما بذله الخليفة القادر بالله العباسى من مجهود للقضاء على النفوذ الفاطمى فى بلاد الدولة العباسية؛ فقد أتيحت الفرصة لدعاة الفاطميين لمواصلة جهودهم فى نشر دعوتهم وصادفوا كثيرًا من النجاح حين ساد الاضطراب فى بلاد العراق فى مستهل القرن الخامس الهجرى بسبب تنافس أمراء بنى بويه على السلطة؛ فقام النزاع بين سلطان الدولة الذي ولى الحكم فى العراق، سنة ٤٠٣ هـ وابن أخيه أبى الفوارس؛ ويعزو ابن الأثير(١) هذا النزاع إلى إغراء الديلم أبا الفوارس بمحاربة أخيه وأخذ ما بيده من البلاد، كما دارت الحرب بين جلال الدين وابن أخيه أبى كاليجار الذى استمال إليه بعض أمراء العراق، واستولى على البصرة وواسط، ثم تمكن جلال الدولة من استردادهما. كذلك كان لازدياد نفوذ الأتراك أثره فى سوء الحالة فى بلاد العراق، فقد أخذوا يتدخلون فى تولية أمراء بنى بويه وعزلهم، ويحملونهم على أن يحلفوا لهم على الطاعة والوفاء، ولم يكن الخليفة يملك إلا تنفيذ رغباتهم. وكان هؤلاء الأتراك ينزعون دائما إلى الخروج على حكامهم طمعًا فى ابتزاز الأموال. وقد قاموا بعدة محاولات ترمى إلى خلع جلال الدولة وتولية ابن أخيه أبى كاليجار فى السلطنة من بعده(٢) .

لم تكن حقيقة الحال فى بلاد العراق خافية عن الحكومة الفاطمية فى مصر؛ فلما وصل إلى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى ما حل ببغداد من الفوضى

(١) الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ١٠١ .

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى؛ جـ٣، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

بسبب النزاع والمنافسة بين أمراء بنى بويه، والخلاف بين جند الأتراك، رأى أن ينتهز هذه الفرصة ليتابع سياسة أسلافه فى نشر الدعوة الفاطمية ببلاد العراق؛ فأرسل فى سنة ٤٢٥ هـ إلى بغداد بعض دعاته؛ فاستجاب لهم كثير من الناس[١].

كان للجهود التى بذلها الفاطميون لنشر دعوتهم عن طريق دعاتهم فى بلاد الدولة العباسية وعلى الأخص منذ بداية القرن الخامس الهجرى أثرها فى حمل العباسيين على بث الدعايات السيئة ضد الفاطميين للحط من شأن الخلافة الفاطمية. ولعل أهم ما قاموا به لتحقيق هذه الغاية هو تنفير المسلمين منهم بادعائهم عدم صحة نسب الفاطميين إلى على وفاطمة. وقد سار الخليفة القائم بأمر الله العباسى على سياسة أبيه القادر بالله فى النيل من الفاطميين ومناهضة نفوذهم؛ فأصدر ديوانه ببغداد سنة ٤٤٤ هـ محضراً تضمن إنكار انتساب الفاطميين لأهل البيت[٢] .

(١) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ٢٧٦.

(٢) أبو المحسن : النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ٥٣ .

٣- حركة البساسيرى فى العراق

لم تكن حالة الخلافة العباسية فى عهد القائم بأمر الله أحسن منها فى عهد من سبقه من الخلفاء؛ فقد تجلى فى أيامه استئثار بنى بويه بالسلطة، وقيام النزاع والمنافسة بين أمرائهم من جهة، وبينهم وبين الجند من جهة أخرى؛ ففى سنة ٤٢٤هـ، ظهر التنافس بين جلال الدولة وابن أخيه أبى كاليجار؛ كما ثار جند الأتراك على جلال الدولة ونهبوا داره وكتبه ودواوينه سنة ٤٢٦هـ، وأقاموا الخطبة ببغداد لأبى كاليجار – وكان إذ ذاك بالأهواز، غير أنهم ما لبثوا أن اعتذروا له وأعادوه إلى مكة[١] . ولما توفى جلال الدولة سنة ٤٣٥هـ، وخلفه ابنه الأكبر أبو منصور فيروز الذى لقبه الخليفة «الملك العزيز» غير أنه لم يتمكن من الاحتفاظ بسلطة أبيه فترة طويلة، فقد أرسل أبو كاليجار بن سلطان الدولة إلى كبار القواد يستميلهم إليه ويعدهم بإغداق الأموال عليهم؛ فمالوا إلى تأييده وانصرفوا عن «الملك العزيز»؛ وبذلك استطاع كاليجار دخول بغداد، وأقيمت له الخطبة بهذه المدينة فى صفر سنة ٤٣٦ هـ[٢] . واعترف بنفوذه سائر أمراء العراق.

ظل أبو كاليجار بعد توليته أمور العراق يعنى بشئون فارس فقضى على حركات الثوار فى أصبهان وكرمان، كما عمل على إصلاح ما بينه وبين طغرلبك السلجوقى الذى استولى على خراسان والرى؛ فعقد معه الصلح سنة ٤٣٩ هـ، وتوثقت عرى المودة بينهما برباط المصاهرة، يقول ابن الأثير[٣] : «كتب طغرلبك إلى أخيه (إبراهيم ينال) يأمره بالكف عما وراء ما بيده، واستقر الحال بينهما على أن يتزوج طغرلبك بابنة أبى كاليجار، ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبى كاليجار بابنة الملك داود أخى طغرلبك». كذلك عمد أبو كاليجار إلى التقرب من الفاطميين ليتخذهم وسيلة لإرهاب العباسيين حتى لا يحاولوا الاستعانة بالسلاجقة الذين يهددون سلطان بنى بويه ذلك الحين.

كانت الدعوة الفاطمية إذ ذاك قد لقيت تأييداً عند الديالمة فى فارس على يد الداعى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى[٤] الذى قام بدور هام فى نشر الدعوة

(١) ابن خلدون : العبر، ص ٤٤٨ – ٤٥٠ .

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ١٧٨ – ١٨١ .

(٣) الكامل فى التاريخ، جـ٩؛ ص ١٨٤ .

(٤) ولد المؤيد فى الدين هبة الله فى شيراز سنة ٣٩٠ هـ وأخذ عن والده موسى بن داود علوم الدعوة الفاطمية، كما شاهد فى صباه أحمد حميد الدين الكرمانى كبير دعاة الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله فى فارس، ومن المحتمل أن يكون قد تأثر بمدرسته. وبذل المؤيد نشاطاً كبيراً فى استمالة أمراء بنى بويه إلى الفاطميين.

(مقدمة سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة؛ ص ١٢ – ١٤).

للخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى بلاد الفرس والعراق، واستطاع بسياسته أن يجذب الملك أبا كاليجار البويهى إلى هذه الدعوة[١] .

وقد وضح هبة الله فى سيرته، كيف كان يجتمع بالملك أبى كاليجار ليلقنه أصول الدعوة الفاطمية، فقال: « كنت كل ليلة جمعة أمكث عنده إلى أن يمضى هزيع من الليل، وهو يسألنى عما يهجس فى نفسه، وكنت أجيب عنه جوابًا يظهر أكثر تباشير الفرح فى وجهه، وأسأله كيف وقع هذا الجواب منك، فربما حرك رأسه يعنى أنه جيد، فلا أرضى دون أن أقرره بلسانه أنه ما دخل فى مسامعه مثله . . ؛ وكان بناء المجالس التى تعقد بحضرته فى ليالى الجمعات على أن يبتدئ بقراءة شىء من قوارع القرآن، ويثنى بباب من كتاب الدعائم [٢] ، ويثلث بأن يسأل عما يريده فأجيبه عنه. وأختم بالتحميد والخطبة لمولانا الإمام خلد الله ملكه . . ، ومن جملة ما كنت قررته معه أننى غير ناهيه من استماع ما يريد استماعه من أى لسان كان، من أى مذهب كان، ولكن يرجع به إلى، ويسألنى عما عنده فيه فإن وجد الرجحان فيما عندى لزمه أن يرفض أقوالهم ويعمل بما هو أنجى له وأرجى لخلاصه» .

لما رأى الخليفة القائم بأمر الله العباسى الخطر الذى يهدد كيان دولته ومذهبه السنى فى بلاد الفرس والعراق من جراء نشاط المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى فى نشر الدعوة الفاطمية، بعث رسولا من قبله إلى الملك أبى كاليجار يطلب إليه تسليم داعى الفاطميين ويهدده بالاستعانة بالسلاجقة وإغرائهم بالاستيلاء على ما يمتلكه من البلاد[٣] ؛ فلم يحفل أبو كاليجار فى بادئ الأمر بهذا التهديد ثم أنفذ رسالة إلى هبة الله الشيرازى، حذره فيها من عاقبة بقائه فى شيراز بقوله[٤] : «لا شك أن هذه الضجة التى كادت تخرق الأرض وتشق الجبال وقعت فى مسامعك،

(١) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة، ص ٤٣ .

(٢) يعرف هذا الكتاب باسم «دعائم الإسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام». ويعد من أهم مراجع فقه الإسماعيلية؛ وقد ألفه القاضى أبو حنيفة النعمان ابن أبى عبد الله بن محمد بن أحمد بن حيون التميمى، وكان النعمان مالكى المذهب ثم اعتنق المذهب الإسماعيلى، ودخل فى خدمة عبيد الله المهدى حول سنة ٣١٣ هـ؛ واقتصر عمله فى عهد المهدى والقائم والمنصور على جمع ونشر كتب المذهب الإسماعيلى؛ واتخذه المنصور والمعز قاضيا لهما؛ وتوفى سنة ٣٦٣ هـ فى خلافة المعز لدين الله .
(راجع: كتاب المعز لدين الله لحسن إبراهيم وطه شرف: ص ٢٥٨).

(٣) سيرة المؤيد فى الدين ، ص ٥٦ .

(٤) المرجع نفسه، ٦٤ .

وعلمت أن هذه الأمم، لا يحصيها إلا الله سبحانه، أعداؤك وخصماؤك؛ وكانوا أعداءنا فيك أيام كنا نقربك وندنيك، وينبغى الآن أن تأخذ لنفسك وتبتغى سبيل نجاتك، وتفرغ هذه الممالك؛ ثم تأخذ أى صوب شئت».

على أن الملك أبا كاليجار لم يكتف بهذه الرسالة التى بعث بها إلى هبة الله الشيرازى، بل أرسل إليه وفداً من كبار رجاله، فلما التقوا به عبروا له عن أسف الملك للصعاب التى سيلاقيها إذا نفذ ما كلفه به من الرحيل عن تلك البلاد، كما قدموا إليه كتاب الخليفة العباسى الذى تضمن التوعد بطغرلبك والطعن فى نسب الفاطميين؛ وقد جاء فيه[1] : «والقول إنه إن كانت دعوة تعزى إليهم فى الأيام المتقدمة، فلقد كانت في الخفاء والستر.. وإن أحداً ما جسر على مثل ما جسر عليه هذا الرجل (هبة الله الشيرازى)... من الوقوف فى بعض مواقف إظهاره وإشهاره والتجرد لدفع معالم ذكرهم بالصلاة والخطبة وإزالة أسامينا بالكلية، وأنه إذا سومح فى بابه وأهمل تسليمه في يد صاحبنا، فقد أخرجتمونا من عهدة الأيمان والعهود بيننا وبينكم، وأحوجتمونا إلى استنصار من ينصرنا عليكم..».

ظل هبة الله الشيرازى رغم ما وصله عن اهتمام الخليفة القائم بأمر الله بالقضاء على جهوده واضطرار أبى كاليجار إلى الانصراف عن تأييد دعوته حريصاً على ولائه للفاطميين؛ فأجاب وفد الملك البويهى الذى أطلعه على كتاب للخليفة العباسى بأنه لا يعرف خليفة غير المستنصر بالله (الخليفة الفاطمى بمصر)؛ ثم أزمع الرحيل من شيراز وسار قاصداً مصر سنة ٤٣٨ هـ؛ وهناك سعى إلى لقاء الإمام المستنصر بالله؛ فوجد من وزيره صدقة بن يوسف الفلاحى ترحيبًا لإجابة هذه الرغبة. وقد وصف هبة الله الشيرازى فى سيرته[2] كيف دخل إلى مجلس الخلافة بالقاهرة وحظى بمقابلة الخليفة الفاطمى، فقال: « فلم تقع عينى عليه إلا وقد أخذتنى الروعة وغلبتنى العبرة، وتمثل فى نفسى أننى بين رسول الله وأمير المؤمنين- ﷺ- ماثل، وبوجهى إلى وجهيهما مقابل، واجتهدت عند وقوفى إلى الأرض ساجداً لولى السجود ومستحقه، أن يشفعه لسانى بشفاعة حسنة بنطقه

(١) المرجع نفسه، ص ٦٤ - ٦٥ .
(٢) ص ٨٥ - ٨٦ .

فوجدته بعجمة المهابة معقولا، وعن مزية الخطابة معزولا . . ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ولا يهتدى لقول، وكلما استطرد الحاضرون منى كلامًا ازددت إعجابًا. وهو خلد الله ملكه يقول: «دعوه حتى يهدأ ويستأنس»، ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عينى وصدرى، وودعت وخرجت».

ولا شك أن المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى يعد من أخلص دعاة الفاطميين الذين اتخذوا بلاد المشرق مركزًا لنشر دعوتهم . وقد استطاع بفضل ما أوتيه من حكمة ودهاء، وما عرف عنه من حرص على التمسك بولائه للخلافة الفاطمية أن ينجح فى تحويل كثير من أهالى هذه البلاد إلى المذهب الفاطمى مما أدى إلى ضعف نفوذ العباسيين فى بعض بلاد المشرق. وليس أدل على ذلك من أن الديالمة قد أصبحوا - كما يقول المؤيد فى الدين - «إلى صاحب مصر داعين وباسمه مبايعين». وكان ذلك مما أثار حنق الخليفة العباسى ورجال دولته، فتعاونوا جميعًا على الوقوف فى وجه دعاة الفاطميين.

وكان الخليفة القائم بأمر الله العباسى وقتذاك يواجه كثيرًا من الصعاب عاقته عن استعادة نفوذه فى دولته؛ فضلا عن انتشار الدعوة الفاطمية فى بعض بلاده، ظل أمراء بنى بويه رغم تنازعهم وتنافسهم على السلطة قابضين على زمام الأمور فى بلاد الفرس والعراق؛ فلما توفى الملك أبو كاليجار سنة ٤٤٠ هـ ببلدة جناب بكرمان، استدعى ابنه أبو نصر خسرو فيروز - وكان ينوب عنه إذ ذاك ببغداد- الجند واستحلفهم، كما أرسل إلى الخليفة القائم بأمر الله يطلب منه أن يأذن له بذكر اسمه فى الخطبة ويلقبه بالملك الرحيم؛ فأجابه الخليفة إلى طلبه الأول، وامتنع عن تلقيبه بهذا اللقب[١]. وقال: «لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى» واستقر ملك الأمير البويهى بالعراق وخوزستان والبصرة[٢] . وكان بعض إخوته ينافسونه فى بسط سلطانهم على بعض الولايات حتى أصبحت مدن فارس والعراق مراكز للنزاع بينه وبينهم[٣] .

(١) ذكر أبو المحاسن (النجوم الزاهرة، جـ٥ ص ٤٦) أن الخليفة القائم بأمر الله لقب الأمير أبا نصر «الملك الرحيم»، وخلع عليه خلعة السلطنة. وكانت الخلع سبع جباب كاملة، والتاج، والطوق، والسوارين واللواءين، وهذا يخالف ما أورده ابن الأثير (جـ٩، ص١٨٩) عن أن الخليفة العباسى لم يوافق على منح الأمير أبى نصر لقب «الرحيم».

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص١٨٨ - ١٨٩ .

(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ص ١٣٥ .

ومن بين الصعاب التى صادفت الخليفة القائم بأمر الله ثورات الجند الذين كانوا إذ ذاك يتألفون من عناصر مختلفة، أهمها: العرب والديلم والأتراك، وقد أثار هؤلاء الجند كثيراً من الشغب فى بغداد. وكان العنصر التركى أقوى هذه العناصر نفوذًا؛ فقد تدخل فى عزل بعض أمراء بنى بويه وتوليتهم، كما قام الأتراك بفتنة فى بغداد سنة ٤٤٦ هـ يرجع سببها إلى تذمرهم من وزير الملك أبى كاليجار الذى ماطلهم فى رد الأموال المتبقية لهم، فحاصروا دار الخلافة مما أزعج الناس وحملهم على إخفاء أموالهم. وبلغت الفوضى ذروتها فى بغداد حين ركب جماعة من الأتراك ونهبوا دار الروم، وأخذوا فى نهب الوافدين إلى بغداد، الأمر الذى أدى إلى غلاء الأسعار وندرة الأقوات. ولما وقف الخليفة العباسى على هذه الأحداث التى ارتكبها الأتراك، أرسل إليهم ينهاهم عن إثارة الاضطرابات فى المدينة ويطلب إليهم الإخلاد إلى السكينة، فلم يذعنوا لأوامره، وظلوا مصدر قلق واضطراب حتى بعد أن رأي وزير الملك الرحيم أن يعيد إليهم الأموال المتبقية لهم[١].

كان من قواد بنى بويه الأتراك فى ذلك الوقت أبو الحارث أرسلان البساسيرى[٢] الذى أعان الملك الرحيم فى الاستيلاء على البصرة سنة ٤٤٤ هـ من يد أخيه أبى على بن أبى كاليجار، ووطد سلطانه[٣] بها، كما أوقع فى السنة التالية بالأكراد والأعراب الذين عاثوا فساداً فى بعض بلاد العراق وقطعوا الطريق طمعًا فى السلطنة. ولما قامت فتنة الأتراك ببغداد سنة ٤٤٦ هـ لم يعمل البساسيرى على مؤازرتهم، بل أقام دار الخلافة وأظهر استياءه من حركتهم[٤].

ازداد نفوذ البساسيرى فى العراق بعد أن عينه القائم بأمر الله رئيسًا للأتراك، وما لبث أن استبد بالسلطة فى بغداد حتى أصبح الخليفة العباسى «لا يقطع أمراً دونه، ولا يحل ويعقد إلا عن رأيه»، كما هابه أمراء العرب والعجم، ودعى له على كثير من منابر بلاد العراق و الأهواز ونواحيها، وصار يشرف على ما يدخل بيت المال من الإيراد[٥]. وقد أثار علو شأن البساسيرى كوامن الحقد فى نفس

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ص ٢٠٧.

(٢) كان أبو الحارث أرسلان مولى لأبى على الحسن بن أحمد الفارسى النحوى وما زالت تنتقل به الأحوال حتى أصبح من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه. وقد عرف بالبساسيرى نسبة إلى بلدة بفارس يقال لها بسا، وتقع على أربعة مراحل من شيراز، وبها جمع كبير من الديلم.
(المكين بن العميد: تاريخ المسلمين ص ٢٧٦، ابن ميسر: تاريخ مصر. ص ١١).

(٣) ابن خلدون: العبر، جـ٢، ص ٤٥٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ: جـ٩ ص ٢٠٣، ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٥) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد، جـ٩، ص ٣٩٩ - ٤٠٠، ابن خلكان وفيات الأعيان، جـ١، ص ٧٦.

الوزير أبى القاسم على بن المسلمة الملقب برئيس الرؤساء، فأخذ يفسد ما بينه وبين الأمراء والخليفة.

على أن البساسيرى وإن كان قد استفحل أمره في بغداد حتى أصبح الخليفة العباسى والسلطان البويهى معه ضعيفى الجانب، فإنه ما لبث أن واجه بعض الصعاب من جراء ما قام به أبو المعالى قريش بن بدران أمير الموصل من محاصرة مدينة الأنبار والاستيلاء عليها ونهبها ثم إقامته الخطبة على منابرها للسلطان طغرلبك؛ فاستاء البساسيرى من جرأة أمير الموصل على مهاجمة البلاد التى تحت سلطانه، وثارت ثائرته حين وصل إليه أن رسولين من قبل هذا الأمير قدما إلى بغداد وأكرم القائم بأمر الله وفادتهما؛ فعد هذا الموقف من الخليفة تحديًا له وأظهر عدم ارتياحه، وقال: هؤلاء وصاحبهم (أمير الموصل) كبسوا حلل أصحابى ونهبوا وفتحوا البثوق وأسرفوا فى إهلاك الناس»، واستقر رأيه على إلقاء القبض عليهما، لكنه لم يتمكن من تنفيذ غرضه ونسب إلى رئيس الرؤساء (وزير القائم) أنه يقف حائلا دون تنفيذ رغباته؛ فكان ذلك من أكبر العوامل التى أدت إلى تبدل العلاقات بين البساسيرى والخليفة العباسى القائم بأمر الله(١) .

على أن رئيس الرؤساء لم يعدل عن خطته في العمل على الكيد للبساسيرى وإضعاف شأنه، فأثار الأتراك البغداديين ضده باتهامه أنه تسبب فى كل ما جرى عليهم من نقص فى مرتباتهم، فأدى ذلك إلى استيائهم منه، وما لبثوا أن عبروا عن سخطهم عليه فى هجومهم على دوره، واستيلائهم على جميع أملاكه ببغداد. ولم تكن العوامل التى دفعت الأتراك إلى القيام بهذه الحركة خافية عن البساسيرى، فزاد حنقه على رئيس الرؤساء حين ثبت لديه أنه أوعز إلى الأتراك بالخروج عليه(٢) .

وكان من الأخطار التي هددت إذ ذاك الخلافة العباسية، تقرب بنى بويه من الفاطميين على يد المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى، وميل عدد قليل من جند بويه من الديلم والأتراك إلى دعوتهم(٣) ؛ بل إن البساسيرى نفسه تأثر بهذه الدعوة، وأصبح يرى وجوب الانحياز إلى الفاطميين بعد أن ساءت علاقته بالخليفة العباسى وأيقن من إعراضه عنه.

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص٢١١ .

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، جـ٣، ١٣٦ - ١٣٧ .

على أن القائم بأمر الله لم يتضح له موقف البساسيرى منه إلا بعد أن كتب إليه وزيره (رئيس الرؤساء) أن البساسيرى يعمل على خلعه؛ وأنه راسل المستنصر بالله الخليفة الفاطمى بمصر. فلما تحقق عند الخليفة القائم العباسى صحة ما نسب إلى البساسيرى من عزمه على الخروج عليه ومكاتبته الفاطميين بمصر، عمل على الحد من نفوذه؛ فأرسل إلى الملك الرحيم البويهى رسالة يقول فيها: «إن البساسيرى خلع الطاعة وكاتب الأعداء (يعنى المصريين)، وأن الخليفة له على الملك عهود وله على الخليفة مثلها، فإن آثره فقد قطع ما بينهما، وإن أبعده وأصعد إلى بغداد تولى الديوان تدبير أمره؛ فأظهر الملك الرحيم استعداده لإجابة طلب الخليفة بإبعاد البساسيرى عن بغداد، كما أن البساسيرى نفسه لما علم بما تضمنته رسالة القائم العباسى رحل إلى الحلة[1] حيث نزل على أميرها دبيس بن مزيد لمصاهرة بينهما[2]؛ فظل مقيما بها حتى اضطر إلى المسير إلى الرحبة[3] بعد أن دخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧ هـ[4].

لم تكن الحالة فى بلاد العراق فى الوقت الذى شغل فيه القائم بأمر الله العباسى بالتغلب على الصعاب الداخلية التى واجهته خافية عن السلاجقة الذين ازداد نفوذهم إذ ذاك فى شرق الدولة الإسلامية؛ فعمدوا إلى انتهاز هذه الفرصة لمواصلة جهودهم لبسط سيادتهم على أراضى هذه الدولة. ففى أوائل سنة ٤٤٧هـ. أظهر طغرلبك «أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوى صاحبها»، وأمر أصحابه بإعداد الأقوات والمؤن، ثم أرسل إلى الخليفة القائم بأمر الله أنه يدين له بالطاعة ويستأذنه فى دخول بغداد - وهو فى طريقه إلى مكة-؛ فأذن له كما أمر الخطباء بإقامة الخطبة على منابر بغداد؛ فتم له ذلك فى أواخر رمضان سنة ٤٤٧ هـ[5].

على أن العامة فى بغداد، أظهروا تذمرهم من دخول طغرلبك هذه المدينة وتمكنوا بفضل مساعدة بعض الأتراك من قتل فريق من جند السلاجقة[6]؛ فاستاء

(١) تعرف بحلة بنى مزيد، وتقع بين الكوفة وبغداد.
(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩ ص ٢١١.
(٣) مدينة بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات.
(٤) ابن خلدون، العبر، جـ٣، ص ٤٦٠ .
(٥) ابن خلدون : العبر، جـ٩، ص ٤٥٩ .
(٦) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩ ص ٢١٢ .

من ذلك طغرلبك، واستدعى الملك الرحيم البويهى وأتباعه، واتهمهم بتدبير ما حدث، ثم قبض عليهم، وأرسل الملك الرحيم إلى قلعة على مقربة من الرى؛ فظل معتقلا بها ثلاث سنوات ثم توفى(١) .

ولما بلغ الخليفة العباسى ما حل بالملك البويهى وأتباعه، بعث إلى طغرلبك ينكر عليه سياسة العنف التى لجأ إليها على أثر دخوله بغداد ويقول: «إنهم إنما خرجوا إليك بأمرى وأمانى ، فإن أطلقتهم وإلا فأنا أفارق بغداد، فإنى إنما اخترتك واستدعيتك اعتقاداً منى أن تعظيم الأوامر الشريفة يزداد وحرمة الحريم تعظم، وأرى الأمر بالضد(٢) ». فأطلق السلطان السلجوقى سراح بعضهم، واستولى على جميع إقطاعات عسكر الملك الرحيم؛ فكان ذلك مما حمل كثيراً منهم على الرحيل إلى البساسيرى والالتفاف حوله، فكثر بهم عدد أنصاره(٣) .

ولما طال مقام السلاجقة ببغداد، ولحق أهلها بسببهم كثير من الضر والأذى، رأى الخليفة القائم بأمر الله أن يبلغ عميد الملك الكندرى وزير السلطان طغرلبك بما يعانيه الأهالى من جراء إقامة جند السلاجقة بينهم؛ فمضى إلى السلطان وأطلعه على حقيقة الحال فى بغداد فاعتذر بكثرة الجند وعجزه عن تهذيبهم؛ وأصدر أوامره بإخراجهم من دور العامة، ثم ما لبث أن استقر رأيه على الرحيل عن بغداد للتخفيف عن أهلها، وغادرها فى أواخر سنة ٤٤٨ هـ. بعد أن ظل بها ثلاثة عشر شهراً لم يحظ فيها بمقابلة الخليفة(٤) .

أخذ البساسيرى فى توطيد علاقاته مع رجال الحكومة الفاطمية فى مصر بعد رحيله إلى الرحبة؛ فأرسل إلى المستنصر بالله الفاطمى يعلن له دخوله فى طاعته، كما تبودلت المكاتبات بينه وبين الداعى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى الذى كان إذ ذاك بالقاهرة يرقب نشاطه فى بلاد العراق؛ ومن بين الكتب التى أرسلها هذا الداعى إلى البساسيرى، كتاب وصله قبيل قدومه إلى الرحبة، وأخبره فيه أنه سيكون عوناً له ولجنوده البغداديين. فبعث إليه البساسيرى كتاباً تضمن شكره والتماسه النجدة. وقد جاء فيه: «فإن أخذتم بأيدينا، أخذنا لكم البلاد، وإن قلدتمونا نجاد نصركم وإنجادكم، فتحنا من جهتكم الأغوار والأنجاد(٥) ».

(١) Gaston Wiet, Histoire de La Nation Egyptienne Vol. IVP. 232.
(٢) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢١٨ .
(٣) ابن خلدون: العبر، جـ ٣، ص ٤٦٠ .
(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢١٨ .
(٥) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة، ص ٩٦ .

أيد المستنصر بالله الفاطمى أبا الحارث البساسيرى فى خروجه على الخليفة العباسى القائم بأمر الله، كما عمل على إمداده بالمال والخيل والسلاح. وقد انتهز الوزير أبو محمد الحسن اليازورى [١] هذه الفرصة لإقصاء الداعى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى عن مصر لاستئثاره بنفوذ كبير عند الخليفة المستنصر؛ فرأى أن يعهد إليه بحمل الأموال والأسلحة إلى البساسيرى؛ غير أن المؤيد أدرك حيلة اليازورى، فأبى فى بادئ الأمر القيام بهذه المهمة؛ فحاول اليازورى أن يثنيه عن رأيه بأن أفضى إليه بموافقة الخليفة على انتدابه سفيراً من قبله إلى البساسيرى. ولم يزل يلح عليه حتى عدل المؤيد عن رفضه اصطحاب ركب الإمدادات، واشترط على الخليفة فى كتاب أرسله إليه أن يتولى هذا الأمر دون أن يوجه إليه لوم إذا فشل فى أدائه؛ فقال فى كتابه[٢] : «.. وأن على أن أجتهد وأسعى وأكدح، فما أصبت فيه فبما رحمة من الله وإقبال الدولة أدامها الله تعالى، وما أخطأت فيه فلا يتوجهن على عتب ولائمة، ولا تعرضن لى فيما أحل وأعقد يد معترضة».

سار المؤيد لنجدة البساسيرى مع فئة قليلة من الرجال، تحمل الأموال والسلاح والخلع. وقد هاله أن يكون مقدمًا على أمر خطير وهو القضاء على الخلافة العباسية دون أن تخرج معه حامية كبيرة، بل اقتصرت المعونة التى سيقدمها للبساسيرى على الأموال والخلع، وتشمل خمسمائة ألف قوس، وعددا كبيرا من السيوف، وكثيرا من الرماح والنشاب[٣]؛ ومما هو جدير بالذكر أن وزير المستنصر لم يتردد فى أن يضحى بهذه الإمدادات رغم ما كانت تعانيه مصر من أزمة اقتصادية وغلاء حتى إنها لم ترسل ما اعتادت أن ترسله من القمح إلى مكة[٤] .

(١) هو أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى، نشأ فى بلدة يازور (وهى قرية من أعمال الرملة) من إحدى الأسر التى كانت تشتغل بالملاحة، وشغل عدة مناصب، فولى قضاء الرملة بعد أبيه، كما عهد إليه النظر فى ديوان أم المستنصر، ثم أسندت إليه الوزارة فى السابع من المحرم سنة ٤٤٢ هـ، وسمح له بالبقاء فى وظيفة رئيس خاصة أم الخليفة ولقب بالناصر للدين، غياث المسلمين الوزير الأجل المكرم، سيد الرؤساء تاج الأصفياء، قاضى القضاة، وداعى الدعاة. وبقى فى منصبه حتى قبض عليه المستنصر فى أول محرم سنة ٤٥٠ هـ بتهمة مراسلة طغرلبك السلجوقى ودعوته لغزو مصر.

(راجع ما ورد عن اليازورى فى ابن الأثير، جـ٩ ص ٢٢١ - ٢٢٢، ابن ميسر. تاريخ مصر ص ٥ - ٨ .

(٢) سيرة المؤيد، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٢ .

(٤) G Wiet, Histoire de la Nation Egyptinne P. 233.

وقد وصف المؤيد خروجه من القاهرة بقوله[١] :«وسرت فى جلبة عظيمة، قد التف فيها من الوحش والركابية المقودين وسفساف الناس من البغالين والحمالين عسكر لو لم يمسسنى غير عذابهم عذابًا لكان فيه ما يغنى ويكفى. وكان الناس يتعجبون من أمرى. وقد كان موضع العجب، لعمرى كيف أجرد لمثل هذا الوجه الخطير العظيم رقبتى من دون أن يتبعنى من شىء يسمى العسكر اثنان، ويعول بى على عسكر غريب معلوم الشأن، يستعيذ بالله من شرهم الثقلان، عادتهم بالاستخفاف بملوكهم معروفة».

تجلى إخلاص المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى للخلافة الفاطمية فيما قام به من جهود لمؤازرة حركة البساسيرى فى بلاد العراق. وكان الوزير اليازورى قد طلب منه أن يجند ثلاثة آلاف رجل من العرب الكلبيين بالشام، يسير بهم إلى الرحبة؛ وحذره من الاتصال بثمال بن صالح بن مرداس صاحب حلب؛ غير أن المؤيد أصر على تنفيذ خطته، فسار بما صحبه من الأموال والسلاح والخيول، وتواعد مع ابن صالح على أن يلقاه فى موضع يلى حمص، يقال له الروستان (على جسر نهر العاصى) وهناك التقى المؤيد بابن صالح ومع كل منهما حامية من الجند. ولما نزلا معرة النعمان لحق بهما فريق من جند البساسيرى. وقد استطاع المؤيد بدهائه وحسن سياسته أن يكسب ثقة ثمال بن صالح بن مرداس وأن يستميله إليه ويجعله يبدى استعداده لمعاونة الفاطميين، فمنحه عند نزوله بباب حلب ما يخصه من الخلع، ثم دعاه إلى تجديد البيعة للخليفة الفاطمى، فأجاب إلى ذلك[٢].

ويقول المؤيد: «لما دخلت حلب جددت عليه من أيمان البيعة فى خدمة الدولة ما كانت تميد الجبال لثقله، وتتشقق السموات والأرض من حمله».

أخذ المؤيد بعد وصوله إلى حلب يتأهب للمسير إلى الرحبة حيث يقيم البساسيرى وجنده؛ وبينما هو فى طريقه إليها، ورد إليه كتاب نصر الدولة أحمد ابن مروان صاحب ميافارقين وديار بكر، يخبره فيه بأنه كان قد انحاز إلى جانب السلاجقة؛ فشاهد من شرهم وغدرهم وظلمهم وجورهم وإطلاقهم الأيدى فى الأموال ما جعله يتخلى عنهم ، وأظهر رغبته فى معاونة المؤيد الذى كتب إليه يرحب به ويطلب منه إقامة الخطبة على منابر بلاده للمستنصر بالله الفاطمى[٣] .

(١) سيرة المؤيد. ص ١٠٠ .
(٢) سيرة المؤيد، ص ١٠٠ - ١٠٢، ١٠٧ - ١٠٨ .
(٣) سيرة المؤيد، ص ١٠٨، ١١٣ - ١١٥ .

ولما كان المؤيد حريصًا على توحيد كلمة جند البساسيرى وبث الطمأنينة فى نفوسهم، لذلك طلب من جند الأتراك البغداديين الذين قابلوه وهو فى طريقه إلى حلب العودة إلى الرحبة ليخبروا إخوانهم من جند البساسيرى بقرب قدومه إليهم لنجدتهم؛ وأنفذ معهم رسالة إلى القواد والحجاب يستميلهم إليه ويدعوهم إلى نصرته، ويبين لهم اهتمام الخليفة الفاطمى بأمرهم، فقال: «وغير خاف عنهم ما كان من إنعام مولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين بالإحفاء بهم والتلفت بوجه المراعاة إليهم، رغبة فيما يردهم إلى أهلهم وديارهم..»، كما حذرهم من طغرلبك السلجوقى بقوله: «إذا كانت الطاغية التركمانية من حيث أخذت عصا التسيار وإلى حيث انتهت من الديار، لم تنازل ملكا مولا، ولا سلطانًا معمما بعز الاتساع فى العساكر والجيوش فحولا، ولم تنزل من غير منازل الغدر والخديعة منزلا[1]..».

واصل المؤيد مسيره إلى الرحبة وبصحبته ثمال بن صالح بن مرداس على رأس جنده من بنى كلاب. ولم يكد يعلم أبو الحارث أرسلان البساسيرى بأن ركب المؤيد فى طريقه إليه حتى أسرع فى الخروج إلى لقائه ومعه جنده البغداديون. وقد رحب البساسيرى وجنده بوصول المؤيد إلى الرحبة فأعانهم بالمال والسلاح، وازدادت محبتهم للمؤيد حين أخذ يوزع عليهم ويمنحهم الأموال، وما لبثوا أن عبروا عن ولائهم للخليفة الفاطمى، فحلفوا له بأيمان البيعة، «وكان منهم من يحلف ويأخذ الذى يأخذه بالشكر ويضعه على الرأس والعين على ما جرت به عادة أخيار الناس، ومنهم من يستقل القدر الذى يعطاه ويرده، ظانا أن الذى يصير إليه من بعد استحلافه فهو كالجزاء عن يمينه التى أقسم بها وهو محقوق بأضعاف ما عرض عليه معها[2] ».

ولما فرغ المؤيد من توزيع الخلع والأموال على أتباع البساسيرى من الأعراب والأكراد والأتراك، خلع على البساسيرى نفسه فى احتفال كبير أقيم لهذا الغرض، وقرأ العهد الذى أنفذه إليه المستنصر فى شهر صفر سنة ٤٤٨هـ. وقد جاء فيه[3] :

(١) سيرة المؤيد، ص ١١٦- ١١٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٢٢ - ١٢٤ .

«من عبد الله ووليه معد أبى تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى صاحب الجيش: سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، ويسأل أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين.. ولما وجدك أمير المؤمنين من السابقين إلى النداء بشعاره فى ديار العراق، والمبرزين بفضيلة السبق على أوليائه فى قضاء الآفاق، المشمرين عن ساعد الجد بما يجعل عرصاتها بفيض عدله مشرقة بأنجم السعود، ويعيد أعواد منابرها بذكر آل الرسول ﷺ، ناضرة العود، رأى أمير المؤمنين - وبالله توفيقه- أن يطوقك طوق ولاية رجالها، ويقيم على رأسك لمزية التقدمة راية جمالها، وينوط بك أمورها كلها، ويكلل إليك عقدها وحلها».

استقر رأي المؤيد بعد وصوله إلى الرحبة على استمالة أمراء العرب لضمان نجاح حركة البساسيرى ، فأرسل إلى نور الدولة دبيس بن مزيد صاحب الحلة أن يلحق به فى الرحبة، واستطاع بعد قدومه إليه أن يقنعه بمعاونة البساسيرى، كما أن الخليفة الفاطمى رغبة منه في اكتساب ولاء ابن مزيد وتشجيعه على مؤازرة البساسيرى، منحه عهداً لقبه فيه «بالأمير سلطان ملوك العرب، سيف الخلافة، صفى أمير المؤمنين»، كما قلده زعامة عرب العراق، ومنحه ولاية ما يفتح من البلاد شرقى نهر الفرات.

سار البساسيرى على رأس جيشه ومعه دبيس بن مزيد،كما قدمت إليه نجدة من دمشق، قوامها الكلبيون الذين رفضوا فى بادئ الأمر المسير مع الجيش إلا إذا انفصل العرب عن غيرهم من جند الأكراد والأتراك، لكن المؤيد ما لبث أن حملهم على العدول عن رأيهم بالأموال التى أغدقها عليهم[1] .

كان من أثر الإمدادات التى وصلت إلى البساسيرى أن انتصر هو وأعوانه على جيوش قريش بن بدران صاحب الموصل وقتلمش ابن عم السلطان طغرلبك فى موقعة سنجار[2] سنة ٤٤٨هـ. وقد لقى قتلمش من أهل سنجار العنت، كما بالغوا فى إلحاق الأذى به. أما قريش بن بدر فقد لجأ إلى نور الدولة دبيس بن مزيد، فأعطاه خلعة كانت قد ارسلت إليه من مصر، ثم انحاز إلى جانب

(١) سيرة المؤيد، ص ١٢٧ - ١٣٠.

(٢) تقع بنواحي الجزيرة على مقربة من الموصل.

البساسيرى وسار بصحبته إلى الموصل حيث أقاما الخطبة للمستنصر بالله الفاطمى(١) .

أيقن المؤيد أن نجاح حركة البساسيرى ودخوله بغداد، يتوقف على تحقيق أحد أمرين: إما القضاء على قوة السلاجقة بها أو تشتيت شمل جيوشهم فى معارك متفرقة، ومن ثم عمد إلى مراسلة بعض الأمراء الذين كانوا على اتصال بالسلاجقة، وحاول أن يستميلهم إلى جانبه؛ كما أرسل كتابًا إلى عميد الملك الكندرى- وزير طغرلبك- قلل فيه من شأن الخليفة العباسى فقال: «وكثر العجب من السيد (عميد الملك الكندرى) على ما قرأه من السِّير وعرفه من أنباء الأمر أن يكون العباسى (القائم بأمر الله) عنده خليفة الله.. ولم تعتقد فرقة من فرق الإسلام أن العباس (ابن عبد المطلب) خليفة أصلاً، وسوى هذا فإنه على عدم الخلافة عادم لصدق القول وصدق اليمين وحسن الوفاء». كما أشار فى كتابه إلى أن ابن المسلمة وزير الخليفة القائم بأمر الله هو الذى أغرى السلاجقة بدخول بغداد، وأن هذا العمل الذى قاموا به لا يعد نصراً كبيراً لهم. ونوه فى خطابه بعلو شأن الخليفة الفاطمى وبسيادته على الأراضى المقدسة ببلاد الحجاز وبما لديه من الأموال والأسلحة والعساكر(٢) .

كان المؤيد يرمى من وراء هذه الرسائل التى أنفذها إلى بعض أمراء العرب دعوتهم إلى تأييد الفاطميين، كما أن رسالته إلى وزير طغرلبك كان الغرض منها صرف السلاجقة عن تأييد العباسيين؛ غير أن هذه المكاتبات جميعها لم تؤد إلى تحقيق الغاية التى أرسلت من أجلها، ذلك أن عميد الملك الكندرى كان فى الوقت الذى وصلته فيه رسالة المؤيد يعمل على تفريق شمل أمراء العرب ويغريهم باسناد بعض الولايات إليهم، فيعد أحدهم بالموصل، على حين يمنى غيره بولاية البصرة وواسط(٣) وقد أدت هذه السياسة التى اتبعها عميد الملك إلى اختلاف كلمة هؤلاء الأمراء وعدولهم عن معاونة البساسيرى، بل إن بعضهم كنور الدولة دبيس بن مزيد وقريش بن بدران بعث إلى طغرلبك يستعطفه؛ فعفا عنهم، واضطر البساسيرى إلى العودة إلى الرحبة وتبعه الأتراك البغداديون وجماعة من بنى عقيل(٤) .

(١) ابن الأثير، جـ٩، ص ٢١٧ - ٢١٨ .
(٢) سيرة المؤيد، ص ١٥٤ - ١٥٦ .
(٣) سيرة المؤيد: ص ١٥٦ - ١٥٧ .
(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢١٩ .

ظل المؤيد حريصًا على التودد لأمراء العرب بالعراق رغم ما لاحظه من ترددهم فى نصرة البساسيرى؛ فأرسل كتبه إلى كل من نور الدولة دبيس بن مزيد وقريش بن بدران رغبة فى الإبقاء على مودتهم. ثم أزمع الرحيل إلى الرحبة، ومنها سار إلى حلب حيث التقى بأميرها ثمال بن صالح بن مرداس، ولحق به البساسيرى، فنزل بموضع يسمى بالس على مقربة من حلب وبصحبته قريش بن بدران ونخبة من وجوه بنى عقيل.

أخذ نفوذ السلاجقة فى بلاد العراق فى الازدياد منذ عودة طغرلبك إلى بغداد سنة ٤٤٩ هـ إذ قابل الخليفة القائم بأمر الله الذى أفاض الخلع عليه وخاطبه بملك المشرق والمغرب، وطلب وزيره أن يبلغه هذا القول: «إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك، حامد لفعلك، مستأنس لقربك، وقد ولاك جميع ماولاه الله من بلاده، ورد عليك مراعاة عباده، فاتق الله فيما ولاك، واعرف نعمته عليك فى ذلك، واجتهد فى نشر العدل وكف الظلم وإصلاح الرعية[١] ».

على أن طغرلبك رغم ذلك لم ينعم بالاستقرار فى دولته فخرج عليه أخوه لأبيه إبراهيم ينال الذى كان قد استولى على بلاد الجبل[٢] وهمذان وامتد سلطانه على ما حولها من البلاد إلى حلوان سنة ٤٣٧ هـ، ثم طلب منه طغرلبك أن يسلمه همذان، فرفض فى بادئ الأمر؛ غير أنه ما لبث أن اضطر إلى النزول عنها بعد أن هزم فى القتال الذى دار بينه وبين أخيه[٣]. وظل الخلاف منذ ذلك الوقت قائمًا بين طغرلبك وإبراهيم ينال الذى بعث رسولا من الموصل إلى حيث يقيم البساسيرى وقريش بن بدران، وكان ظاهر رسالته الترغيب فى الدخول فى طاعته ليقلدهما ولاية البلاد، أما باطنها فتضمن مخاطبة المؤيد ليرسل إليه الخلع والأموال والألقاب والألوية التى يلتمسها من الخليفة الفاطمى، حتى إذا ما تغلب على طغرلبك وخلفه فى الملك جعل الخطبة للفاطميين، بالخلافة والإمامة مقدمة على خطبته. ولما توقف المؤيد على ما تضمنته رسالة إبراهيم ينال ، تعهد بأن يجيب طلبه فيما يتعلق بالمال والخلع والألقاب[٤] .

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .
(٢) اسم لبعض بلاد ما وراء طبرستان.
(٣) ابن خلدون. العبر، جـ٣ ص ٤٦٢ - ٤٦٣ .
(٤) سيرة المؤيد، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

لما وثق المؤيد من أن جهوده فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية ببلاد العراق قد كللت بالنجاح، استقر رأيه أثناء إقامته بحلب على العودة إلى مصر، ويترك البساسيرى وجنده البغداديين وغيرهم من أعوانهم يواجهون السلاجقة والعباسيين؛ غير أنه لم يفصح عن خطته فى العدول من متابعة البساسيرى إلا حين وصله خبر خروج إبراهيم ينال من الموصل وتركه بها حامية صغيرة من جند السلاجقة، فانتهز هذه الفرصة وقال للبساسيرى: «قد آن لك أن ترجع إلى الرحبة وتتدبرها وتستعين على وقتك بارتفاعها، ونحن بعد ذلك نسوق إليك كل سنة مالا كثيراً يكون إضافة إلى ما تستجلبه الرحبة، فتتسع يدك ولا تتناقص حالك» ثم وجه حديثه إلى قريش ابن بدران بقوله: «وأنت ياقريش قد حان لك أن ترجع إلى بلدك الموصل.. والشرذمة التى بها فلا قبل لهم بالثبات فى وجهك، لا سيما إذا شد منك البساسيرى». وقد استطاع المؤيد بما عرف عنه من سعة الحيلة أن يقنعهما بوجهة نظره، ثم مضى فى طريقه إلى مصر[1]، ورحل البساسيرى وقريش بن بدران من حلب لمواصلة جهودهما فى نشر نفوذ الفاطميين بمدن العراق.

كانت ثورة إبراهيم ينال على أخيه طغرلبك مما مهد السبيل أمام البساسيرى لتحقيق أغراضه، ذلك أن إبراهيم ينال لما غادر الموصل إلى بلاد الجبل سنة ٤٥٠هـ، عزا السلطان طغرلبك رحيله إلى خروجه على طاعته وبعث إليه رسولا يستدعيه ومعه الخلعة التى خلعها عليه الخليفة العباسى؛ فعاد إبراهيم إلى السلطان - وهو إذ ذاك ببغداد- ولما أيقن البساسيرى وقريش بن بدران أن القوة التى تركها إبراهيم بالموصل من الضعف بحيث يسهل عليهما التغلب عليها، زحفا على هذه المدينة وتمكنا من الاستيلاء عليها[2].

كان للصعاب التى واجهت السلطان طغرلبك من ناحية البساسيرى أسوأ الأثر على نفسه، ففضلا عن الهزيمة التى لحقت جيوشه بسنجار انتزعت منه الموصل. لذلك نراه يتأهب لدرء الأخطار عن البلاد التى تحت سلطانه، فأنفذ كتبه إلى خراسان وبلاد ما وراء النهر «يستنفر الناس خفافا وثقالا، حتى حشد من الحشود الجم الغفير والعدد الكثير. وجعل قصده الشام، ومصر همه، عالما بأن تلك الجموع التى اجتمعت على قمعه ودفعه بعيداً تجتمع[3]..». وسرعان ما تحقق ظن

(١) سيرة المؤيد، ص١٧٦ - ١٧٨.

(٢) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢٢٢ - ٢٢٣، ابن خلدون. العبر، جـ٣، ص٤٦٣.

(٣) سيرة المؤيد. ص ١٧٩.

طغرلبك فيما يتعلق بالموصل، فقد انسحب منها كل من البساسيرى وقريش ابن بدران، فلما سار إليها لم يجد بها أحدًا، ثم اتجه إلى نصيبين ليتبع آثارهم، ويخرجهم من البلاد التى يستولون عليها. وبينما هو فى طريقه فارقه أخوه إبراهيم ينال الذى سار نحو همذان فوصلها فى أواخر شهر رمضان سنة ٤٥٠هـ.

وقد أشار ابن الأثير[(١)] إلى العوامل التى دفعت إبراهيم ينال إلى الخروج على أخيه طغرلبك بقوله: «وكان قد قيل إن المصريين كاتبوه والبساسيرى قد استماله وأطمعه فى السلطنة والبلاد». ومن الثابت أن إبراهيم ينال كان على اتصال بداعى الفاطميين المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى. ونستدل على ذلك من قول المؤيد نفسه: « وكشف القناع عما استقر بينى وبين إبراهيم ينال، كما أتانى رسوله الصوفى وأنا بحلب[(٢)] ».

أدرك طغرلبك الخطر الذى يهدد سلطانه من جراء خروج أخيه إبراهيم ينال عليه ومن ثم عول على السير فى أثره حتى يتسنى له إخضاعه، ولحق به من كان ببغداد من الأتراك[(٣)] . وقد وصف المؤيد[(٤)] خروج طغرلبك لمحاربة أخيه بقوله: «فاختبط طغرلبك عسكره، فتفرقوا، وهام طغرلبك على وجهه مقتفيًا لأثره حتى غاب حسه ولم يدر أى طريق سلك، وفى أى واد هلك».

ولم يكن جيش طغرلبك من القوة بحيث يمكنه إحراز النصر على أخيه، بينما اجتمع إلى إبراهيم ينال كثير من الأتراك الذين كانوا ينقمون على طغرلبك وحلف لهم أن لا يصالح أخاه ولا يدخل بهم العراق لكثرة نفقاته، كما أتى إليه بعض أبناء أخيه أرتاش مع كثير من جندهم، فاشتد بهم ساعده وقوى أمره. واضطر طغرلبك إلى التوجه إلى الرى حيث استنجد بابن أخيه ألب أرسلان وطلب منه المعونة. فأقبل إليه ألب أرسلان من سجستان إلى حدود العراق، وفى ١٩ من جمادى الآخرة سنة ٤٥١ هـ هزم إبرهيم ينال بالقرب من الرى وأخذ أسيرًا إلى طغرلبك الذى قتله فى نفس السنة تخلصًا منه[(٥)] .

(١) الكامل فى التاريخ: جـ٩ ص ٢٢٣ .
(٢) سيرة المؤيد: ص ١٧٩ .
(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢٢٣ .
(٤) سيرة المؤيد: ص ١٨٠ .
(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢٢٥، ابن خلدون: العبر، جـ٣ ص ٤٦٣

انتهز البساسيرى فرصة انشغال طغرلبك بإخماد حركة أخيه إبراهيم ينال وزحف إلى بغداد على رأس أربعمائة فارس حاملا الرايات المستنصرية التى كتب عليها[١] : «الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أبو المؤمنين»، كما سار معه قريش بن بدران فى مائتى فارس من بنى عقيل، وتمكن من الاستيلاء عليها فى ٨ ذى القعدة سنة ٤٥٠هـ دون مقاومة تذكر. فمال إليه أهل الكرخ لكونهم من الشيعة ورحبوا بقدومه. وفى يوم الجمعة الثالث عشر من ذى القعدة أقام البساسيرى الخطبة بجامع المنصور للمستنصر بالله الفاطمى، كما أمر بأن يؤذن بحى على خير العمل، ثم خطب للخليفة الفاطمى على جميع منابر بغداد، وضرب السكة باسمه، وبعث إليه يبشره بفتح بغداد وإقامة الدعوة له. وقد وصف المؤيد دخول البساسيرى هذه المدينة بقوله[٢] : « ولما رأي البساسيرى أن الله سبحانه قد قطع (بطغرلبك) الأسباب.. علم أن بغداد فريسة لمن طلب وقبضة لمن رغب، فزحف بالرايات المستنصرية، وصادف فيها أرضًا تعج إلى الله تعالى من ظلم التركمانية وقلوبًا ملئت غيظًا من العباسى وابن المسلمة الذى كان سبب استدعائهم وتسلطهم على حرم الناس وأموالهم ودمائهم. فكان قدوم البساسيرى عليهم كنزول الرحمة من سمائهم، فشدوا حيازيمهم معه لإقامة الدعوة المستنصرية على بغداد».

ضعفت سلطة الخليفة القائم بأمر الله العباسى بدخول البساسيرى بغداد، وانصرف عن تأييده كثير من الناس مما اضطره إلى طلب الأمان من قريش بن بدران، فأمنه، كما أعطى أمانًا لرئيس الرؤساء ؛ فاستاء من ذلك البساسيرى وأرسل إلى قريش بن بدران يقول: أتخالف ما استقر بيننا؟ - وكانا قد تحالفا ألا ينفرد أحدهما عن الآخر بشيء، ويكون العراق بينهما نصفين -؛ فقال قريش: ما عدلت عما استقر بيننا، عدوك ابن المسلمة (يعنى رئيس الرؤساء) فخذه. وأنا آخذ الخليفة، فرضى البساسيرى بذلك[٣] .

عول البساسيرى بعد أن استقر له الأمر فى بغداد على التخلص من رئيس الرؤساء أبى القاسم بن المسلمة، فلما قدم إليه قال له: مرحبًا بمدمر الدولة ومهلك

(١) أبو الفدا. المختصر فى أخبار البشر. جـ، ص ١٧٧ .
(٢) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ. جـ٩ ص ٢٢٣، ٢٢٥، أبو المحاسن النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ٦ ، ١١ .
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ٩ .

الأمم، ومخرب البلاد، ومبيد العباد. فقال له ابن المسلمة: العفو عند المقدرة، فقال: قد قدرت فما عفوت، وأنت تاجر صاحب طيلسان. ولم تبق على الحريم والأموال والأطفال، فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف. وقد أخذت أموالى وعاقبت أصحابى ودرست دورى وسبيتنى وأبعدتنى». كذلك أظهر العامة نقمتهم على ابن المسلمة حين قدم لمقابلة البساسيرى وهموا بالاعتداء عليه. غير أن البساسيرى حال بينه وبينهم. ثم أمر بقتله[(١)] .

أما فيما يتعلق بالخليفة القائم بأمر الله العباسى فإن البساسيرى كان قد عزم على أخذه من قريش بن بدران وإرساله إلى مصر، وحدث خلاف بينهما حول ذلك[(٢)] ؛ فرأى قريش أن يبعث به مع ابن عمه الأمير محيى الدين مهارش بن المجلى العقيلى إلى حديثة[(٣)] عانة؛ فأنزله بها مع أهله وحريمه وحاشيته[(٤)] . وكان البساسيرى قد أرغمه قبل مغادرته بغداد على كتابة عهد. اعترف فيه بأنه لا حق لبنى العباس ولا له فى الخلافة مع وجود بنى فاطمة الزهراء عليها السلام، ثم بعث بهذا العهد إلى القاهرة حيث ظل محفوظًا بقصر الخلافة حتى استولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على محتوياته سنة ٥٦٧هـ، فأنفذه إلى الخليفة العباسى المستضيىء بالله فى بغداد مع بعض التحف والهدايا على أثر وفاة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بمصر[(٥)] .

كذلك أرسل البساسيرى إلى المستنصر بالله ثوب الخليفة القائم العباسى وعمامته وشباكه[(٦)] الذى كان يجلس فيه، وغير ذلك من الأموال والتحف. وقد أثار وصولها وقيام الدعوة الفاطمية بمساجد بغداد حماسًا عظيمًا بين أهالى مدينة القاهرة الذين أقاموا الزينات ابتهاجا بهذا النصر[(٧)] ، كما سر الخليفة المستنصر

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٢٠، أبو المحاسن. النجوم الزاهرة، جـ٥ ص ٩ - ١١.

(٢) انظر : ابن الجوزى: المنتظم، جـ٨ ص ١٩٠ - ١٩٥ .

(٣) تقع بالقرب من الأنبار.

(٤) ابن خلدون: العبر وجـ٤، ٢٦٦ .

(٥) المقريزى: خطط، جـ١ ص ٤٣٩ .

(٦) كان هذا الشباك كشرفة يجلس فيها الخليفة ويعتمد بيديه على حافته، وقد بقى محفوظًا عند الخليفة الفاطمى حتى نقل إلى دار الوزارة التى عمرها الأفضل بن بدر الجمالى؛ فصار يجلس فيه الوزير ويتكئ عليه، وما زال بها إلى أن عمر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكر الخانقاه الركنية، فأخذ من أنقاض دار الوزارة شباك الخليفة العباسى وجعله فى لقبه.

(راجع ما ورد فى المقريزى . خطط، جـ١ ، ص ٤٣٩).

(٧) المقريزى: خطط، جـ٢ ص ١٢٥ .

وأنفق كثيرًا من الأموال لإعداد القصر الذى بناه العزيز ويعرف باسم القصر الغربى الصغير ليكون مقرًا لإقـامة الخليفة القائم بأمر الله[١] إذا ما تحـقق أمله فى القبض عليه. وكان من بين مظاهر الاحتفال باستيـلاء البساسيرى على بغداد وإقامة الخطبة باسم المستنصر على منابرها أن وقفت إحدى المغنيات تحت قصر الخليفة تنشد هذين البيتين:

يا بـنى العــبـــاس صُـــدُّوا ملـك الأمـــر مـــعـــدُّ
ملـككـم كـــان مـــعـــارا والعـــوارى تـســتــردُّ

فأعجب المـستنصر بغنائها وأقطعـها أرضًا لا تزال تعرف إلى اليـوم فى مدينة القاهرة باسم أرض الطبالة[٢] .

على الرغم من المجهودات التى بذلها البساسيرى فى سبيل نشر نفوذ الخلافة الفاطميـة ببغداد، فإنه لم يتلق من الخليفـة المستنصر بالله ما يشجـعه على مواصلة القيام ببسط سلطانه على بلاد العراق؛ ورجع السبب فى ذلك إلى حقد الوزير أبى الفرج محمد بن جـعفر المغربى[٣] عليـه. وكان هذا الرجـل قد رحل إلى بغـداد وانضم إلى البساسيرى، وما لبث بعد ذلك أن انقلب معاديًا له وفر إلى مصر حيث أخذ يحذر الخليـفة من عاقبـة أطماعه[٤] ، فتـخوف منه المسـتنصر وصـار لا يُعنى بإجـابة طلباته؛ غـير أن البـساسـيرى رغم ذلك حـرص على إخلاصـه للخليـفة الفاطمى؛ فأخـذ يتابع إغارته فى بلاد العراق حتى استـولى على واسط والبصرة، ثم أمر بإقـامة الخطبة للمسـتنصر بالله[٥] . وقـد علق أبو المحـاسن[٦] على مـوقف

(١) المقريزى: خطط، جـ١ ص ٤٥٧ .
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٢ .
(٣) نشأ أبو الفرج مـحمد بن جعفـر بن محمد على المغربـى فى مصر فى عهد الحـاكم بأمر الله، ثم سار إلى العراق بعد أن نكل هذا الخليفة ببعض أفراد أسرته. وما زالت تنتقل به الأحوال حتى عاد إلى مصر فى عهد المستنصر واصطنعه وزيره أبو محمد الحسن اليازورى. فولاه ديوان الجيش. وأصبح منذ ذلك الوقت موضع رعاية أم المسـتنصر. ولما آلت الوزارة إلى أبى الفرج عـبد الله بن محمـد البابلى بعد وفاة اليـازورى، قبض عليه، فـلم يزل معتـقلا حـتى أسند إليه منصب الوزارة فى الخـامس والعشـرين من شهر ربيـع الآخر سنة ٤٥٠هـ. ولقب بالوزير الأجل الكامل الأوحد صـفى أمير المؤمنين وخالصته؛ وظـل يتقلد هذا المنصب حتى عزل فى اليوم التاسع من شهر رمضان سنة ٤٥٢ هـ، ثم ولى ديوان الإنشاء؛ وتوفى سنة ٤٧٨ هـ.
(المقريزى : خطط، جـ٢ ص ١٥٨).
(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١١ .
(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢٢٥٥ .
(٦) النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١١ .

المستنصر من البساسيرى بعد دخوله بغداد بقوله: «ولولا تخوف المستنصر من البساسيرى وترك تحريضه على ما هو بصدده، لكانت دعوته تتم بالعراق زمنًا طويلا».

لما تم لطغرلبك القضاء على حركة أخيه إبراهيم ينال عول على المسير إلي العراق لإعادة الخليفة القائم بأمر الله إلى مقر خلافته؛ فأرسل إلى البساسيرى وقريش بن بدران يطلب منهما إعادة الخليفة العباسى إلى بغداد ويقول إنه سيقنع بذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة، ولا يدخل العراق[١] . كذلك أنفذ طغرلبك وهو فى طريقه إلي العراق الإمام أبا بكر أحمد بن محمد بن أيوب المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران يشكره على حسن معاملته للخليفة ومحافظته على حياته، ويخبره بأنه عهد إلى ابن فورك بمصاحبة القائم بأمر الله فى عودته إلى بغداد[٢] .

لم يجب البساسيرى طغرلبك إلى طلبه، كما أن قريش بن بدران سعى لدى الأمير محيى الدين مهارش صاحب الحديثة ليحول دون عودة الخليفة العباسى إلى بغداد. وكان يرى أن تحقيق هذه الغاية قد يؤدى إلى عدول السلاجقة عن السير إلى العراق. ويتبين لنا ذلك من رسالته إلى الأمير مهارش التى جاء فيها[٣] : « قد علمت أننا أودعنا الخليفة عندك ثقة بأمانتك، وقد طلبوه الآن، وربما قصدوك وحصروك وأخذوه منك، فخذه وارحل به وأهلك إلى البرية. فإنهم إذا علموا أن الخليفة عندنا فى البرية لم يقصدوا العراق ونحكم عليهم بما نريد». لكن الأمير مهارش رأى ألا يذعن لرغبة قريش بن بدران؛ فبعث إليه يقول: «كان بينى وبين البساسيرى عهود ومواثيق نقضتها، وأن الخليفة استحلفنى بعهود ومواثيق لا مخلص منها، ثم أزمع المسير إلى بغداد بصحبة الخليفة فى ١١ذى القعدة سنة ٤٥١هـ»[٤].

كان طغرلبك إذ ذاك فى طريقه إلى بغداد ، فلما اقترب منها أدرك البساسيرى أنه لا قبل له بمقاومته لأنه لم يتلق من مصر مساعدات أخرى تمكنه من

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، جـ٢، ص ١٧٨ .
(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٩، ص ٢٢٦.
ابن الجوزى: المنتظم. جـ٨ ص ٢١٥ - ٢١٧ .
(٣) ابن الجوزى: المنتظم. جـ٨. ص ٢٠٥ - ٣٠٧ .
ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .
(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٢٢٧ .

الوقوف في وجه السلاجقة، ومن ثم خرج من بغداد مع جنده وسار قاصداً الكوفة في اليوم السادس من ذى القعدة سنة ٤٥١ هـ[١] .

رأى طغرلبك أن يبالغ في الاحتفال بعودة القائم بأمر الله إلى بغداد ليظهر له مدى إخلاصه له؛ فأرسل إليه وهو في طريقه إلى هذه المدينة وزيره عميد الملك الكندرى والأمراء والحجاب ليقوموا على خدمته. ولم يكتف بذلك، بل خرج لاستقباله عند وصوله إلى النهروان وقبل الأرض بين يديه، وأبدى له اغتباطه بعودته، كما اعتذر له عن تأخره في نجدته بانشغاله في إخماد فتنة أخيه إبراهيم ينال، وقال له إنه عزم على المضى خلف البساسيرى، والمسير إلى الشام، والوقوف من الخليفة الفاطمى بمصر موقفًا حازمًا يتلاءم مع أفعاله[٢] .

خلت مدينة بغداد من أعيانها في الوقت الذى عاد فيه الخليفة القائم بأمر الله إلى مقر خلافته حتى لم يكن في استقباله منهم غير القاضى أبى عبد الله الدامغانى وثلاثة من الشهود، وأظهر طغرلبك حرصه على الاحتفاء بقدومه - وكان قد سبقه في المسير إلى هذه المدينة-؛ ولم يكد يستقر الأمر للخليفة العباسى في بغداد حتى عهد السلطان إلى القائد خمارتكين الطغرائى بالمسير على رأس ألفى فارس إلى الكوفة حيث يقيم البساسيرى، كما ضم إليه طائفة من الجند بقيادة ابن منيع الخفاجى وسار بنفسه في أثرهم . ولم تزل قواته تتعقب البساسيرى حتى أوقعت به الهزيمة عند الكوفة، وقضت عليه في ذى الحجة سنة ٤٥١هـ[٣] . وبذلك تيسر لطغرلبك القضاء على حركة البساسيرى وإعادة الخطبة في بغداد للخليفة القائم بأمر الله العباسى.

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٢، ص ١٧٨ - ١٧٩ .
(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ، جـ٩، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٩، ص ٢٢٨، ابن خلدون؛ العبر، جـ٣، ص ٤٦٥ .

٣- زوال النفوذ الفاطمى ببلاد العراق
بعد دخول السلاجقة بغداد

ازداد نفوذ السلاجقة فى بلاد العراق منذ منتصف القرن الخامس الهجرى، فاستأثر طغرلبك بالسلطة دون القائم بأمر الله بعد أن أنقذه من تحكم البساسيرى وأعاده إلى مقر خلافته، وسار على هذه السياسة من جاء بعد من سلاطين السلاجقة حتى أصبحت حالة خلفاء العباسيين لا تختلف اختلافًا كبيراً عما كانت عليه فى أيام بنى بويه، ذلك أنه بينما كان أمراء بنى بويه يقيمون فى بغداد ويستبدون بالسلطة فإن السلاجقة استأثروا بالنفوذ فى بلاد العراق، أضف إلى ذلك أن الخلفاء العباسيين فى العصر السلجوقى كانوا يعيشون من إقطاعات مقررة يستولون على دخلها[١] . ولم يبق لهم من سلطانهم القديم سوى ذكر اسمهم فى الخطبة ونقشه على السكة.

على أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت أفضل بكثير من معاملة بنى بويه لهم؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى اعتناق السلاجقة المذهب السنى الذى يعد الخليفة العباسى رئيسه الأعلى. وقد ذكر أرنولد[٢] أن السلاجقة كانوا لا يحترمون الخليفة لمركزه السياسى، بل لأنه خليفة الله فى الأرض.

ضعف شأن الخلفاء العباسيين فى العصر السلجوقى؛ فقد عمل السلاجقة على الحد من نفوذهم، بل تعسف بعضهم فى معاملتهم؛ من ذلك ما قام به السلطان ملكشاه، إذ صمم على طرد الخليفة المقتدى من بغداد سنة ٤٨٥هـ لأنه رأي فيه ميلا إلى التدخل فى الحكم[٣] ، كما أخذ السلاجقة من الخليفة المسترشد بردة الرسول ﷺ التى كان الخلفاء يرتدونها عند توليتهم الخلافة أو عند حضورهم الحفلات الدينية[٤] .

كان السلاجقة يدركون الخطر الذى يتهددهم من وراء انتشار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشرق الإسلامى، ومن ثم وجهوا سياستهم بعد أن قبضوا على زمام الأمور فى بغداد سنة ٤٥١هـ إلى مناهضة هذا النفوذ، وقد صادفهم كثير من

---

(١) ابن الأثير: تاريخ دول الأتابكة، ص ٩١ - ٩٢ .

(٢) The Caliphate, P. 80 .

(٣) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٤) Arnold The Caliphate P. 80.

النجاح فى تحقيق هذه السياسة؛ فأقام أمير مكة محمد بن جعفر الدعوة لكل من الخليفة القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٤هـ[١] ، وفى السنة التالية تمكن ألب أرسلان من بسط سلطان السلاجقة على حلب، كما أصبحت دمشق سنة ٤٦٨هـ تحت سيادتهم، وأبطل فيها الأذان بحى على خير العمل[٢] ؛ وهو يعد من مظاهر المذهب الشيعى التى كانت سائدة إذ ذاك فى الأراضى الخاضعة لنفوذ الفاطميين.

كذلك حرص السلاجقة على تعقب دعاة الإسماعيلية الذين قاموا بنشر الدعوة للفاطميين فى بلاد الفرس، كما تعصبوا للمذهب السنى، وبلغ من تعصبهم لهذا المذهب أن أقصوا غير السنيين عن وظائف الحكومة؛ وأحسن مثل لذلك ما قام به نظام الملك وزير السلطان ملكشاه الذى فصل الحسن بن الصباح من ديوان السلاجقة بسبب اعتناقه المذهب الإسماعيلى واتصاله بدعاة الفاطميين[٣] .

وعلى الرغم من اهتمام السلاجقة بالقضاء على دعاة الإسماعيلية، فإن كثيراً من هؤلاء الدعاة تجلى نشاطهم منذ أواخر القرن الخامس الهجرى فى بلاد الفرس، ويرجع السبب فى ذلك إلى بعد هذه البلاد عن بغداد مركز الخلافة العباسية، كما أن السلطان ألب أرسلان (٤٥٤-٤٦٥هـ) بإلغاء نظام البريد جعل من المتعذر على السلاجقة استقصاء أخبار دولتهم مما ساعد الإسماعيلية على إحكام أمورهم فى شرق الدولة الإسلامية. وقد وضح البندارى[٤] ذلك بقوله«وكان منهم رجل من أهل الرى. ، وكانت صناعته الكتابة، فخفى أمره، حتى ظهر، وقام من الفتنة كل قيامة، واستولى فى مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة، وبدأ من القتل والفتك بأمور شنيعة، وخفيت عن الناس أحوالهم، ودامت حتى استتبت على استتار، بسبب أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار».

أما عن الدعوة الإسماعيلية فى بلاد العراق فإنها لم تظفر بكثير من النجاح فى أوائل العهد السلجوقى لأن هذه البلاد كانت مقراً للخلافة العباسية السنية التى كان من أهم أركان سياستها مناهضة أتباع المذهب الإسماعيلى، كما أن السلاجقة

(١) راجع كتاب « النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب» للمؤلف ص ٢١ - ٢٢.
(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ١٨٠ .
(٣) طه شرف: كتاب «دولة النزارية» ص ٤١ - ٤٢ .
(٤) تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٦٢ - ٦٣ .

من ناحية أخرى عمدوا إلى تعقب دعاة هذا المذهب؛ وفضلا عن ذلك فإن الخلافة الفاطمية فى مصر لم تعمل منذ منتصف القرن الخامس الهجرى على مواصلة جهودها لنشر دعوتها فى بلاد العراق، كما كانت الحال عند قيام البساسيرى بحركته، بل اقتصر اهتمامها على الاحتفاظ بما تبقى لها من نفوذ فى الجزيرة العربية، وتأييد دعاة الإسماعيلية فى بلاد الفرس واليمن الذين استطاعوا باتخاذهم هذه البلاد مركزاً لهم أن يكونوا بعيدين عن تنكيل العباسيين والسلاجقة بهم.

وليس من شك فى أن اضطراب الحالة الداخلية فى مصر فى أواخر عهد المستنصر بالله الفاطمى، كان له أثر كبير فى صرف الحكومة الفاطمية عن الاهتمام بنشر دعوتها فى بلاد العراق؛ فقد ظهر التنافس بين العناصر الأجنبية وبخاصة الأتراك والسودان، كما خرج ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبى الذى كان يتولى قيادة الأتراك على طاعة الخليفة الفاطمى، وبعث سنة ٤٦٢هـ إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة بالعراق رسولا من قبله، يسأله أن يرسل إليه نجدة ليقيم الدعوة العباسية على أن تئول إليه السيادة على مصر، فرحب ألب أرسلان بذلك؛ غير أنه ما لبث أن شغل بمحاربة الروم عن المسير إلى دمشق ثم مصر[1] .

لما بلغ المستنصر أن ناصر الدولة أرسل إلى ألب أرسلان يستدعيه إلى الديار المصرية، جهز إليه عساكر كثيرة من الأتراك لمحاربته بإقليم البحيرة فأوقع بهم ناصر الدولة الهزيمة وغنم منهم مغانم كثيرة، وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى الإسكندرية ودمياط، وجميع أنحاء الوجه البحرى، وحال دون وصول الأقوات إلى القاهرة ومصر[2] . وكان مما زاد الحالة سوءاً تلك المجاعة التى بدأت بانخفاض النيل سنة ٤٥٧هـ، واستمرت سبع سنين، فقلت الأقوات واشتد الغلاء. وقد عانى الأغنياء وكبار رجال الدولة من هذه المجاعة مثل ما عاناه الفقراء تماماً؛ واضطر بعض أصحاب النفوذ والأعيان إلى مغادرة مصر والرحيل إلى بلاد الشام والعراق[3] .

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ١٩ - ٢٠ .

(٢) ابن ميسر : تريخ مصر، ص ٢٠ .

(٣) المرجع نفسه: ص ٢٠، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٥ ص ١٥ - ١٦ .

ظل ناصر الدولة بن حمدان يبذل أقصى جهده لإضعاف شأن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى والاستئثار بالحكم؛ وتجلى خروجه على طاعته سنة ٤٦٤هـ حيث عاود القيام بحذف اسمه من الخطبة فى الوجه البحرى، كما بعث إلى القائم بأمر الله العباسى ببغداد يلتمس الخلع. ثم قدم إلى الفسطاط على رأس جيش كبير من العرب والبربر وتولى الحكم فيها، وأنفذ إلى المستنصر رسولا يطلب منه الأموال. ولم يكتف بذلك بل سار إلى القاهرة وبالغ فى إهانة الخليفة الفاطمى وأظهر ميله إلى مذهب أهل السنة . واضطر كثير من أقارب المستنصر إلى النزوح إلى المغرب والعراق. على أن ناصر الدولة لم تستقر له الأمور طويلا بالقاهرة، فسرعان ما ثار به الأتراك الذين كانوا إذ ذاك من أهم عناصر الجيش الفاطمى ونجحوا فى القضاء عليه والتخلص من جميع أفراد أسرته(١) .

لم تكن الظروف مهيأة فى أواخر القرن الخامس الهجرى لتستعيد الدعوة الفاطمية مكانتها فى بلاد العراق؛ فقد ضعف أمرها وأصبحت مهددة بالزوال من جراء ذلك النزاع الذى نشأ حول الخلافة الفاطمية بعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧هـ والذى ترتب عليه انقسام الإسماعيلية فى مصر وبلاد الشرق الإسلامى إلى طائفتين، عرفت الأولى بالنزارية، أما الثانية فتعرف بالمستعلية. وقد انحاز دعاة الإسماعيلية فى بلاد اليمن إلى هذه الفرقة التى اتخذت مصر مقرًا لها، وظلوا على ولائهم للخليفة المستعلى(٢) ، بينما انحاز غيرهم من الدعاة فى بلاد الفرس بزعامة الحسن بن الصباح إلى نزار وادعوا أن المستعلى أغتصب منه الخلافة والإمامة(٣) .

وكانت الدعوة الفاطمية فى حاجة إلى توحيد جهود دعاتها حتى يتيسر لهم الإبقاء عليها، لكن انقسام الإسماعيلية إلى فرق وأحزاب كان له أثر كبير فى صرفهم عن تحقيق هذه الغاية؛ فشغلت الحكومة الفاطمية بالقضاء على القلاقل التى أثارها أتباع النزارية فى مصر بإيعاز من رؤساء دعوتهم فى فارس الذين كانوا يمدونهم بالمال. وقد تجلى خطر النزارية على الخلافة الفاطمية فى عهد الآمر،

(١) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٢١ - ٢٢ .
(٢) راجع كتاب « النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب» للمؤلف ص ٨٤ - ٨٦ .
(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٦٥، طه شرف: دولة النزارية، ص ٦٦ .

فأبوا الاعتراف بإمامته وإمامة أبيه المستعلى، هذا فضلا عن اعتقادهم أنهما وليا الخلافة دون حق. وكان ذلك مما حمل الخليفة الآمر الفاطمى سنة ٥١٦هـ على أن يعهد إلى وزيره أبى عبد الله المأمون بن البطائحى بكتابة رسالة لزعيمهم الحسن بن الصباح يدحض فيه آراء النزارية فى الإمامة ويدعوه إلى الحق، كما بعث فى طلب «الفقهاء الإسماعيلية والإمامية للاجتماع فى قصره، وقال لهم وزيره المأمون البطائحى: ما لكم من الحجة فى الرد على هؤلاء الخارجين على الإسماعيلية، فقال كل منهم: لم يكن لنزار إمامة ومن اعتقد هذا فقد خرج عن المذهب وضل ووجب قتله[1]».

على أن هذه الرسالة لم يتح لها أن تصل إلى يد الحسن بن الصباح لعدول رسل الخليفة الآمر عن مواصلة السفر إليه بسبب الأنباء التى وصلت إلى مصر عن ازدياد نفوذ طائفة النزارية ببلاد المشرق واتصالها بأتباعها فى مصر لتدبير مؤامرة لقتل الخليفة الفاطمى ووزيره المأمون البطائحى[2]. لذلك لا نعجب إذا رأينا الحكومة الفاطمية تتبع حركاتهم فى جميع البلاد الخاضعة لنفوذها وتعمل على التخلص ممن تحوم الشبهات حول انحيازه إليهم. وبلغ من اهتمام المأمون البطائحى بالبحث عن النزارية وتقصى أخبارهم أن اتخذ جواسيس لاقتفاء آثار أتباع هذه الطائفة بمصر والقاهرة[3].

وقد وضح ابن ميسر [4] ما قام به هذا الوزير من مجهود فى سبيل إبعاد خطر النزارية عن الدولة الفاطمية؛ فقال: «إنه أركب فى يوم من الأيام جماعة من العسكر وفرقهم وأمر بمسك من عيّنه، فمسك منهم جماعة كثيرة، منهم رجل كان يقرئ أولاد الخليفة الآمر، ومسك معهم المال الذى سيره ابن صباح برسم نفقة مصر، فأخذه وكانت هذه الفعلة من المأمون من عجائب الحذق، وبث مع ذلك الجواسيس فى أقطار الأرض، وكان الباطنى إذا خرج من «ألموت» لا تزال أخباره تصل إلى المأمون متعاقبة حتى يصل «بلبيس» فيمسك بها، ويحمل إليه فيقتله». وعلى الرغم من اتخاذ الحكومة الفاطمية الحيطة للقضاء على مؤامرة النزارية

(١) المقريزى: خطط، جـ١ ص ٤٠٧.
(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر، ص ٦٥ - ٦٨.
(٣) المرجع نفسه. ص ٦٥.
(٤) تاريخ مصر، ص ٦٦.

لاغتيال الآمر، فإن فريقًا منهم كمنوا له بجزيرة الروضة، ثم انقضوا عليه وقتلوه على مقربة من المقياس فى ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ[١] .

واجهت الدعوة الفاطمية منذ أوائل القرن السادس الهجرى سواء فى مصر أو بلاد الشرق الإسلامى كثيرًا من الصعاب مما جعلها مهددة بالزوال؛ فقد أدى عدم استقرار الأمور فى مصر فى أواخر العصر الفاطمى وانصراف الحكومة الفاطمية عن بذل جهودها لنشر دعوتها إلى إتاحة الفرصة أمام خلفاء العباسيين- رغم ما كانوا يعانونه من ازدياد سلطان السلاجقة- للقضاء على ما تبقى للفاطميين من نفوذ. وقد حالفهم النجاح فى بلاد العراق وغيرها من بلاد الشرق الإسلامى حيث أضحى النفوذ الفاطمى فى اليمن والحجاز روحيًّا فقط، وصار لا يتمثل إلا فى السكة والخطبة.

كذلك كان لوقوف بعض وزراء هذا العصر فى وجه رجال الدعوة فى مصر حتى لا يتيسر لهم الوصول إلى الزعامة أو السلطان، وعدم حرص رجال الحكومة الفاطمية على الاحتفاظ بمظاهر المذهب الإسماعيلى أثره البالغ فيما أصاب الدعوة الفاطمية فى بلاد الشرق الإسلامى من وهن وانحلال؛ ولا غرو فقد أصبح التحمس لهذا المذهب ونصرته أو إضعافه ومناهضته تابعًا لرغبة الوزراء وميولهم. وليس أدل على ذلك من أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ظل مشايعًا للمذهب الفاطمى حتى توفى المستعلى وخلفه الآمر سنة ٤٢٩هـ، فأخذ يميل ميل السنيين[٢]. وقد تجلت هذه الظاهرة فى إلغائه الاحتفال بمولد النبى ﷺ، ومولد ابنته فاطمة، وعلى بن أبى طالب، ومولد الخليفة القائم بالأمر. ولا يخفى علينا أن عمله هذا يؤدى إلى إضعاف نفوذ الفاطميين الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بهذه الأعياد لتأييد انتسابهم إلى على بن أبى طالب وزوجته فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام[٣] . ولما استأثر ابنه الوزير أبو على أحمد بن الأفضل بالنفوذ سنة ٥٢٤هـ ومنع الحافظ من التصرف فى شئون الدولة وسجنه فى خزانة، أمر بحذف اسم إسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة وأحل محله اسم محمد المنتظر الإمام الثانى عشر عند طائفة الإمامية، كما أمر بعدم إضافة

(١) المقريزى: خطط، جـ٢، ص ١٨٢، أبو المحاسن. النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٨٥.

(٢) ذكر ابن الأثير (جـ١٠، ص ٢٠٩) أن الإسماعيلية كانوا يكرهون الأفضل بن بدر الجمالى لأسباب منها؛ تضييقه على إمامهم، وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم. ومنها تركه معارضة أهل السنة فى اعتقادهم والنهى عن معارضتهم، وإذنه للناس فى إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها».

(٣) حسن إبراهيم، الفاطميون فى مصر، ٢٧٩ .

عبارة حي على خير العمل إلى الأذان وزاد في إضعاف المذهب الإسماعيلي بأن عين سنة ٥٢٥ هـ أربعة من القضاة اثنين من الشيعة، أحدهما من طائفة الإمامية الاثني عشرية والآخر من الإسماعيلية، واثنين من السنيين أحدهما شافعي والآخر مالكي، وأعطى لكل منهم السلطة في إصدار أحكامه وفق مذهبه[١]. وقد أثارت هذه السياسة التي اتبعها الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل غضب الإسماعيلية، وكذلك الأمراء وغيرهم؛ فدبروا مؤامرة لاغتياله[٢].

وهكذا مهدت الأحوال الخارجية والحوادث الداخلية الطريق للقضاء على الدعوة الفاطمية، فاضطهد السلاجقة في بلاد العراق كثيرًا من الشيعيين، كما وقفوا من دعاة الإسماعيلية الذين استفحل خطرهم في بلاد الدولة العباسية موقفًا ينطوي على الحزم والشدة، فبذلوا جهدهم لإخماد حركاتهم. ولم يكن الخلفاء العباسيون أقل تحمسًا منهم في مقاومة نفوذهم إذ كانوا يرون في طائفة الإسماعيلية خطرًا يهدد الدولة الإسلامية؛ فضلا عن ذلك فإن نهوض هؤلاء الخلفاء لاستعادة سلطانهم القديم[٣]، وسعيهم لإحياء مجد الخلافة ونجاحهم في تحقيق هذه الأمنية، ساعد إلى حد كبير على تقوية الشعور الإسلامي ضد الطوائف الشيعية.

---

(١) ابن ميسر، تاريخ مصر ص ٧٥، المقريزي. خطط. جـ٢ ص ٢٧١، ٣٤٣.

(٢) حسن إبراهيم. الفاطميون في مصر ص ٢٣٠.

(٣) حاول بعض الخلفاء العباسيين أن يستعيدوا سلطتهم التي استأثر بها السلاجقة وسار الخليفة المسترشد بخطى واسعة في هذا السبيل، فخرج في سنة ٥٢٠ هـ على السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وهزم قواته، وكاد يستقل بالأمر لولا المساعدة التي قدمها حاكم البصرة للسلطان (ابن الأثير، جـ١٠ ص ٢٧٠ - ٢٧٢). ولما توفي السلطان محمود سنة ٥٢٥هـ، عمل الخليفة المسترشد على استعادة سلطته فجمع الجيوش لاسترداد ما كان للعباسيين من نفوذ، واتخذ من الخلاف الذي قام بين أفراد البيت السلجوقي فرصة ليستأثر بأمور العراق؛ وبلغ من جرأته أنه أمر بعدم إقامة الخطبة للسلطان مسعود سنة ٥٢٩ هـ مما أدى إلى الحرب بينهما، فدارت معركة بين الجيشين العباسي والسلجوقي قرب همذان. انتهى الأمر فيها بهزيمة الخليفة وأسره، ثم قتله نفر من الإسماعيلية بإيعاز من السلطان مسعود سنة ٥٣٧ هـ.

لما آلت الخلافة إلى الراشد بعد وفاة أبيه المسترشد، تعهد للسلطان مسعود في كتاب شهد فيه بعض القضاة أنه إذا حاول محاربته أو جرد السيف على أصحابه حق عليه الخلع من الخلافة؛ غير أن الخليفة ما لبث أن اعتذر عن عدم استطاعته دفع هذه الأموال لرسول السلطان، ثم ألب عليه حكام دولته، فقام الجميع ينادون بمحاربة مسعود وخلعه. ولكن السلطان مسعود، سرعان ما حاصر بغداد، واضطر الخليفة إلى الخروج منها هاربًا إلى الموصل سنة ٥٣٠هـ. فدعا السلطان مسعود - بعد دخوله بغداد- العلماء والفقهاء والقضاة والأعيان وحملهم على إقرار محضر بخلع الخليفة الراشد وولى مكانه عمه المقتفي لأمر الله.

لما توفي السلطان مسعود سنة ٥٤٧هـ، لم يخلفه في السلطنة من يستطيع الاحتفاظ بقوة السلاجقة في العراق، بل ضعف أمرهم منذ ذلك الوقت. وأخذ الخليفة المقتفي ووزيره ابن هبيرة يعملان على إحياء مجد الخلافة واستعادة نفوذها، وليس أدل على مبلغ ضعف السلاجقة من أن سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه لم يقدم على دخول بغداد إلا بعد موافقة الخليفة المقتفي، كما حلف لهذا الخليفة في اجتماع عقد بداره على النصح والموافقة ولزوم الطاعة، وأنه لا يتعرض إلى العراق بحال. ولم يبق له من مظاهر السلطة سوى ذكر اسمه في الخطبة

وهكذا فقد سليمان شاه الحقوق التي كان يتمتع بها أسلافه، وأخذ النفوذ السلجوقي في العراق تبعًا لذلك في الاضمحلال حتى زال نهائيًا سنة ٥٩٠ هـ.

(راجع . ابن الأثير؛جـ ١١ ص ٣٤، ٧٧، السيوطي، تاريخ الخلفاء. ص ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٢).

ولم تكن حالة الدعوة الإسماعيلية فى مصر مقر الدولة الفاطمية خيراً منها فى بلاد المشرق؛ فقد تجلى ضعف المذهب الإسماعيلى فى العصر الفاطمى الأخير وانصرف بعض الوزراء عن تأييد هذا المذهب، بل تعصب بعضهم كعلى بن السلار- وزير الخليفة الظافر- لمذهب السنة، فأنشأ فى سنة ٥٦٤ بالإسكندرية مدرسة للشافعية، أسند إدارتها إلى الحافظ السلفى الفقيه الشافعى[١] ؛ وبذلك هيأ السبيل لرجوع المذهب السنى إلى مصر. وقد أدى تعصبه لهذا المذهب ورغبته فى إحلاله بمصر محل المذهب الإسماعيلى إلى حقد الخليفة ورجال دولته عليه، فقتل بإيعاز منه[٢] . ومازال المذهب الإسماعيلى آخذاً فى الاضمحلال من الديار المصرية حتى تقلد صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة للخليفة العاضد الفاطمى سنة ٥٦٤هـ؛ فوجه اهتمامه - بعد إضعافه سلطة هذا الخليفة- إلى القضاء على المذهب الشيعى فى مصر، فأنشأ مدرسة لتدريس المذهب الشافعى ، وأخرى لتدريس المذهب المالكى، وعزل قضاة الشيعة، وعين صدر الدين عبد الله بن درباس الشافعى قاضيًا للقضاة فى جميع أنحاء الديار المصرية[٣] ؛ فاستعاد بذلك المذهب السنى قوته، وأخذ المذهب الشيعى فى الاختفاء تدريجًا حتى لم يبق له أنصار فى مصر.

ولا شك أن هذه العوامل التى تقدم ذكرها وإن كانت قد عجلت بزوال النفوذ الفاطمى ببلاد المشرق. فإنها من ناحية أخرى أفادت الخلافة العباسية؛ فقد ساعدتها على الاحتفاظ بسيادتها على البلاد الإسلامية.

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١ ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .
(٢) حسن إبراهيم: الفاطميون فى مصر، ص ٢٩٦ .
(٣) المقريزى: خطط، جـ٢ ص ٣٤٤ .

الباب السابع

علاقة الفاطميين بالأندلس والمغرب وجزيرة صقلية

١- علاقة الفاطميين بالأمويين فى الأندلس.

٢- علاقة الفاطميين بالزيريين فى المغرب.

٣- الفاطميون وجزيرة صقلية.

(أ)علاقة الفاطميين بالأمويين فى الأندلس:

أخذ عبيد الله المهدى منذ أن استقرت خـلافته فى إفريقية، يبعث بدعاته إلى بلاد الأندلس لنشر الدعـوة الفاطمية. لكن الجهود التى بذلت فى هذا السـبيل لم تكلل بالنجـاح حتى عهد المـعز لدين الله؛ فلم تجذب تلك الدعـوة إليها إلا فـريقا ضئيلا من رجال الفكر الأندلسيين[1] .

ولا شك أن قيام الخلافة الفاطمية فى إفريقية ونشاط دعاتها فى نشر المذهب الشيـعى، أصبح خطراً يهدد كيـان الأمويين بالأندلس، ولذلك وجه عبـد الرحمن الناصر منذ ولى الحكم فى الأندلـس سنة ٣٠٠ هـ اهتمامه إلى الوقـوف فى وجه الفاطميين والقضاء على أطماعهم؛ فعمل على إعداد أسطول قوى؛ بلغ عدد قطعه نحو مائتى مركب[2] ، ليستعين به فى صد هجمات الأسطول الفاطمى، كما حرص على اجتذاب أنصار له من بين قبائل الزناتيين المعادية للفاطميين فى المغرب.

ولما وقف عبـيد الله المهدى على خطورة السـياسة التى يتبـعها عبـد الرحمن الناصر ضده، أمـر قائده مصالة بن حبوس بمحـاربة الزناتيين سنة ٣١٢هـ، فخرج مصالة من تاهرت والتـقى بقوات محمد بن خـزر زعيم قبيلة مغراوة، فى مـعركة عنيفة، انتهت بمقتل مصالة وهزيمة جيشه[3] .

وكان عـبد الرحمن الناصـر، وقتذاك قـد استولـى على سبتـة، وعزم على اتخاذها قاعدة بحرية للسيطرة على بلاد المغرب الأقصى، ومحاربة واليها موسى بن

(١) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير (العصر الإسلامى) ص ٦٠٨ .
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر. جـ١ ص ٢١١ .
(٣) ابن عذارى. البيان المغرب فى أخبار المغرب. جـ١. ص ٢٦٦ .

أبى العافيـة. غير أن هذا الوالى لم يلبث أن اضطر بعد أن تحـرج مركزه إلى خلع طاعة عبيد الله المهدى، والدخول فى طاعة عبد الرحمن الناصر الأموى بالأندلس. وفى ذلك يقـول ابن خلدون(١) : «ثم انتفض مـوسى بن أبى العافـية عـامل فاس والمغرب وخلع طاعة الشيعة، وانحـرف إلى الأموية من وراء البحر، وبث دعوتهم فى أقطار المغرب».

ولما علم عـبيـد الله المهدى بانضـواء موسى بن أبى العـافيـة تحت لواء عـبد الرحمن الناصر، جهـز جيشًا وسيره إلى المغرب الأقـصى بقيادة عامله على تاهرت حميد بن يصال، فأوقع الهزيمة بموسى، وتمكن من دخول فاس سنة ٣٢١هـ وأعاد الدعوة فـيها لعبيـد الله المهدى؛ لكنها لم تلبث أن أقـيمت بعد وفاته باسم الخلـيفة الناصر الأموى.

اتخذ العـداء بين الدولة الفاطميـة والدولة الأموية بالأندلس مظهـرًا قويا فى عهد المعز لدين الله؛ فلم يمض سنتان على توليته الخلافة حتى هاجمت إحد السفن الأندلسية سفينة فاطمية كـانت تحمل رسولا من قبل الحسن بن على والى صقلية؛ فجهز المعز أسطولا، سيره إلى الأندلس بقيادة هذا الوالى سنة ٣٤٤هـ. فلما وصل المرية، هاجم مرسـاها، وأحرق الجند جمـيع ما فيه من الـسفن، ثم دخلوا المدينة وعاثوا فيها نهبًا وقتلاً، وعادوا بعد ذلك إلى المهدية(٢) .

وبلغ من شدة العـداء بين الأمويين فى الأندلس والفاطمـيين فى المغرب، أن عمـد عبـد الرحمن الناصـر الخليفة الأمـوى بالأندلس إلى توطيد عـلاقتـه بأعداء الخلافة الفاطمـية؛ فتحالف سنة ٣٤٤هـ مع الإمبراطور البـيزنطى قسطنطين الثامن الذى كان يطمع فى استرداد صقلية من أيدى الفاطميين(٣) . كما أمر بلعن الخليفة الفاطمى من منابر الأندلس؛ وكتب بذلك إلى جميع عماله(٤) .

على أن عبد الرحمن الناصر لم يلبث أن أنفذ أحد رسله إلى حاضرة الخلافة الفاطمية بالمغرب، ومعه كتاب إلى بعض رجال المعز، يطلب منه الموادعة والصلح؛

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر. جـ٤ . ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) ابن الأثير الكامل فى التاريخ. جـ٨ . ص ١٧٠، انظر أيضًا: النعمـان: كتاب «المجالس والمسايرات» جـ١ . ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٣) Dozy, Hist. des Muaulmans d'Espagne, T.H, P.159

(٤) ابن عذارى. البيان المغرب جـ٢. ص ٢٣٦ .

فرفض المعز إجابة طلبه، وقال لرسول الناصر[١] : «. . . وأما ما دعا إليه من السلم والكف والموادعة والصلح، وهو يزعم أنه أمير المؤمنين، - كما تسمى دون من سلف من آبائه-، وإمام الأمة بدعواه وانتحاله، ونحن نقول: إننا أهل ذلك دونه ودون سواه. . .».

«وما أنا بالمداهن في دين الله، ولا بالراكن بالمودة إلى أعداء الله، ولا بالمخادع في أمر من أمور الله عز وجل. ارجع بجوابي هذا إليه، فما له عندي سواه، وما لي من الأمر من شيء، إن الأمر كله لله، عليه توكلت وإليه أنيب. .».

أخذ عبد الرحمن الناصر- برغم عدم استجابة المعز لطلب الصلح معه، يوالي إنفاذ رسله ورسائله إليه، رغبة في مصالحته. لكن المعز كان يدرك ما يرمي إليه الناصر من وراء هذه المكاتبات؛ فقال: «إنما أراد هذا الفاسق أن يقطع الزمان بهذه المراسلة والمكاتبة بيننا وبينه[٢] ».

شرع عبد الرحمن الناصر- بعد أن أعرض المعز عن عقد الصلح معه- في إعداد قواته البرية والبحرية؛ ثم سير هذه القوات لمهاجمة البلاد الخاضعة لسلطان الفاطميين بالمغرب؛ فأوقعت الهزيمة بالقوات الفاطمية التي تصدت لها سنة ٣٤٦هـ. وكان ذلك مما أثار سخط أهالي بلاد المغرب الأقصى على الفاطميين؛ فجهز المعز جيشًا ضخمًا، لاستعادة سلطان الخلافة الفاطمية على تلك البلاد، أسند قيادته إلى جوهر الصقلي، الذي مضى في فتح مدن المغرب حتى استرد سجلماسة وفاس. ولكنه عجز عن الاستيلاء على سبتة وطنجة[٣] .

ولما توفي عبد الرحمن الناصر سنة ٣٥٠ هـ، وخلفه ابنه الحكم المستنصر، استمر النزاع قائما بين الفاطميين والأمويين بالأندلس. وكان من مظاهره تلك الحملة التي أرسلها الحكم سنة ٣٦٢هـ إلى بلاد المغرب الأقصى والأوسط للقضاء على الدعوة الفاطمية التي قويت شوكتها في ذلك الوقت. ولم تلبث هذه الحملة

(١) النعمان، كتاب «المجالس والمسايرات» جـ١ ص ٢٣٠ - ٢٣٤ .

(٢) نفس المرجع. جـ١ ص ٢٣٨ .

(٣) السلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى جـ١ ص ٨٦ - ٨٧، حسن إبراهيم وطه شرف. كتاب « المعز لدين الله» ص ٤٣ - ٤٤ .

أن تمكنت من بسط سلطان الخليفة الأموى على تلك البلاد. وخرج زعماء زناتة من مغراوة ومكناسة على طاعة المعز لدين الله الفاطمى، وأقاموا الدعوة للحكم المستنصر من منابرهم[(١)] .

لم ينته العداء بين الفاطميين والأمويين فى الأندلس بعد وفاة المعز سنة ٣٦٥هـ؛ ويتبين لنا ذلك مما رواه ابن خلكان[(٢)] ؛ فقد ذكر أن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر لدين الله، تلقى من العزيز الخليفة الفاطمى بمصر كتابًا، يسبه فيه ويهجوه؛ فكتب إليه الحكم المستنصر : «وقد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك».

كان الأمويون فى الأندلس يتحينون الفرص للقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر؛ وتجلى ذلك فى الثورة التى قام بها رجل يقال له أبو ركوة[(٣)] وهومن ذرية هشام بن عبد الملك بن مروان، نزح إلى برقة واستقر بين قبيلة بنى قرة على أثر استبداد المنصور بن أبى عامر بالسلطة دون الخليفة هشام المؤيد بالله الأموى، وهناك افتتح له مكتبًا يعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة، كما اجتذب الناس إليه بورعه وذلاقة لسانه ونبل أخلاقه.

ولما رأى أبو ركوة أن الفرصة قد سنحت لإظهار شخصيته دعا إلى عمه هشام المؤيد الخليفة الأموى بالأندلس؛ فلقيت دعوته قبولا حسنًا من نفوس البدو فى أنحاء برقة، كما استجاب إليه بنو قرة الذين كانوا ساخطين على الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى لإسرافه فى قتل زعمائهم وكبرائهم. ولم يلبث أن سار على رأس جيش كبير؛ وأوقع الهزيمة بجند الحاكم، ومن ثم تيسر له بسط سلطانه على برقة سنة ٣٩٥هـ، وأمر بحذف اسم الحاكم من الخطبة وتلقب بالثائر بالله، وضرب السكة باسمه، وأظهر الرفق والعدل فى معاملة أهالى هذه الولاية، فهرعت إليه الوفود لتأييده.

ولما وصل إلى الخليفة الحاكم نبأ ما قام به أبو ركوة فى برقة، أعد العدة لمحاربته؛ فجهز جيشًا كبيرا مكونا من خمسة آلاف فارس تحت قيادة «ينال الطويل» - أحد قواد الأتراك-؛ غير أن هذا الجيش ما لبث أن هزم بسبب استياء

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٤ ص ١٤٦ .

(٢) وفيات الأعيان جـ٢ ص ١٥٢ .

(٣) سمى بذلك لأنه كان يحمل ركوة (وعاء من الجلد) لوضوئه على عادة الصوفية.

الجند المغاربة من قائدهم التركى وخروجهم على طاعته، كما وقع ينال أسيراً وقتل واستولى أبو ركوة علـى مائة ألف دينار كانت معه، فاستـفحل بذلك أمره وزادت هيبته، وأخذ يتطلع إلى امتلاك مصر.

لم يكن يعلم الحاكم بما استقر عـليه رأى أبى ركوة من الزحف على مصر، حتى شعر بفداحة الخطر الذى يهدد ملكه، فسيـر لمحاربة أبى ركوة جيشًـا ضخمًا قوامه الجنود الشـامية والغلمان الحمـدانية تحت قيادة الفـضل بن عبد الله فى ربيع الأول سنة ٣٩٦هـ؛ فالتـقى الفريقان بالقـرب من الإسكندرية حيث دارت بينهـما معارك شديدة، ارتد بعدها الفضل صوب القاهرة ، ثم واصل أبو ركوة زحفه حتى وصل صحراء الفـيوم، فتبـعه الفضل بقواته وأوقع به الهـزيمة، وظل يطارده حتى حدود النوبة حيث ظفر به رئيس ربيعـة أبو المكارم هبة الله. وانتهى أمر أبى ركوة بقتله[١] .

(١) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة جـ٤ . ص ٢١٥ - ٢١٧ .

(ب) علاقة الفاطميين بالزيريين فى المغرب

لما عزم المعز لدين الله الفاطمى على الرحيل إلى مصر سنة ٣٦١ هـ، عهد بولاية إفريقية والمغرب إلى بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى؛ وقال له[١] : «إن نسيت ما وصيتك به، فلا تنس ثلاثة أشياء، لا ترفع الجباية عن أهل البلاد، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تول أحداً من إخوتك وبنى عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، واستوص بالحضر خيراً».

ظل بلكين بن زيرى مواليا للفاطميين بعد رحليهم إلى مصر؛ فلما توفى خلفه ابنه الفتح المنصور، وكان يزمع الاستقلال عن الخلافة الفاطمية ، ويتجلى لنا ذلك من قوله لشيوخ القيروان الذين قاموا إليه لتهنئته بالإمارة[٢]: «إن أبى يوسف وجدى زيرى كانا يأخذان الناس بالسيف، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، ولست ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب[٣]، لأنى ورثته عن آبائى وأجدادى. . ».

ولما وقف الخليفة العزيز بالله على رغبة هذا الأمير فى الاستقلال بالبلاد التى يحكمها، عمل على إثارة قبائل البربر عليه؛ فأرسل سنة ٣٧٦هـ داعيا من قبله يدعى أبو الفهم الخراسانى إلى قبائل كتامة ليدعوهم إلى طاعته. وكان الخليفة الفاطمى، يرمى من وراء ذلك إلى إثارة قبائل كتامة على أمراء بنى زيرى. فلما قدم عليهم هذا الداعى، التفوا حوله وكون منهم جيشًا ، زوده بالسلاح، فاستاء المنصور من نشاط هذا الداعى، وكتب إلى الخليفة العزيز بذلك؛ فأرسل إليه العزيز، ينهاه عن التعرض له. لكن المنصور لم يصغ لقوله وعول على محاربة كتامة، ثم زحف بجيوشه سنة ٣٧٨ هـ إلى بلادهم، واشتبك معهم فى موقعة، انتهت بانتصاره عليهم[٤] . أما فيما يتعلق بالداعى أبى الفهم فإن المنصور ظل يتعقبه حتى قبض عليه وقتله. ولما بلغ ذلك العزيز، أدرك أن خطته التى تنطوى على إضعاف شأن الأمير منصور، باءت بالفشل ؛ ومن ثم آثر سياسة التودد إليه[٥].

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب. جـ١ . ص ٢٦٣، المقريزى. اتعاظ الحنفا ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢) ابن عذارى: البيان المغرب. جـ١ ص ٣٤٣، ابن الأثير. الكامل فى التاريخ جـ٩ . ص ١٢ .

(٣) يعنى أن الخليفة بمصر لا يقدر على عزله.

(٤) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ جـ٩ ص ١٨ .

(٥) انظر ابن عذارى. البيان المغرب جـ١ ص ٤٣٩، ٣٥٣ .

اتبع الخليفة الحاكم بأمر الله سياسة أبيه العزيز مع أمير زيرى فى بداية عهده. لكنه رأى- بعد أن بلغه أن الأمير نصير الدولة باديس يعمل على الاستقلال عن الخلافة الفاطمية- أن يثير الصعاب فى وجهه؛ فأمر يانس العزيزى- واليه على برقة - بالمسير إلى طرابلس سنة ٣٩٠هـ، والاستيلاء عليها- وكانت وقتذاك تابعة لباديس-، فمضى يانس فى سيره إليها. غير أن قوات باديس ما لبثت أن تصدت له؛ ودارت بين الفريقين معركة، أسفرت عن هزيمة الجيش الفاطمى وقتل يانس(١).

رأى الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى، بعد تلك الهزيمة التى لحقت بجيش يانس العزيزى أن يعمد إلى حيلة أخرى، لعله يصل من ورائها إلى إضعاف نفوذ بنى زيرى فى المغرب الأدنى؛ فأثار قبيلة زناتة ضد باديس، وحثها على التقدم إلى طرابلس والاستيلاء عليها؛ فاستجابت له، وأنفذت جيشًا إلى طرابلس. لكن باديس ما لبث أن زحف إليها على رأس جيش كبير، وتمكن من دخولها فى شعبان سنة ٤٠٠هـ، واضطر قائد زناتة إلى طلب العفو والأمان منه؛ فأجاب طلبه؛ وبذلك احتفظ باديس بسلطته على البلاد التابعة له، الأمر الذى حمل الخليفة الحاكم بأمر الله على العودة إلى سياسة التودد مع أمراء بنى زيرى التى اتبعها أبوه العزيز من قبل؛ فأرسل إلى الأمير باديس هدية سنة ٤٠٣ هـ كما أمر بإضافة برقة وأعمالها إليه(٢) : وسادت العلاقات الودية بينه وبين هذا الأمير منذ ذلك الوقت.

استمر النفوذ الفاطمى سائدًا فى إفريقية حتى ولى إمارة بنى زيرى المعز بن باديس الصنهاجى - وكان منحرفًا عن مذهب الشيعة ويعتنق مذهب السنة- «فحمل جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه، وحسم مادة الخلاف فى المذاهب(٣) ». وعلى الرغم من انحراف هذا الأمير عن المذهب الإسماعيلى الذى يدين به الفاطميون، فإن الخليفة الحاكم بأمر الله لم يظهر اعتراضه على سياسته المذهبية؛ بل عمل على استجلاب محبته، فخاطبه بشرف الدولة فى سجل أرسله إليه سنة ٤٠٧ هـ(٤) . كما أوفد إليه رسولا سنة ٤١١هـ ومعه بعض الهدايا.

(١) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ص ٦٥٥ .
(٢) ابن عذارى. البيان المغرب جـ١، ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .
(٣) ابن خلكان. وفيات الأعيان جـ٢. ص ١٣٧ .
(٤) ابن عذارى. البيان المغرب جـ١. ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

ولما جاء الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، واقتدى بأبيه الحاكم فى الاحتفاظ بعلاقات ودية مع الأمير المعز بن باديس، فزاده سنة ٤١٤ هـ لقبًا[١] ، وصار يعرف بشرف الدولة وعضدها، وبعث إليه بالهدايا[٢] .

على أن علاقة هذا الأمير بالفاطميين فى مصر ما لبثت أن تبدلت فى أوائل عهد المستنصر بالله، فأعلن سنة ٤٤٠ هـ خروجه على طاعة هذا الخليفة، وأمر بحذف اسمه من الخطبة والسكة والطرز، وأقام الخطبة للقائم بأمر الله العباسى[٣] (٤٢٢-٤٦٧هـ)؛ كما أمر بلبس السواد شعار العباسيين وأعد أعلامًا سودا وملابس سوداء لرجال الدولة[٤] .

استاء الخليفة المستنصر بالله الفاطمى من خروج المعز بن باديس عليه وإقامته الخطبة للخليفة العباسى، وعول على الانتقام منه. فأشار عليه الوزير أبو محمد الحسن بن على اليازورى بأن يستعين بقبائل بنى هلال[٥] الذين استقروا فى صعيد مصر- فى محاربة بنى زيرى، فإذا ما انتصروا عليهم وأصبحوا أعوانا للدعوة وعمالا للدولة فى إفريقية، وإذا هزموا ضعف أمرهم وتخلصت الخلافة من عدوانهم. فلقى هذا الرأى قبولا من نفس المستنصر، وعهد الوزير اليازورى إلى أمير الأمراء مكين الدولة أبو على الحسن بن مهلم - الذى اشتهر بحسن رأيه وكياسته[٦] - بالمسير إلى هذه القبائل بخلع سنية وأموال؛ فوزعها عليهم؛ ثم أباح لهم الوزير الفاطمى إجازة النيل، وقال لهم: « قدأعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجى، العبد الآبق، فلا تفتقرون[٧] ». فسار بنو هلال إلى برقة؛ ولما نزلوا بها فتحوا أمصارها واستباحوها، ثم مضوا فى سيرهم إلى إفريقية، فالتقوا بجيوش المعز بن باديس التى كانت تضم عناصر من العرب والبربر والعبيد؛ ودارت

(١) عبد العزيز سالم. المغرب الكبير ص ٦٥٩ .
(٢) ابن عذارى. البيان المغرب جـ١ . ص ٣٩٢ .
(٣) انظر ابن الأثير الكامل فى التاريخ. جـ٩ ص ١٨٠، ابن خلدون جـ٦ ص ١٥٩ .
(٤) ابن عذارى. البيان المغرب ص ٤١٥ .
(٥) تضم هذه القبائل أحياء من جشم وزغبة ورياح وربيعة وعدى. ولم يكونوا على وفاق فيما بينهم، بل استمرت الحروب بين بعضهم مما جعل البلاد التى يقيمون فيها تتعرض لكثير من عبثهم. وفى ذلك يقول ابن خلدون «جـ٦ ص ١٤»«وقد عم ضررهم وأحرق البلاد والدولة شررهم».
(٦) عبد العزيز سالم. المغرب الكبير ص ٦٦٧ .
(٧) ابن خلدون جـ٦ ص ١٤ .

الحرب بين الفريقين فى ذى الحجة سنة ٤٤٣ هـ. ولكن حدث أثناء القتال أن جند العرب الذين كانوا مع المعز استهوتهم العصبية العربية؛ فانصرفوا عنه وآثروا الانضمام إلى عرب بنى هلال، كما خذله أنصاره من زناتة وصنهاجه؛ فحلت به الهزيمة فى موقعة حيدران[١]. ونجا بنفسه مع بعض أتباعه إلى القيروان[٢].

على أن بنى هلال ما لبثوا أن تعقبوا ابن باديس؛ فقصدوا القيروان وحاصروها، وأخذوا يعيثون فيها فسادا، وخربوا عمرانها، كما أتوا على معالمها مما اضطر أهلها إلى الرحيل عنها[٣].

ضعف منذ ذلك الوقت شأن بنى زيرى؛ فأشار المعز بن باديس على رعاياه بالانتقال إلى المهدية، واتخذها مقرًا له[٤]. ولم يزل مقيمًا بها حتى توفى سنة ٤٥٤هـ، فخلفه ابنه تميم الذى تقلص فى عهده ملك بنى زيرى حتى لم يعد يجاوز جزءًا من الساحل يحيط بالمهدية[٥].

أما عن الخلافة الفاطمية فإنها لم تلبث أن واجهت كثيرًا من الصعاب سواء فى مصر أو أقطار الشرق الإسلامى التى امتد نفوذها إليها. لذلك تعذر عليها الاحتفاظ بسيادتها على بلاد المغرب. وظلت الخطبة تقام للعباسيين فى هذه البلاد حتى قامت دولة الموحدين فى أوائل القرن السادس الهجرى وقطع أميرها عبد المؤمن بن على الدعوة للخليفة العباسى المقتفى[٦] وأخذ يوسع ملكه فى شمال إفريقيا؛ فاستولى على مراكش سنة ٥٤٢هـ، ثم تقدم شرقًا، فبسط سلطانه على إقليمى الجزائر وتونس، وظل يتابع زحفه حتى حدود مصر الغربية فاستولى على طرابلس وبرقة. وبعد أن تم لعبد المؤمن فتح هذه البلاد، عاد أدراجه إلى المغرب الأقصى وأدركته الوفاة سنة ٥٥٨هـ (١١٦٣م).

---

(١) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ص ٦٦٩، ابن خلدون جـ٦ ص ١٥ .
(٢) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ. جـ٩ ص ١٩٧ .
(٣) ابن خلدون. جـ٦ ص ١٥ .
(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ. جـ٩ ص ١٩٧ .
(٥) تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٥٤ .
(٦) انظر: أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٥١ .

(جـ) الفاطميون وجزيرة صقلية

يرجع اهتمام المسلمين بجزيرة صقلية إلى عهد معاوية بن أبى سفيان؛ فحاولوا غزوها أكثر من مرة وبخاصة فى القرن الثانى الهجرى دون أن يظفروا بفتحها. فلما ولى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إمارة الأغالبة فى إفريقية فى عهد الخليفة المأمون العباسى، أعد جيشًا وأسطولاً، يتألف من مائة مركب لغزوها بقيادة قاضى القيروان أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ(١) . وقد تمكن المسلمون من الاستيلاء على بعض حصون الجزيرة ومدنها، لكنهم سرعان ما كانوا يتخلون عنها تحت ضغط الروم، وظلوا على هذه الحال حتى توفى زيادة الله بن الأغلب سنة ٢٢٣هـ، فأخذ بعض أمراء الأغالبة من بعده فى تسيير الحملات والسرايا إلى صقلية لإتمام فتحها(٢) . واستطاع المسلمون بعد أن قضوا ما يقرب من خمسين عاما فى محاربة الروم فى هذه الجزيرة، أن يستولوا على بعض ثغورها ومدنها، نذكر من بينها: بلرم، وقصريانه، ومسينا، وقطانيه، وطرميس(٣) . وكانت سرقوسة التى تعد من أمهات مدن صقلية، آخر معقل سقط فى أيديهم فى عهد إبراهيم الثانى بن الأغلب سنة ٢١٤هـ(٤) .

أصبحت جزيرة صقلية منذ أن تيسر للمسلمين فتحها فى مستهل القرن الثالث الهجرى، ولاية يتناوب حكمها ولاة من قبل أمراء الأغالبة، واستمر الحال على ذلك إلى أن زحف أبو عبد الله الشيعى داعى الفاطميين ببلاد المغرب على إفريقية وتمكن من الاستيلاء على كثير من مدنها سنة ٢٩٥هـ. ثم التقت قواته بأصحاب زيادة الله الثالث آخر أمراء الأغالبة، فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٦هـ؛ فأوقعت بهم الهزيمة(٥). واضطر هذا الأمير إلى الرحيل عن إفريقية والفرار إلى مصر، بعد أن حمل معه ما خف وزنه وغلا ثمنه(٦). وفى مستهل رجب من هذه السنة، دخل أبو عبد الله الشيعى رقادة، ونزل ببعض قصورها(٧). وبذلك زال نفوذ بنى الأغلب فى إفريقية.

---

(١) انظر: أمارى: المكتبة الصقلية. جـ١ ص ٤٢٧ - ٤٢٩ .

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٦ ص ١٦٧، جـ٧ ص ٢، ١٩ ، ٢٠ .

(٣) ابن خلدون: جـ٤ . ص ٢٠٠ - ٢٠٣ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٧، ص ١٠٥ - ١٠٦، تاريخ الإسلام السياسى. جـ٣ ص ٢٧٣، ٢٧٦ .

(٥) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ٨٦ - ٨٧ .

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ١، ص ٢٠١ .

(٧) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ٨٧ .

ولما بلغ أهل صقلية ما أحرزه أبو عبد الله الشيعى من نصر على الأغالبة، ثاروا على واليهم السنى الحسن بن رباح وولوا بدله على بن أبى الفوارس سنة ٢٩٦هـ، وكتبوا إلى داعى الفاطميين يطلبون منه أن يقرهم على ما فعلوا، فأجاب طلبهم[١]. غير أن عبيد الله المهدى- أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب - ما لبث أن عزل هذا الوالى وعين الحسن بن محمد بن أبى خنزيز الكتامى محله سنة ٢٩٧هـ. لكنه لم يستمر طويلا فى الولاية؛ فقد ثار به السنيون من أهل صقلية لإساءته معاملتهم وحبسوه[٢]. فولى عبيد الله المهدى مكانه على بن عمر البلوى. ولم يكن أقل تعسفًا من سلفه، فخرج أهل الجزيرة على طاعته- وبخاصة العناصر العربية التى ساءها أن يولى عليهم الفاطميون واليا من البربر-، ووقع اختيار زعمائهم سنة ٣٠٠هـ على أحمد بن قرعب[٣] - وكان عربيا-؛ غير أن هذا الوالى لم تطل ولايته، فقد ثار به الجند بسبب طموحه إلى تدعيم نفوذه بصقلية. ولم يلبث أن انحرف عن الفاطميين وأعلن ولاءه للمقتدر العباسى، فأقام له الخطبة بدلا من عبيد الله المهدى ولم يكتف بذلك، بل أنفذ أسطوله لمهاجمة سواحل بلاد المغرب واستطاع فى بادئ الأمر أن يوقع الهزيمة بالأسطول عند ساحل إفريقية. لكن الفاطميين سرعان ما ضاعفوا جهدهم فى إعداد أسطولهم وأحلوا الهزيمة بقوات ابن قرعب حين شرعت فى مهاجمة إفريقية، وقبضوا عليه وأرسلوه إلى المهدى حيث قتل[٤]. وهكذا قضى على أول محاولة ترمى إلى إعادة صقلية إلى حكم العباسيين، واستعاد الفاطميون سيادتهم عليها.

لم تستقر الحالة فى صقلية بعد أن ولى عبيد الله المهدى الخلافة؛ فكثيرًا ما كانت تقع المنازعات بين أهلها من المسلمين، فيعزلون ولاتهم ويعينون من يشاؤون؛ ولذلك استقر رأى الخليفة على إرسال جيش مع الوالى يدفع عنه خطر الثائرين، فضلا عن اتخاذه وسيلة لقمع الولاة إذا ما حدثتهم أنفسهم بالخروج على طاعته[٥].

(١) انظر: أمارى: المكتبة الصقلية جـ١، ص ٤٣٤.

(٢) ابن خلدون: جـ٤، ص ٢٠٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ٢٣.

(٤) ابن خلدون: جـ٤، ص ٢٠٧، حسن إبراهيم وطه شرف: كتاب «عبيد الله المهدى»، ٢٠١ - ٢٠٢.

(٥) انظر. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٨، ص ٢٣ - ٢٤.

وكان الفاطميون يحرصون على الاحتفاظ بسيادتهم على هذه الجزيرة، لاتخاذها قاعدة لأسطولهم فى البحر المتوسط، لصد الحملات التى يوجهها الروم نحو إفريقية[١]؛ ومن ثم استمروا فى إرسال ولاتهم إليها حتى قامت ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد فلما قضى على هذه الثورة، عين المنصور، الفاطمى الحسن ابن على الكلبى واليًا على صقلية سنة ٣٣٦[٢]. وفى عهده تفاقم النزاع بينه وبين مسيحيى صقلية الذين لجأوا إلى قسطنطين السابع إمبراطور الدولة البيزنطية لنجدتهم؛ فلبى طلبهم وأنفذ قواته إلى صقلية حيث اشتبكت مع قوات الحسن الكلبى وحلت الهزيمة بالجيش البيزنطى؛ واضطر الإمبراطور إلى طلب الصلح[٣].

على أن الإمبراطور البيزنطى لم يحترم شروط الصلح الذى عقده مع الحسن الكلبى، وأرسل إلى صقلية سنة ٣٤٥هـ(٩٥٦م) حملة تمكنت من فتح بعض مدنها. لكن الروم لم يتمتعوا بثمار هذه الانتصارات التى أحرزوها فى صقلية، وانسحبوا إلى قلورية[٤] (Calabria).

لم تنعم جزيرة صقلية بالاستقرار من جراء تهديد البيزنطيين لها فى عهد المعز؛ فقد قامت بها الحرب بين الجيوش الفاطمية وأنصار البيزنطيين، واستطاع واليها أحمد بن الحسن الكلبى سنة ٣٥١هـ أن يستولى على قلعة طبرمين - وهى من قلاعها المنيعة-، ثم طرد منها أهلها وأحل محلهم جماعة من المسلمين، وأطلق عليها اسم المعزية[٥] نسبة إلى المعز لدين الله، وتبع ذلك استسلام بعض المدن للجيش الفاطمى على حين استنجدت مدن أخرى بالإمبراطور البيزنطى نقفور فوكاس؛ فجهز قوات برية وبحرية وسيرها لمحاربة الفاطميين فى صقلية. وبذل والى هذه الجزيرة من ناحيته جهودًا كبيرة فى سبيل إعداد الأسطول والجيش لصد القوات البيزنطية، كما أمده الخليفة المعز ببعض النجدات؛ ولكن البيزنطيين تمكنوا رغم ذلك من الاستيلاء على بعض مدن صقلية سنة ٣٥٣هـ[٦] (٩٦٤م).

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٩٩ .
(٢) انظر. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٨، ص ١٥٦، ابن خلدون، جـ٤، ص ٢٠٨ .
(٣) ابن خلدون: جـ٤، ص ٢٠٩ .
(٤) انظر: كتاب «المعز لدين الله» ص ٥٣ .
(٥) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ١٧٩ .
(٦) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ١٨٣ .

استمرت الحرب سجالاً بين قوات الفاطميين فى صقلية وقوات البيزنطيين التى تفوقها فى العدد. وقد تمكن الجند الفاطميون أن يثبتوا أمام تلك القوات، كما أن القائد الفاطمى الحسن بن عمار استطاع بعد أن نظم جيشه أن يلتقى بالقائد البيزنطى مانويل ويقضى عليه؛ فولى جنده هاربين؛ وبذلك حلت الهزيمة بالبيزنطيين، وأخذ المسلمون فى صقلية يتعقبونهم حتى وقع فى أيديهم كثير من الأسرى والسبى، وغنموا منهم مغانم كثيرة، ثم مضى أحمد بن الحسن الكلبى- والى صقلية- إلى مسينا ليقضى على فلول البيزنطيين؛ فوجدهم قد رحلوا عنها؛ فلحق بهم وانتصر عليهم فى موقعة المجاز[1] سنة ٣٥٤هـ[2] .

أما عن الحالة الداخلية فى جزيرة صقلية؛ فإن المعز أبقى أحمد بن الحسن الكلبى واليا عليها حتى سنة ٣٥٨هـ، ثم ولى مكانه« يعيش» مولى الحسن الكلبى. ويظهر أن الخليفة الفاطمى كان يرى إقصاء الكلبيين عن الحكم فى هذه الجزيرة حتى لايستبدوا بأمورها. لكنه لم يلبث أن عدل عن هذه السياسة؛ فأسند إليهم بعض المناصب الكبرى، وولى أبا القاسم بن الحسن الكلبى ولاية صقلية فى منتصف سنة ٣٥٩هـ[3]؛ فرحب به أهلها ، واتفقوا على طاعته، واستقرت بذلك الأمور فى الجزيرة.

ولما انتقل المعز لدين الله إلى مصر واتخذها مقرًا لخلافته سنة ٣٦٢هـ، لم يجعل لوالى إفريقية والمغرب حكما على صقلية، بل صار يلى أمورها وال مستقل من قبل الخليفة الفاطمى، وأجيز له الرجوع إليه فى تصريف شئون ولايته.

أخذ النفوذ الفاطمى فى جزيرة صقلية فى الضعف من أواخر القرن الرابع الهجرى، وغدت علاقة الخلفاء الفاطميين بهذه الجزيرة مقصورة على إرسال الولاة إليها لإدارة شئونها. لكن بعض هؤلاء الولاة مثل أحمد الأكحل أثار الانقسام بين المسلمين من أهلها بسبب التفرقة فى معاملتهم، فاضطر جماعة منهم إلى المسير إلى المعز بن باديس أمير إفريقية سنة ٤٢٧هـ، وشكوا إليه ما حل بهم، وقالوا له«نحب أن نكون فى طاعتك وإلا سلمنا البلاد إلى الروم[4]». فكان ذلك الانقسام الذى

(١) يقصد به الخليج الذى يفصل بين صقلية وإيطاليا.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ١٨٣ - ١٨٤، كتاب «المعز لدين الله» ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ٨، ص ٢٠١، كتاب «المعز لدين الله» ص ٦٣ .

(٤) انظر : أمارى: المكتبة الصقلية جـ١ ص ٢٧٤ .

طرأ على مسلمي صقلية مما شجع البيزنطيين على غزوها في عهد الإمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤-١٠٤٤م) الذي أنفذ إليها حملتين: الأولى سنة ٤٢٩هـ(١٠٣٧م) لم تحرز أي نجاح، أما الثانية، فكانت في السنة التالية. وقد استطاعت هذه الحملة أن تستولى على مسينا ومعظم البلاد الواقعة على الساحل الشرقى من الجزيرة، غير أن المسلمين سرعان ما تمكنوا من استعادة أكثر البلاد التى استولى عليها البيزنطيون[1] .

على أن الاضطرابات ما لبثت أن سادت هذه الجزيرة من جراء النزاع بين أمرائها المسلمين والحروب الداخلية. وقد مهد ذلك، السبيل أمام النرمانديين لغزوها، فتمكن روجر بن تنكرد النرمندى من الاستيلاء على جميع أرجائها سنة ٤٨٤هـ (١٠٩١م[2]).

---

(١) Cambridge Med. Hist. Vol. IV. P. 150 .

(٢) Hitti, History of the Arabs. P. 606.

الباب الثامن

العلاقات بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية والمدن الإيطالية

١- الفاطميون والبيزنطيون.

٢- الفاطميون والمدن الإيطالية.

(أ) الفاطميون والبيزنطيون:

واجه الفاطميون منذ تقدمت جيوشهم فى بلاد الشام صعوبات كثيرة من ناحية البيزنطيين الذين أخذوا يهددون حدود سورية الشمالية بغاراتهم المتتالية، كما زحفت قواتهم على أنطاكية سنة ٢٥٨هـ(٩٦٩م)، واستطاعوا بعد ذلك بمدة وجيزة أن يدخلوا حلب، وأن يرغموا حاكمها على عقد صلح معهم(١).

اتجهت سياسة المعز لدين الله إلى استعادة المدن التى استولى عليها البيزنطيون فى شمال الشام ليقضوا بذلك على الأخطار التى تهدد نفوذهم فى تلك البلاد؛ وقام بتنفيذ هذه السياسة القائد الفاطمى جعفر بن فلاح. لكن الحملات الفاطمية التى أرسلت لإجلائهم عن إنطاكية فشلت فى تحقيق هذه الغاية لانشغال الفاطميين بصد القرامطة والقضاء على ما بقى لهم من نفوذ بالشام(٢).

اتخذ البيزنطيون من النزاع بين الفاطميين والقرامطة فرصة سانحة لمواصلة شن غاراتهم؛ فتقدم إمبراطور الروم حنا زيمسكيس (John Tzimisces) فى سنة ٩٧٥م من أنطاكية إلى حمص، ومنها إلى بعلبك؛ واضطرت دمشق إلى التسليم ودفع الجزية له، كما سلمت له طبرية وقيسارية، ثم سار الإمبراطور شمالا حيث استولى على بيروت وصيدا، ولما حاول الاستيلاء على طرابلس أوقعت حامية المدينة يعاونها الأسطول الفاطمى الهزيمة بقواته، ثم عادت الجيوش البيزنطية إلى أنطاكية وعاد الإمبراطور إلى القسطنطينية حيث توفى فى أوائل سنة ٩٧٦م(٣).

---

(١) Hitti, History of Syria p. 460.

(٢) انظر . كتاب النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق، ص ٢٢ .

(٣) Cambridge Mediaeval History Vol IV p. 148

ظل النزاع قائمًا بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية حتى سنة ٣٧٧هـ (٩٨٧م) حيث قدمت إلى مصر رسل الإمبراطور باسيل الثانى (٩٧٦-١٠٢٥م)، تحمل هدية الخليفة العزيز وتطلب عقد صلح بين الدولتين واشتملت الهدية على ثمان وعشرين صينية من الذهب؛ فأجاب الخليفة الفاطمى طلب هؤلاء السفراء واشترط للصلح عدة شروط منها:

١- أن يطلق البيزنطيون سراح من عندهم من الأسرى المسلمين.

٢- أن يدعى للخليفة العزيز بجامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة.

٣- أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين مدة سبع سنوات[١] .

لم يكن لهذه الهدنة أثر كبير فى وقف تيار الحرب بين الفاطميين والبيزنطيين لأن سعيد الدولة أبا الفضائل بن حمدان أمير الحمدانيين فى حلب، لما علم بتوغل الفاطميين فى بلاد الشام، استنجد بإمبراطور الروم باسيل الثانى؛ فأمده الإمبراطور بحملة، والتقت القوات المصرية والبيزنطية على ضفاف نهر العاص، ولحقت الهزيمة بالبيزنطيين سنة ٣٨١هـ. وعاد القائد الفاطمى منجوتكين إلى دمشق لنفاد الأقوات، فاستاء العزيز لذلك، وأمره بفتح حلب، وأرسل إليه المؤن، فسار منجوتكين إليها فى العام التالي، وحاصرها حصارًا شديدًا حتى اضطر أميرها إلى الاستنجاد بالإمبراطور البيزنطى مرة ثانية، وكتب إليه يقول: «متى أخذت حلب، أخذت أنطاكية، ومتى أخذت أنطاكية، أخذت قسطنطينية[٢] ».

لما رأى باسيل الثانى الخطر الذى يهدد بلاده من جراء هجوم الفاطميين على حلب، عَوّل على السير إليها بنفسه، فاستولى على حصن شيزر[٣] . ثم فتح حمص، وأخذ يتابع سيره حتى وصل طرابلس. ولما تعذر عليه فتحها عاد إلى القسطنطينية سنة ٣٨٥هـ(٩٩٥م) بعد أن بسط سلطانه على معظم ساحل الشام[٤].

وعندما وقف العزيز على مدى تقدم البيزنطيين فى بلاد الشام، واستقر رأيه على أن يسير بنفسه لصد قواتهم؛ فجهز حملة برية، كما أمر وزيره عيسى بن

---

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة جـ٤، ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٢) أبو المحاسن. النجوم الزاهرة؛ جـ٤، ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٣) يقع على مقربة من معرة النعمان شمال حماه.

(٤) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ص ١٦٦ .

نسطورس بإنشاء أسطول يسير بحراً إلى طرابلس؛ غير أن هذا الأسطول اشتعلت فيه النيران فى ميناء المقس بالقاهرة وأحرقت منه ستة عشر مركبا. وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى نفوس المصريين، فاتهموا الروم بتدبير مؤامرة إحراقه وخاصة أنهم كانوا يقيمون على مقربة من دار الصناعة بالمقس، وحملوا عليهم وقتلوا فريقًا كبيراً منهم؛ وما لبث العزيز أن قضى على الاضطرابات التى حدثت بالقاهرة، بسبب إحراق الأسطول؛ ثم شرع فى جمع الأخشاب وأمر الصناع بالإسراع فى إنجازه[١]. ولما تم بناؤه أبحر إلى أنطرطوس[٢]؛ غير أن معظم سفنه لم تلبث أن تحطمت فى البحر على أثر هبوب عاصفة عليها،وأسر الروم بعض رجال الأسطول المصرى[٣]. أما الحملة البرية، فخرج على رأسها الخليفة العزيز بنفسه إلى بلبيس، لكن المرض اشتد عليه فجأة فتخلف بها وتوفى سنة ٣٨٦ هـ[٤] (٩٩٦م).

ظل البيزنطيون ينتهزون الفرص للنيل من الفاطميين؛ فلما خرج أهل صور على طاعة الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى سنة ٣٨٨هـ بزعامة رجل ملاح يعرف بعلاقة، اتخذ عملة جديدة نقش عليها هذه العبارة: «عزا بعد فاقة للأمير علاقة»، وأعلن استقلال مدينته[٥] ، وأرسل برجوان الذى كان يلى إذ ذاك الوصاية على هذا الخليفة حملة كبيرة بقيادة جيش بن الصمصامة الكتامى إلى صور وكان علاقة الثائر بها قد استنجد بالإمبراطور باسيل الثانى؛ فبعث إليه بالإمدادات فى البحر؛ورأى برجوان من ناحيته أن ينفذ إلى مياه صور بعض سفن الأسطول المصرى. فحوصرت المدينة من البر والبحر، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة انتهى الأمر فيها بسقوط صور فى أيدى القوات الفاطمية وهزيمة البيزنطيين وحليفهم الأمير علاقة الذى أسر وأرسل إلى القاهرة حيث قتل. وواصل جيش ابن الصمصامة الكتامى سيره إلى أفاميه[٦] (Apamea). وهناك التقى بالبيزنطيين. فتغلب عليهم، وأخذ يطاردهم حتى أبواب أنطاكية[٧] .

(١) المقريزى، خطط، جـ٢، ص ١٩٥ - ١٩٦ .
(٢) من أعمال طرابلس بلبنان تقع على ساحل البحر.
(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ص ١٧٨ .
(٤) أبو المحاسن: النجوم لزاهرة، جـ٤، ١٢٢ .
(٥) حتى. تاريخ سورية، ص ٢١٣ .
(٦) مدينة حصينة، وهى كورة من كور حمص.
(٧) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، جـ١، ص ١٨١ - ١٨٤، ابن خلدون . جـ٤ ص ٥٧ .

وعلى الرغم من تتابع انتصارات الفاطميين على البيزنطيين، فإن برجوان عول على مهادنتهم ليتسنى له التفرغ للقضاء على الفتن الداخلية بمصر. فأرسل إلى باسيل يقترح عليه عقد الصلح. فرحب الإمبراطور البيزنطى بهذه الدعوة، وأنفذ سفيراً إلى الخليفة الفاطمى ليتفق معه على شروط الصلح. وبينما كانت المفاوضات تدور بالقاهرة غزا باسيل بلاد الشام لوقف زحف القوات الفاطمية إلى أنطاكية. وكاد مشروع الصلح ينهار لولا الفشل الذى لحق الإمبراطور فى هجومه الجديد، فارتد مسرعا نحو أرمينية وآثر استتباب السلم فى حدود بلاده الجنوبية حتى يتفرغ لمواجهة البلغار.

استؤنفت على أثر ذلك المفاوضات فى القاهرة بين رجال الدولة المصرية والسفير البيزنطى. ولما تم الاتفاق على شروط الصلح، انتدب برجوان أريسطيس بطريرك بيت المقدس لمصاحبة السفير البيزنطى فى سفره إلى القسطنطينية لعرض هذه الشروط على الإمبراطور وإقرارها منه. فقام أريسطيس بهذه المهمة؛ وتم بذلك إبرام معاهدة صداقة بين مصر والدولة البيزنطية تقرر فيها ما يأتى:

١- تظل الهدنة قائمة بين مصر والدولة البيزنطية مدة عشر سنوات.

٢- يتمتع المسيحيون الذين يقيمون فى أنحاء الدولة الفاطمية بالحرية الدينية ويسمح لهم بتجديد كنائسهم وبنائها.

٣- يتعهد الإمبراطور باسيل الثانى بإمداد مصر بما تحتاج إليه من الحبوب.

على أن الإمبراطور البيزنطى سرعان ما قطع علاقته بالدولة الفاطمية حين وصلته أنباء سياسة الحاكم العدائية إزاء النصارى؛ وظل الحال على ذلك إلى أن توفى هذا الخليفة وخلفه ابنه الظاهر؛ فحاولت عمته ست الملك - التى قامت بالوصاية عليه- توطيد العلاقة بين مصر والدولة البيزنطية. وتنفيذاً لهذه الرغبة، أرسلت نيقفور بطريرك بيت المقدس سفيراً إلى باسيل الثانى ليعمل على عقد أواصر الصداقة بين الدولتين، وليخبره بالإجراءات التى اتخذت فى القاهرة لرفع الحيف عن النصارى وتجديد بناء الكنائس. بيد أن هذه السفارات لم تأت بطائل؛ وظلت غارات البيزنطيين تتوالى على شمال الشام حتى سنة ٤١٨هـ (١٠٢٧م) حيث أنفذ الظاهر سفارة إلى الإمبراطور قسطنطين الثامن لعقد الصلح. فتم

الاتفاق بين الفريقين على إبرام معاهدة تضمنت شروطًا التزم تنفيذها كل من الخليفة الفاطمى والإمبراطور البيزنطى؛ وفيما يلى هذه الشروط[١] :

١- أن يُسمح للإمبراطور البيزنطى بإعادة بناء كنيسة القيامة فى بيت المقدس.

٢- أن يسمح لكافة المسيحيين بإعادة بناء الكنائس التى هدمها الحاكم عدا التى حُوِّلت إلى جوامع.

٣- أن يعين الإمبراطور البيزنطى بطريقا فى بيت المقدس.

٤- ألا يقوم الفاطميون بأى عمل عدائى نحو حلب حتى تقوم بسداد الجزية السنوية التى كانت تدفعها للدولة البيزنطية، منذ عام ٩٧٠م.

٥- ألا تمد الدولة الفاطمية يد المساعدة لأى عدو من أعداء الدولة البيزنطية وخاصة أهل صقلية الذين هددوا هذه الدولة وعاثوا فى جزر بحر الأرخبيل، وكان الإمبراطور البيزنطى يخشى انضمام الأسطول الفاطمى إلى هؤلاء، فيتعذر عليه إخضاعهم.

وفى مقابل هذه الشروط، يتعهد الإمبراطور بما يأتى:

١- أن يعمل على ذكر اسم الخليفة الفاطمى فى الخطبة، فى جامع القسطنطينية والمساجد الواقعة داخل حدود الدولة البيزنطية.

٢- أن يعيد بناء جامع القسطنطينية.

٣- أن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين فى قبضة الروم.

٤- ألا يقدم الإمبراطور أية مساعدة لحسان بن مفرج بن الجراح صاحب الرملة الذى خرج على الخليفة الظاهر الفاطمى.

٥- أن يسحب الإمبراطور طلبه الخاص بالاستعاضة عن شيزر بأفامية.

على أن الأمر الذى يسترعى النظر فى هذا الصلح أن الإمبراطور البيزنطى تعهد بإعادة بناء جامع القسطنطينية. وكان البيزنطيون قد أقدموا على هدمه حين بلغهم هدم كنيسة القيامة فى بيت المقدس، ثم أعادوا بناءه فى أيام الظاهر الفاطمى.

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى، ص ٢٧٠ - ٢٧١.
G. Wiet, Hist. de Le Nation Egyptienne (L'Egypte Arabe) P. 222, 223.

لم يلبث البيزنطيون أن نقضوا هذا الصلح سنة ٤٣٣هـ. وانضموا إلى بعض أمراء العرب بالشام الذين كانوا يعادون الفاطميين؛ فساروا مع حسان بن مفرج بن الجراح الطائى صاحب الرملة- وكان قد لجأ إليهم بعد أن هزمه جند الخليفة الظاهر الفاطمى عند طبرية -، وأغاروا على أفامية وغنموا منها مغانم كثيرة واستولوا على قلعتها وأسروا كثيرًا من أهلها[١] .

تحسنت العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين فى أوائل عهد المستنصر بالله، فعقد هذا الخليفة هدنة مع الإمبراطور ميخائيل الرابع سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) وسمح له بإتمام إصلاح كنيسة القيامة على أن يطلق سراح خمسة آلاف أسير مسلم، فأخلى الإمبراطور سبيل الأسرى وأرسل المعماريين إلى بيت المقدس، وأنفق كثيراً من الأموال على تجديد بناء هذه الكنيسة[٢] .

ولما ولى قسطنطين التاسع الحكم حافظ على استمرار العلاقات الودية مع الفاطميين، فبعث إلى المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٣٧ هـ هدية عظيمة «اشتملت على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر، قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية[٣]».

استغل الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية للعمل على إنعاش الحالة الاقتصادية فى دولته؛ فأرسل على أثر المجاعة التى حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ إلى الإمبراطور قسطنطين التاسع يطلب منه أن يمده بأربعمائة ألف أردب من القمح، فأظهر الإمبراطور استعداده لإجابة هذا المطلب؛ لكنه لم يلبث أن توفى وخلفته الإمبراطورة تيودورا، فاشترطت لتقديم هذه المساعدة أن يمدها المستنصر بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها أى معتد؛ غير أن المستنصر رفض الموافقة على هذا الشرط، فأجابته تيودورا على ذلك بأن حالت دون إرسال الغلال إلى مصر.

أثارت سياسة هذه الإمبراطورة غضب الخليفة المستنصر، وعول على محاربتها، فجهز حملة تحت قيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم؛ وما لبث هذا

(١) أبو الفدا. المختصر فى أخبار البشر، جـ٢، ص ١٥٨ .
(٢) أبو الفدا. المختصر فى أخبار البشر، جـ٢، ص ١٦٢ .
(٣) الأبشيهى. المستطرف فى كل فن مستظرف، جـ٢، ص ٥٤ .

القائد أن نزل بالقرب من أفامية ثم تجول فى أعمال أنطاكية[١] ؛ فأنفذت الإمبراطورة حملة بحرية أوقعت به الهزيمة، وأسر هو وكثير من جنده سنة ٤٤٧هـ. وكان ذلك مما حمل المستنصر على أن يعهد للقاضى أبى عبد الله القضاعى بالذهاب إلى القسطنطينية لتسوية الخلاف بين الدولتين؛ فلم تحفل الإمبراطورة بوجوده، على حين رحبت برسول السلطان طغرلبك السلجوقى الذى قدم إذ ذاك من العراق ومعه رسالة من السلطان يلتمس فيها أن يصلى رسوله فى جامع القسطنطينية، فأذنت له بذلك؛ فدخله وصلى فيه صلاة الجمعة وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى. ولا غرو فقد كان السلاجقة فى ذلك الوقت أشد خطرًا على البيزنطيين من الفاطميين الذين اضمحل سلطانهم فى بلاد المغرب وأصبحوا يواجهون فى مصر كثيرًا من الصعاب.

ولما وقف الخليفة المستنصر على سياسة الإمبراطورة العدائية إزاءه والإساءة التى لحقت بسفيره، بعث فى طلب كنوز كنيسة القيامة ونفائسها؛ فأرسلت إليه[٢]؛ وازداد بذلك التوتر فى العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين.

عاد العداء بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية سيرته الأولى؛ وظل الحال على ذلك إلى أن وجه الصليبيون حملاتهم إلى بلاد الشام، وأسسوا بها إمارتى أنطاكية وبيت المقدس؛ وصاروا يشتبكون من وقت لآخر فى معارك حربية مع القوى الإسلامية بتلك البلاد وبخاصة فى عهد نور الدين محمود أمير حلب الذى أمره الخليفة بضم دمشق إليه سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م)[٣] .

ولما أخذت الأخطار تواجه الفرنجة ببيت المقدس من جراء ازدياد نفوذ نور الدين محمود ببلاد الشام وطموحه إلى بسط سلطانه على مصر، بعث أمورى ملك بيت المقدس يستنجد بملوك أوربا لوقف الخطر الذى يهدد الإمارات اللاتينية بالشام، لكنهم شغلوا عنه؛ لذلك لم ير بدًا من الاستعانة بالإمبراطور البيزنطى مانويل الذى رحب بمد يد المعونة إليه واتفق معه على المسير بحرًا إلى مصر؛ وأنفذ

(١) المقريزى، جـ١، ص ٣٢٥.

(٢) Staley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages P. 148.

ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧.

(٣) انظر: ابن الأثير الكامل فى التاريخ، جـ١١، ص ٧٤ - ٧٥.

إليه أسطولا يعاونه حملة من الفرسان والمشاة مزودة بالمؤن والعتاد الحربى[١] . وتوجهت هذه القوات إلى دمياط حيث أحاطت بها برًا وبحرًا فى صفر سنة ٥٦٥[٢] (١١٦٩م). وكان الإمبراطور البيزنطي يرجو أن تحقق هذه الحملة أطماعه فى التوسع. فتصبح مصر من بين الأقطار الداخلة فى دائرة نفوذه.

ولما بلغ صلاح الدين وزير الخليفة الفاطمى العاضد مسير قوات الفرنجة والبيزنطيين إلى دمياط، عول على النهوض لصدها، فأرسل جنده عن طريق النيل، وبعث إلى نور الدين محمود يطلب الإمداد[٣] . فأجاب طلبه، كما حرص الخليفة على مده بالأموال[٤] .

على أن هؤلاء المغيرين على دمياط من الفرنجة والبيزنطيين لم يقدموا على التوغل فى داخل البلاد المصرية، بل اضطروا إلى الرحيل عن هذه المدينة- بعد أن ظلوا يحاصرونها نحو خمسين يوما- والعودة بجيوشهم إلى بلادهم، بسبب ما بلغهم عن شروع نور الدين فى الإغارة على بلاد الإمارات اللاتينية بالشام، فضلا عن وقوع الخلف بين قوادهم؛ وبذلك عجزت الحملة الصليبية التى عاونها البيزنطيون عن تحقيق أطماعها فى مصر[٥] .

(١) حسن حبشى: نور الدين والصليبيون، ١٣٥ .
(٢) المقريزى: خطط، جـ١، ص ٢١٥ .
(٣) ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، جـ١، ص ١٨١.
(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ١١، ص ١٣٢، المقريزى، خطط، جـ١، ص ٢١٥ .
(٥) حسن حبشى. نور الدين والصليبيون، ١٣٨ - ١٣٩.

(ب) الفاطميون والمدن الإيطالية

كانت مدينة أمالفى أولى المدن الإيطالية التى أنشأت علاقات مع مصر والشام في العصر الفاطمى؛ ومن دلائل ذلك أن أحد أثرياء هذه المدينة ويدعى Maurus، استعان بمهرة الصناع والفنانين من الإسكندرية لتزيين بعض قصوره بالفسيفساء، ومما يذكر عنه أنه لما شرع فى بناء دير ببيت المقدس، وكانت إذ ذلك خاضعة للسيادة الفاطمية-، اقتضت الضرورة إجراء محادثات مع الحكومة الفاطمية بمصر فى عهد الخليفة الظاهر سنة ٤١١هـ(١٠٢٠م) على منحه قطعة من الأرض بالحي المسيحى بالمدينة شيد عليها دير Marie de Latina لإيواء الحجاج والتجار من أهل أمالفى(١).

كذلك حرصت مدينة بيزا على توثيق صلة المودة مع الخلفاء الفاطميين، فأرسلت سنة ١١٥٤ م سفيرًا إلى بلاط الخليفة الظافر الفاطمى لتسوية بعض المشاكل الناجمة عن اعتداء بعض التجار من رعاياها فى إحدى السفن على فريق من التجار المصريين بالقتل والسلب، وثأرت الحكومة الفاطمية لرعاياها المصريين بمعاقبة التجار البيازنة المقيمين بمصر. فلما وصل سفير الحكومة البيزية استطاع أن يتفق مع رجال الحكومة الفاطمية على تسوية، تضمنت تعهدًا من حكومة بيزا بالاقتصاص من المعتدين والامتناع عن تقديم أى مساعدة للصليبيين فى الشام ولغيرهم من أعداء مصر، كما تضمنت تعهدًا من الحكومة الفاطمية بإطلاق سراح رعايا مدينة بيزا الذين أودعوا السجن بسبب اعتدائهم على بعض المصريين، وحماية الحجاج والتجار البيازنة الذين يسافرون فى سفن غير حربية.

وبلغ من اهتمام حكومة بيزا بتوطيد علاقاتها برجال الحكومة الفاطمية أنه عندما أسندت الوزارة فى مصر إلى طلائع بن رزيك، سارعت إلى إرسال وفد لتقديم تهنئتها إليه؛ فرحب بقدومهم وأكرم وفادتهم، ووعد بالعمل على حماية رعاياهم .

على أن حكومة بيزا لم تكن مخلصة فى تقربها للفاطميين؛ووضح ذلك حين أخذ أمورى ملك بيت المقدس يهدد الفاطميين فى مصر فأظهرت بيزا استعدادها لمعاونة الصليبيين، ووعدها أمورى بعض الامتيازات فى البلاد المصرية.

(١) Heyd. Hist. du Commerce de Levant au Moyen Age Tame I. P. 102 - 104

ولما اتضح للبيازنة أن الصليبيين لن يتيسر لهم البقاء فى مصر، وأنهم فى سبيل الاتفاق مع الحكومة الفاطمية للجلاء عن البلاد، سارعت حكومة بيزا إلى الوساطة بين الطرفين، وأفادها هذا العمل، إذ منحها الخليفة العاضد الفاطمى امتيازات تجارية، لكنها لم تلبث أن عادت إلى إيثار مصالحها الخاصة، فاشتركت مع الصليبيين سنة ١١٧٠م فى الهجوم على ثغر دمياط رغم الامتيازات التى منحتها لها الحكومة الفاطمية[١] .

وكانت مدينة جنوة تحرص أيضًا على التودد إلى الفاطميين. وقد نمت العلاقات بينهما وبين مصر فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى؛ فعقد مندوب عنها معاهدة تجارية مع الحكومة الفاطمية عام ١٠٦٣م، كما وافق بعض الخلفاء فى أواخر العصر الفاطمى على حماية رعايا هذه المدينة أثناء إقامتهم بأراضى الدولة الفاطمية[٢] . وكان كثير من تجار جنوة يتوافدون إلى الإسكندرية لاستيراد بعض السلع ومن بينها الشب والنطرون التى احتكرت الحكومة الفاطمية تجارته، واحتفظت لنفسها بحق بيعه للروم[٣] .

ولم يكن اهتمام البندقية بإقامة علاقات ودية مع الفاطميين فى مصر والشام أقل من غيرها من المدن الإيطالية. ففى القرن العاشر الميلادى كانت تنقل إلي العرب الخشب اللازم لبناء السفن. ولما تعرضت لتهديدات الإمبراطور البيزنطى حنا زيمسكيس (John Zimisces) بالانتقام منها إذا لم تمتنع عن مد مصر وغيرها من البلاد الإسلامية بالخشب الذى يصلح لعمارة السفن، أصدرت أمرًا بمنع تصدير هذا النوع من الخشب وسمحت بإمدادها بالخشب الذى لا يصلح لبناء السفن[٤]. وكان لهذا القرار أثر سيئ فى مصر، فقد ترتب عليه أن ندر وجود السفن فى مصر حتى إنه لما أراد الوزير عيسى بن نسطورس أن ينشئ أسطولا يقوم مقام الأسطول الذى كان معدًا لوقف البيزنطيين بالشام واحترق، أمرت الحكومة الفاطمية بقطع الأخشاب من مختلف جهات القطر[٥] .

(١) Heyd Hist. du Commerce de Levant au Age Tome I. pp, 392 - 396.

(٢) Stanléy Lane. Poole A History of Egypt in the Middle Ages P. 182.

(٣) Heyd. Hist. du Commerce de Levant au Mayen Age Tome1, p. 391.

(٤) المقريزى. خطط، ١، ص ١٠٩ .

(٥) متز. الحضارة الإسلامية، جـ٢، ص ٣٦٤.

على أن حكومة البندقية رأت ألا تضحى بمصالحها الخاصة فى سبيل إرضاء أباطرة الدولة البيزنطية، فأرسلت بعثات إلى مصر حصلت على امتيازات لسفنها(١)، كما أن تجارها عملوا على تنمية العلاقات التجارية مع المسلمين، وصارت سفنهم تنقل من موانى مصر منتجات آسيا إلى أسواق أوربا.

(١) تاريخ يحى بن سعيد الأنطاكى، ص ١٧٨ .

Heyd. Hist. du Commerce de Levant au Moyen Age Tome I,P. 114.

مصادر القسم الثانى

١- **ابن الأثير**: (ت ٦٣٠ هـ، ١٢٣٨م) على بن أحـمد بن أبى الكرم المعـروف بابن الأثير الجزرى.

(أ) «الكامل فى التاريخ». (١٢ جزءًا)

(ب) «تاريخ دول الأتابكة».

٢- **أحمد أمين**.

«ظهر الإسلام» (الجزء الأول - القاهرة ١٩٤٥)

٣- **الأدفوى**: (ت ٧٤٨هـ) كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر بن على الأدفوى الشافعى.

«الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد».

٤- **أرنولد: سير توماس** Arnold : Sir Thomes. W.

The Caliphate (Oxford, 1924)

٥- **أمارى: ميشيل** - Amari; Michel

مكتبة صقلية العربية (جزءان)

Biblioteca Arabo - Sicula. 2. Vols.

٦- **أوليرى دى ليسى**: O'Leary, (De Lacy)

.A Short History of the Fatimid Khalifate.

٧- **إيفانو**: Evanow

The Rise of the Fatimids.

٨- **بامخرمة**: أبو محمد عبد الله بن أحمد الطيب بامخرمة.

«المختار فى تاريخ ثغر عدن» صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

٩- **البغدادى**: (ت ٤٢٩ هـ، ١٠٣٧م) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر.

«الفرق بين الفرق» (القاهرة ١٣٢٨هـ، ١٩١٠م).

١٠- **البكرى:** (ت ٤٨٧هـ، ١٠٦٤م) أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكرى.

«المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب»

١١- **البندارى:**(توفى فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى)

الفتح بن على بن محمد البندارى الأصفاهانى.

«تاريخ دولة آل سلجوق» (القاهرة ١٣١٨هـ، ١٩٠٠م)

١٢- **البهاء الجندى:** (ت ٧٣٢هـ، ١٣٣١م) أبو عبد الله بهاء الدين بن يوسف ابن يعقوب الجندى.

«أخبار القرامطة باليمن» المنقول من كتاب السلوك فى طبقات الموالى والملوك.

١٣- **ابن الجوزى** (ت٥٩٧هـ) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن على بن محمد.

«المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم»

١٤- **حتى: فيليب** - Hitti Philip

(أ) History of the Arabs.

(ب) History of Syria.

١٥- **حسن إبراهيم حسن**

(أ) «الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص»

(القاهرة - ١٩٣٢م)

(ب) «تاريخ الدولة الفاطمية» (القاهرة - ١٩٥٩م)

(جـ) «تاريخ الإسلام السياسى» (الجزء الثالث - القاهرة - ١٩٤٦م).

١٦- **حسن إبراهيم حسن وطه شرف.**

(أ) «عبيد الله المهدى إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب»

(القاهرة - ١٩٤٧م)

(ب) «المعز لدين الله إمام الشيعة الإسمـاعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى مصر»

(القاهرة - ١٩٤٨م)

١٧- **حسن حبشى:**

(أ) «الحرب الصليبية الأولى» (القاهرة - ١٩٤٧م)

(ب) «نور الدين والصليبيون» (القاهرة - ١٩٤٨م)

١٨ - **ابن حزم** (ت ٤٥٦هـ، ١٠٦٤م) أبو محـمد على بن أحمد بن سـعيد بن حزم بن غالب بن صالح الأندلسى الظاهرى.

«جمهرة أنساب العرب».

(تحقيق وتعليق أ. ليفى. پروفنسال - القاهرة ١٩٤٨م).

١٩- **الحمادى اليمانى**: محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى

(من فقهاء السنة فى أواسط القرن الخامس الهجرى)

«كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة»

٢٠- **الخطيب البغدادى**: (ت ٤٦٣هـ) الحافظ أبو بكر أحمد بن على .

«تاريخ بغداد أو مدينة السلام» (١٤ جزءًا)

٢١- **ابن خلدون** : (ت ٨٠٨ هـ، ١٤٠٥ - ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد

«العبر وديوان المبتدأ والخبر» (٧ أجزاء - بولاق ١٢٨٤هـ)

٢٢- **ابن خلكان**: (ت ٦٨١هـ، ١٢٧١م) شمس الدين أبـو العباس أحـمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى

«وفيات الأعيان» (جزءان - بولاق - ١٢٨٣ هـ)

٢٣- **دحلان**: (ت ١٣٠٤هـ) أحمد زينى دحلان المكى.

«خلاصة الكلام فى أمراء البيت الحرام»

٢٤- **الديبع الشيبانى**: (ت ٩٤٤هـ) الفقيه وجيـه الدين عبد الرحمن بن على ابن محمد الشيبانى الشافعى المشهور بالديبع الزبيدى.

«قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون» (صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة).

٢٥- **دى غويه**: De Goeje M.C.

Memoire sur Les Carmathes du Bahraiu et Les Fatimides. (Leyden 1886)

٢٦- **سبط بن الجوزى** (ت ٦٥٤هـ، ١٢٥٧م) شمس الدين أبو المظفر يوسف ابن قزأوغلى.

« مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان»

(صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٥٥١ تاريخ)

٢٧- **ابن سعيد**: (ت ٦٧٣هـ، ١٢٧٥م) على بن موسى المغربى.

«المغرب فى حلى المغرب، والمشرق فى حلى المشرق».

٢٨- **السلاوى**: أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى.

«الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»

(٤ أجزاء - القاهرة ١٣١٠ - ١٣١٢هـ).

٢٩- **السيد عبد العزيز سالم**:

«المغرب الكبير» (العصر الإسلامى). (القاهرة ١٩٦٦م).

٣٠- **سيدة إسماعيل كاشف**:

«مصر فى عصر الإخشيديين» (القاهرة ١٩٥٠م).

٣١- **السيوطى**: (ت ٩١١هـ، ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين.

«تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة».

٣٢- **طه شرف**:

«دولة النزارية أجداد أغاخان» (القاهرة - ١٣٦٩هـ، ١٩٥٠م).

٣٣- **عبد العزيز الدورى**:

«دراسات فى العصور العباسية المتأخرة» (بغداد - ١٩٤٥م).

٣٤- **عبد القادر الأنصارى**: الشيخ زين الدين عبد القادر بن البدرى محمد بن إبراهيم الأنصارى من علماء القرن العاشر الهجرى.

«درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة»

(مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة)

٣٥- **ابن العديم الحلبى** (ت ٦٦٠هـ، ١٢٦١ - ١٢٦٢م) كمـــال الدين أبو حفص أو أبو القاسم عمر بن أحمد هبة الله.

«زبدة الحلب فى تاريخ حلب».

٣٦- **العرشى**: القاضى حسين بن أحمد العرشى الزيدى (من علماء القرن الرابع عشر الهجرى)

«بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام».

(نشر الأب أنستاس مارى الكرملى).

٣٧- **عمارة اليمنى** (ت ٥٩٦هـ، ١١٧٤م) أبو محـمد عمـارة بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد الحكمى اليمنى الملقب بنجم الدين.

(أ) «تاريخ اليمن» (نشر Henri Cassels Kay).

"Yaman, Its Early Mediaeval History".

(ب) «النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية».

(نشر Hartwig Derenbourg . باريس ١٨٩٧م).

٣٨- **ابن العميد** : (ت ٦٧٢هـ، ١٢٧٣م) الشيخ المكين جرجس بن العميد

«تاريخ المسلمين» (ليدن - ١٦٢٥م).

٣٩- **أبو الفدا**: (ت ٧٣٢ هـ، ١٣٣١م) إسماعيل بن علـى عماد الدين صاحب حماه.

«المختصر فى أخبار البشر».

٤٠- **فييت : جاستون فييت** Wiet, G.

(أ) Histoire de La Nation Egyptienne Vol IV. (L'Egypte Arabe).

(ب) Précis de L'histoire d'Egypte T. II. (L'Egypte Musulmane).

٤١- **ابن القلانسى**: (ت ٥٥٥ هـ، ١١٦٠ م) أبو على حمزة .
«ذيل تاريخ دمشق»
٤٢- **القلقشندى**: (ت ٨٢١ هـ، ١٤١٨م) أبو العباس أحمد
«صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» (١٤ جزءاً).
٤٢- **الكندى**: (ت ٣٥٠هـ، ٩٦١م) أبو عمر محمد بن يوسف
«كتاب الولاة وكتاب القضاة» (ليدن - ١٩٠٨م).
٤٣- **لامانس** : Lammens: Père Henri
La Syria, Précis Historique, Tome 1.
٤٤- **لينبول: ستانلى** .Lane . Poole: Stanley
(أ) Ahistory of Egypt in the Millde Ages.
(ب) The Muhammadan Dynasties.
٤٥- **ابن المؤيد اليمنى**: (يحيى بن الحسين)
«أنباء الزمن فى تاريخ اليـمن» (صور شمسية بدار الكـتب المصرية بالقاهرة. رقم ١٣٤٧).
٤٦- **متز : آدم** Mez. Adam
Die Renaissance des Islams.
نقله إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة بعنوان:
«الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى» (جزءان - القاهرة ١٩٤٠ - ١٩٤١).
٤٧- **ابن المجاور**: (٦٩٠هـ) جـمال الدين أبو الفـتح يوسف بن يعقـوب ابن محمد المعروف بابن المجاور الشيبانى الدمشقى.
«تاريخ ابن المجـاور» (صور شـمسـية بدار الكـتب المصرية بالقـاهرة. رقم ٥٣٤٢).

٤٨- **أبو المحاسن**: (ت ٨٧٤ هـ ١٣٥٤م) جمال الدين يوسف بن تغربردى
«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» (نشر دار الكتب المصرية بالقاهرة).

٤٩- **محمد جمال الدين سرور**.
(أ) «النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب» (الطبعة الرابعة - القاهرة ١٩٦٤).
(ب) «النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق» (الطبعة الثالثة - القاهرة ١٩٦٤).

٥٠- **مسكويه**: (ت ٤٢١ هـ، ١٠٣٠م) أبو على أحمد بن محمد
«كتاب تجارب الأمم»

٥١- **المقدسى**: (ت ٣٨٨ هـ، ٩٩٧م) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن أبى بكر المقدسى المعروف بالبشارى.
«أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» (المكتبة الجغرافية العربية - المجلد الثالث - طبعة دى غويه ليدن ١٩٠٦م).

٥٢- **المقريزى**: (٨٤٥ هـ، ١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على.
(أ) «السلوك لمعرفة دول الملوك» (نشر الدكتور زيادة).
(ب) «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» (طبعة بولاق ١٢٧٠هـ).
(جـ) «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا» (نشر الدكتور جمال الدين الشال. القاهرة ١٩٤٨).

٥٣- **ابن ميسر** : (ت ٦٧٧هـ، ١٣٧٨م) محمد بن على بن يوسف بن جلب
«تاريخ مصر» (طبعة هنرى ماسيه Heuri Masaé القاهرة ١٩١٩م).

٥٤- **النعمان**: (٣٦٣، ٩٧٣م): أبو حنيفة المغربى.
«المجالس والمسايرات» (٣ أجزاء - مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة)

٥٥- **النويرى**: (ت ٧٣٢ هـ، ٩٧٣م): شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب.
«نهاية الأرب فى فنون الأدب» (صور شمسية بدار الكتب المصرية بالقاهرة. رقم ٥٤٩).

٥٦- **هبة الله الشيرازى؛** (ت ٤٧٠هـ، ١٠٧٧م) المؤيد فى الدين هبة الله .
«سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة»
(نشر الدكتور محمد كامل حسين- القاهرة ١٩٤٩م).

٥٧- **الهمدانى**: حسين - Al - Hamdani, (Husain)
Letters of Al - Mustansir Billah.
(Billetin of the School of Oriental Studies, Vol VII Part 2. 1934)

٥٨- **هيد**: Heyd, W.
Histoire de Commerce du Levant au Moyen Age (2 vols- Leipzig, 1923).

٥٩- **ابن واصل**: (ت ٦٩٧هـ، ١٢٩٧ - ١٢٩٨م) جمال الدين محمد بن واصل.
«مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب».
(نشر جمال الدين الشيال - ١٩٥٣، ١٩٥٧م).

٦٠- **ابن الوردى**: (ت ٧٥٠ هـ، ١٣٤٩م)
«تتمة المختصر فى أخبار البشر» (القاهرة - ١٢٨٥هـ، ١٨٦٨م).

٦١- **ياقوت**: (ت ٦٢٦ هـ، ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى.
«معجم البلدان» (١٠ أجزاء - القاهرة ١٩٠٦م).

٦٢- **يحى بن سعيد الأنطاكى**: (ت ٤٥٨ هـ، ١٠٦٦م).
صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» (جزءان - بيروت ١٩٠٩م).

٦٣- **اليمانى**: محمد بن محمد.
«سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدى من سلمية ووصوله إلى سجلماسة» (نشر إيفانو. مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة - ديسمبر ١٩٣٦).

٦٤- **السجلات المستنصرية.**
«سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى دعاة اليمن وغيرهم».
(نشر وتحقيق دكتور عبد المنعم ماجد سنة ١٩٥٤).

٦٥- **مجموعة الوثائق الفاطمية.**
(جمعها وحققها دكتور جمال الدين الشيال- القاهرة ١٩٥٨م).

٦٦- **Encyclopaedia of Islam.**

٦٧- **Encyclopaedia of Religionand Ethics.**

٦٨- **تاريخ كامبردج العصور الوسطى**
Cambridge Mediaeval History Vol IV.

ا- فهرس الأعلام

* تنبيه : اعتمدنا في ترتيب الأسماء على أول الاسم دون المبالاة بأداة التعريف وبلفظي الأب والابن مثال ذلك: (ابن باديس) فقد ذكرناه في حرف الباء، و(ابن جفتم) تجده في حرف الجيم، و(أبو القاسم) في حرف القاف، وكل اسم ورد بعد رقم يليه الحرف (هـ) فهو من أسماء الأعلام الواردة في الهوامش.

(غ)

(ف)

(ق)

فهرس الأمم والقبائل والعشائر والطوائف

(ن)

(هـ)

فهرس البلاد والمدن والمواضع والجبال والأنهار

(تـ)

(هـ)

(و)

(ى)